القراءة الراشدة

لتعليم اللغة العربية في المدارس الإسلامية

• الموضوع: لغة عربية
• العنوان: القراءة الراشدة
• تأليف: الشيخ أبي الحسن الندوي

الطَّبعَةُ السَّابِعَةُ
١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م
ISBN 978-9953-520-60-5

• الطباعة: مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
• الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
• القياس: 15×22 / عدد الصفحات: 448 / الوزن: 800 غ

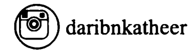
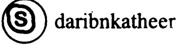
ISBN 978-9953-520-60-5
9 789953 520605



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2929707 11 926+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

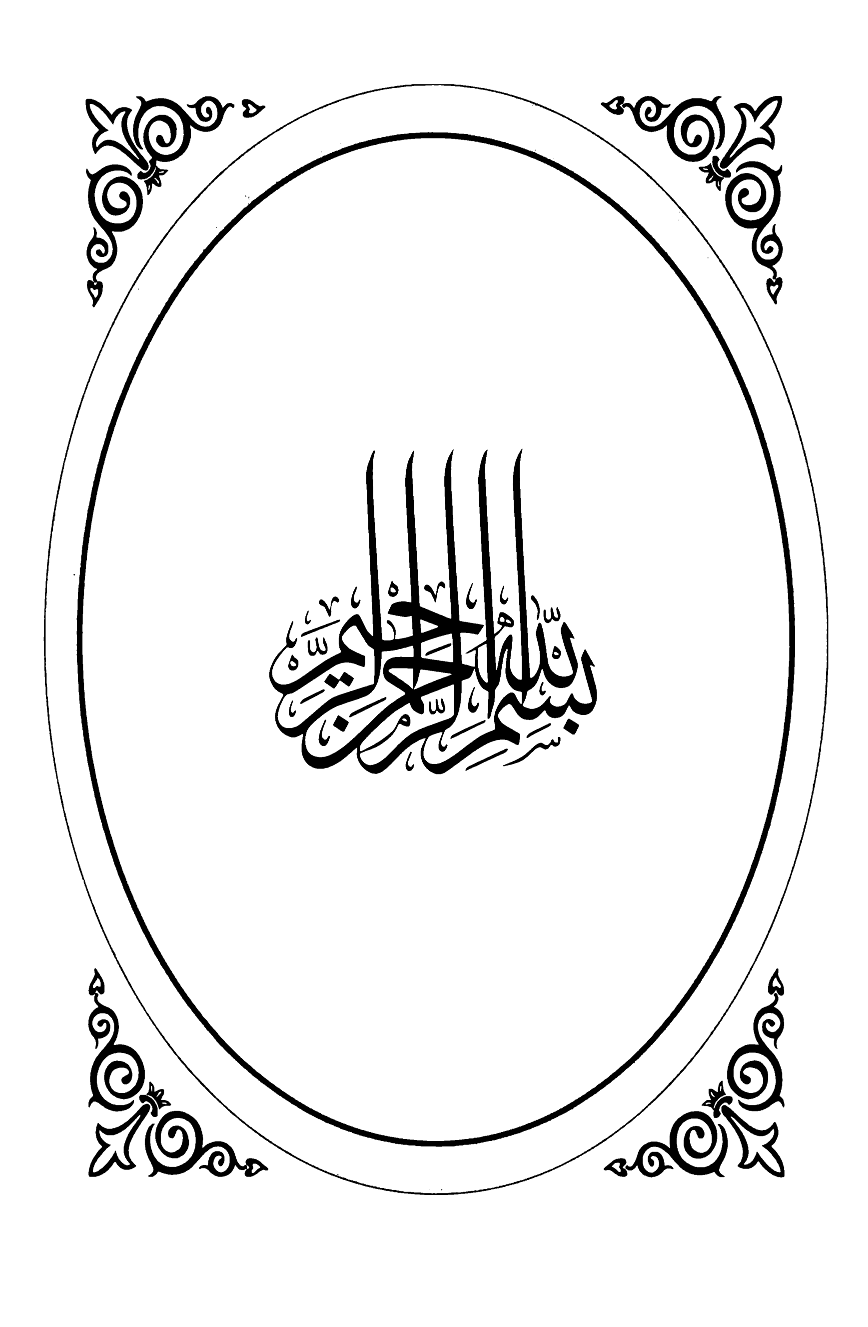
القراءة الراشدة

لتعليم اللغة العربية في المدارس الإسلامية

للداعية الحكيم، المفكر الإسلامي الكبير

العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي




بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده؛ وبعد:

فلا يخفىٰ علىٰ من يعرف العلامة الشيخ السيد أبا الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله ما قام به من أعمالٍ جليلةٍ، وجهود عظيمةٍ لخدمة الأدب العربي والإسلامي، والَّتي توَّجها ـ حفظه الله ـ أخيراً بتأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالية، والَّتي لا تزال تنمو وتزهر في ظل رعايته، وذٰلك إلىٰ جانب مصنفاته القيمة الَّتي أثرت المكتبة الإسلامية.

وقد اعتنىٰ العلَّامة الندوي بالكتابة للأطفال والناشئين، بوصفهم رجال الغد، وصنَّاع مستقبل الأمم، فكتب مجموعةً من الكتب منها «قصص النبيين للأطفال» و«قصص من التاريخ الإسلامي» في لغةٍ سهلةٍ، وأسلوبٍ عذبٍ سلسل مشوِّق مضمِّناً إياها من المعاني والقيم، والدروس والعبر، ومن المبادئ

والمُثُل حتىٰ قال أحد كبار علماء الهند الشيخ عبد الماجد الدريابادي: «إنها علم توحيد جديد للأطفال».

ولعل هذا الكتاب الَّذي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ من أهم حلقات تلك السلسلة الذهبية في أدب الأطفال، إذ بدأ العلامة بتأليفه ـ كما يذكر في مقدمة هٰذا الكتاب ـ حين شعر بمسيس الحاجة إلىٰ كتاب يؤلَّف للناشئة المسلمة للتدريس في المعاهد والمدارس، يحتوي علىٰ مواد اللغة والأدب المتنوعة بأسلوب متدرج ملائم، ولغةٍ أدبية دينية عليها مسحة من جمال أدب الكتاب والسنة، ويكون استعمال كلماته المستحدثة الّتي لها أصل عربي واشتقاق صحيح لموضوعات عصرية، وتتكرر فيه المفردات العربية ليتمرَّن عليها الطالب، وتتنوع موضوعاته ومواده لينشط الطالب ويحصل منها فضلاً عن الفائدة العلمية إلى حكاية تاريخية ممتعة شيقة، ومن نثر إلىٰ شعرٍ أو نشيدٍ.

فبدأ العلامة بتأليفه سنة (١٩٤٤م)، وفرغ منه سنة (١٩٤٦م)، مراعياً خلال التأليف ـ غير جميع ما ذكرناه ـ ألا تخلو موضوعاته ـ قدر المستطاع ـ من موعظةٍ دينيةٍ وموضعِ عبرةٍ، وأن يستنتج منها الطالب فائدة خلقية ودينية، وأدباً إسلامياً بحيث لا يشعر بأنها تلقىٰ عليه إلقاءً، بل يحفظها عفواً في ثنايا الدروس والحكايات.

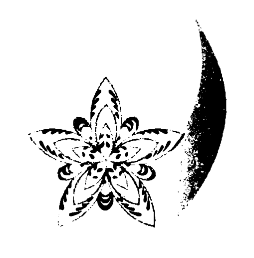
وقد طبع هٰذا الكتاب سنة (١٩٤٧م)، ونالَ منذ يومه الأول قبولاً حسناً ورواجاً عاماً، وقرر في كثير من المدارس الشرعية والمعاهد العصرية الرسمية في الهند وخارجها في البلاد الإسلامية.

وقد شعرت خلال قراءتي ومراجعتي لهذا الكتاب بالحاجة إلىٰ شرح بعض الألفاظ وأسماء بعض البلدان الهندية وغيرها من البلاد الأخرىٰ التي يصعب علىٰ الطالب فهمها، فشرحت وعلقت ما وسعني فيه الجهد، وعلىٰ الله قصد السبيل.

٣/ جمادىٰ الأولىٰ ١٤٢٠هـ تلميذ المؤلِّف

عبد الماجد الغوري





التعريف بمؤلِّف الكتاب

اسمه ونسبه:

علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني، ينتهي نسبه إلىٰ عبد الله الأشتر بن محمّد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن (المثنىٰ) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁، أول من استَوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧هـ).

أبوه العلّامة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني الذي استحق بجدارة لقب: «ابن خلكان الهند» لمؤلفه القيم «نزهة الخواطر» في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم، طُبع أخيراً باسم «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام».

أمّه رحمها الله كانت من السيِّدات الفاضلات، المربِّيات النادرات، المؤلِّفات المعدودات، والحافظات للقرآن الكريم،

تقرض الشعر، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ.

ميلاده ونشأته:

أبصر النور في (٦ محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م) بقرية «تكية كلان» الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش).

بَدَأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت، ثم دَخَلَ في الكتَّاب حيث تعلّم مبادئ اللغتين (الأردوية والفارسية).

توفي أبوه عام (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة، فتولَّتْ تربيته أمّه الفاضلة، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرُّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلَّامة الندوي.

بدأ دراسته العربية علىٰ الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام (١٩٢٤م)، وتخرَّج عليه مستفيداً في الأدب العربي، ثمَّ توسَّع فيه وتخصَّص علىٰ الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلىٰ ندوة العلماء عام (١٩٣٠م).

التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام (١٩٢٧م)، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربع عشر عاماً، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً، ونال منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمة في اللغة العربية والأردوية، ممَّا أعانه علىٰ القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية، وتَعَلَّم الإنجليزية مما مكَّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر.

التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام (١٩٢٩م) وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي علىٰ العلَّامة المحدِّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم علىٰ العلَّامة المفسر المشهور أحمد علي اللَّاهوري في لاهور عام (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م)، وحَضَرَ دروس العلَّامة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً.

جهوده العلمية ونشاطاته الدعويَّة:

انخرَطَ في سلك التدريس من عام (١٩٣٤م)، وعُيِّن

أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب، وخلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلَّات العربية الصادرة في البلاد العربية، ممَّا عرفه علىٰ البلاد العربية وأحوالها، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين.

قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام (١٩٣٩م)، تَعَرَّفَ فيها علىٰ الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته، وبَقِيَ علىٰ الصلة حتىٰ وافاهما الأجل المحتوم، وتَلَقَّىٰ التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته، وتَأَسَّىٰ بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدَّعوة وإصلاح المجتمع، وقَضَىٰ زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها.

أسَّس مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام (١٩٤٣م)، وأسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام (١٩٥١م)،

والمجمع الإسلامي العملي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام (١٩٥٩م).

عُيِّن أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام (١٩٦١م)، (ولا زال يترأس أمانتها إلىٰ يوم وفاته).

شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام (١٩٦٠م)، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام (١٩٦٤م، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام (١٩٧٢).

أهمّ مؤلفاته:

نُشِرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة «المنار» للعلّامة السيِّد رشيد رضا المصري عام (١٩٣١م) حول شخصية الإمام السيِّد أحمد بن عرفان الشهيد، وكان عمره ـ آنذاك ـ أربعة عشر عاماً.

ظَهَرَ له أوَّل كتاب بالأردوية عام (١٩٣٧م) يحمل اسمه «سيرة أحمد شهيد» ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان.

بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية، وظَهَرَ أوَّل كتاب فيها بعنوان «مختارات من أدب العرب» عام (١٩٤٠م)، و«قصص النبيين» للأطفال و«القراءة الراشدة» عام (١٩٤٤م). وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية.

أَلَّفَ كتابه المشهور «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عام (١٩٤٤م).

دُعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام (١٩٥٦م)، وألْقىٰ محاضرات بعنوان «التجديد والمجدِّدون في تاريخ الفكر الإسلامي» نُشِرَتْ بعد ذٰلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».

أَلَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان «القادياني والقاديانية» عام (١٩٥٨م)، وكتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية» عام (١٩٦٥م)، وكتابه «الأركان الأربعة» عام (١٩٦٧م)، و«السيرة النبوية» عام (١٩٧٦م)، و«العقيدة والعبادة والسلوك» عام (١٩٨٠م)، و«المرتضىٰ» في سيرة أمير المؤمنين علي بين أبي طالب عام (١٩٨٨م).

شارك في تحرير مجلة «الضياء» العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام (١٩٣٢م)، ومجلّة «الندوة» الأردوية الصادرة منها أيضاً عام (١٩٤٠م)، وأَصْدَرَ مجلّة باسم «تعمير حيات» في الأردوية عام (١٩٤٨م)، وكَتَبَ مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمهات المجلّات العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ: «الرِّسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات، و«الفتح»

للأستاذ محب الدين الخطيب، و«حضارة الإسلام» للدكتور مصطفىٰ السباعي.

أَشْرَفَ علىٰ إصدار جريدة «نداي ملّت» الأردوية عام (١٩٦٢م)، وكذٰلك أشرف علىٰ مجلّة «البعث الإسلامي» العربية الصادرة منذ عام (١٩٥٥م)، وجريدة «الرائد» العربية الصادرة منذ عام (١٩٥٩م)، ومجلّة «تعمير حيات» الأردوية الصادرة منذ عام (١٩٦٣م)، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ، (الهند).

رحلاته:

سَافَرَ إلىٰ الشرق والغرب مرات داعيةً إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، عاملاً علىٰ إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كل مجال، جَوَّاباً للآفاق في سبيل الله، محاضراً، ومحدثاً، ومحاوراً، واعظاً وهادياً، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية، والمؤتمرات والندوات فيهما[١].

---

(١) انظر للاطلاع علىٰ جميع هذه الرحلات كتاب الشارح «رحلات العلامة أبي الحسن علي الندوي، مشاهداته ـ محاضراته ـ لقاءاته ـ انطباعاته» صدر عن دار ابن كثير، دمشق عام ٢٠٠٠م.

تقدير وتكريم:

انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها.

اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلىٰ للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام (١٩٦٢م).

اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام (١٩٧١م).

اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام (١٩٨٠م)، لتأليفه القيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام (١٩٨١م).

اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام (١٩٨٣م).

اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمَّان (الأردن).

اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام (١٩٨٤م).

أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام (١٩٩٩م) في إستانبول «تركيا».

اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام (١٤١٩هـ) لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية، وقَدَّمَ إليه الجَائِزَةَ ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم.

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع:

تولَّىٰ العلّامة الرئاسةَ والعضويةَ لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه، ومنها علىٰ سبيل المثال:

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (الَّتي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها، وتَفَوَّقَتْ علىٰ معظم جامعات العالم الَّتي تَهْتَمّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية؛ لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع).

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض).

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند).

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا).

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند.

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش).

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

عضو المجلس التأسيسي الأعلىٰ العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية الأردني.

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن.

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط.

عضو المجلس الاستشاري الأعلىٰ للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

عضو المجلس الاستشاري الأعلىٰ للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان).



عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند).

وعدا ذٰلك تولَّىٰ العلَّامةُ الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه.

توفي ـ العلَّامة ـ في (٢٢) من شهر رمضان المبارك (١٤٢٠هـ/ الموافق ٢١ من شهر ديسمبر ١٩٩٩م) في الهند عقب نوبة قلبية مفاجأة، فدفن في مسقط رأسه «تكية كلان»، رَحِمَهُ اللهُ وتغمَّده في وسيع جناته[1].



(١) انظر كتاب «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» للشارح، للاطلاع علىٰ حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية، ومآثره القيمة في مجال الأدب، وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية، وتعريف بأهمّ مؤلّفاته، صَدَرَ عن (دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م).



كلمة عن الكتاب
بقلم العلامة المؤلف رحمه الله

الحمد لله وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ.

أما بعد: فإن الهند منذ فتحها الإسلام لا تزال تدين بتدريس اللغة العربية، وتعتقد أنها لغة الإسلام، ومفتاح كنوز الكتاب والسنة، ونبغ فيها أدباء ومؤلفون في اللغة العربية يتجمل تاريخ الإسلام بذكرهم، وتزدان بمؤلفاتهم مكتبة الإسلام العامرة.

انقرضت من الهند دولة المسلمين ولم يطو بساط المدارس الإسلامية، فلا تزال مصابيحها تضيء بين عواصف ورياح هوجاء، وهي الآن تعد بالآلاف، والمتعلمون فيها يربو عددهم علىٰ إحصاء بعض البلاد الإسلامية.

ولم يزل للهند منهاج خاص في العلوم العقلية والرياضية والعلوم الآلية، من وضع علماء الهند، أو من اختيارهم، نال

قبولاً في الأقطار الإسلامية البعيدة، فكانت مؤلفاتهم وشروحهم تدرس، ويتمجد العلماء بتدريسها والاقتدار علىٰ شرحها، ويتظرف الطلبة بدرسها وفهمها حتىٰ كان منهاج الدرس النظامي من اختيار العلامة نظام الدين اللكهنوي (م١١٦١هـ) ومن وضع نجباء تلاميذه وتلاميذهم، فكان له دوي في العالم الإسلامي، ونفوذ عجيب في الأوساط العلمية.

بجانب هـٰذه الثروة العلمية الضخمة والغنىٰ الوافر في ناحية علوم الحكمة ـ كما يسميها القوم ـ ترىٰ عوزاً شائناً وتفريطاً عظيماً في ناحية اللغة العربية، فإذا أسقطنا من منهاج الدرس قسط الشعر وصرفنا النظر عن كتاب الحماسة والمعلقات السبع وديوان المتنبي ـ فإن كل ذٰلك لا يعلِّم اللغة ولا يمرِّن علىٰ الكتابة والخطابة، بل يروض الفكر ويفتح القريحة ويبعث الذوق ـ لم نجد في منهاج درسا القديم ما يتعلم به الطالب اللغة ويتعرف بها غير مقامات الحريري، والمقامات ـ كما يعرف القارئ ـ مثال للنثر الفني والأدب الصناعي، وإذا شئت قلت مثال لفن البيان والبديع لا للنثر العربي الطبعي السلسال، ولا يمكن أن يتعلم بها الطالب مبادئ اللغة العربية، ويتدرب علىٰ الكتابة والخطابة ويقضي حاجة في نفسه، ومن

علىٰ مادة في تاريخ البلاد التي ألفت فيها، وتراجم رجالها البلديين، وجغرافية تلك البلاد، إن أبناء هذه البلاد في غنىٰ عن معرفتها فضلاً عن حفظها، وإن أبناء الهند وغيرها من الأقطار الإسلامية في حاجة إلىٰ معرفة المهم والممتع من جنسها مما يخص بلادهم، أو مما يعم المسلمين جميعاً.

فترىٰ مثلاً في الجزء الأول من القراءة الرشيدة التي وضعتها وزارة المعارف العمومية في مصر، والتي تدرس في بعض المدارس العربية في الهند، درساً عن جزيرة الروضة في القاهرة، ونشيداً عن مصر العزيزة، ودرساً عن عيد وفاء النيل، وفي الجزء الثاني حواراً بين مصر والإسكندرية، ودرساً عن الأهرام والقناطر الخيرية، وعن محمد علي باشا، وقس علىٰ ذٰلك بقية الأجزاء، وقس عليها السلاسل الأخرىٰ.

ماذا يهم الطالب الهندي أو الباكستاني أو الحجازي أو الأفغاني، من معرفة هذه الموضوعات المصرية، ولماذا يحفظ نشيد الفخر المصري ويتغنىٰ:

مصر العزيزة لي وطن وهي الحمىٰ وهي السكن

وهي الفريدة في الزمن وجميع ما فيها حسن

ولماذا يعترف وهو في مرحلة التعليم الأولي بعظيم مصر محمد علي باشا، وهو أحق بمعرفة من هو أعظم من خديوي

مصر وأهم في التاريخ الإسلامي، كذٰلك يعز علىٰ الطالب الصغير الذي لم ينشأ في مصر أن يفهم الدروس الخاصة بمصر، لبعده عن الديار المصرية، وجهله للعوائد والتقاليد المصرية كما ترىٰ في درس عيد وفاء النيل.

أفلا يحسن بنا أن نبدل منها دروساً في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام، وعن رجال الإسلام وأئمته، وإذا كان لا بد من موضوعات بلدية ـ وإنها لا شك منشِّطة لذهن الطالب الصغير ـ فلماذا لا نضع دروساً عن الأمكنة والآثار والأبنية الوطنية التي شادها المسلمون في البلاد، وعن أعياد ومواسم إسلامية، فإذا كان ذٰلك في الهند أو باكستان مثلاً، نضع للطالب درساً خاصاً ببلاده أو عاماً للمسلمين، كدروس عن آثار الملوك الإسلاميين في هذه البلاد أو في العالم الإسلامي.

وكذٰلك في الرجال هو أحق بمعرفة فاتحي الهند والغزاة المنتصرين والملوك الصالحين، ورجال العلم والدين الذين أنجبتهم أرض الهند.

زد علىٰ ذٰلك كله أن هذه الكتب المؤلفة في البلاد العربية عارية عن الروح الديني لمصالح تعليمية وسياسية في تلك البلاد، أو لثقافة أبنائها الحديثة، ولا يرضىٰ المسلم في شبه قارة الهند أن يجرد اللغة العربية وأدبها من الروح الديني،

مصر وأهم في التاريخ الإسلامي، كذٰلك يعز علىٰ الطالب الصغير الذي لم ينشأ في مصر أن يفهم الدروس الخاصة بمصر، لبعده عن الديار المصرية، وجهله للعوائد والتقاليد المصرية كما ترىٰ في درس عيد وفاء النيل.

أفلا يحسن بنا أن نبدل منها دروساً في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام، وعن رجال الإسلام وأئمته، وإذا كان لا بد من موضوعات بلدية ـ وإنها لا شك منشِّطة لذهن الطالب الصغير ـ فلماذا لا نضع دروساً عن الأمكنة والآثار والأبنية الوطنية التي شادها المسلمون في البلاد، وعن أعياد ومواسم إسلامية، فإذا كان ذٰلك في الهند أو باكستان مثلاً، نضع للطالب درساً خاصاً ببلاده أو عاماً للمسلمين، كدروس عن آثار الملوك الإسلاميين في هذه البلاد أو في العالم الإسلامي.

وكذٰلك في الرجال هو أحق بمعرفة فاتحي الهند والغزاة المنتصرين والملوك الصالحين، ورجال العلم والدين الذين أنجبتهم أرض الهند.

زد علىٰ ذٰلك كله أن هذه الكتب المؤلفة في البلاد العربية عارية عن الروح الديني لمصالح تعليمية وسياسية في تلك البلاد، أو لثقافة أبنائها الحديثة، ولا يرضىٰ المسلم في شبه قارة الهند أن يجرد اللغة العربية وأدبها من الروح الديني،

ويدرس اللغة العربية كلغة بشرية عامة لها أدبها وجمالها؛ لأن صلة العجم باللغة العربية إنما هي عن طريق الدين والكتاب المبين، وسنة سيد المرسلين عليه الصلاة والتسليم، وإنما يعنيه أمر اللغة العربية؛ لأنها لغة لا يتوصل بغيرها إلىٰ منابع الدين ومشارعه الصافية، فيجب أن يستعان بها علىٰ دراسة الكتاب والسنة بغير واسطة.

ويتقرب إلىٰ تلك البيئة التي نبع منها الأدب الإسلامي بأوسع معنىٰ الكلمة، فإذا انقطعت الصلة بين اللغة والدين والأدب الإسلامي كان للهندي ولكل عجمي قليل رغبة في هذه اللغة الكريمة.

كل ذٰلك كان يطالب بأن يكون للمسلمين في بلاد العجم منهاج درس خاص بهم، يضعونه وفقاً لشؤونهم الخاصة، وتبعاً لطبيعتهم الدينية.

إن عاراً علىٰ المسلمين الهنديين والباكستانيين ـ وقد ظفروا بالاستقلال السياسي ـ أن لا يكون لهم استقلال في مناهج التعليم، مع أن الاستقلال العلمي والفكري مقدمان علىٰ الاستقلال السياسي، وكل استقلال سياسي لا يسبقه أو لا يدعمه استقلال علمي فكري، تطرق إليه الوهن سريعاً، وتسرب فيه الرق الفكري أو العلمي، ثم تبعه الرق السياسي.

كان من أهم الواجبات في هذه الأيام أن يعنىٰ العلماء ورجال التعليم الديني بوضع منهاج تعليمي رشيد حكيم يفوق مناهج التعليم اللادينية في السهولة وتوفير الوقت ومراعاة نفسية الصغار، ويمتاز عنها في التربية الخلقية والدينية وتهذيب النفس، مع إفادة الطالب بكل ما تهم معرفته من الشؤون الكونية والتاريخية والمواد العامة، مبنياً علىٰ أحدث مبادئ التعليم واختياراته.

وكان من حق هذه المهمة العلمية الدينية الجليلة ـ ولها خطرها وأثرها في حياة المسلمين وفي مستقبل التعليم الديني ـ أن تتألف لها لجان من العلماء والمعلمين الكبار وأصحاب المعاهد الجليلة، وأن يبذلوا في سبيلها قسطاً صالحاً من أوقاتهم وجهودهم، وأن يقدموها علىٰ كثير من أشغالهم العلمية والسياسية، فإن هـٰذه المهمة الواسعة المعقدة لا يستقل بها الأفراد، وإنها لتنوء بالعصبة أولي القوة، ولـٰكن العلماء ـ مع الأسف ـ في شغل شاغل عن هذا العمل الجدي الذي يقتضي صبراً طويلاً وعناء شديداً واختياراً واسعاً وتعاضداً قوياً، ثم إنه كثير الخطر بطيء الأثمار قليل الاشتهار.

إن خطر هذه المهمة وجلالتها وإن الأخطار المحدقة بنظام التعليم الديني التي تهدد حياة المسلمين الدينية، واشتغال

الأكفاء عنه بما هو أهم لديهم منه، حث مؤلف هـٰذه الكتب علىٰ أن يكون جندياً مغامراً في سبيل هٰذا الجهاد، وأن يكون عاملاً صغيراً في مهمة التعليم الديني، وأن يؤدي من حقوق هذه اللغة الكريمة، ومن حقوق المعلمين الذين حببوا إليه هٰذه اللغة وسَهَّلُوها له ما يستطيع، وأن يقوم بإذن الله بجزء من أجزاء هٰذا العمل الجليل رغم ضعف صحته وتشتت باله، وانشعاب فكره وتزاحم أشغاله وكثرة أسفاره.

قام المؤلف أولاً بوضع مجموعة المختارات في الأدب العربي، فجاءت ـ بإذن الله تعالىٰ ـ مجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية والتهذيبية من العصر الإسلامي الأول إلىٰ القرن الرابع عشر الهجري، تجمع بين ألوان الأدب العربي المختلفة وبدائعه من وحي سماوي وبلاغة نبوية، وخطب لأشهر خطباء العرب في أزهر عصور العربية وروايات وقصص ورسائل وكتب، ومناقشات ومحاورات ورحلات وأحاديث منزلية متبسطة، وجد وهزل وحكمة ولهو، تلقاها بعض الدوائر العلمية والمعاهد ـ علىٰ بطء ـ بالقبول، وأدخلتها في مناهج الدرس.

ثم رأىٰ المؤلف كتباً صغيرةً لبعض أدباء مصر في حكايات الأسد والذئاب، والقردة والدباب، حتىٰ الخنازير والكلاب،

فصيحة العبارة قليلة المغزىٰ، عربية الوضع أفرنجية الروح، إسلامية اللغة جاهلية السبك، فيها صور الحيوانات في اللباس الغربي، فساءه أن لا يقرأ أبناء المسلمين في العربية أيضاً إلا قصص الحيوانات والأساطير والخرافات، فكتب لهم قصص الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، بأسلوب سهل يحاكي أسلوب الأطفال وطبيعتهم من تكرار الكلمات والجمل، وسهولة الألفاظ وبسط القصة، وزَيَّن الكتاب بصور مناظر الطبيعة والأبنية المقدسة، وقد وصفها المرحوم الأستاذ مسعود عالم الندوي بأنها تعلم مبادئ الدِّين أولاً والأدب ثانياً.

ثم رأىٰ المؤلف أن كل ذٰلك لا يسد مسد سلسلة القراءة التي تحتوي علىٰ مواد في اللغة والأدب متنوعة بأسلوب تدريجي ملائم لذوق الناشئة المسلمة الهندية، ونشء البلاد الإسلامية عامة، فوضعها في أجزاء واجتهد في:

١ ـ أن تكون اللغة أدبية دينية عليها مسحة من جمال أدب الكتاب والسنة.

٢ ـ استعمال الكلمات المستحدثة التي لها أصل عربي واشتقاق صحيح لموضوعات عصرية قد عَوَّل المؤلف فيها في الغالب علىٰ قرارات مجمع فؤاد الأول للغة العربية، حتىٰ

لا يلجأ الطالب في استعمال الكلمات العجمية أو الدخيلة، أو يكون له لسان أخرس في المناسبات العصرية.

٣ ـ تكرار المفردات العربية حتىٰ يتمرن عليها الطالب.

٤ ـ تنوع الموضوعات والمواد لينشط الطالب وينتقل فيها من فائدة علمية إلىٰ حديث ممتع وحوار لذيذ، ومن درس علمي إلىٰ حكاية تاريخية، ومن نثر إلىٰ شعر أو نشيد.

٥ ـ نقل الحكايات الواردة في الحديث إلىٰ لغة تنشأ علىٰ أسلوب الحكايات الموضوعة للأطفال.

٦ ـ دروس خلقية تهذيبية تعلم الآداب الإسلامية في مختلف نواحي الحياة.

٧ ـ تضمين الدروس الأدعية المأثورة والآداب الدينية بحيث لا يشعر الطالب بأنها تلقىٰ عليه إلقاء بل يحفظها عفواً في ثنايا الدروس والحكايات.

٨ ـ الروح الديني الساري في الكتاب بحيث لا يمكن تجريد الكتاب منه، ويعم ذٰلك الدروس الدينية ودروس المعلومات الكونية والطبيعية والحيوانية والنباتية وعن الاختراعات الحديثة.

وإلىٰ القراء، أصحاب المدارس، وأولياء الأطفال الجزء الأول من هذه السلسلة، وسيتلوه إن شاء الله الأجزاء

الأخرىٰ، والله المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب وبيده العصمة والتوفيق، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

أبو الحسن علي الحسني

لخمس بقين من رجب ١٣٦٥هـ

دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)



القِرَاءَةُ الرَّاشِدَةُ

لِتَعليمِ اللّغَةِ العَرَبيّةِ في المَدارِسِ الإسلاميّةِ

لِلدّاعِيَةِ الحَكِيمِ، المُفكّرِ الإسلاميِّ الكَبِيرِ
العلّامة أبي الحسن علي الحسني النّدوي

الجُزْءُ الأوّلُ

دار ابن كثير



كَيْفَ أقضي يَوْمِي

أَنَامُ مُبَكِّراً(١) فِي اللَّيْلِ وَأَقُومُ مُبَكِّراً فِي الصَّبَاحِ، أَسْتَيْقِظُ عَلَىٰ اسْمِ اللهِ وَذِكْرِه، أَسْتَعِدُّ لِلصَّلاةِ، ثُمَّ أَذْهَبُ مَعَ وَالِدِي إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَالْمَسْجِدُ قَرِيْبٌ مِنْ بَيْتِي، فَأَتَوَضَّأُ وَأُصَلِّي مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَأَرْجِعُ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَأَتْلُو شَيْئاً مِنَ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ، ثُمَّ أَخْرُجُ إِلَىٰ الْبُسْتَانِ وَأَجْرِيْ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَىٰ الْبَيْتِ فَأَشْرَبُ اللَّبَنَ وَأَسْتَعِدُّ لِلذَّهَابِ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ، وَأَفْطِرُ إِذَا كَانَتْ أَيَّامُ الصَّيْفِ، وَأَتَغَدَّىٰ إِذَا كَانَتْ أَيَّام الشِّتَاءِ، وَأَصِلُ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ فِي الْمِيْعَادِ.

وَأَمْكُثُ فِي الْمَدْرَسَةِ سِتَّ سَاعَاتٍ، وَأَسْمَعُ الدُّرُوْسَ بِنَشَاطٍ وَرَغْبَةٍ، وَأَجْلِسُ بِأَدَبٍ وَسَكِيْنَةٍ(٢)، حَتَّىٰ إِذَا انْتَهَىٰ

---

(١) مبكّراً: أي قبل موعد النوم.

(٢) السكينة: الهدوء، والطمأنينة.

الْوَقْتُ وَضُرِبَ الْجَرَسُ خَرَجْتُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ وَرَجَعْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ.

وَلَا أَقْرَأُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَىٰ الْمَغْرِبِ، وَفِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ أَمْكُثُ فِي الْبَيْتِ، وَفِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ أَذْهَبُ إِلَىٰ السُّوْقِ وَأَشْتَرِي حَوَائِجَ الْبَيْتِ[1]، وَفِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ أَخْرُجُ مَعَ أَبِي أَوْ أَخِيْ إِلَىٰ بَعْضِ الأَقَارِبِ، أَوْ أَلْعَبُ مَعَ إِخْوَتِي وَأَصْدِقَائِيْ.

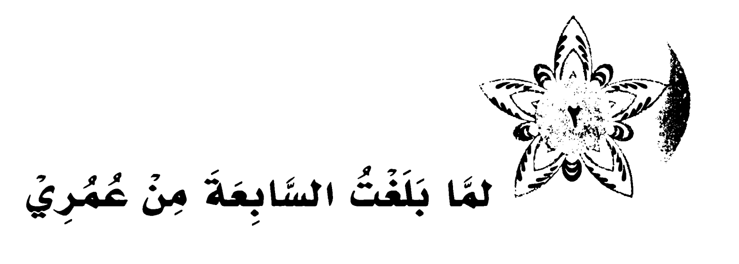
وَأَتَعَشَّىٰ مَعَ وَالِدِيْ وَإِخْوَتِيْ، وَأَحْفَظُ دُرُوْسِيْ، وَأُطَالِعُ[2] لِلْغَدِ، وَأَسْتَعِدُّ لِلدَّرْسِ، وَأَكْتُبُ مَا يَأْمُرُ بِهِ الْمُعَلِّمُ، وَأُصَلِّيْ الْعِشَاءَ وَأَقْرَأُ قَلِيْلاً، ثُمَّ أَنَامُ عَلَىٰ اسْمِ اللهِ وذِكْرِهِ.

تِلْكَ عَادَتِيْ كُلَّ يَوْمٍ لَا أُخَالِفُهَا، وَأَقُومُ مُبَكِّراً يَوْمَ الْعُطْلَةِ أَيْضاً، وَأُصَلِّيْ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَأَتْلُو الْقُرْآنَ، وَأَقْضِيْ الْيَوْمَ فِيْ مُطَالَعَةِ كِتَابٍ وَمُحَادَثَةٍ مَعَ أَبِيْ وَأُمِّيْ وَإِخْوَتِيْ، وَفِيْ زِيَارَةِ قَرِيْبٍ أَوْ عِيَادَةِ مَرِيْضٍ، وَأَمْكُثُ أَحْيَاناً فِي البَيْتِ، وَأَخْرُجُ أَحْيَاناً إِلَىٰ الْخَارِجِ.



(١) حوائج البيت: مرافق البيت.

(٢) طَالَعَ الكتاب يُطَالِعُ مُطَالعة: قرأه.



لَمَّا بَلَغْتُ السَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِيْ

لَمَّا بَلَغْتُ السَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِيْ أَمَرَنِيْ أَبِيْ بِالصَّلَاةِ، وَكُنْتُ تَعَلَّمْتُ كَثِيراً مِنَ الأَدْعِيَةِ وَحَفِظْتُ سُوَراً مِنَ الْقُرآنِ الْكَرِيم مِنْ أُمِّيْ، وَكَانَتْ أُمِّي تَتَكَلَّمُ مَعِي كُلَّ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْمَنَام فَتَقُصُّ عَلَيَّ قَصَصَ الأَنْبِيَاءِ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ هٰذِهِ الْقَصَصَ بِنَشَاطٍ وَرَغْبَةٍ.

وَبَدَأْتُ أَذْهَبُ مَعَ أَبِيْ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَأَقُوْمُ فِيْ صَفِّ الأَطْفَالِ خَلْفَ صَفِّ الرِّجَالِ، وَلَمَّا بَلَغْتُ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِيْ قَالَ لِيْ مَرَّةً: قَدْ أَكْمَلْتَ الآنَ مِنْ عُمُرِكَ تِسْعَ سِنِيْنَ، وَالآنَ أَنْتَ ابْنُ عَشْرِ سِنِيْنَ فَإِذَا تَرَكْتَ صَلَاةً ضَرَبْتُكَ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مُرُوْا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِيْنَ، وَاضْرِبُوْهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ».

وَقَصَّ عَلَيَّ أَبِيْ قَصَصَ الأَطْفَالِ الَّذِيْنَ حَافَظُوا عَلَىٰ الصَّلَاةِ فِي الصِّغَرِ، وَكَانَ لَهُمْ شَأْنٌ فِي الْكِبَرِ.

قُلْتُ: يَا أَبِي! إِنَّكَ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَنْ تَضْرِبَنِي وَسَأُحَافِظُ

عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ، وَكَذٰلِكَ فَعَلْتُ، فَقَدْ كُنْتُ أُصَلِّيْ أَيْنَمَا كُنْتُ، كُنْتُ إِذَا ذَهَبْتُ إِلَىٰ السُّوْقِ أَوْ كُنْتُ فِيْ شُغْلٍ وَأَدْرَكَتْنِي الصَّلَاةُ فِيْ مَكَانٍ صَلَّيْتُ، لأَنِّيْ أَرَىٰ النَّاسَ لَا يَخْجَلُونَ مِنَ الأَكْلِ إِذَا جَاعُوْا، وَاللَّعِبِ إِذَا أَرَادُوْا، فَلِمَاذَا أَخْجَلُ مِنَ الصَّلَاةِ؟ وَإِنَّ الصَّلَاةَ لَفَرِيْضَةٌ، وَإِنَّ الصَّلَاةَ لَشَرَفٌ لِلْمُسْلِمِ.

وَخَرَجْتُ مَرَّةً إِلَىٰ مُبَارَاةٍ[١] وَكَانَ الزِّحَامُ شَدِيْداً، وَأَدْرَكَتْنِيْ[٢] صَلَاةُ الْعَصْرِ وَكُنْتُ عَلَىٰ وُضُوْءٍ، فَقُمْتُ أُصَلِّيْ وَجَعَلَ النَّاسُ يَنْظُرُوْنَ إِلَيَّ وَيَتَعَجَّبُونَ، وَأَكْمَلْتُ صَلَاتِيْ بِسَكِيْنَةٍ وَاعْتِدَالٍ وَرَجَعْتُ إِلَىٰ الْمُبَارَاةِ.

وَلَمَّا انْتَهَتِ الْمُبَارَاةُ جَاءَ إِلَيَّ رَجُلٌ وَسَأَلَنِيْ عَنِ اسْمِيْ وَاسْمِ وَالِدِيْ، وَسَأَلَنِيْ عَنْ سِنِّيْ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَثْنَىٰ عَلَىٰ أَبِيْ خَيْراً، وَدَعَا لِيْ بِالبَرَكَةِ، وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ وَلَداً يُصَلِّيْ فِي الْمُبَارَاةِ وَيَتْرُكُ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ الصَّلَاةَ فِيْ هٰذَا الْوَقْتِ، فَحَمِدْتُ اللهَ وَشَكَرْتُ أَبِيْ.

وَلَا أَتْرُكُ الصَّلَاةَ إِذَا كُنْتُ مُسَافِراً وَأَرَىٰ كَثِيْراً مِنَ النَّاسِ يُصَلُّوْنَ فِي الحَضَرِ وَيَتْرُكُوْنَ الصَّلَاةَ فِي السَّفَرِ، وَيُصَلُّوْنَ فِي

---

(١) المُبَارَاة: جمعها: المباريات: مكان المنافسة الرياضية بين فريقين أو فردين.

(٢) أَدْرَكَتْني صلاة العصر: أي لحقتني.

الصِّحَّةِ وَلَا يُصَلُّوْنَ فِي الْمَرَضِ، مَعَ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَسْقُطُ عَنْ أَحَدٍ.

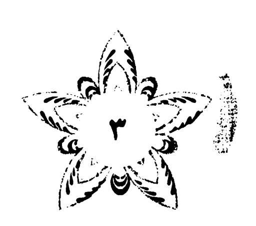
وَأَرَىٰ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَا يُصَلُّوْنَ بِاعْتِدَالٍ وَسَكِيْنَةٍ وَيُسْرِعُوْنَ كَثِيْراً، وَلَا أَذْكُرُ أَنِّيْ تَرَكْتُ صَلَاةً فِيْ هٰذِهِ السَّنَوَاتِ الأَرْبَعِ، وَإِذَا نِمْتُ عَنْهَا[١] أَوْ نَسِيْتُهَا صَلَّيْتُهَا إِذَا تَذَكَّرْتُ.

وَإِنِّيْ أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ التَّوْفِيْقَ وَالثَّبَاتَ[٢].

---

(١) نام عنه: غَفَلَ عنه.

(٢) الثَّبَات: الاستقرار.



النَّمْلَةُ

طَالَ سَعْيِيْ[١] بِالأَمَلْ لَسْتُ أَرْضَىٰ بِالْكَسَلْ
غَايَتِيْ[٢] نَيْلُ[٣] الطَّلَبْ لَا أُبَالِيْ[٤] بِالتَّعَبْ
أَبْتَنِي الْبَيْتَ الْحَسَنْ بِنِظَامٍ لِلسَّكَنْ
وَلِقُوْتِيْ[٥] أَذْهَبُ لَسْتُ يَوْماً أَلْعَبُ
كُلَّ صَيْفٍ أَجْمَعُ لِيْ طَعَاماً يُشْبِعُ
فَإِذَا جَاءَ الْمَطَرْ كَانَ لِيْ بَيْتِي الْمَقَرْ[٦]
ذَاكَ شَأْنِيْ فِيْ الصِّغَرْ وَنِظَامِيْ فِي الْكِبَرْ

---

(١) سَعَىٰ: جهد، جدَّ.
(٢) الغاية: جمعها: الغايات: الهدف.
(٣) النيل: الحصول.
(٤) لا يبالي بالتعب: لا يحتفل به، لا يكترث له.
(٥) القوت: جمعها: الأَقْوَات: ما يأكله الإنسان ويعيش به.
(٦) المقرّ: جمع المَقَارّ: موضع الاستقرار.

إِنَّــنِــيْ نِــعْــمَ الــمَــثَــلْ[1] بِــاجْــتِــهَــادِيْ فِــي الْــعَــمَــلْ

(مَبَادِئُ القِرَاءَةِ الرَّشِيْدَةِ)



(١) نِعْم المَثَل: المثل: العِبْرة التي يُعتبر بها.



في السوق

عمَرُ: هَلْ زُرْتَ سُوْقَ هٰذَا الْبَلَدِ يَا صَدِيْقِيْ؟

خَالِدٌ: لَا يَا أَخِيْ، فَإِنِّيْ غَرِيْبٌ جَدِيْدٌ فِيْ هٰذَا الْبَلَدِ لَا أَعْرِفُ الطَّرِيْقَ.

عُمَرُ: تَعَالَ مَعِيْ، فَإِنِّيْ ذَاهِبٌ إِلَىٰ السُّوْقِ لأَشْتَرِيَ بَعْضَ الْحَوَائِجِ، وَنَرْجِع قَبْلَ الْمَغْرِبِ إِنْ شَاءَ اللهُ فَإِنَّ السُّوْقَ غَيْرُ بَعِيْدَةٍ.

خَالِدٌ: مَا شَاءَ اللهُ هٰذِهِ سُوْقٌ كَبِيْرَةٌ وَالدَّكَاكِيْنُ نَظِيْفَةٌ جَمِيْلَةٌ، وَمَا هٰذَا الدُّكَّانُ الْجَمِيْلُ إِلَىٰ اليَمِيْنِ يَا عُمَرُ؟

عُمَرُ: هٰذَا دُكَّانُ فَاكِهَانِيٍّ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ الْفَوَاكِهِ وَتَرَىٰ النَّاسَ يُسَاوِمُوْنَ[١] الْفَاكِهَانِيَّ فِيْهَا.

خالِدٌ: أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَشْتَرِيَ شَيْئاً مِنَ الْفَوَاكِهِ، الْمَوزَ

---

(١) يسَاومون: (ساوم يساوم مساومة): يفاوضون في البيع والشراء.

وَالْجَوَّافَةَ وَالْبُرْتُقَالَ، فَإِنِّيْ أُرِيْدُ أَنْ أَدْعُوَ بَعْضَ الإِخْوَانِ إِلَىٰ الْفُطُورِ بُكْرَةً[١].

عُمَرُ: الْجَوَّافَةُ غَالِيَةٌ جِدّاً فِيْ هٰذِهِ الأَيَّامِ، وَالْبُرْتُقَالُ حَامِضٌ وَلَا بَأْسَ[٢] بِالْمَوْزِ.

خَالِدٌ: تَفَضَّلْ يَا أَخِيْ نُسَاوِمُ الْفَاكِهَانِيَّ.

عُمَرُ: أَحْسَنُ أَنْ نَشْتَرِيَ الْفَوَاكِهَ مِنْ سُوْقِ الْخُضَرِ بُكْرَةً، فَإِنَّ الْفَوَاكِهَ وَالثِّمَارَ فِيْهَا كَثِيْرَةٌ وَرَخِيْصَةٌ.

خَالِدٌ: هٰذَا هُوَ الرَّأْيُ، وَمَا هٰذِهِ الدَّكَاكِيْن يَا عُمَرُ؟

عُمَرُ: هٰذِهِ دَكَاكِيْنُ الْقُمَاشِ، أَلَا تَرَىٰ كَيْفَ بَسَطُوْا أَنْوَاعاً مِنَ الْقُمَاشِ وَكَيْفَ يَلْمَسُهَا النَّاسُ وَيُسَاوِمُوْنَ فِيْهَا التُّجَّارَ، تَعَالَ! فَإِنِّيْ أُرِيْدُ أَنْ أَشْتَرِيَ حِذَاءً.

خَالِدٌ: تَفَضَّل فَإِنِّي صَاحِبُكَ.

عُمَرُ: مِنْ فَضْلِكَ أَخْرِجْ لِيْ حِذَاءً مُطَابِقاً[٣].

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: هٰذَا حِذَاءٌ جَمِيْلٌ وَمَتِيْنٌ.

عُمَرُ: نَعَمْ! وَلٰكِنَّهُ وَاسِعٌ قَلِيْلاً.

---

(١) بُكرةً: أول النهار إلىٰ طلوع الشمس.

(٢) لا بأس به: لا مانع أو عيب فيه.

(٣) مُطابقاً لشيء: موافقاً له، ليس مختلفاً عنه.

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: وَهٰذَا الآخَرُ مُطَابِقٌ تَماماً.

عُمَرُ: بِكَمْ هُوَ؟

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: بِستِّ رُبِيَّاتٍ(١).

عُمَرُ: أَلَا تَنْزِلُ فِي الثَّمَنِ؟

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: لَنْ تَجِدَ يَا سَيِّدِيْ أَرْخَصَ مِنْ هٰذَا فِي السُّوْقِ.

عُمَرُ: أُصَدِّقُكَ؛ لأَنَّكَ مُسْلِمٌ، وَالْمُسْلِمُ لا يَكْذِبُ وَلَا يَغُشُّ(٢).

خَالِدٌ: وَمَا هٰذَا الْمَكَانُ الَّذِيْ يَأْكُلُ فِيهِ النَّاسُ؟

عُمَرُ: هٰذَا مَطْعَمٌ يَأْكُلُ فِيْهِ النَّاسُ، وَالْمَطَاعِمُ فِيْ الْبَلَدِ كَثِيْرَةٌ.

خَالِدٌ: مَالِيْ لَمْ أَرَ مَطْعَماً فِي الْقَرِيَةِ؟!

عُمَرُ: لأَنَّ الْبَلَدَ فِيْهِ غُرَبَاءُ وَمُسَافِرُونَ لَيْسَ لَهُمْ بُيُوْتٌ يُقِيْمُونَ فِيْهَا وَيَأْكُلُونَ فِيْهَا، فَيَأْكُلُوْنَ فِي الْمَطَاعِمِ، أَمَّا الْقَرْيَةُ فَالْغَرِيْبُ فِيْهَا قَلِيْلٌ فَلَا حَاجَةَ فِي الْقَرْيَةِ إِلَىٰ الْمَطْعَمِ.

---

(١) ربية: جمع ربيات: اسم العملة، تستعمل في الهند، وباكستان، وأندونيسيا، وماليزيا.

(٢) يَغُشُّ: (غَشَّ يَغشُّ غشّاً): يَخْدَع.

خَـالِـدٌ: وَأَيْـنَ نَـجِـدُ الْـوَرَقَ وَالْـحِـبْـرَ وَالْـقَـلَـمَ وَالْـمَـرْسَـمَ والنَّشَافَةَ[١] وَأَدَوَاتِ الْكِتَابَةِ.

عُمَرُ: هٰذَا دُكَّانُ وَرَّاقٍ تَجِدُ فِيْهِ جَمِيْعَ حَوَائِج الْمَدْرَسَةِ.

خَالِدٌ: أَشْكُرُكَ يَا صَدِيْقِي الْكَرِيْمَ فَقَدْ أَفَدْتَنِيْ كَثِيْراً، وَأَرَىٰ أَنْ نَرْجِعَ الآنَ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَنُصَلِّيَ الْمَغْرِبَ هُنَا.

عُمَرُ: نَعَمْ! وَمَا بَقِيَ لِيَ شُغْلٌ.



---

(١) النَّشَّافَة: جمعها: النَّشافات: خرقة ونحوها تستعمل لتنشيف الماء وغيره.



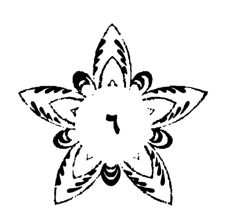
الطَّائِرُ

الْحَبْسُ لَيْسَ مَذْهَبِيْ[١] وَلَيْسَ فِيْهِ طَرَبِيْ[٢]
فَلَسْتُ أَرْضَىٰ قَفَصاً وَإِنْ يَكُنْ مِنْ ذَهَبِ
غَابَاتُ رَبِّيْ غَايَتِيْ وَالْعَيْشُ فِيْهَا مَطْلَبِيْ[٣]
قَدْ طَابَ فِيْهَا مَطْعَمِيْ وَرَاقَ[٤] فِيْهَا مَشْرَبِيْ
أَذْهَبُ فِيْهَا أَسْتَقِيْ مِنْ مَاءِ نَبْعٍ أَعْذَبِ
أَصْدَحُ[٥] فِيْهَا مُطْلَقاً[٦] فَالْحَبْسُ لَيْسَ مَذْهَبِيْ

(مدارج القراءة)

---

(١) مَذْهَب: جمعها: مذاهب: طريقة.
(٢) طَرب: خفة وهزَّة تثير النفس لفرح أو حزن أو ارتياح، وأغلب ما يستعمل اليوم في الارتياح.
(٣) مَطْلَب: هدف، جمعها: مَطَالِب.
(٤) رَاقَ يَرُوق روقاً: الشيء أعجبه.
(٥) أصْدَح: (صَدَحَ يَصْدَحُ صَدْحاً): أُغَرِّد.
(٦) مُطلقاً: حُرّاً.



نُزْهَةٌ وَطَبْخٌ

كَانَ يَوْمُ الثُّلَاثَاءِ الْمَاضِيْ يَوْمَ عُطْلَةٍ فِي الْمَدْرَسَةِ. جَاء إِلَيَّ دَاودُ صَبَاحاً، وَقَالَ: الْيَوْمُ يَوْمُ الْعُطْلَةِ، أَلَا نَخْرُجُ إِلَىٰ بُسْتَانٍ، أو مَكَانٍ فِيْ ضَوَاحِي[(١)] الْمَدِيْنَةِ نَرْتَعُ[(٢)] وَنَلْعَبُ، وَنَطْبخُ مِنَ الطَّعَامِ مَا نَشْتَهِيْ، وَنَأْكُلُ، وَنَرْجِعُ فِي الْمَسَاءِ، قُلْتُ: هُوَ كَذٰلِكَ! وَأَنَا كُنْتُ أُفَكِّرُ أَيْضاً كَيْفَ أَقْضِيْ هٰذَا الْيَوْمَ، وَلٰكِنْ كَلِّمْ أَخَاكَ سُلَيْمَان وَالأَخَ هَاشِماً وَالسَّيِّدَ عُمَرَ لَعَلهُمْ يَخْرُجُوْنَ مَعَنَا.

وَافَقَ دَاوُدُ عَلَىٰ ذٰلِكَ وَكَلَّمَهُمْ، وَفَرِحُوْا جِدّاً، وَجَاؤُوا إِلَىٰ بَيْتِيْ مِنْ سَاعَتِهِمْ وَصَدِيْقُنَا خَالِدٌ، فَفَرِحْنَا بِهِ وَقُلْنَا: مَرْحَباً.

---

(١) الضواحي: جمع الضاحية: الناحية الظاهرة خارج البلد.

(٢) رَتَعَ يَرْتَعُ رَتْعاً: في المكان: أقاموا وتنعَّموا وأكلوا فيه وشربوا ما شاؤوا في خِصْب وسعَة.

اجْتَمَعْنَا وَقُلْنَا: هَلْ نَقْصِدُ بُسْتَاناً مِنْ بَسَاتِيْنِ الْمَدِيْنَةِ أَوْ نَتَوَجَّهُ إِلَىٰ ضَاحِيَة مِنْ ضَوَاحِي الْمَدِيْنَةِ.

قَالَ دَاوُدُ وَعُمَرُ: بَلْ نَقْصِدُ الْبُسْتَانَ الْكَبِيْرَ فِيْ وَسطِ الْمَدِيْنَةِ، فَإِنَّ الْبُسْتَانَ قَرِيْبٌ فَلَا يَضِيْعُ وَقْتُنَا فِي الذَّهَابِ إِلَىٰ ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي الْبَلَدِ.

وَقَالَ سُلَيْمَانُ وَهَاشِمٌ وَأَنَا مَعَهُمَا: بَلْ نَتَوَجَّهُ إِلَىٰ بَعْضِ الضَّوَاحِيْ لأَنَّا نُرِيْدُ أَنْ نَطبخَ الطَّعَامَ وَنَقْضِيَ النَّهَارَ فِي النُّزْهَةِ وَالطَّبْخِ.

فَاسْتَقَرَّ رَأْيُنَا عَلَىٰ الذَّهَابِ إِلَىٰ الضَّاحِيَةِ، فَاكْتَرَيْنَا(١) مَرْكَبَةً، وَوَصَلْنَا مِنْ سَاعَتنَا إِلَىٰ الضَّاحِيَةِ.

وَكُنَّا أَخَذْنَا مَعَنَا الرُّزَّ وَاللَّحْمَ وَالتَّوابِل وَالسَّمْنَ وَالْخُضَرَ وَأَخَذْنَا قِدْرَيْنِ وَأَوَانِيَ، وَكُنَّا عَلِمْنَا أَنَّ فِي الْمَحَلِّ خَبَّازاً فَقُلْنَا نَشْتَرِي الرَّغِيْفَ فَإِنَّ الرَّغِيْفَ فِيْهِ تَعَبٌ.

اخْتَرْنَا مَكَاناً ظَلِيْلاً(٢) وَكَانَ السَّيِّدُ عُمَرُ وَالسَّيِّدُ هَاشِمٌ يُحْسِنَانِ الطَّبْخَ فَتَوَلَّيَا أَمْرَ الطَّبْخِ وَسَاعَدَهُمَا دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ.

وَتَوَلَّيْتُ أَمْرَ الْحَطَبِ؛ فَذَهَبْتُ إِلَىٰ الْغَابَةِ الْقَرِيْبَةِ وَجِئْتُ

---

(١) اكْتَرَىٰ يَكْتَرِي اكتراءً: فلانٌ الدارَ ونحوها: اسْتأجرها.

(٢) الظَّلِيْل: ذو الظلِّ.



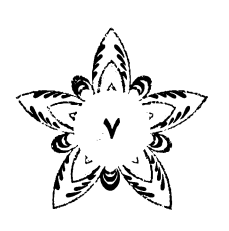
بِالْحَطَبِ مِنْ سَاعَتِيْ، وَدَقَّ خَالِدٌ التَّوَابِلَ، وَذَهَبْتُ أَنَا إِلَى الْخَبَّازِ فَاشْتَرَيْتُ الأَرْغِفَةَ.

وَأَدْرَكَ الطَّعَامُ فِي السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشَرَةَ، وَقَدْ غَلَبَنَا الْجُوْعُ وَاشْتَهَيْنَا الطَّعَامَ فَأَكَلْنَا بِرَغْبَةٍ، وَكَانَ الطَّعَامُ شَهِيّاً لَذِيْذاً.

وَجَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ حَتَّى كَانَ وَقْتُ الظُّهْرِ فَأَذَّنْتُ وَصَلَّيْنَا جَمَاعَةً.

وَخَرَجْنَا بَعْدَ الصَّلَاةِ نَزُورُ بَعْضَ الآثَارِ، وَفِي الْعَصْرِ رَجَعْنَا إِلَى الْبَلَدِ مَسْرُوْرِيْنَ.





من يَمْنَعُكَ مِنِّيْ؟

خَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ غَزْوَةٍ! هَلْ تَعْرِفُوْنَ مَا هِيَ الْغَزْوَةُ؟

لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِيْنَ كَانُوْا يَخْرُجُوْنَ لِلْجِهَادِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَكَانُوْا يُقَاتِلُونَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارَ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ فَضِيْلَةَ الْجِهَادِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ أَحْيَاناً مَعَ الْمُسلِمِيْنَ وَأَحْيَاناً يَمْكُثُ فِي الْمَدِيْنَةِ لِشُغْلٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ وَيَبْعَثُ جُنْداً مِنَ الْمُسلِمِيْنَ.

فَالغَزْوَةُ مَا خَرَجَ فِيْهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ جُنْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ لِلْجِهَادِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ.

نَعَمْ فَخَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ غَزْوَةٍ وَرَجَعَ عَنْهَا فِي الظَّهِيْرَةِ[1]، وَكَانَتْ أَيَّامُ الصَّيْفِ فَأَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنْ يَسْتَرِيْحَ.

---

(١) الظهيرة: وقت الظُّهر.

وَلَيْسَ فِيْ الْبَرِّيَّةِ[١] مَكَانٌ يَسْتَرِيْحُ فِيْهِ الإِنْسَانُ إِلَّا الشَّجَرُ.

وَلَيْسَ فِيْ الْبَرِّيَّةِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ شَجَرٌ كَثِيرٌ وَلَيْسَ فِيْهَا إِلَّا السَّمُرُ.

فَنزَلَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ[٢] وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَتفرَّقَ النَّاسُ وَنَامُوْا، وَنَامَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ تَحْتَ السَّمُرَةِ.

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَسَيْفُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مُعَلَّقٌ بِالسَّمُرَةِ وَهُوَ فِيْ غِمْدِهِ.

فَأَخذَ الْمُشْرِكُ السَّيْفَ وَسَلَّهُ مِنْ غِمْدِهِ، وَاسْتَيْقَظَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ الْمُشْرِكُ... وَالسَّيْفُ مَسْلُوْلٌ فِيْ يدِهِ... لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ: تَخَافُنِيْ؟

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: لَا!

قَالَ الْمُشْرِكُ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّيْ؟

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: اللهُ!

فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِ الْمُشْرِكِ، فَأَخَذَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ السَّيْفَ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لِلْمُشْرِكِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّيْ؟

---

(١) البريّة: الأرض.

(٢) السَّمُرَة: ضرب من شجرِ الطَّلح.

فَقَالَ الْمُشْرِكُ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ!

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟

قَالَ الْمُشْرِكُ: لَا! وَلٰكِنِّيْ أُعَاهِدُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلونَكَ!

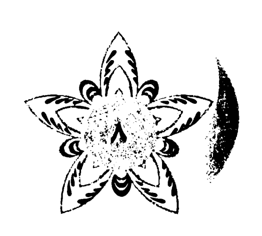
فَخَلَّىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَبِيْلَهُ(١).

فَأَتَى الْمُشْرِكُ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ(٢).



---

(١) خَلَّى سَبِيْلَه: تَرَكَه.
(٢) مُلْتَقَطٌ مِنَ الصَّحِيحَيْن، وَصَحِيحِ أَبِيْ بَكْرٍ الإسماعيليِّ.



سَفَرُ الْقِطَارِ

لَا أَنْسَىٰ سَفَرِي الأَوَّلَ، عَلِمْتُ أَنِّي مُسَافِرٌ بُكْرَةً مَعَ أُمِّيْ وَإِخْوَتِيْ، فَاسْتَيْقَظْتُ قَبْلَ السَّحَرِ، وَبَقِيْتُ أَنْتَظِرُ سَاعَةَ السَّفَرِ، وَاسْتَيْقَظَ أَهْلُ الْبَيْتِ مُبَكِّرِيْنَ، وَصَلَّيْنَا الصُّبْحَ، وَجَاءَ عَمِّيْ وَبَدَأَتْ فِي الْبَيْتِ حَرَكَةٌ وَأَصْوَاتٌ، هٰذَا يَجْرِيْ وَذٰلِكَ يَلُفُّ الْفِرَاشَ(١)، وَهٰذَا يُنَادِيْ وَذٰلِكَ يُجِيْبُ، وَالْعَمُّ يَغْضَبُ وَيَسْتَعْجِلُ، وَالْوَالِدُ قَائِمٌ يَأْمُرُ وَيَنْهَىٰ، وَيَغْضَبُ وَيُرْشِدُ، وَالْخَادِمُ يُهَيِّئُ(٢) الزَّادَ، حَتَّى كَانَ وَقْتُ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ وَقَرُبَ مِيْعَادُ الْقِطَارِ.

جَاءَتْ مَرْكَبَتَانِ فَرَكِبْنَاهُمَا، وَسَلَّمْتُ عَلَىٰ أَبِي فَوَدَّعَنِيْ وَدَعَا لِيْ، وَوَصَلْنَا إِلَىٰ الْمَحَطَّةِ فَأَخَذَ الْحَمَّالُونَ الْحَوَائِجَ والْمَتَاعَ،

---

(١) لفَّ يَلُفُّ لَفاً: الفراش ونحوه: طَوَاه.

(٢) هَيَّأَ يُهَيِّئُ: أَعَدَّ يُعِدُّ.

وَكَانَتْ أَيَّامُ شِتَاءٍ، فَكَانَتِ الْفُرُشُ كَبِيْرَةً، وَذَهَبَ عَمِّيْ فَاشْتَرَىٰ تَذَاكِرَ الْقِطَارِ.

وَسَأَلْتُ عَمَّيْ عَنِ النَّوْلِ[١] فَقَالَ: إِنَّ النَّوْلَ ثَلاثُ رُبِّيَّاتٍ، وَرُبِّيَّةٌ وَنِصْفٌ لكَ.

وَقُلْتُ لِعَمِّيْ: أَعْطِنِيْ تَذْكِرَتِيْ، فَقَالَ عَمِّيْ: إِنَّكَ تُضَيِّعُ تَذْكِرَتَكَ، فَقُلْتُ: لَا! سَأُحَافِظُ عَلَىٰ تَذْكِرَتِي إِنْ شَاءَ اللهُ، فَأَعْطَانِيْ تَذْكِرَتِي وَوَضَعْتُهَا عِنْدِيْ. دَخَلْنَا الْمَحطَّةَ فَرَأَيْنَا رِجَالاً كَثِيْراً وَنِسَاءً وَأَطْفَالاً، وَرَأَيْنَا زِحَاماً شَدِيْداً، وَسَمِعْنَا أَصْوَاتَ النَّاسِ وَالأَطْفَالِ وَصَيْحَةَ الْحَمَّالِيْنَ وَصَفِيْرَ الْقَاطِرَةِ.

وَكَانَ قِطَارُنَا مُتَأَخِّراً فَذَهَبْنَا إِلَى الْمَنْظَرَةِ وجَلَسْنَا قَلِيْلاً، ثُمَّ جِئْتُ إِلَىٰ الرَّصِيْفِ[٢] لأَرَىٰ هَلْ جَاءَ الْقِطَارُ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ الْمَنْظَرَةِ.

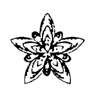
وَبَعْدَ قَلِيْلٍ جَاءَ الْقِطَارُ فَخَرَجْنَا مِنَ الْمَنْظَرَةِ، وَقَامَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَلَىٰ الرَّصِيْفِ وَوَقَفَ الْقِطَارُ، ونَزَلَ أُناسٌ وَرَكِبَ أُناسٌ وَرَكِبْنَا.

وَكُنْتُ أُطِلُّ مِنَ الْقِطَارِ وَأَرَىٰ الْمَنَاظِرَ، وَكَانَ الزِّحَامُ شَدِيْداً

---

(١) النول: أجر السفينة، ويمكن إطلاقه علىٰ قيمة تذكرة السفر. والنول: خشبة الحائك أو آلته ينسج عليها. جمعها: أنوال.

(٢) الرَّصِيْف: جمعها: الأَرْصِفَةُ: مكان مرتفع تقف أمامه السفن والقطارات ونحوها.



فِي الْقِطَارِ، وَجَاءَ الْبَاعَةُ وَجَعَلَ النَّاسُ يَشْتَرُوْنَ وَيَأْكُلُونَ، وَاشْتَرَىٰ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ الْبَاعَةِ هَدَايَا لأَصْدِقَائِهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ.

وَبَعْدَ قَلِيْل صَفَّرَ أَمِيْنُ الْقِطَارِ، وَهَزَّ الْعَلَمَ الأَخْضَرَ فَأَسْرَعَ النَّاسُ وَدَخَلُوْا فِي الْقِطَارِ، وَتَحَرَّكَتِ الْقَاطِرَةُ وَسَارَ الْقِطَارُ.

وَدَخَلَ نَقَّابٌ(١) فِيْ عَرَبَتِنَا فَنَقَبَ تَذَاكِرَنَا وَرَدَّهَا إِلَيْنَا.

وَفِي الطَّرِيْقِ تَغَدَّيْنَا بِالزَّادِ وَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا وَحَمِدْنَا اللهَ.

وَلَمْ يَزَلْ يَقِفُ الْقِطَارُ عَلَىٰ الْمَحَطَّاتِ وَيَسِيْرُ حَتَّىٰ وَصَلَ وَقْتُ الظُّهْرِ، فَتَوَضَّأنا بِسُرْعَةٍ عَلَىٰ مَحَطَّةٍ وَصَلَّيْنَا صَلَاةَ السَّفَرِ، صَلَّيْنَا الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ وَسَلَّمْنَا، وَصَفَّرَ أَمِينُ الْقِطَارِ فَرَكِبْنَا سَرِيْعاً.

وَقَالَ عَمِّيْ: لَوْ كَانَ الْقِطَارُ لِلْمُسْلِمِيْنَ لَكَانَ فِيْهِ مَكَانٌ لِلْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ، نُؤَذِّنُ فِيْهِ وَنُصَلِّيْ جَمَاعَةً.

وَفِي الْعَصْرِ وَصَلَ الْقِطَارُ إِلَىٰ مَحَطَّتِنَا، وَكُنْتُ أُطِلُّ مِنَ النَّافِذَةِ فَرَأَيْتُ هَاشِماً وَسَعِيْداً عَلَىٰ الرَّصِيْفِ، وَعَرَفْتُهُمَا، وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَا عَلَيَّ.

وَوَصَلْتُ إِلَىٰ قَرْيَتِي، وَقَابَلْتُ أَصْدِقَائِيَ وَإِخوانِيْ، وَجَعَلْتُ أُحَدِّثُهُمْ حَدِيْثَ الْبَلَدِ وَأُخْبِرُهُمْ بِعَجَائِبِهِ وَأَحْكِيْ لَهُمْ مَا رَأَيْتُ فِي السَّفَرِ.

---

(١) النَّقَّاب: قاطع التذاكر، كُمْسَاري.



ماذا تُحِبُّ أَنْ تَكُوْنَ؟

سَأَلَ الْمُعَلِّمُ التَّلَامِيْذَ مَرَةً فِي الصَّفِّ وَاحِداً وَاحِداً: مَاذا تُحِبُّ أَنْ تكُوْنَ؟

وَقَالَ: كُلٌّ وَاحِدٍ حُرٌّ فِيْ جَوَابِهِ فَلَا يَخفْ وَلَا يَسْتَحِيْ.

وَقَالَ أَحْمَدُ ـ وكَانَ أَصْغَرَ التَّلَامِيْذِ ـ: أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَكُوْنَ سَائِقاً فِي الْقِطَارِ، فَأَرْكَبَ دَائِماً وأُسَافرَ مَجَّاناً وأَتَنَزَّهَ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمـٰنِ: إِنَّ سَائِقَ الْقِطَارِ فِيْ تعَبٍ عَظِيْم وَحَرٍّ وَجَحيمٍ(١)، وَلـٰكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ رُبَّاناً(٢) فِيْ بَاخِرَةٍ، فَأُسَافِرَ فِي البحرِ وَأَزُوْرَ البِلَادَ الْبَعِيْدَةَ مَجَّاناً وأُشَاهِدَ عَجَائِبَ الدُّنْيا.

وَقَالَ إِبْرَاهِيْمُ: الرُّبَّانُ وَبَاخِرَتهُ فِي خَطَرٍ مِنَ الْغَرَقِ، وَلـٰكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ طَبِيْباً فَأُدَاوِيَ(٣) النَّاسَ وَأُدَوِايَ الْفُقَرَاءَ مَجَّاناً،

---

(١) الجَحِيْمُ: النار الشديدة التأجج.

(٢) الربّان: جمعها: الرَّبَّابين والرَّبَابنة: رئيس الملاحين في السفينة.

(٣) دَاوَىٰ يُدَاوِيْ مُدَاوَاةً: الطبيبُ المَريضَ: عَالَجَهُ وَوَصَفَ له الدواءَ.



وَأَخْدِمَ الْخَلْقَ وَأُحَافِظَ عَلَىٰ صِحَّتِيْ وَأَعِيْشَ بِأَمْنٍ وَسَلَامٍ.

وَأَجَابَهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ وَقَالَ: هٰذَا لَيْسَ بِصَحِيْحٍ، لَيْسَتِ الْبَاخِرَةُ فِيْ خَطَرٍ فِيْ هٰذَا الزَّمَانِ، وَالْبَوَاخِرُ تُسَافِرُ دَائِماً فِيْ هٰذِهِ الأَيَّامِ بِأَمْنٍ وَسَلَامٍ، وَبِالْعَكْسِ أَرَىٰ الأَطِبَّاءَ يَمْرَضُونَ وَيَمُوتُوْنَ.

وَقَاطَعَهُ إِبْرَاهِيْمُ وَقَالَ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ بَاخِرَةً غَرِقَتْ قَبْلَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ.

وَأَرَادَ إِبْرَاهِيْمُ أَنْ يُجِيبَهُ وَلٰكِنْ قَالَ الْمُعَلِّمُ: هٰذَا لَيْسَ وَقْتَ مُنَاظَرَةٍ وَقَدْ بَقِيَ كَثِيرٌ مِنَ الطَّلَبَةِ، ومَاذا تَقُولُ يَا قَاسِمُ؟

قَالَ قَاسِمٌ: أَنَا لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ سَائِقاً أَوْ رُبَّاناً أَوْ طَبِيْباً، بَلْ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ فَلَّاحاً أَزْرَعُ وَأَحْرُثُ، وَلَا أَحدٌ يَخْدِمُ النَّاسَ وَيَنْفَعُهُمْ كَالْفَلَّاحِ، وَهُوَ الَّذي يَزْرَعُ الْحُبُوبَ وَالخُضَرَ فَيَأْكُلُ النَّاسُ والدَّوَابُّ.

وَقَالَ سُلَيْمَانُ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ تَاجِراً، لِيْ دُكَّانٌ كَبِيرٌ فِيْ سُوْقٍ كَبِيْرَةٍ، يَأْتِي النَّاسُ إِلَيَّ وَيَشْتَرُونَ.

وَقَالَ حَامِدٌ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ صَنَّاعاً مَاهِراً وَمُخْتَرِعاً، أَصْنَعُ وَأَخْتَرِعُ الأَشْيَاءَ الْعَجِيْبَةَ.

وَقَالَ خَالِدٌ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ جُنْدِيّاً قَوِياً، أُقَاتِلُ الْكُفَّارَ وَالْمُشْرِكِيْنَ وَأُجَاهِدُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيْمِ: أَنَا أَحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ غَنِياً كَبِيراً أَلْبَسُ مَا أُحِبُّ وَآكُلُ مَا أَشْتَهِيْ وَأُسَافِرُ إِلَىٰ أَيْنَ أُرِيْدُ، وَدَائِماً عِنْدِيْ مَالٌ كَثِيرٌ وَأَسْكُنُ فِيْ قَصْرٍ كَبِيْرٍ.

وَضَحِكَ الأَوْلَادُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ الْكَرِيْمِ، وَخَجِلَ عَبْدُ الْكَرِيْمِ.

وَقَالَ مُحَمَّدٌ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ عَالِماً أَخَافُ اللهَ وَأَعْبُدُهُ، وَأَعِظُ النَّاسَ وَآمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُحَذِّرُهُم(١) عَذَابَ اللهِ.

قَالَ الْمُعَلِّمُ: أَحْسَنْتُمْ يَا أَوْلَادِيْ، وَأَنَا أَدْعُوْ لَكُمْ بِالتَّوْفِيْقِ وَالنَّجَاحِ، وَلَكِنْ كُوْنُوا مُسْلِمِيْنَ، وَابْتَغُوا اللهَ بِعَمَلِكُمْ، وَانْفَعُوا الدِّيْنَ بِشُغْلِكُمْ، وَاخْدِمُوا الأُمَّةَ بِعِلْمِكُمْ.

قَالَ التَّلَامِيْذُ: وَمَاذَا تَقُوْلُ أَيُّهَا الأُسْتَاذُ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيْمِ وَقَصْرِهِ؟

قَالَ الْمُعَلِّمُ: الْمَالُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ يَجِبُ عَلَيْهَا الشُّكْرُ، وَسَعِيْدٌ جِدّاً مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً، وَيَبْتَغِي بِه مَرْضَاةَ اللهِ وَيَخْدِمُ بِهِ الإِسْلَام، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ

---

(١) حَذَّرَ: يُحْذِر تَحْذِيراً: نَبَّهَ.



عَلَىٰ هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِيْ بِهَا وَيُعَلِّمُهَا».

وَقَدْ كَانَ سَيِّدُنَا عُثْمَانُ غَنِيّاً، وَسَيِّدُنَا عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ بنُ عَوْفٍ غَنِيّاً.

وَرَفَعَ عَبْدُ الْكَرِيْمِ رَأْسَهُ وَقَالَ: سَأَجْتَهِدُ أَنْ أَخْدِمَ الإِسْلَامَ بِمَالِيْ وَأَبْتَغِيْ(١) بِهِ مَرْضَاةَ اللهِ.



---

(١) ابْتَغَىٰ: يَبْتَغِيْ ابْتِغَاءً: أرادَ وَطَلَبَ.



مسابَقَةٌ

كَانَتْ أَمْسِ مُسَابَقَةٌ فِي الْجَرْيِ فِيْ مَدْرَسَتِيْ، أَوَّلاً اخْتَارَ مُعَلِّمُ الرِّيَاضَةِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِيْنَ طَالِباً مِنْ جَمِيْعِ الصُّفُوْفِ هُمْ أَقْرَانٌ(١) وَأَكْفَاءٌ(٢)، وَأَوْقَفَهُمْ فِيْ صُفُوفٍ صَفّاً خَلْفَ صَفٍّ، وَفِيْ كُلِّ صَفٍّ ثَلاثَةٌ.

وَوَقَفَ الأُسْتَاذُ بِجَانِبٍ مِنْ هٰذِهِ الصُّفُوفِ، وَقَدَّمَ صَفّاً فِيْهِ مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيْمُ وَسَعِيدٌ، وَهُمْ أَقْرَانٌ وَأَكْفَاءٌ، وَقَالَ: قُوْمُوْا فِيْ صَفٍّ وَاحِدٍ وَعَلَىٰ خَطٍّ وَاحِدٍ، وَلَا يَتَقَدَّم مِنْكُمْ أَحَدٌ، وَكَانَ إِبْرَاهِيْمُ مُتَقَدِّماً قَلِيْلاً فَأَخَّرَهُ وَجَعَلَهُ فِي الصَّفِّ وَقَالَ: أَنَا أَعُدُّ لَكُمْ فَإِذَا قُلْتُ: وَاحِد فَسَوُّوا الصَّفَّ، وَإِذا قُلْتُ: اثْنَان، فَاسْتَعِدُّوْا واجْمَعُوْا ثِيَابَكُمْ، وَإِذا قُلْتُ: ثَلَاثَه، فَطِيْرُوْا. وَذَهَبَ

(١) الأَقْرَان: جمع القِرْن: للإنسان: مثله في الشجاعة والشدّة والعلم والقتال وغير ذٰلك.

(٢) الأَكْفَاء: جمع الكُفْءِ: المماثل والقوي القادر علىٰ تصريف العمل.

أَحَدُ الْمُعَلِّمِيْنَ إِلَىٰ آخِرِ المَيْدَانِ وَوَضَعَ هُنَالِكَ قَصَبَةً[١] وَقَالَ: هٰذِهِ هِيَ الْغَايَةُ.

وَقَالَ الأُسْتَاذُ: وَاحِدْ، وَوَقَفَ قَلِيْلاً، ثُمَّ قَالَ: اثْنَان، فَتَقَدَّمَ سَعِيْدٌ، فَقَالَ الأُسْتَاذُ: تَأَخَّرْ يَا سَعِيْدُ وَأَنَا أَعُدُّ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَقَالَ: وَاحِدْ، اثْنَانْ، ثَلَاثَةْ، فَطَارَ الأَوْلَادُ لَا يَدْرِيْ أَحَدٌ مَنِ السَّابِقُ، حَتَّى بَرَزَ مُحَمَّدٌ وَهَتَفَ[٢] الأَوْلَادُ بِاسْمِهِ، وَقَالُوْا: مُحَمَّد مُحَمَّد، وَصَاحُوْا: مَرْحَىٰ مَرْحَىٰ[٣]، وَكَانَ هُوَ الْمُجَلِّيَ[٤]، وَلَحِقَهُ إِبْرَاهِيْمُ فَكَانَ هُوَ الْمُصَلِّيَ[٥]، وَجَاءَ دَوْرِيْ وَقُمْتُ فِيْ أَقْرَانِيْ وَأَكْفَائِيْ، وَعَدَّ الأُسْتَاذُ: وَاحِدْ، اثْنَانْ، ثَلَاثَةْ، وَأَبْطَأْتُ قَلِيْلاً عِنْدَ الْجَرْيِ فَمَا قَدَرْتُ أَنْ أَسْبقَ وأَكُوْنَ الْمُجَلِّي، وَوَصَلْنَا إِلَىٰ الْغَايَةِ وَكُنْتُ الْمُصَلِّيَ.

وَكَانَ خَالِدٌ الْمُجَلِّيَ، فَهَتَفَ الأَوْلَادُ بِاسْمِهِ وَقَالُوا: مَرْحَىٰ مَرْحَىٰ، وَكَانَ إِخْوَانِيْ يَظُنُّوْنَ أَنِّيْ أَنَا الْمُجَلِّيَ، لأَنِّي خَفِيْفٌ

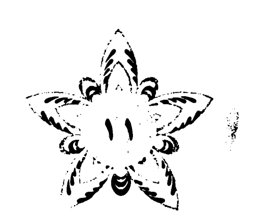
---

(١) القَصَبَة: جمعها: القَصَبَات: كل أنبوبة في ساق الشَّجَر تنتهي بعقدتين.
(٢) هَتَفَ: يَهْتِفُ هَتْفاً به: صَاحَ به.
(٣) مَرْحَىٰ: كلمة تعجُّب: تقال للرَّامي أو الخطيب أو نحوهما إذا أصاب وإذا أخطأ قيل له: مَرْحَىٰ.
(٤) المُجَلِّي: أي السابق الأول في الحَلْبَة.
(٥) المُصَلِّي: أي الفائز الثاني في الحَلْبَة.

وَسَرِيْعٌ وَأَجْرِي كُلَّ يَوْمٍ، وَتَأَسَّفْتُ أَيْضاً، ولـٰكِنِّي قُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ: سَأَسْبقُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَ انْتِهَاءِ السَّنَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَخَطَبَ الأُسْتَاذُ فِي الأَخِيْرِ، وَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُسَابِقُ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَتَسَابَقُوْنَ، وَيَنْبَغِيْ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُوْنَ نَشِيْطاً خَفِيفاً قَوِيّاً حَتَّىٰ لَا يَعْجزُ فِي الْجِهَادِ.





السَّاعَةُ

حَارِثٌ: كَمِ السَّاعَةُ يَا أَخِيْ؟

سَعِيْدٌ: السَّاعَةُ عَشْرٌ وَرُبْعٌ أَلَيْس عِنْدَكَ سَاعَةٌ؟

حَارِثٌ: بَلَىٰ! وَلَـٰكِنَّ سَاعَتِيْ وَاقِفَةٌ.

سَعِيْدٌ: لَعَلَّكَ مَا مَلأْتَهَا.

حَارِثٌ: نَعَمْ! نَسِيْتُ أَنْ أَمْلأَهَا الْبَارِحَةَ، أَنَا أَمْلَؤُهَا فِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ فِي اللَّيْلِ، وَلـٰكِنِّيْ غَلَبَتْنِيْ عَيْنِيْ الْبَارِحَةَ فَقَدْ كُنْتُ تَعِباً جِدّاً فَمَا مَلأْتُهَا.

سَعِيْدٌ: هَلْ تُرِيْدُ ضَبْطَهَا[1] بِسَاعَتِيْ؟

حَارِثٌ: نَعَمْ! أَضْبِطُهَا بِسَاعَتِكَ إِذَا كَانَتْ سَاعَتُكَ مُسْتَقِيْمَةً.

---

(١) ضَبَطَ: يَضْبُطُ ضَبْطاً: فلانٌ الساعةَ: صَحَّحَها.

سَعِيْدٌ: سَاعَتِيْ تَتَقَدَّمُ دَقِيْتَيَنْ فِيْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِيْنَ سَاعَةً وَقَدْ ضَبَطْتُّهَا الْبَارِحَةَ فَأَخَّرْتُهَا دَقِيْقَتَيْنِ.

حَارِثٌ: كَمِ السَّاعَةُ الآنَ؟

سَعِيْدٌ: الآنَ عَشْرٌ وَثُلُثٌ.

حَارِثٌ: أَشْكُرُكَ، أَرِنِيْ سَاعَتَكَ.

سَعِيدٌ: تَفَضَّلْ.

حَارِثٌ: إِنَّ سَاعَتَكَ ثَمِيْنَةٌ وَجَمِيْلَةٌ، مِيْنَاؤُهَا جَمِيْلٌ، وَعَقَارِبُهَا دَقِيْقَةٌ، وَغِطَاؤُهَا نَظِيْفٌ، بِكَمْ اشْتَرَيْتَهَا يَا سَعِيْدُ؟

سَعِيْدٌ: أَهْدَاهَا إِلَيَّ أَخِيْ الْكَبِيْرُ، وَأَخْبَرَنِيْ أَنَّهُ اشْتَرَاهَا بِثَلاثِيْنَ رُبِّيَّةً، وَسَاعَتُكَ بِكَمْ؟

حَارِثٌ: سَاعَتِيْ أَرْخَصُ مِنْهَا، فَإِنَّهَا بِعِشْرِيْنَ رُبِّيَّةً، قَدْ أَهْدَاهَا إِلَيَّ عَمِّيْ لَمَّا رَجَعَ مِنَ السَّفَرِ.

سَعِيْدٌ: إِنَّ السَّاعَةَ لَازِمَةٌ(١) فِيْ هٰذَا الزَّمَانِ، فَبِالسَّاعَةِ يَعْرِفُ التِّلْمِيْذُ مِيْعَادَ(٢) الْمَدْرَسَةِ، وَبِالسَّاعَةِ يَعْرِفُ الْمُسْلِمُ أَوْقَاتَ الْجَمَاعَةِ وَالصَّلَوَاتِ.

حَارِثٌ: نَعَمْ! أَنَا كُنْتُ أَتَأَخَّرُ عَنْ مِيْعَادَ الْمَدْرَسَةِ فِيْ بَعْضِ

---

(١) لَازمة: ضرُوْرِيّة.

(٢) الميعاد: الوقت.

الأَيَّام وَتَفُوْتُنِي الْجَمَاعَةُ أَحْيَاناً، وَلـكِنْ مُنْذُ اشْتَرَيْتُهَا لَمْ أَتَأَخَّرْ عَنِ الْمَدْرَسَةِ وَمَا فَاتَتْنِي جَمَاعَةٌ.

سَعِيْدٌ: أَسْتَأْذِنُكَ لأَنِّيْ مُسَافِرٌ الْيَوْمَ وَمِيْعَادُ الْقِطَارِ السَّاعَةُ اثْنَتَا عَشَرَةَ إِلَّا عَشْراً.

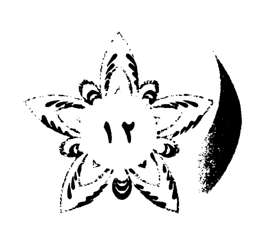
حَارِثٌ: الْوَقْتُ وَاسِعٌ، فَلَيْسَ الآنَ إِلَّا عَشْرٌ وَنِصْفٌ، وَالْمَحَطَّةُ قَرِيْبَةٌ مِنْ بَيْتِكَ.

سَعِيْدٌ: نَعَمْ! الوقتُ واسِعٌ، وَلـكِنْ لِيْ شُغْلٌ فِي السُّوْقِ وَلَمْ أَرْبِط الْحَوَائِجَ إِلَىٰ الآنَ.

حَارِثٌ: عَلَىٰ بَرَكَةِ اللهِ، السَّلَامُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ اللهِ.

سَعِيْدٌ: وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.





الْفُطُورُ

طَلَبْتُ مِنْ أَبِيْ وَأُمِّيْ أَنْ أَصُوْمَ يَوْماً مِنْ رَمَضَانَ، فَقَالَ أَبِيْ: إِنَّكَ صَغِيْرٌ ضَعِيْفٌ لَا تَصْبِرُ عَلَىٰ الْجُوْعِ وَالْعَطَشِ، وَقَالَتْ أُمِّيْ: هٰذِهِ أَيَّامُ صَيْفٍ، وَالصَّوْمُ فِيْهَا شَدِيْدٌ، اصْبِرْ حَتَّىٰ تَكُوْنَ أَيَّامُ شِتَاءٍ.

وَلٰكِنِّيْ بَكَيْتُ وَقُلْتُ: قَدْ صَامَ مَحْمُوْدٌ وَهُوَ فِيْ سِنِّيْ، وَقَدْ صَامَ إِسْماعِيْلُ وَهُوَ أَصْغَرُ مِنِّيْ، وَلِمَاذَا أَنْتَظِرُ أَنَا؟

وَقَدْ رَأَيْتُ مَحْمُوْداً لَمَّا صَامَ لَبِسَ لِبَاساً جَدِيْداً، وَصُنِعَتْ لَهُ أَطْعِمَةٌ لَذِيْذَةٌ، وَقَدَّمَ لَهُ أَقَارِبُهُ هَدَايَا وَجَوَائِزَ، وَاجْتَمَعَ نَاسٌ كَثِيْرٌ، وَكَانَ مَحْمُودٌ لَهُ شَرَفٌ(١)، كُلٌّ يَتَحَادَثُ مَعَهُ وَيُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ.

وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الْوَلَدَ الصَّغِيْرَ إِذَا صَامَ كَانَ لِوَالِدَيْهِ الأَجْرُ وَالثَّوَابُ، وَأُحِبُّ أَنْ يَنَالَ أَبِيْ وَأُمِّي الأَجْرَ وَالثَّوَابَ.

---

(١) الشَّرَفُ: جمعها: الأَشْرَاف: العُلُوّ والمَجْد.



وَقَبِلَ أَبِيْ وَرَضِيَتْ أُمِّيْ، وَدَعَتْ أُمِّيْ أَصْدِقَائِي وَأَتْرَابِي(١) لِلسُّحُوْرِ مَعِيْ، فَبَاتُوْا فِيْ بَيْتِيْ، وَفِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فِيْ اللَّيْلِ اسْتَيْقَظْنَا وَقَدَّمَتْ أُمِّيْ طَعَاماً لَذِيْذاً، فَأَكَلْنَا وَشَبِعْنَا وَنِمْنَا قَلِيْلاً وَاسْتَيْقَظْنَا لِصَلَاةِ الصُّبْحِ.

وَفِي النَّهَارِ أَرَادَتْ أُمِّيْ أَنْ تَشْغُلَنِيْ فَلَا أَذْكُرُ الْجُوْعَ وَالْعَطَشَ، فَأَمَرَتْنِيْ بِأَشْغَالٍ لَيْسَ فِيْهَا تَعَبٌ، وَكُنْتُ فِيْ شُغْلٍ وَحَدِيْثٍ مَعَ الأَصْدِقَاءِ وَالأَتْرَابِ، حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ وَمَا شَعَرْتُ بِجُوْعٍ وَلَا عَطَشٍ.

وَفِي الظَّهِيْرَةِ شَعَرْتُ بِظَمَأٍ وَحَرٍّ فَاغْتَسَلْتُ فَذَهَبَ عَنِّي الظَّمَأُ وَاسْتَرَحْتُ.

وَفِي الْعَصْرِ شَعَرْتُ بِالْجُوْعِ وَرَأَيْتُ أَطْعِمَةً وَثِمَاراً وَفَوَاكِهَ، وَقَالَ لِيْ أَحَدُ الأَصْدِقَاءِ: لا بَأْسَ أَنْ تَأْكُلَ شَيْئاً وَلَا يَرَاكَ الآنَ أَحَدٌ، وَقَدْ أَكَلْتُ أَيْضاً لَمَّا كُنْتُ صَائِماً، قُلْتُ: نَعَمْ! لَا يَرَانِي هُنَا أَحَدٌ وَلٰكِنَّ اللهَ يَرَانِيْ.

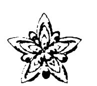
وَسَكَتَ صَدِيْقِيْ وَصَبَرْتُ عَلَىٰ الْجُوْعِ.

وَقَبْلَ الْغُرُوْبِ حَضَرَ أَصْدِقَاءُ أَبِيْ وَأَقَارِبُنَا، وَنُقِلَ الْفُطُوْرُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ الْوَقْتُ شَدِيداً عَلَيَّ فَكُنْتُ أَرْمُقُ(٢) الْمُؤَذِّنَ

---

(١) الأَتْرَاب: جمع التِّرْب: المُمَاثل في السنّ (للمذكّر والمؤنّث).

(٢) رَمَقَ يَرْمُقُ: نَظَرَ إِليه وأَتْبَعَه بصره.



وَأَعُدُّ الدَّقَائِقَ، فَلَمَّا أَذَّنَ أَفْطَرْتُ بِتَمْرَةٍ ثُمَّ أَكَلْتُ وَشَرِبْتُ وَقُلْتُ كَمَا عَلَّمَنِيْ أَبِيْ:

«ذَهَبَ الظَّمَأُ وَابْتَلَّتِ الْعُرُوْقُ وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ».

وَمَا أَكَلْتُ طَعَاماً أَلَذَّ مِنْ طَعَامِ ذٰلِكَ الْيَوْمِ، وَمَا كَانَ يَوْمٌ أَجْمَلَ فِيْ حَيَاتِيْ مِنْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ.





الأَمَانَةُ

اسْتَأْجَرَ رَجُلٌ قَوْماً، فَاشْتَغَلُوْا وَعَمِلُوْا، وَلَمَّا فَرَغُوْا مِنْ شُغْلِهِمْ جَاؤُوا إِلَيْهِ فَأَعْطَاهُمْ أَجْرَهُمْ، وَكَانَ فِيْهِمْ رَجُلٌ اشْتَغَل مَعَهُمْ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَأْخَذْ أَجْرَهُ وَتَرَكَهُ وَذَهَبَ.

وَكَانَ الرَّجُلُ كَرِيْماً أَمِيْناً، فَلَمْ يَأْكُلْ أُجْرَتَهُ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا، وَخَافَ اللهَ وَوَضَعَهَا فِي التِّجَارَةِ، وثَمَّرَهَا[1] وَأَثْمَرَتِ الأُجْرَةُ كَثِيْراً، وَكَثُرَت مِنْهَا الأَمْوَالُ.

وَبَعْدَ حَيْنٍ جَاءَهُ الأَجِيْرُ وَهُوَ خَائِفٌ أَنْ لَا يَعْرِفَهُ الرَّجُلُ، فَقَدْ طَالَتِ الْمُدَّةُ، وَمَضَىٰ زَمَنٌ كَثِيْرٌ، وَمَاذَا يَفْعَلُ الْمِسْكِيْنُ إِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ الرَّجُلُ أَوْ نَسِيَ قِصَّتَهُ.

جَاءَ الأَجِيْرُ وَهُوَ لَا يَطْمَعُ إِلَّا فِي أُجْرَتِهِ الْقَلِيْلَةِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ، وَإِذَا جَحَدَهَا[2] الرَّجُلُ وَلَمْ يَدْفَعْهَا رَجَعَ خَائِباً.

---

(١) ثَمَّرَ: يُثَمِّرُ تَثْمِيْراً فلانٌ مالهُ: نَمَّاه.

(٢) جَحَدَ: يَجْحَدُ جَحْداً وجُحُوْداً فلانٌ الأَمْرَ: أَنْكَرَه مع علمه به.

وَلٰكِنَّهُ جَاءَهُ لأَنَّه يَحْتَاجُ إِلَىٰ هٰذِهِ الدَّرَاهِم، فَقَالَ: يا عَبْدَ اللهِ! أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِيْ، فَمَا جَحَدَ الرَّجُلُ وَمَا أَنْكَرَ، بَلْ قَالَ: كُلُّ مَا تَرَىٰ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيْقِ مِنْ أَجْرِكَ.

دُهِشَ الرَّجُلُ وَتَحَيَّرَ وَظَنَّ أَنَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِيْ.

قَالَ الرَّجُلُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَكُلُّ مَا تَرَى مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيْقِ لَكَ، فَإِنِّيْ قَدْ وَضَعْتُ أُجْرَتَكَ فِي التِّجَارَةِ، وَثَمَّرْتُهَا وَأَثْمَرَتْ هٰذِهِ الإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالرَّقِيْقَ(١).

فَأَخَذَ الأَجِيْرُ الإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالرَّقِيْقَ وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئاً.

وَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَىٰ هٰذِهِ الأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ وَالْكَرَم.

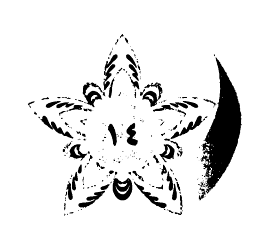
وَقَدْ وَقَعَ هٰذَا الرَّجُلُ الأَمِيْنُ مَرَّةً فِيْ غَارٍ، وَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِ(٢) صَخْرَةٌ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ دَعَا اللهَ بِهٰذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقَالَ: اللهم إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذٰلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَاكْشِفْ عَنَّا هٰذِهِ الصَّخْرَةَ، فَأَجَابَ اللهُ دَعْوَتَهُ وَأَعَانَهُ.



---

(١) الرَّقِيْق: جمعها: الأَرِقَّاء: مملوك، عبد.

(٢) انْطَبَقَ عليه الشيء: غطاه وَستره.



الصَّيْدُ

خَرَجْتُ يَوْمَ عُطْلَةٍ مَعَ صَيَّادِيْنَ عِنْدَهُمْ بَنَادِقُ وَسَكَاكِيْنُ، خَرَجْنَا مُبَكِّرِيْنَ فِي الصَّبَاحِ لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ، وَكَانَ مَعِيْ كَثِيْرٌ مِنْ أَتْرَابِيْ وَأَصْدِقَائِيْ، وَأَخَذْنَا غَدَاءَنَا مَعَنَا لِنَتَغَدَّىٰ إِذَا غَلَبَنَا الْجُوْعُ، وَكُنَا نُرِيْدُ أَنْ نَرْجِعَ فِي الْمَسَاءِ.

وَلَمْ نَزَلْ نَمْشِي فِي الْحَرِّ وَالشَّمْسِ حَتَّىٰ تَعِبْنَا، وَغَلَبَنَا الْجُوْعُ وَالظَّمَأُ، وَكَانَ الْغَدَاءُ مَعَ خَلِيْلٍ، وَقَدْ ضَلَّ[1] الطَّرِيْقَ، وَمَا وَجَدْنَا طَعَاماً وَلَا مَاءً.

وَانْتَصَفَ النَّهَارُ وَجَلَسْنَا فِيْ ظِلِّ شَجَرَةٍ نَنْتَظِرُ خَلِيْلاً، وَبَرَزَ خَلِيْلٌ مِنْ بُعْدٍ فَنَادَيْنَاهُ بِاسْمِهِ وَحَمِدْنَا اللهَ، وَتَغَدَّيْنَا وَاسْتَرَحْنَا قَلِيْلاً، ثُمَّ خَرَجْنَا.

وَدَخَلْنَا فِي الْغَابَةِ وَوَجَدْنَا آثَارَ بَقَرِ الْوَحْشِ فَتَفَرَّقْنَا وَجَلَسْنَا

---

(١) ضَلَّ: يَضِلُّ ضَلالاً: فلانٌ الطريقَ: غَابَ وَضَاعَ ولم يهتدِ إليه.

بِالْمِرْصَادِ[١] وَخَرَجَتْ بَقَرَةٌ مِنَ بَيْنِ الأَشْجَارِ، وَكَانَ السَّيِّدُ إِسْمَاعِيلُ مُسْتَعِدّاً فَصَوَّبَ[٢] إِلَيْهَا بُنْدُقِيَّتَه، وَأَطْلَقَ الرَّصَاصَةَ وَأَصَابَ الْبَقَرَةَ فِيْ صَدْرِهَا، فَسَقَطَتْ جَرِيْحَةً تَضْرِبُ بِرِجْلَيْهَا.

وَسَمِعَ الإِخْوَانُ صَوْتَ الْبُنْدُقِيَّةِ فَجَاؤُوا، وَذَبَحَهَا يَاقُوتُ بِسِكِّيْنٍ كَبِيْرٍ حَادٍّ وَسَمَّىٰ اللهَ وَكَبَّرَ، وَكُنَّا نَتَكَلَّمُ وَكُنَّا مُطْمَئِنِّيْنَ إِذْ خَرَجَتْ بَقَرَةٌ أُخْرَىٰ، فَأَطْلَقَ عَلَيْهَا هَاشِمٌ بُنْدُقِيَّتَهُ بِسُرْعَةٍ، وَمَا قَدَرَ أَنْ يُصَوِّبَ الْبُنْدُقِيَّةَ، فَأَخْطَأَتِ الرَّصَاصَةُ وَمَا صَادَتِ الْبَقَرَةَ وَتَأَسَّفَ هَاشِمٌ وَتَأَسَّفَتِ الْجَمَاعَةُ.

وَصِدْنَا حَمَامَتَيْنِ بِرَصَاصَةٍ وَبَطَّتَيْنِ بِرَصَاصَتَيْنِ، وَكَانَ عِنْدِيْ سِكِّيْنٌ صَغِيرٌ حَادٌّ فَذَبَحْتُ الْبَطَّتَيْنِ، وَسَمَّيْتُ اللهَ وَكَبَّرْتُ.

وَقُلْتُ لِلسَّيِّدِ إِسْمَاعِيلَ: أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَصِيْدَ أَيْضاً، فَأَعْطَانِيْ بُنْدُقِيَّتَهُ وَوَضَعَ فِيْهَا رَصَاصَةً، وَكُنْتُ أَعْرِفُ كَيْفَ أُصَوِّبُ الْبُنْدُقِيَّةَ وَكَيْفَ أُطْلِقُهَا؛ لأَنَّيْ أَطْلَقْتُ الْبُنْدُقِيَّةَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوْ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَذَهَبْتُ وَجَلَسْتُ بِالْمِرْصَادِ، وَجَاءَ حَمَامٌ وَوَقَعَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ قَرِيْبَةٍ، وَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّتِي نَحْوَ الْحَمَامِ، وَأَطْلَقْتُ الْبُنْدُقِيَّةَ، فَأَصَبْتُ حَمَامَتَيْنِ وَفَرِحْتُ جِداً لَمَّا أَصَبْتُ الْحَمَامَتَيْنِ وَكَبَّرْتُ مِنَ الْفَرَحِ.

---

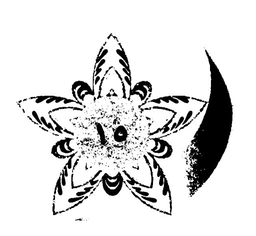
(١) **الْمِرْصَادُ**: جمعها: المَرَاصِيدُ: طَرِيْق الرَّصْدِ والمُرَاقَبَة.

(٢) صَوَّبَ: يُصَوِّبُ تَصْوِيْباً: البندقية والسهم ونحوهما وجهها إلىٰ الهدف.

وَجَاءَ الإِخْوَانُ وَقَالُوْا: مَرْحَىٰ مَرْحَىٰ، وَقَالُوا: مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ خَالِداً صَيَّادٌ.

وَمَا رَضِيْتُ أَنْ يَذْبَحَهُمَا أَحَدٌ، فَذَهَبْتُ وَسَمَّيْتُ اللهَ وَذَبَحْتُ الْحَمَامَتَيْنِ بِسِكِّيْنِي الصَّغِيْرِ الْحَادِّ، وَرَجَعْنَا إِلَىٰ الْقَرْيَةِ فِي الْمَسَاءِ بِصَيْدٍ كَثِيْرٍ، وَقُطِّعَتِ الْبَقَرَةُ قِطَعاً قِطَعاً، وَأَهْدَيْنَا لَحْمَهَا إِلَىٰ جَمِيْعِ الأَصْدِقَاءِ وَالأَقَارِبِ وَأَهْلِ الْقَرْيَةِ، فَأَكَلُوا وَشَبِعُوْا وَشَكَرُوْا الصَّيَّادِيْنَ.





مأدُبَةٌ

رَجَعَ أَخِيْ مِنَ الْحَجِّ، فَفَرِحَ أَهْلُ الْبَيْتِ كَثِيْراً وَفَرِحَتْ أُمِّيْ جِدّاً، وَصَنَعَتْ أُمِّيْ طَعَاماً، وَدَعَتْ إِلَيْهِ الأَقَارِبَ وَالأَصْدِقَاءَ وَكَثِيراً مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ.

وَفَرِحْنَا جِدّاً، وَفَرَشْنَا فِرَاشاً نَظِيْفاً أَمَامَ الْبَيْتِ وَكَانَتْ أَيَّامُ صَيْفٍ، وَوَضَعْنَا أَبَارِيْقَ(١) فِيْهَا مَاءٌ لِغَسْلِ الأَيْدِيْ، وَوَضَعْنَا صَابُوْناً وَمِنْشَفَةً، وَبَسَطْنَا سُفْرَةً(٢) وَاسِعَةً، حَضَرَ النَّاسُ فِي الْمَسَاءِ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ أَخِيْ وَقُلْنَا: مَرْحَباً، وَجَلَسُوا قَلِيْلاً وَحَضَرَ الطَّعَامُ، فَجَلَسَ الضُّيُوفُ حَوْلَ السُّفْرَةِ، وَقَدَّمْنَا الرَّغِيْفَ الْحَارَّ وَاللَّحْمَ وَالرُّزَّ فِيْ صُحُونٍ، وَالرَّائِبَ(٣) فِيْ أَقْدَاحٍ، فَسَمَّوُا اللهَ وَأَكَلُوْا.

---

(١) أَبَارِيق: جمع إبْرِيْق: وعاء من الخزف أو المعدن له عروة ومصبّ خرطوميّ الشكل يصبّ منه الماء ونحوه.

(٢) سُفْرَة: جمعها: سُفَر: المائدة وما عليها من الطَّعامِ.

(٣) الرَّائبُ: اللَّبَنُ الَّذِي يُخضّ فيخرج زبدة.

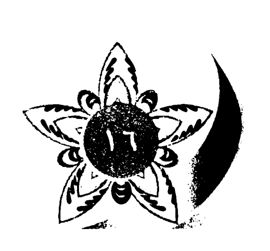
وَكُنَّا قَائِمِيْنَ نُلَاحِظُ الضُّيُوْفَ، وَنُقَدِّمُ لَهُمُ الْخُبْزَ وَالطَّعَامَ، وَنَسْقِيْهِمُ الْمَاءَ الْمَثْلُوجَ، وَأَصَابَ النَّاسَ مِنْ كُلٍّ مِنَ الطَّعَامِ وَأَكَلُوْا بِرَغْبَةٍ وَحَمِدُوا اللهَ.

وَقَامُوْا وَغَسَلُوا أَيْدِيَهُمْ وَمَسَحُوْهَا بِالْمِنْشَفَةِ، وَجَلَسُوْا إِلَىٰ أَخِيْ يَتَحَدَّثُوْنَ وَيَتَكَلَّمُوْنَ وَيَسْمَعُوْنَ مِنْهُ أَخْبَارَ الْحِجَازِ وَحَدِيْثَ مَكَّةَ الْمُشَرَّفَةَ وَالْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَمِنَىٰ وَعَرَفَاتٍ بِكُلِّ رَغْبَةٍ وَسُرُوْرٍ، وَاشْتَاقُوا إِلَىٰ الْحجِّ، وَدَعَوُا اللهَ أَنْ يُوَفِّقَهُمْ لِذٰلِكَ.

ثُمَّ اسْتَأْذَنُوْا لِلْخُرُوْجِ وَقَامُوْا يَقُوْلُونَ:

«أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُوْنَ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ».





برُّ الْوَالِدَيْنِ

كَانَ رَجُلٌ لَهُ أَبَوَانِ كَبِيْرَانَ وَأَوْلَادٌ صِغَارٌ، وَكَانَ بَرّاً بِالْوَالِدَيْنِ شَفِيْقاً عَلىٰ الأَوْلَادِ.

وَكَانَ يَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الصَّبَاحِ إِلَىٰ الْمَرْعَىٰ، وَيَرْعَىٰ الْمَاشِيَةَ، وَيَرْجِعُ بِهَا فِي الْعِشَاءِ، فَيَحْلِبُهَا(١) وَيَسْقِيْ وَالِدَيْهِ وَأَوْلَادَهُ الصِّغَارَ.

وَكَانَ أَبَوَاهُ وَأَوْلَادُهُ الصِّغَارُ يَنْتَظِرُوْنَ قُدُوْمَهُ، وَلَا يَنَامُوْنَ حَتَّى يَحْضُرَ الرَّجُلُ وَيَسْقِيَهُمُ اللَّبَنَ.

مَرَّةً ذَهَبَ الرَّجُلُ بِالْمَاشِيَةِ إِلَىٰ الْمَرْعَىٰ(٢)، فَبَعُدَ فِيْ طَلَبِ الشَّجَرِ وَالْعَلَفِ(٣) فَتَأَخَّرَ ذٰلِكَ الْيَوْمَ، فَرَجَعَ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَقَدْ ذَهَب كَثِيرٌ مِنَ اللَّيْلِ.

---

(١) حَلَبَ: يَحْلِبُ حَلْباً ـ الشاة ونحوها: اسْتَخْرَجَ ما في ضَرْعها من اللبن.

(٢) مَرْعىٰ: جمعها: مَرَاعٍ: ما ترعاه الماشية، وموضع الرعي.

(٣) عَلَف: جمعها: أعْلَاف وعِلَاف: طَعَامُ الحيوان.

وَانْتَظَرَ أَبُوْهُ وَأُمُّهُ طَوِيْلاً، وَكَانَ أَبُوهُ جَائِعاً وَكَانَتْ أُمُّهُ جَائِعَةً، وَرَقَدَ[١] أَبُوهُ وَرَقَدَتْ أُمُّهُ بَعْدَ الانْتِظَارِ الطَّوِيْلِ.

وَرَجَعَ الرَّجُلُ وَدَخَلَ الْبَيْتَ، فَوَجَدَ أَنَّ أَبَاهُ الشَّيْخَ قَدْ رَقَدَ، وَأَنَّ أُمَّهُ الْعَجُوْزَ قَدْ رَقَدَتْ.

فَتَأَسَّفَ الرَّجُلُ وَحَزِنَ كَثِيْراً وَنَدِمَ عَلَىٰ تَأَخُّرِهِ، وَقَالَ: أَسَفاً إِنِّي تَأَخَّرْتُ الْيَوْمَ فِي الْمَرْعَىٰ وَبَعُدْتُ فِيْ طَلَبِ الشَّجَرَ وَالْعَلَفِ لأَرْعَىٰ الْمَاشِيَةَ حَتَّىٰ رَقَدَ الشَّيْخُ وَرَقَدَتِ الْعَجُوزُ.

وفَكَّرَ الرَّجُلُ هَلْ يُوْقِظُ الشَّيْخَ وَالْعَجُوْزَ؟

وَكَرِهَ الرَّجُلُ أَنْ يُوْقِظَ الشَّيْخَ والْعَجُوْزَ.

وَكَانَ أَهْلُهُ وَأَوْلَادُهُ يَنْتَظِرُوْنَهُ وَكَانُوْا جِيَاعاً فَطَلَبُوا مِنْهُ اللَّبَنَ.

وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ كَرِهَ[٢] أَنْ يَسْقِيَ أَهْلَهُ وَأَوْلَادَهُ قَبْلَ وَالِدَيْهِ، وَخَافَ اللهَ وَقَالَ: كَيْفَ أَسْقِيْكُمْ وَلَمْ أَسْقِهِمْ، إِنِّي إِذاً لَمِن الظَّالِمِيْنَ.

وَحَلَبَ الرَّجُلُ الْمَاشِيَةَ وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ أَنْ يَسْتَيْقِظَ أَبَوَاهُ، وَبَقِيَ وَاقِفاً وَالْقَدَحُ عَلَىٰ يَدِهِ، وَالأَطْفَالُ يَبْكُونَ وَيَصِيْحُوْنَ عِنْدَ

---

(١) رَقَدَ: يَرْقُدُ رُقَاداً ورُقُوداً: نَامَ.
(٢) كَرِهَ: يَكْرَهُ كَرَاهةً: فلانٌ الرجلَ: مَقَتَهُ (عَكسهُ أَحبَّه).

قَدَمِهِ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْقِهِمْ شَيْئاً مِنَ الْقَدَحِ وَلَمْ يَشْرَبْ، وَبَاتَ قَائِماً وَالْقَدَحُ عَلَىٰ يَدِهِ.

وَطَلَعَ الْفَجْرُ وَاسْتَيْقَظَ وَالِدَاهُ، فَقَدَّمَ الرَّجُلُ لَهُمَا قَدَحَ اللَّبَنِ فَشَرِبَا ثُمَّ سَقَىٰ أَوْلَادَهُ، وَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْ هٰذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ بَرّاً بِالْوَالِدَيْنِ، رَضِيَ اللهُ عَنْ هٰذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَقَبِلَهُ.

وَمَرَّةً كَانَ هٰذَا الرَّجُلُ الْبَرُّ مَاشِياً فِي اللَّيْلِ، فَرَأَىٰ غَاراً، فَقَالَ: أَبِيتُ اللَّيْلَ فِيْ هٰذَا الْغَارِ وَأَخْرُجُ فِي الصَّبَاحِ.

وَدَخَلَ الْغَارَ لِيَبِيْتَ فَانْحَدَرَتْ(١) صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِ(٢) الْغَارَ. فَدَعَا اللهَ بِهٰذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقَالَ:

اللهم إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّيْ فَعَلْتُ ذٰلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَاكْشِفْ هٰذِهِ الصَّخْرَةَ، فَأَجَابَ اللهُ دَعْوَةَ هٰذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ وَأَعَانَهُ.



---

(١) انْحَدَرَ: يَنْحَدِرُ انْحِدَاراً: نَزَلَ وأَقْبَلَ.

(٢) سَدَّ: يَسُدُّ سَدّاً علىٰ الشيء: أغْلَقَه.



فَضِيلَةُ الشُّغل

إِنَّ رَجلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: أَمَا فِيْ بَيْتِكَ شَيْءٌ؟

قَالَ: بَلَىٰ حِلْسٌ[١] نَلْبَسُ بَعْضَهُ، وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ[٢] نَشْرَبُ فِيْهِ مِنَ الْمَاءِ.

قَالَ: ائْتِنِيْ بِهِمَا.

فَأَخَذَهُمَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِيْ هـٰذَيْنِ؟

قال رجلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ.

قال: مَنْ يَزِيْدُ عَلَىٰ دِرْهَمٍ؟ مَنْ يَزِيْدُ عَلَىٰ دِرْهَمٍ؟

قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ.

فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَاريَّ وَقَالَ:

---

(١) حِلْسُ: جمعها: أحلاس: ما يُبْسَطُ في البَيْتِ من حصير ونحوه تحت كريم المتاع.

(٢) قَعْب: جمعها: قِعَاب، وأَقْعُبٌ: قَدَحٌ ضَخْمٌ غَلِيْظٌ.

اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَاماً فَانْبِذْهُ إِلَىٰ أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُوْماً فَائتِنِيْ بِهِ.

فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُوْداً بِيَدِهِ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ(١) وَبِعْ وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً.

فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيْعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ(٢) عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَىٰ بِبَعْضِهَا ثَوْباً وَبِبَعْضِهَا طَعَاماً.

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «هٰذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيْءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً(٣) فِيْ وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».



---

(١) احْتَطَبَ: يَحْتَطِبُ احْتِطَاباً، حَطَبَ (أي: جَمَعَ الْحَطَبَ).

(٢) أَصَابَ: يُصِيْبُ إِصَابَةً: الشيء: أَدْرَكَه.

(٣) نُكْتَة: جمعها: نُكَت ونِكَاتُ: نقطة سوداء في بياض أو بيضاء في سواد، وجمْلة لطيفة تؤثِّر في النفس انبساطاً، ومسألة علمية دقيقة.

١٨

تَرْنِيمَة[١] الْوَلَدِ فِي الصَّبَاحِ

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ وَقَدْ وَلَّىٰ[٢] الظَّلَامُ هَارِبَا
فَالشُّكْرُ لِلهِ الأَحَدْ شُكْراً عَظِيْماً وَاجِبَا
مَا أَحْسَنَ النُّوْرَ أَرَىٰ فِيْهَا الأُمُوْرَ بَاسِمَهْ
وَالطَّيْرُ تَشْدُوْ[٣] سَحَراً عَلَىٰ الغُصُونِ قَائِمَهْ
مَا أَحْسَنَ النُّوْرَ الْبَهِي[٤] فِيْهِ أَجِدُّ عَامِلا
إِنِّي أَوَدُّ دَائِماً أَلَّا أَكُونَ خَامِلا[٥]
اللهُ قَدْ أَجَارَنِيْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الظَّلَامِ

---

(١) ترْنِيْمة: جمعها: تَرَانِيْم: أغنية صغيرة خفيفة اللحن.
(٢) وَلَّى الظَّلامُ هارباً: أَدْبَرَ عنه ونَأىٰ (بَعُدَ).
(٣) شَدَا: يَشْدُو شَدْواً: تَرنَّمَ وَتَغَنَّىٰ.
(٤) بَهِيّ: جمع أَبْهِيَاء: رائع الحسن.
(٥) خَامِل: جمعها: خَمَلَة، مجهول الاسم لا نَبَاهَةَ له.

شُكْراً لَهُ قَدْ صَانَنِيْ   شُكْراً لَهُ عَلَىٰ الدَّوَامِ

(مدارج القراءة)





أَصْدِقَائِي

لِيْ أَرْبَعَةُ أَصْدِقَاءَ: حَسَنٌ، وَقَاسِمٌ، وَعُمَرُ، وَمُحَمَّدٌ.

أَمَّا حَسَنٌ فَوَلَدٌ مُهَذَّبٌ حَلِيمٌ(١)، لا يَكْذِبُ وَلَا يَغْضَبُ، أُحِبُّهُ لأَدَبِهِ وَحِلْمِهِ، وَهُوَ رَفِيْقِي فِي الْمَدْرَسَةِ، وَجَارِيْ فِي الْحَيِّ، وَصَدِيْقِيْ مُنْذُ أَرْبَعِ سِنِيْنَ.

وَهُوَ يَسْكُنُ فِيْ حَيِّنَا مِنْ سِنِيْنَ، وَبَيْتُهُ قَرِيْبٌ مِنْ بَيْتِيْ، وَلَيْسَ بَيْنَ بُيُوتِنَا إِلَّا بَيْتٌ وَاحِدٌ.

وَلَمْ نَتَخَاصَمْ فِيْ هٰذِهِ الْمُدَّةِ مَعَ أَنَّا نَسْكُنُ فِيْ حَيٍّ وَاحِدٍ، وَنَقْرَأُ فِيْ صَفٍّ وَاحِدٍ، وَنَذْهَبُ جَمِيعاً إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ وَنَرْجِعُ جَمِيْعاً، وَقَدْ تَخَاصَمَ كَثِيرٌ مِنَ الأَصْدِقَاءِ، وَأَرَىٰ كُلَّ يَوْمٍ بَعْضَ الأَوْلَادِ يَتَخَاصَمُوْنَ.

---

(١) حَلِيْم: جمع حُلَمَاء: رَشِيْد.

وَيُحِبُّ أبِيْ وَأُمِّيْ حَسَناً وَيَفْرَحَانِ بِرِفَاقِهِ؛ لأَنَّهُ وَلَدٌ لَيْسَ فِيهِ شَرٌّ، وَيُحِبُّنِيْ أَبُو حَسَنٍ وَيَرانِيْ كَوَلَدِهِ.

أَمَّا قَاسِمٌ فَوَلَدٌ ذَكِيٌّ نَشِيْطٌ تَرَاهُ دَائِماً مَسْرُوراً، لَا أَذْكُرُ أَنِّي رَأَيْتُهُ قَطُّ مَحْزُوْناً، وَهُوَ ذُوْ أَخْبَارٍ وَحِكَايَاتٍ يَسُرُّ أَصْدِقَاءَهُ بِأَحَادِيْثِهِ وَحِكَايَاتِهِ، وَيُحِبُّهُ أَصْدِقَاؤُهُ، وَهُوَ مُجْتَهِدٌ فِي الدُّرُوْسِ لَمْ يَرْسُبْ فِي امْتِحَانٍ.

أَمَّا عُمَرُ فَوَلَدٌ يَتِيْمٌ يَسْكُنُ فِيْ حَيِّنَا أَيْضاً، أُمُّهُ عَجُوزٌ تَكْتَسِبُ بِالخِيَاطَةِ وَتُنْفِقُ عَلَىٰ وَلَدِهَا، وَلٰكِنَّ عُمَرَ وَلَدٌ كَبِيْرُ النَّفْسِ لَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَيْئاً، ثِيَابُهُ رَخِيْصَةٌ وَلٰكِنَّها دَائِماً نَظِيْفَةٌ، يُحِبُّهُ جَمِيْعُ الْمُعَلِّمِيْنَ لِصَلَاحِهِ وَأَدَبِهِ وَاجْتِهَادِهِ وَمُوَاظَبَتِهِ.

وَلَمْ يَرْسُبْ عُمَرُ فِي الامْتِحَانِ إِلَّا مَرَّةً وَحَزِنَ كَثِيْراً، وَحَزِنَتْ أُمُّه لَمَّا رَسَبَ عُمَرُ فِي الِامْتِحَانِ، وَأَرَادَ عُمَرُ أَنْ يَتْرُكَ الْمَدْرَسَةَ، وَلٰكِنْ شَجَّعَتْهُ[1] أُمُّهُ وَقَالَتْ: أَنَا أَكْتَسِبُ بِالْخِيَاطَةِ وَأُنْفِقُ عَلَيْكَ، وَرَجَعَ عُمَرُ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ وَاجْتَهَدَ كَثِيْراً، وَنَجَحَ فِي الِامْتِحَانِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ وَبَرزَ[2] فِي الِامْتِحَانِ.

أَمَّا مُحَمَّدٌ فَتِلْمِيْذٌ نَجِيْبٌ مُجْتَهِدٌ جِدّاً، يَبْرُزُ فِي الِامْتِحَانِ

---

(١) شَجَّعَ: يُشَجِّعُ تَشْجِيْعاً الأستاذُ تلميذَه: قَوَّىٰ قَلْبَه وأَيَّدَه.
(٢) برزَ: يُبَرِّزُ تَبْريزاً: فَاقَ أَقْرانَهُ.



كُلَّ سَنَةٍ، وَوَلَدٌ كَاتِبٌ جَيِّدُ الْخَطِّ، يَعْرِفُ كتَابَةَ الرَّسَائِلِ، وَهُوَ مُتَقَدِّمٌ فِي الصَّفِّ وَمُوَاظِبٌ عَلَىٰ الدَّرْسِ، وَجَمِيْعُ أَصْدِقَائِي مُحَافِظُونَ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ، مُوَاظِبُوْنَ عَلَىٰ الدُّرُوْسِ، وَلَمْ نَتَخَاصَمْ قَطُّ وَلَمْ نَغْضَبْ، وَأَرْجُوْ أَلَّا أَكُوْنَ شَرَّ الأَصْدِقَاءِ.







قَرْيَتِي

قَرْيَتِيْ جَمِيْلَةٌ فِيْ وَسَطِ حُقُولٍ وَبَسَاتِيْنَ كَأَنَّهَا جَزِيْرَةٌ فِي بَحْرٍ أَخْضَرَ، لَا تَرَىٰ فِيْهَا إِلَّا خُضْرَةً وَمَاءً، فَالأَرْضُ خَضْرَاءُ وَالْحُقُولُ خَضْرَاءُ، وَالدُّنْيَا كُلُّهَا خَضْرَاءُ فِيْ قَرْيَتِيْ، وَيَجْرِيْ مِنْ تَحْتِ الْقَرْيَةِ نَهْرٌ مَاؤُهُ نَقِيٌّ شَفَّافٌ؛ لأَنَّهُ يَجْرِيْ عَلَىٰ الرَّمْلِ، نَغْتَسِلُ فِيْ هٰذَا النَّهْرِ وَنَسْبَحُ وَنَلْعَبُ وَنَشْرَبُ مِنْ مَائِهِ النَّقِيِّ، وَنَرَىٰ السَّمَكَ يَجْرِيْ مِنْ هُنَا وَهُنَا، وَنَرَىٰ الصَّدَفَ(١) فِيْ قَعْرِ(٢) النَّهْرِ؛ لأَنَّ الْمَاءَ نَقِيٌّ شَفَّافٌ، وَقَدْ تَعَلَّمْنَا السِّبَاحَةَ وَنَحْنُ صِغَارٌ، فَإِذا كَانَتْ أَيَّامُ الْمَطَرِ فَاضَ(٣) النَّهْرَ، وَكَانَ عَرْضٌ كَبِيْرٌ عَبَرْنَا هٰذَا النَّهْرَ وَتَسَابَقْنَا فِي السِّبَاحَةِ.

---

(١) صَدَفَ: جمعها: أَصْدَاف: غِطاءُ الدرّ.

(٢) قَعْرٌ: جمعها: قُعُوْر: منتهىٰ العمق، يقال: في قَعْرِ البِئْرِ.

(٣) فَاضَ: يَفِيْضُ فَيْضاً وَفَيَضَاناً: النهرُ ونحوه: امتلأَ حتىٰ طفَحَ وسَالَ.

وَأَرَىٰ كَثِيْراً مِنْ أَهْلِ الْبَلدِ لَا يَعْرِفُوْنَ السِّبَاحَةَ وَهُمْ كِبَارٌ وَيَخَافُوْنَ الْمَاءَ جِدّاً، وَلَا يَدْخُلُونَ النَّهْرَ.

جَاءَ مَرَّةً صَدِيْقٌ لِيْ مِنَ الْبَلَدِ وَدَخَلْنَا النَّهْرَ وَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ يَا أَخِيْ وَاغْتَسِلْ وَاسْبَحْ، فَقَالَ: إِنِّيْ أَخَافُ الْمَاءَ وَلَا أَعْرِفُ السِّبَاحَةَ، فَشَجَّعْنَاهُ وَقُلْنَا: لَا تَخَفْ وَنَحْنُ مَعَكَ، فَتَشَجَّعَ وَدَخَلَ الْمَاءَ وَأَرَادَ أَنْ يَسْبَحَ، وَلٰكِنْ ذَهَبَ إِلَىٰ الْقَعْرِ، فَأَخَذْنَا بِيَدِهِ وَرَفَعْنَاهُ فَخَرَجَ وَقَدْ شَرِبَ الْمَاءَ.

وَكَانَ يَغْتَسِلُ مَعَنَا كُلَّ يَوْمٍ، وَيَتَعَلَّمُ السِّبَاحَةَ حَتَّىٰ تَعَلَّمَهَا وَعَبَرَ النَّهْرَ فَتَشَجَّعَ وَعَبَرَ مَرَّتَيْنِ.

وَإِذَا نَزَلَتْ أَمْطَارٌ كَثِيْرَةٌ وَفَاضَ النَّهْرُ أَصْبَحَتْ قَرْيَتِيْ شِبْهَ جَزِيْرَةٍ يُحِيْطُ بِهَا الْمَاءُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ(١)، وَتَبْقَىٰ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ نَذْهَبُ مِنْهَا إِلَىٰ الْبَلَدِ وَنَشْتَرِي الْحَوَائِجَ مِنَ السُّوْقِ.

وَفِي سَنَةٍ كَانَ فَيَضَانٌ(٢) عَظِيمٌ، فَاضَ الْمَاءُ وَدَخَلَ الْبُيُوتَ وَخَافَ النَّاسُ الْغَرَقَ وَتَرَكْنَا قَرْيَتَنَا وَذَهَبْنَا إِلَىٰ الْبَلَدِ وَلَمْ نَرْجِعْ إِلَّا بَعْدَ شَهْرٍ.

وَيَزُوْرُ قَرْيَتِيْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَالْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّهَا قَرْيَةٌ مَشْهُوْرَةٌ وُلِدَ فِيْهَا كَثِيْرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ.

---

(١) جِهَات: جمع جِهَة: ناحية وَجَانِب.

(٢) فَيَضَان: جمعها: فَيَضَانات: سَيْلٌ، جمعها: سُيُول.

وَعَلَىٰ شَاطِئِ النَّهْرِ مَسْجِدٌ قَدِيْمٌ بَنَاهُ جَدُّنَا الْكَبِيْرُ مَضَىٰ عَلَيْهِ ثَلَاثُمِئَةِ سَنَةٍ، وَيَدْخُلُ فِيْهِ الْمَاءُ فِيْ كُلِّ فَيضَانٍ وَيَمْكُثُ فِيْهِ الْمَاءُ أَيَاماً طَوِيْلَةً، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَضْعُفْ.





تَرْنِيمَةُ اللَّيْلِ

إِنَّ الْـفِـرَاشَ الـنَّـاعِـمَـا فِـيْـهِ تَـنَـامُ دَائِـمَـا
نَـمْ يَـا حَـبِـيْـبِـيْ نَـمْ آمِـنـاً نَـمْ آمِـنَـا
رَاحَ الـنَّـهَـارُ وَاحْـتَـجَـبْ مَـعَـهُ الْـعَـنَـاءُ(١) وَالـتَّـعَـبْ
وَالـلَّـيْـلُ بِـالأَمْـنِ اقْـتَـرَبْ نَـمْ آمِـنـاً نَـمْ آمِـنـا
بَـاتَـتْ عَـصَـافِـيْـرُ الْـغَـرَدْ(٢) فِيْ حِفْظِ مَوْلَانَا الصَّمَدْ(٣)
مَـنْ لَـيْـسَ يَـغْـفُـلُ عَـنْ أَحَـدْ نَـمْ فِـيْ حِـمَـاهُ(٤) آمِـنَـا
نَـمْ آمِـنـاً حَـتَّـىٰ الـسَّـحَـر مِـنْ كُـلِّ ضَـيْـمٍ(٥) أَوْ كَـدَرْ(٦)

---

(١) العَنَاءَ: التَّعْبِ.
(٢) الغَردُ: الصَدْح.
(٣) الصَّمَد: اسم من أسماء الله الحسنىٰ.
(٤) الحِمَىٰ: الصيانة، والحفاظ.
(٥) الضَّيْم: الظلم والإذلال.
(٦) الكَدَر: هَمٌّ وغَمٌّ وتَعب.

نَمْ فِيْ حِمَىٰ بارِي البَشَرْ نَمْ فِيْ حِمَاهُ آمِنَا

(مَدَارِجُ الْقِرَاءَةِ)





مُسَابَقَةٌ بَيْنَ شَقِيْقَيْنِ

قَالَ سَيِّدُنَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ ﵁: كُنْتُ وَاقِفاً يَوْمَ بَدْرٍ وَغُلَامَانِ مِنَ الأَنْصَارِ مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ وَمُعَوَّذُ بْنُ عَفْرَاءَ عَنْ يَمِيْنِيْ وَشِمَالِيْ.

وَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَحَدُهُمَا، وَقَالَ لِيْ سِرّاً مِنْ صَاحِبِهِ: «أَيْ عَمِّ! هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟».

فَقُلْتُ: نَعَمْ! وَمَاذَا تُرِيْدُ مِنْهُ يَا ابْنَ أَخِيْ؟

قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، أَرِنِيْهِ يَا عَمِّ! فَإِنِّيْ أَعْطَيْتُ اللهَ عَهْداً إِنْ رَأَيْتُهُ أَنْ أَقْتُلَهُ أَوْ أَمُوْتَ دُوْنَهُ.

وَقَالَ لِيَ الآخَرُ سِرّاً مِنْ صَاحِبِهِ: أَرِنِيْهِ يَا عَمِّ! فَإِنِّيْ عَاهَدْتُ(١) اللهَ إِنْ عَايَنْتُهُ(٢) أَنْ أَضْرِبَهُ بِسَيْفِيْ حَتّٰى أَقْتُلَهُ.

فَبَيْنَا أَنَا كَذٰلِكَ إِذْ بَرَزَ أَبُوْ جَهْلٍ، فَقُلْتُ: أَلَا تَرَيَانِ؟ هٰذَا

---

(١) عَاهَدَ: يُعَاهِدُ الرَّجلُ فلاناً: أي أعطاه عهداً.

(٢) عَايَنَ: يُعَايِنُ الرَّجل فُلاناً: أي رآه بعينه.

أَبُوْ جَهْلٍ، هٰذَا صَاحِبُكُمْ، فَشَدَّا عَلَيْه مِثْلَ الصَّقْرَيْنِ حَتَّىٰ ضَرَبَاهُ.

ثُمَّ انْصَرَفَا(١) إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ.

فَقَالَ: «أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟».

قال كلٌّ منهما: أَنَا قَتَلْتُهُ.

قَالَ: «هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟».

قَالَا: لَا!

فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السَّيْفَيْنِ.

فَقَالَ: «كِلَاهُمَا قَتَلَهُ».



---

(١) انْصَرَفَ: يَنْصَرِف: ذَهَبَ.



جَزَاءُ الوَالِدَيْنِ

وُلِدْتُ صَغِيْراً ضَعِيْفاً لَا أَقْدِرُ علىٰ عَمَلٍ، لَا آكُلُ بِنَفْسِيْ وَلَا أَشْرَبُ بِنَفْسِيْ، وَلَا أَتَكَلَّمُ وَلَا أَفْهَمُ، فَحَنَتْ[١] عَلَيَّ أُمِّيْ وَأَرْضَعَتْنِيْ وَنَسِيَتْ نَفْسَهَا لِنَفْسِيَ، وَهَجَرَتْ رَاحَتَهَا لِرَاحَتِيْ، فَكَمْ سَهِرَتِ اللَّيَالِيَ، وَكَمْ تَعِبَتْ فِي النَّهَارِ، وَكُنْتُ لَهَا شُغْلاً وَحَدِيْثاً، وَإِذَا مَرِضْتُ طَارَ عَنْهَا النَّوْمُ، وَمَا ذَاقَتْ طَعَاماً وَلَا شَرَاباً، وَإِذَا سَكَتُّ اهْتَمَّتْ وَقَالَتْ: مَا بَالُكَ يا بُنَيَّ! مَاذَا أَسْكَتَكَ؟ لِمَاذَا لَا تَتَكَلَّمُ، أَتَشْكُوْ وَجعاً[٢] أَوْ أَغْضَبَكَ أَحَدٌ؟ وَإِذَا بَكَيْتُ جَاءَتْ تَجْرِيْ، وَفِيْ اللَّيْلِ تَتَكَلَّمُ مَعِيْ وَتُضَاحِكُنِيْ.

وَلَمَّا دَخَلْتُ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ كَانَتْ تَتَحَدَّثُ مَعِيْ فِي اللَّيْلِ، وَقَدْ عَرَفْتُ اللهَ وَرَسُوْلَهُ فِيْ حَدِيْثِهَا، وَسَمِعْتُ قِصَصاً كَثِيْرَةً، سَمِعْتُ مِنْهَا وَأَنَا عَلَىٰ فِرَاشِيْ قِصَّةَ إِبْرَاهِيْمَ، وَكَيْفَ أُلْقِيَ

---

(١) حَنَا: يَحْنُوْ: الأم علىٰ ابنها: عَطَفت عليه.

(٢) وَجَع: جمعها: أَوْجَاع: أَلَم (اسم جامع لكل مَرَض وألمٍ).

فِي النَّارِ، فَصَارَتْ بَرْداً وَسَلَاماً، وَكَيْفَ نَشَأَ مُوْسَىٰ فِيْ قَصْرِ فِرْعَوْنَ، وَسَمِعْتُ قِصَّةَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَقِصَّةَ حَلِيْمَةَ السَّعْدِيَّةِ وَقِصَصاً جَمِيْلَةً، وَحَفِظْتُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ وَالآيَاتِ الأَخِيْرَةَ مِنْ سُوْرَةِ الْبَقَرَةِ، وَأَدْعِيَةً كَثِيْرَةً، فَكُنْتُ عَالِمَ الأَطْفَالِ، وَكَانَ أَبِيْ يُحِبُّنِيْ كَثِيْراً، وَكُنْتُ أَصْغَرَ إِخْوَتِيْ، أَبِيْتُ مَعَهُ وَآكُلُ مَعَهُ، وَإِذَا جَاءَ مِنْ سَفرٍ اشْتَرَىٰ لِيْ هدِيَّةً جَمِيْلَةً، وَكَانَ النَّاسُ يُحِبُّوْنَنِيْ وَيُقَرِّبُوْنَنِيْ إِلَيْهِمْ لِمَكَانِيْ مِنْ أَبِيْ، وَقَدْ قَرَأْتُ عَلَىٰ أَبِيْ أَيْضاً، فَهُوَ لِيْ أَبٌ ومُعَلِّمٌ.

وَكَانَ يُوْصِيْ أُمِّي أَنْ تَكْسُوَنِي(١) يَوْمَ الْعِيدِ لِبَاساً جَدِيْداً، وَإِذَا مَرِضْتُ أَوْ سَقَطْتُّ مِنْ مَكَانٍ أَوْ أَصَابَنِيْ ضَرَرٌ أَوْ أَلَمٌ وَجَاءَهُ الْخَبَرُ طَارَ نَوْمُهُ، وَسَهِرَ اللَّيْلَ هَمّاً وَحُزْناً، كَيْفَ أُجَازِيْ(٢) هٰذِهِ النِّعَمَ، هَلْ يُمْكِنُ أَنْ أُجَازِيَهُمَا بِمَالٍ؟ كَلَّا! فَأَنَا ومَالِيْ لِوَالِدَيَّ، نَعَمْ! أَنَا أَخْدِمُهُمَا بِالمَالِ والْبَدَنِ، بَل أَصِلُ أَصْدِقَاءَهُمَا وَأَقَارِبَهُمَا بِالْبِرِّ وَالْمَعْرُوفِ، وَلٰكِنِّي سَأَدْعُوْ لَهُمَا، وَأَقُوْلُ دَائِماً فِيْ دُعَائِيْ: «رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً».

وَسَأَجْتَهِدُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَغْتَبِطا(٣) بِيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ

---

(١) كَسَا: يَكْسُو: أَلْبَسَه ثَوْباً.

(٢) أَجَازَ يُجَازِي: أعطىٰ جائزةً.

(٣) اغْتَبَطَ يَغْتَبِطُ: فَرِحَ بالنعمة.

النَّاسِ وَأَمَامَ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ وَيَغْبِطُهُمَا أَصْحَابُ الأَوْلَادِ وَيَقُوْلُوْنَ: يَا لَيْتَ لَنَا مِنَ الأَوْلَادِ مِثْلَ مَا أُوْتِيَ فَلَانٌ، إِنَّهُ لَسَعِيْدٌ.

وَسَأَجْتَهِدُ أَنْ أَعْمَلَ عَمَلاً يُنَادِيْ بِيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رُؤُوسِ الأَشْهَادِ فيَقُوْلُ النَّاسُ: مَنْ هُوَ؟ فَيُقَالُ: ابْنُ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ، فَيَغْتَبِطُ وَالِدَايَ وَيَنْعَمُ بَالِيْ.

وقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الوَلَدَ إِذَا حَفِظَ الْقُرْآنَ يُتَوَّج(١) وَالِدَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَسَأَجْتَهِدُ فِيْ حِفْظِ الْقُرْآنِ لِيُتَوَّجَ وَالِدَايَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الشَّهِيْدَ يَشْفَعُ لِسَبْعِيْنَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُنِيْ الشَّهَادَةَ، فَأَشْفَعُ لِوَالِدَيَّ قَبْلَ النَّاسِ، وَبِذٰلِكَ أُجَازِيْ بَعْضَ نِعَمِهِمَا.



(١) توَّجَ يُتَوِّجُ: أَلْبَسَهُ التَّاجَ.



أَدَبُ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ

كَانَ عُمَرُ بْنُ أَبِيْ سَلَمَةَ غُلَاماً صَغِيْراً وَكَانَ مَعَ أُمِّهِ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، تَزَوَّجَهَا بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيْ سَلَمَةَ ﵁، فَكَانَ عُمَرُ فِيْ حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَكَانَ عُمَرُ يَأْكُلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا يَأْكُلُ الْوَلَدُ الصَّغِيْرُ مَعَ أَبِيْهِ، وَكَمَا تَأْكُلُ أَنْتَ مَعَ أَبِيْكَ وَأُمِّكَ.

وَكَانَ عُمَرُ غُلَاماً يَتِيْماً مَاتَ أَبُوْهُ وَهُوَ صَغِيْرٌ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ وَيُعَلِّمُهُ الأَدَبَ.

فَكَانَ يَأْكُلُ مَرَّةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَتْ يَدُهُ تَدُوْرُ فِي الصَّحْفَةِ وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ هُنَا وَهُنَا كَمَا يَأْكُلُ كَثِيْرٌ مِنَ الأَوْلَادِ.

فَعَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَيْفَ يَأْكُلُ وَقَالَ لَهُ: «سَمِّ اللهَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيْكَ».

وَهَكَذَا يَنْبَغِيْ أَنْ يَأْكُلَ الْمُسْلِمُ، فَيُسَمِّي اللهَ وَيَأْكُلُ بِيَمِيْنِهِ وَيَأْكُلُ مِمَّا يَلِيْهِ.

وَهٰكَذَا عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ أَدَبَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَأَدَبَ كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا عَلَّمَ عُمَرَ بْنَ أَبِيْ سَلَمَةَ الصَّغِيْرَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً».

وَقَدْ أَدَّبَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَّمَهُ أَدَبَ كُلِّ شَيْءٍ فَقَالَ: «أَدَّبَنِيْ رَبِّيْ فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِيْ».

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: مَا عَابَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ طَعَاماً قَطُّ، إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ وَإِنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ.

وَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «أَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَآكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَقَالَ: لَا آكُلُ مُتَّكِئاً».

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ بِثَلَاثَةِ أَصَابِعَ وَإِذَا فَرَغَ لَعِقَهَا.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِذَا أَكَلَ طَعَاماً لَعِقَ[١] أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ، وَقَالَ: «إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا وَلْيُمِطْ عَنْهَا الأَذىٰ وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقَصْعَةَ[٢]، وَقَالَ: إِنَّكُمْ لَا تَدْرُوْنَ فِيْ أَيِ طَعَامِكُم بَرَكَةٌ.

---

(١) لَعِقَ يَلْعَقُ: لَحِسَ الشيءَ بلسانه أو إصبعِه.

(٢) نسلت القصعة: نَتَتَبَّع ما بقي فيها من الطعام، ونمسحها بالأصبع ونحوه.

وَعَنْ أَنَسٍ ﵁ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ كَانَ يَتَنَفَّسُ فِي الشَّرَابِ ثَلَاثاً.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَىٰ أَنْ يُتَنَفَّسَ فِي الإِنَاءِ أَوْ يُنْفَخَ فِيْهِ.

وَعَنْ أَنَسٍ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَىٰ عَنِ الشُّرْبِ قَائِماً.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ ﵁ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا عَنِ الْحَرِيْرِ وَالدِّيْبَاجِ وَالشُّرْبِ فِيْ آنِيَةِ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ، وَقَالَ: هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ لَكُمْ فِي الآخِرَةِ.





شَرٌّ وَخَيْرٌ

شَــرُّ الْـمَـقَـالِ الْـكَـذِبُ   خَـيْـرُ الْـخِـصَـالِ[1] الأَدَبُ
الْـبُـخْـلُ عَـيْـبٌ فَـاضِـحٌ[2]   وَالْـجُـوْدُ سِـتْـرٌ صَـالِـحُ
الْـعَـقْـلُ قَـاضٍ عَـادِلُ   وَالْـعُـجْـبُ دَاءٌ قَـاتِـلُ
الْـعُـمْـرُ ضَـيْـفٌ رَاحِـلُ   والْـمَـالُ ظِـلٌّ زَائِـلُ
الْـبِـرُّ لِـلْـحُـبِّ سَـبَـبْ   إِنَّ الْـبَـخِـيْـلَ لَا يُـحَـب
طَـهَـارَةُ الأَخْـلَاقِ   مِـنْ كَـرَمِ الأَعْـرَاقِ[3]
الْـكَـذِبُ وَالـنَّـمِـيْـمَـهْ   وَالْـغَـدْرُ شَـرُّ شِـيْـمَـهْ[4]

---

(١) خِصْلَةٌ: جمعها: خِصَال: خُلُق في الإنسانِ يكون حسناً أو سيئاً.

(٢) فَاضِحُ: مخل بالحياء.

(٣) عِرْق: جمعها: أَعْرَاق: أصلُ كلِّ شيء. ويقال: تداركته أعراق صِدق أو سوءٍ، ومجرى الدم في الجسد.

(٤) شِيْمَة: جمعها: شِيَم غريزة وطبيعة وسجية.

تَــأَنَّ(١) فِـــي الأُمُــوْرِ   لَا سِــيَّــمَــا الــسُّــرُوْرِ
وَاعْـجَـلْ إِلَـىٰ الْـخَـيْـرَاتِ   مِــنْ حَــذَرِ الْــفَــوَاتِ
مَــالَــكَ غَــيْـرُ نَـفْـسِـكَـا   لَا تَـكُ عَـنْـهَـا مُـمْـسِـكَـا

(أبو العتاهية)



---

(١) تَأَنَّىٰ: يَتَأَنَّىٰ: أَمْهَل فُلاناً وترَفَّقَ به.



يَوْمٌ مَطِيْرٌ

نَزَلَ الْمَطَرُ فِي اللَّيْلِ وَسَالَتِ الطُّرُقُ وَالشَّوَارِعُ، ونَشَأَ وَحْلٌ كَثِيْرٌ زَلِقَ بِهِ النَّاسُ وَتَوَسَّخَتِ(١) الثِّيَابُ، وَإِذَا سَارَتْ سَيَّارَةٌ تَطَايَرَ(٢) الْمَاءُ.

انْقَطَعَ الْمَطَرُ فِي الصَّبَاحِ وَأَمِنَ النَّاسُ، خَرَجُوْا يَمْشُوْنَ عَلَىٰ الشَّوَارِعِ وَقَدْ تَوَسَّخَتْ ثِيَابُهُمْ بِالْوَحَلِ، وَزَلِقَ(٣) بَعْضُ النَّاسِ عَلَىٰ الشَّارِعِ وَسَقَطَ فِي الْوَحْلِ(٤) وَضَحِكَ النَّاسُ وَضَحِكَ الرَّجُلُ وَتَوَسَّخَتْ ثِيَابُهُ جِدّاً.

وَكَانَ النَّاسُ يَمْشُوْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ إِذْ جَاءَ الْمَطَرُ عَلَىٰ غَفْلَةٍ فَابْتَلَّتِ الثِّيَابُ، وَكَانَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ قَدْ أَخَذُوْا مَعَهُمُ

---

(١) تَوَسَّخَ يَتَوَسَّخُ: عَلَاهُ الوَسَخ، وهو ما يعلو الثوب وغيره من القذارة.

(٢) تَطَايَرَ: يَتَطَايَرُ الشيءُ: تَنَاثَرَ.

(٣) زَلِقَ: يَزْلِقُ: زَلَّ.

(٤) الوَحْلُ: جمعها: أوحال ووحُوُل: خليط من الطين والماء.

الْمَطْرِيَّاتِ[١] فَنَشَرُوْهَا، وَكُنْتُ تَرَكْتُ مَطْرِيَّتِي فِي الْبَيْتِ وَظَنَنْتُ أَنَّ المَطَرَ قَدِ انْقَطَعَ، فَتَأَسَّفْتُ جِدّاً وَجَرَيْتُ وَرَجَعْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَقَدِ ابْتَلَّتْ ثِيَابِيْ.

وَلَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ طُوْلَ النَّهَارِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي السَّمَاءِ غَيْمٌ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْبَيْتِ إِلَّا ذُو حَاجَةٍ، وَسَئِمْتُ الْجُلُوْسَ فِي الْبَيْتِ فَخَرَجْتُ فِي الْعَصْرِ وَأَخَذْتُ الْمَطْرِيَّةَ مَعِيْ، وَذَهَبْتُ إِلَىٰ صَدِيْقِيْ مَسْعُوْدٍ، فَوَجَدْتُهُ يُطَالِعُ كِتَاباً.

قُلْتُ لَهُ: أَلَا تَخْرُجُ يَا أَخِيْ نَتَنَزَّهُ وَنَمْشِيْ قَلِيْلاً، أَمَا سَئِمْتَ[٢] الْجُلُوْسَ؟

قَالَ مَسْعُوْدٌ: أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَإِلَىٰ الأَرْضِ؟ أَلَا تَرَىٰ إِلَى الْوَحْلِ؟ هٰذَا لَيْسَ يَوْمَ الْخُرُوْجِ مِنَ الْبَيْتِ، فَتَفَضَّلْ وَتَعَشَّ مَعِيْ.

قُلْتُ: أَمَّا الْجُلُوسُ فَنَعَمْ! وَأَمَّا الْعَشَاءُ فَلَا، فَإِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ الْبَيْتِ سَرِيْعاً فَلَسْنَا نَدْرِيْ مَتَىٰ تُمْطِرُ السَّمَاءُ.

وَجَلَسْتُ مَعَ صَدِيْقِيْ مَسْعُودٍ قَلِيْلاً، ثُمَّ سَئِمْتُ الْجُلُوْسَ وَالْغَيْمَ، فَاسْتَأْذَنْتُهُ وَخَرَجْتُ إِلَىٰ الشَّارِعِ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَمَرَّتْ

---

(١) مطْرِية: جمعها: مطريات: أداة كالمِظَلَّة تَحمي الشخص من المطر.

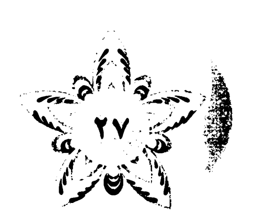
(٢) سَئِمَ: يَسْأَمُ: مَلَّ.

بِيْ وَتَطَايَرَ الْمَاءُ وَالْوَحْلُ وَتَوَسَّخَتْ ثِيَابِيْ، وَمَشَيْتُ قَلِيْلاً وَرَجَعْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ، وما دَخَلْتُ الْبَيْتَ وَمَا وَضَعْتُ الْمَطَرِيَّةَ حَتَّىٰ جَاءَ الْمَطَرُ، فَحَمِدْتُّ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ وَصَلْتُ إِلَىٰ البَيْتِ.

وَتَعَشَّيْتُ وَصَلَّيْتُ الْعِشَاءَ وَنِمْتُ وَمَا عَلِمْتُ مَتَىٰ انْقَطَعَ الْمَطَرُ.

وَكَانَتِ الأَمْطَارُ فِيْ هٰذِهِ السَّنَةِ كَثِيْرَةً، وَقَدْ فَاضَتْ أَنْهَارٌ، وَجَاءَ السَّيْلُ وَتَهَدَّمَتْ بُيُوْتٌ كَثِيْرَةٌ.





البَرِيْدُ (١)

خَالِدٌ: مَاذَا تَكْتُبُ يَا طَارِقُ؟

طَارِقٌ: أَنَا أَكْتُبُ كِتَاباً إِلَىٰ أَخِيْ عَامِرٍ.

خَالِدٌ: سَمِعْتُ أَنَّهُ فِيْ دِهْلِي، فَهَلْ أَحَدٌ مُسَافِرٌ؟

طَارِقٌ: لَا بَلْ يُسَافِرُ كِتَابِيْ.

خَالِدٌ: كَيْفَ يُسَافِرُ كِتَابُكَ يَا طَارِقُ؟

طَارِقُ: أَنَا أَكْتُبُ الْكِتَابَ ثُمَّ أَضَعُهُ فِي الْغِلَافِ وَأَكْتُبُ عَلَىٰ الْغِلَافِ عُنْوَانَ أَخِيْ ثُمَّ أُرْسِلُهُ، اُنْظُرْ هٰذَا غِلَافُ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا هٰذَا الشَّكْلُ فِيْ جَانِبِ الْغِلَافِ يَا طَارِقُ؟

طَارِقٌ: هٰذَا طَابِعُ الْبَرِيْدِ، وَإِذَا أَردتُّ أَنْ أَكْتُبَ بِطَاقَةً أَكْتُبُ الْعُنْوَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الْبِطَاقَةِ. اُنْظُرْ هٰذِهِ بِطَاقَةٌ وَفِيْ جَانِبِهَا طَابِعُ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا هٰذِهِ الصُّوْرَةُ يَا طَارِقُ! هٰذِهِ صُوْرَةُ إِنْسَانٍ وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ صُوْرَةَ ذِيْ رُوْحٍ لَا تَجُوْزُ فِي الإِسْلَامِ.

طارِقٌ: نَعَمْ! إِذَا كَانَتْ حُكُوْمَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ صَحِيْحَةٌ لَمْ تَكُنْ صُوْرَةٌ عَلَىٰ غِلَافِ الْبَرِيْدِ وَالبِطَاقَةِ.

خَالِدٌ: ثُم مَاذَا تَفْعَلُ يَا أَخِيْ إِذَا كَتَبْتَ الْعُنْوَانَ؟

طَارِقٌ: أَضَعُ الْكِتَابَ فِيْ صُنْدُوْقِ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا صُنْدُوْقُ الْبَرِيْدِ؟

طَارِقٌ: هَلْ رَأَيْتَ صُنْدُوْقاً أَحْمَرَ لَهُ فَمٌ فِيْ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ وَعَلَىٰ الشَّوَارِعِ؟

خَالِدٌ: نَعَمْ! رَأَيْتُهُ كَثِيْراً. وَمَنْ يَأْخُذُ هٰذَا الْكِتَابَ مِنْ صُنْدُوْقِ الْبَرِيْدِ وَكَيْفَ يَصْنَعُ؟

طَارِقٌ: يَحْمِلُ السَّاعِيْ الْكُتُبَ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ فَيَفْرِزُهَا(١) رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ الْبَرِيْدِ، هٰذَا إِلَىٰ دِهْلِيْ، وَذٰلِكَ إِلَى كَلْكُتَّا، وَهٰذَا إِلَىٰ الشَّرْقِ، وَذٰلِكَ إِلى الْغَرْبِ وَيَخْتِمُهَا(٢).

خالد: ثُمَّ مَاذَا؟

طارِقٌ: ثُمَّ تُحْمَلُ هٰذِهِ الْكُتُبُ إِلَىٰ الْمَحَطَّةِ ثُمَّ تُوْضَعُ عَلَىٰ الْقِطَارِ، وَيَحْمِلُهَا الْقِطَارُ إِلَىٰ مَكَانِهَا، فَكِتَابُ دِهْلِيْ يُسَافِرُ بِهِ

---

(١) أَفْرَزَ: يُفْرِزُ الشيء: عَزَلَه وَنَحَّاه، والأرضَ: بَيَّنَ حدودَ كُلِّ حصة فيها.
(٢) خَتَمَ: يَخْتِمُ الشيء: أَثَّرَ فيه بنقش.

قِطَارُ دِهْلِيْ إِلَىٰ دِهْلِيْ، وَكِتَابُ كَلْكُتَّا يُسَافِرُ بِهِ قِطَارُ كَلْكُتَّا إِلَىٰ كَلْكُتَّا.

خَالِدٌ: وَهَلْ يَحْضُرُ أَخُوْكَ إِلَىٰ مَحَطَّةِ دِهْلِيْ وَيَأْخُذُ كِتَابَهُ؟ وَهَلْ يَعْرِفُهُ نَاظِرُ الْمَحَطَّةِ؟

طَارِقٌ: لَا يَحْتَاجُ أَخِيْ إِلَىٰ هٰذَا التَّعَبِ، بَلْ إِذَا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَىٰ مَحَطَّةِ دِهْلِيْ يُنْقَلُ مِنَ الْمَحَطَّةِ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: فَيَحْضُرُ أَخُوْكَ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ وَيَأْخُذُ رِسَالَتَهُ مِنْ مُدِيْرِ الْبَرِيْدِ؟

طَارِقٌ: لَا تَعْجَلْ يَا أَخِيْ! أَنَا أُخْبِرُكَ بِخَبَرِ الْكِتَابِ، إِذَا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ يُفْرَزُ وَيُخْتَمُ هُنَالِكَ أَيْضاً حَتَّىٰ يُعْرَفَ مَتَىٰ وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَىٰ دِهْلِيْ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ يَأْخُذُهُ السَّاعِيْ وَيَحْمِلُهُ إِلَىٰ أَخِيْ.





البريد (٢)

خَالِدٌ: وَكَيْفَ يَكُوْنُ السَّاعِيْ يَا طَارِقُ؟ أَنَا مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ؟

طَارِقٌ: أَمَا رَأَيْتَ رَجُلاً يَرْتَدِيْ حُلَّةً(١) لَوْنُهَا رَمَادِيٌّ(٢) فِيْهَا أَزْرَارٌ(٣) نُحَاسِيَّةٌ(٤) وعَلَىٰ رَأْسِهِ عِمَامَةٌ يَحْمِلُ حَقِيْبَةً مِنْ جِلْدٍ؟

خَالِدٌ: نَعَمْ! قَدْ رَأَيْتُهُ وَرَأَيْتُ حَقِيْبَةً وَهِيَ مَلآنَةٌ بالأَوْرَاقِ، وَأَزْرَارُهُ النُّحَاسِيَّةُ تَلْمَعُ وَعِمَامَتُهُ تَظْهَرُ مِنْ بَعِيْدٍ.

طَارِقٌ: ذٰلِكَ هُوَ سَاعِي الْبَرِيْدِ يَا خَالِدُ! وَالنَّاسُ يَنْتَظِرُوْنَهُ جِدّاً وَيَشْتَاقُوْنَ إِلَيْهِ خُصُوْصاً فِي الْقُرَىٰ، وَأَنْتَ تَنْتَظِرُهُ أَيْضاً إِذَا كَتَبْتَ كِتَاباً وَانْتَظَرْتَ جَوَابَهُ، وَإِذا طَلَبْتَ كِتَاباً مِنْ تَاجِرِ كُتُبٍ.

خَالِدٌ: وَرَأَيْتُ يَا طَارِقُ رَجُلاً آخَرَ يَرْتَدِيْ مِثْلَ حُلَّةِ السَّاعِيْ

---

(١) حُلَّة: جمعها: حُلَل: ثَوْبَانِ من جنسٍ واحدٍ.

(٢) رَمَادِيٌّ: ما يُشبِه لونه لون الرماد الَّذي يتخلَّف من احتراق المواد.

(٣) أَزْرَار: مفردها زِرٌّ، قرص يدخل في عروة الثوب ونحوه.

(٤) نحاسية: من معدن النحاس.

وَلَهُ أَزْرَارٌ نُحَاسِيَّةٌ وَعَلَىٰ رَأْسِهِ عِمَامَةٌ أَيْضاً وَلٰكِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ حَقِيْبَةٌ مِنْ جِلْدٍ، وَهُوَ عَلَىٰ دَرَّاجَةٍ حَمْرَاءَ أَرَاهُ يَذْهَبُ بِسُرْعَةٍ كَأَنَّهُ مُسْتَعْجِلٌ.

طَارِقٌ: هُوَ أَيْضاً سَاعِي الْبَرِيْدِ وَلٰكِنَّهُ لَا يُوَزِّعُ الْكُتُبَ، بَلْ يُوَزِّعُ الْبَرْقِيَّاتِ(١)، وَيَذْهَبُ عَلَىٰ دَرَّاجَةٍ حَمْرَاءَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ لِيَصِلَ سَرِيْعاً، فَإِنَّ النَّاسَ لَا يُرْسِلُونَ الْبَرْقِيَّةَ إِلَّا لِتَصِلَ سَرِيْعَةً، وَالنَّاسُ يَعْرِفُوْنَهُ بِدَرَّاجَتِهِ الْحَمْرَاءِ.

خَالِدٌ: وَلٰكِنْ كَيْفَ يَقْدِرُ(٢) رَجُلٌ وَاحِدٌ أَنْ يُوَزِّعَ الْكُتُبَ فِيْ جَمِيْعِ أَنْحَاءِ الْمَدِيْنَةِ؟

طَارِقٌ: لَا! فِيْ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ رِجَالٌ كَثِيْرٌ، وَلِكُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ أَنْحَاءِ الْمَدِيْنَةِ، وَلِكُلِّ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْبَلَدِ سَاعٍ.

خَالِدٌ: وَكَيْفَ يُنْفِقُ مَكْتَبُ الْبَرِيْدِ الأَمْوَالَ الْكَثِيْرَةَ، وَكَيْفَ يَخْدِمُ مَجَّاناً؟ وَرِجَالُ الْبَرِيْدِ يَرْتَدُوْنَ حُلَلاً وَيَحْمِلُوْنَ حَقَائِبَ وَيَرْكَبُونَ دَرَّاجَاتٍ، فَمِنْ أَيْنَ تَأْتِيْ هٰذِهِ الأَمْوَالُ؟

---

(١) بَرْقِيَّات: مفردها برقيَّة، تِلغْرَاف، وهي رسالة ترسل من مكان إلىٰ آخر بوساطة جهاز البرق.

(٢) قَدَرَ علىٰ عدوه: قوي عليه، وتمكن منه.
قدَّر الشيء: حدد مقداره.

طَارِقٌ: إِنَّ مَكْتَبَ الْبَرِيْدِ يَأْخُذُ أُجْرَةً مِنَ كُلِّ مَنْ يُرْسِلُ كِتَاباً بِالبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا هٰذِهِ الأُجْرَةُ وَمَتَىٰ تَدْفَعُهَا يَا أَخِيْ؟

طَارِقٌ: قَدِ اشْتَرَيْتُ هٰذَا الطَّابعَ(١) مِنْ مَكْتَبِ الْبَرِيدِ وَهٰذِهِ هِيَ أُجْرَةُ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: أَشْكُرُكَ عَلَىٰ هٰذَا الْحَدِيْثِ الْمُفِيْدِ، وَسَأَكْتُبُ إِلَىٰ أخِيْ وَصَدِيْقِيْ جَمِيْل، وَسَأُرْسِلُ الْكِتَابَ بِالْبَرِيْدِ، وَإِذَا كَتَبْتُ الْكِتَابَ جِئْتُكَ بِهِ فَتَرَاهُ وَتُصْلِحُهُ.

طَارِقٌ: حُبّاً وَكَرَامَةً، يَسُرُّنِيْ أَنْ أُسَاعِدَكَ.



---

(١) طابع البريد: بطاقة صغيرة ذات رسم تحدد الدولة سعرها تلصق بظرف الرسائل رمزاً لأداء أجر الإرسال، ونحوه الطابع المالي، والطابع العقاري.



مَنْ يَضَعُ الْحَجَرَ؟ (١)

إِنَّكُمْ لَتَعْرِفُوْنَ هٰذَا الْبِنَاءَ، وَمَنْ فِي الدُّنْيَا لَا يَعْرِفُ هٰذَا الْبِنَاءَ؟ إِنَّكُمْ تَتَوَجَّهُوْنَ[١] إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ، وَيُسَافِرُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَطُوْفُوْنَ فِي الْحَجِّ.

الْكَعْبَةُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِعِبَادَةِ اللهِ، بَنَاهَا إِبْرَاهِيْمُ خَلِيْلُ اللهِ فِيْ مَكَّةَ وَفِيْهَا حَجَرٌ أَسْوَدُ يُقَبِّلُهُ النَّاسُ فِي الْحَجِّ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَبِّلُهُ.

وَبَعْدَ زَمَنٍ طَوِيْلٍ أَرَادَ أَوْلَادُ إِبْرَاهِيْمَ وَهُمْ قُرَيْشٌ أَنْ يَبْنُوْا بنَاءَ الْكَعْبَةِ مِنْ جَدِيْدٍ فَإِنَّهُ كَانَ بِنَاءً قَدِيْماً قَدْ سَقَطَ سَقْفُهُ[٢]، وَضَعُفَتْ جُدْرَانُهُ، فَجَمَعَتْ قُرَيْشٌ الْحِجَارَةَ وَالْخَشَبَ لِبِنَائِهَا وَبَنَتْ قُرَيْشٌ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ مِنْ جَدِيْدٍ.

---

(١) توَجَّهَ: يَتَوَجَّهُ إلىٰ المكان: قَصَده وذهب إليه.

(٢) سقف: جمعها: سُقُوف: غطاء المنزل ونحوه، وهو أعلاه المقابلُ لأَرْضِه.

وَلَمَّا تَمَّ بِنَاءُ الْكَعْبَةِ أَرَادَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَضَعَ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فِيْ مَحَلِّهِ فَاخْتَصَمَتْ قُرَيْشٌ فِيْ وَضْعِ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ فِيْ مَحَلِّهِ.

كُلُّ قَبِيْلَةٍ تُرِيْدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَىٰ مَوْضِعِهِ؛ لأَنَّهُ شَرَفٌ عَظِيْمٌ.

كُلُّ قَبِيْلَةٍ حَرِيْصَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَنَالَ هٰذَا الشَّرَفَ.

كُلُّ قَبِيْلَةٍ حَرِيْصَة عَلَىٰ أَنْ تَنَالَ هٰذَا الشَّرَفَ، وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ؛ لأَنَّ الْحَجَرَ وَاحِدٌ وَالْقَبَائِلَ كَثِيْرَةٌ.

وَاخْتَلَفَتْ قُرَيْشٌ كَثِيْراً وَتَنَازَعَتْ وَكَانَ الْعَرَبُ يُقَاتِلُوْنَ لأَدْنَىٰ[١] شَيءٍ وَلِغَيْرِ شَيْءٍ، يَتَقَدَّمُ فَرَسٌ فَيُقَاتِلُوْنَ، وَيَسْبِقُ أَحَدٌ فَيَسْقِيْ فَرَسَهُ أَوْ بَعِيْرَهُ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُوْنَ، وَلَا يَزَالُوْنَ يُقَاتِلُوْنَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً وَخَمْسِيْنَ سَنَةً، فَلِمَاذا لَا يُقَاتِلُوْنَ عَلَىٰ هٰذَا الشَّرَفِ؟ وَإِنَّهُ لَشَرَفٌ عَظِيْمٌ.

وَقَرَّبَتْ قَبِيْلَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَفْنَةً[٢] مَمْلُوءَةً دماً، ثُمَّ تَحَالَفَتْ[٣] مَعَ قَبِيْلَةٍ أُخْرَىٰ عَلَىٰ الْمَوْتِ، وَأَدْخَلُوْا أَيْدِيَهُمْ فِيْ ذٰلِكَ الدَّمِ وَقَالُوا: لا نَتْرُكُ هٰذَا الشَّرَفَ أَوْ نَمُوْتُ.

وَكَانَ هٰذَا شَرّاً كَبِيْراً وَخَطَراً عَظِيْماً، وَالْمَوْتُ شَيْءٌ هَيِّنٌ[٤]

---

(١) أَدْنَىٰ: أَقَلَّ.

(٢) جَفْنَة: جمعها: جَفَنَات وجِفَان: الوعاءُ يُصْنَع من خزف ونحوه.

(٣) تَحالَفَ يَتَحَالَفُ: تَعَاهَدَ.

(٤) هَيِّنٌ: سَهْلٌ.

لِلْعَرَبِ فِيْ سَبِيْلِ الْحَقِّ وَالشَّرَفِ.

إِذاً لا بُدَّ مِنَ الْحَرْبِ، وَالْحَرْبُ مَشْؤُومَةٌ جِدّاً.



٣٠ مَنْ يَضَعُ الْحَجَرَ؟ (٢)

وَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ ذٰلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْساً، ثُمَّ إِنَّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ وَتَشَاوَرُوا[١].

تَشَاوَرُوا وَقَالُوا: مَنْ يَضَعُ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فِيْ مَحَلِّه؟ كُلُّ قَبِيْلَةٍ حَرِيْصَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَنَالَ هٰذَا الشَّرَفَ، وَالْحَجَرُ وَاحِدٌ، وَالْقَبَائِلُ كَثِيْرَةٌ.

إِذاً لَا بُدَّ مِنَ الْحَرْبِ وَالْحَرْبُ مَشْؤُومَةٌ[٢] جِدّاً.

قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَا بَأْسَ[٣] بِالْحَرْبِ فَالْمَوْتُ شَيْءٌ هَيِّنٌ لِلْعَرَبِ فِيْ سَبِيْلِ الْحَقِّ والشَّرَفِ.

قَالَ الْعُقَلَاءُ: نَعَمْ! لَا بَأْسَ بِالْحَرْبِ وَلٰكِنْ لَا حَاجَةَ إِلَىٰ الحَرْبِ فِي هٰذَا الْوَقْتِ.

---

(١) تَشَاوَرَ، يَتَشَاوَرُ القومُ: شَاوَرَ بَعْضُهم بعض.

(٢) مشؤوم، مشؤومة جمع مَشَائيم: من أصَابه الشؤم.

(٣) لا بأس: لا مانع أو لا عيب فيه.

ولـكِنْ مَا هُوَ الطَّرِيْقُ؟ وَكَيْفَ يُوْضَعُ الْحَجَرُ الأَسْوَدُ فِي مَحَلِّه بِغَيْرِ قِتَالٍ؟

تَشَاوَرُوْا وَتَشَاوَرُوْا وتَشَاوَرُوْا كَثِيراً وَوَجَدُوْا الطَّرِيْقَ.

قَالَ شَيْخٌ وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ سِنّاً: أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هٰذَا الْمَسْجِدِ يَقْضِيْ بَيْنَكُمْ، فَقَبِلُوْا وَرَضُوْا بِذٰلِكَ.

تَعْرِفُوْنَ مَنْ كَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ؟ كَانَ أَوَّلُ دَاخِلٍ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هٰذَا الأَمِيْنُ رَضِيْنَا(١)، هٰذَا مُحَمَّدٌ!

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرُوْهُ الْخَبَرَ طَلَبَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ثَوْباً فَأُتِيَ بِهِ، فَأَخَذَ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فَوَضَعَهُ فِيْهِ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ:

لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيْلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ ثُمَّ ارْفَعُوْهُ جَمِيْعاً، فَفَعَلُوْا حَتَّىٰ إِذا بَلَغُوا مَوْضِعَهُ وَضَعَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فِيْ مَحَلِّهِ بِيدِهِ، وَهـكَذَا دَفَعَ(٢) رَسُوْلُ اللهِ ﷺ هٰذَا الشَّرَّ وَمَنَعَ الْحَرْبَ.



(١) رَضِينا: رضي ضدّ سخط، أي قبلنا.

(٢) دَفَعَ، يَدْفَعُ الشرَّ: رَدَّه.



يَوْمُ الْعِيْدِ

كانَ أَمْسِ يَوْمُ الْعِيْدِ، اجْتَمَعَ النَّاسُ وَالأَطفالُ عِنْدَ الْغُرُوبِ يَتَرَاؤون[١] الْهَلاَلَ، وَصَعِدُوا عَلَىٰ سُقُوفِ الْبُيُوتِ والسُّطُوحِ وَعلىٰ المَنارَاتِ.

ظَهَرَ الْهِلاَلُ فَهَتَفَ[٢] الأَوْلاَدُ: «الْهِلاَلُ، الْهِلاَلُ» وَجَرَوْا إِلَىٰ بُيُوْتِهِمْ وَسَلَّمُوْا عَلَىٰ آبائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَعَلَىٰ الأَقَارِبِ، فَدَعَوْا لَهُمْ بِالْبَرَكَةِ وَطُوْلِ الْعُمُرِ.

وَنَامَ الأَطْفَالُ لَيْلَةَ الْعِيْدِ قَلِيْلاً، وَاسْتَيْقَظُوْا مُبَكِّرِيْنَ وَقَدْ نَظَرُوْا إِلَىٰ مَلاَبِسِهِمْ وَأَحْذِيَتِهِمْ وَقَلاَنِسِهِمْ[٣] مِراراً عَدِيْدَةً.

وَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ الْعِيْدِ قَامُوا مِنْ فُرُشِهِمْ وَصَلَّوُا الصُّبْحَ وَاغْتَسَلُوْا وَغَيَّرُوْا مَلاَبِسَهُمْ، وَلَبِسَ كَثِيْرٌ مِنْهُمْ مَلاَبِسَ جَدِيْدَةً

---

(١) تَراءىٰ: فلانٌ الهلالَ: تشوَّفَ إليه وتطلَّع ونظره.

(٢) هَتَفَ يَهْتِفُ: صَاحَ.

(٣) قَلَنْسَوَة: جمعها: قَلاَنِس: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.

وَأَحْذِيَةً جَدِيْدَةً وَقَلانِسَ جَمِيْلَةً، وَرَأَتْهُمْ أُمْهَاتُهُمْ فَفَرِحْنَ بِهِمْ، وَقَدَّمَ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَأَقَارِبُهُمْ جَائِزَةَ الْعِيْدِ.

وَكَانَ وَلَدٌ يَتِيْمٌ تَخْدِمُ أُمُّهُ فِيْ بَيْتِ سَعِيدٍ وَلَيْسَ عِنْدَهُ لِبَاسٌ جَدِيْدٌ وَلَا حِذَاءٌ جَدِيْدٌ وَلَا قَلَنْسُوَةٌ نَظِيْفَةٌ، فَاغْتَسَلَ وَلَبِسَ لِبَاسَهُ الْقَدِيْمَ وَقَدْ تَشَقَّقَ(١)، وَلَبِسَ قَلَنْسُوَتَهُ الْقَدِيْمَةَ وَقَدْ تَوَسَّخَتْ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَىٰ أَتْرَابِهِ(٢) وَإِلَىٰ أَوْلَادِ الأَغْنِيَاءِ بِغِبْطَةٍ(٣) وَخَجَلٍ، وَكَانَتْ أُمُّهُ مَحْزُونَةً تَذْكُرُ أَبَاهُ.

حَزِنَ سَعِيدٌ بِهٰذَا الْمَنْظَرِ وَاسْتَحَىٰ فِيْ نَفْسِهِ فَأَسْرَعَ إِلَىٰ صُنْدوْقِهِ وَأَهْدَىٰ إِلَيه مَلْبُوساً نَظِيْفاً وَقَلَنْسُوَةً نَظِيْفَةً، فَذَهَبَ الْيَتِيْمُ وَغَيَّرَ اللِّبَاسَ وَفرَحَ كَثِيْراً وَفَرِحَتْ أُمُّهُ، وَدَعَتْ لِسَعِيْدٍ بِالبَرَكَةِ وَطُوْلِ الْعُمُرِ.

وَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ خَرَجَ النَّاسُ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ وَكَانَ مَنْظَراً جَمِيْلاً يَقُوْلُوْنَ: «اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إلهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، ولِلهِ الْحَمْدُ».

وَصَلَّىٰ الإِمَامُ بِالنَّاسِ، ثُمَّ خَطَبَ، وَرَجَعَ النَّاسُ مِنَ

---

(١) تَشَقَّقَ يَتَشَقَّقُ: تَصَدَّعَ وَبدْت شقوقه.
(٢) تِرْبٌ: جمعها: أَتْرَاب: المماثل في السنّ (للذكر والمؤنث).
(٣) الغِبْطَةُ: المَسَرَّةُ، حُسن الحال.

الْمُصَلَّىٰ بِطَرِيْقٍ آخَرَ، وَزَارَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَضَيَّفَ[١] بَعْضُهُمْ أَصْدِقَاءَهُمْ، وَهَنَّأَ كُلُّ مُسْلِمٍ صَدِيْقَهُ وَقَالَ: «عِيْدٌ سَعِيْدٌ» كُلّ عَامٍ وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ.

وَكَانَ صَبَاحُ الْعِيْدِ جَمِيْلاً، وَفِي الْعَصْرِ ذَكَرَ النَّاسُ رَمَضَانَ وَفُطُوْرَهُ، وَفِي اللَّيْلَ ذَكَرُوا التَّرَاوِيحَ، وَشَعَرُوْا كَأَنَّهُمْ فَقَدُوْا شَيْئاً أَوْ ضَاعَ مِنْهُمْ شَيْءٌ، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ:

«الْعِيْدُ سَاعَاتٌ وَرَمَضَانُ كُلُّهُ عِيْدٌ».



(١) ضَيَّفَ يُضَيِّفُ: أَضَافَهُ وَأَنْزَلَه عنده.

القراءة الراشدة

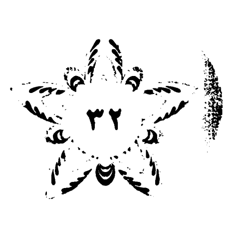
لتعليم اللغة العربية في المدارس الإسلامية

للداعية الحكيم، المفكر الإسلامي الكبير

العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي

الجزء الثاني





شَهَامَةُ الْيَتِيْمِ

تَرَوْنَ أَمَامَكُمْ صُوْرَةَ مَسْجِدٍ، هٰذَا مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ، هَلْ تَعْرِفُوْنَ مِنْ خَبَرِ هٰذَا الْمَسْجِدِ شَيْئاً؟ إِنَّ لَهُ تَارِيْخاً يَغْتَبِطُ[١] بِهِ كُلُّ طِفْلٍ مُسْلِمٍ.

لَمَّا دَعَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَىٰ اللهِ فِيْ مَكَّةَ، وَنَادَىٰ فِي النَّاسِ «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ» غَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَكَانَتْ تَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَكَانَتْ فِي الْكَعْبَةَ الَّتِيْ بَنَاهَا إِبْرَاهِيْمُ وَإِسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ: كَانَ فِيْ تِلْكَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِئَةٍ وَسِتُّوْنَ صَنَماً، فَاشْتَعَلَتْ قُرَيْشٌ غَضَباً، وَآذَوْا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ وَعَذَّبُوا الْمُسْلِمِيْنَ، فَصَبَرَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَصَبَرَ الْمُسْلِمُوْنَ وَثَبَتُوْا لَهُمْ كَالْجِبَالِ.

وَلٰكِنَّ قُرَيْشاً كَانُوْا يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الإِسْلَامِ وَيَحُوْلُوْنَ[٢]

---

(١) **اغْتَبَطَ يَغْتَبِطُ**: فَرِحَ بالنعمة.

(٢) **حَالَ يَحُوْلُ**: مَنَعَ.

بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَعِبَادَةِ اللهِ، فَأَذِنَ اللهُ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ بِالْهِجْرَةِ، فَهَاجَرَ إِلَىٰ الْمَدِيْنَةِ وَهَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ، وَكَانَتِ الْمَدِيْنَةُ أَرْضاً طَيِّبَةً للإِسْلَامِ، فِيْ أَهْلِهَا لِيْنٌ وَرِقَّةٌ، قَدْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ كَثِيْرٌ قَبْلَ الْهِجْرَةِ.

وَلَمَّا انْتَقَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَسَكَنَ هُنَالِكَ أَحَبَّ أَنْ يَبْنِيَ مَسْجِداً؛ لأَنَّ الْمَسْجِدَ لَازِمٌ(١) لِلْمُسْلِمِيْنَ، وَهُوَ قُطْبٌ يَدُوْرُ حَوْلَهُ رَحَىٰ الْحَيَاةِ(٢) الإِسْلَامِيَّةِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ نَازِلاً فِيْ بَيْتِ أَبِيْ أَيُّوْبَ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، وَكَانَ ضَيْفاً عَلَيْهِ، وَكَانَ قَرِيْباً مِنْ بَيْتِهِ مِرْبَدٌ(٣)، فَأَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبْنِيَ الْمَسجِدَ فِيْ ذٰلِكَ الْمَكَانِ، قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: لِمَنْ هٰذَا الْمِرْبَدُ؟

قَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ اسْمُهُ مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ: هُوَ يَا رَسُوْلَ اللهِ لِيَتِيْمَيْنِ، اسْمُ أَحَدِهِمَا: سَهْلٌ، واسمُ الثَّانِيْ: سُهَيْلٌ.

طَلَبَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَهْلاً وَسُهَيْلاً، وَهُمَا وَلَدَانِ يَتِيْمَانِ، فَلَمَّا حَضَرَا، كَلَّمَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيْ أَمْرِ الْمِرْبَدِ وَثَمَنِهِ.

---

(١) لازم: ضروري.

(٢) رحىٰ: جمعها: أرحاء: أداة يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما علىٰ الآخر، ويدار الأعلىٰ على قطب.

(٣) مِرْبَدٌ: جمعها: مَرَابِد: مَوْقف الإبل ومَحْبسها ومكانٌ يجفَّفُ فيه التمر.

قَالَ سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ: هُوَ يَا رَسُوْلَ اللهِ، للهِ، لَا نَشْتَرِيْ بِهِ ثَمَناً، فَابْنِ الْمَسْجِدَ، وَقَدْ طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُنَا، وَلٰكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَبىٰ وَاشْتَرىٰ مِنْهُمَا الْمَكَانَ، وَدَفَعَ الثَّمَنَ.

وَبَنىٰ الْمُسْلِمُوْنَ الْمَسْجِدَ، وَرَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ بِيَدِهِ وَيَنْقُلُ اللَّبِنَ، فَقَالَ قائِلٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ:

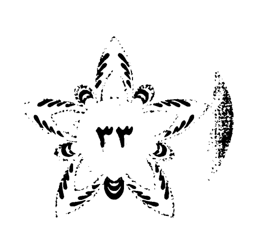
لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ   لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلِّلُ

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَبْنُوْنَهُ وَيَقُوْلُوْنَ:

اللهم لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَه   فَارْحَمِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَه

وَقَدْ زَادَ فِيْ هٰذَا الْمَسْجِدِ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه وَالْمُلُوْكُ بَعْدَهُ، حَتَّىٰ تَرَوْنَهُ فِيْ هٰذَا الشَّكْلِ.





كِسْرَةٌ مِنَ الْخُبْزِ

مَرَّةً أَخَذْتُ كِسْرَةً(١) مِنَ الْخُبْزِ لآكُلَهَا فَقَالَتْ: مَهْلاً يَا سَيِّدِي(٢)! إِنَّكَ غَيْرُ جَائِعٍ، وَقَدْ أَكَلْتَ أَخَوَاتِيْ، أَفَلَا تُحِبُّ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ قِصَّتِيْ، فَإِنَّها غَرِيْبَةٌ وَإِنَّهَا لَذِيْذَةٌ.

قُلْتُ: بَلَىٰ! أُرِيْدُ أَنْ أَسْمَعَ قِصَّتَكِ، فَلَا آكُلُكِ حَتَّىٰ أَسْمَعَ مِنْكَ.

قَالَتْ: هَلْ تَظُنُّ يَا سَيِّدِيْ أَنِّي خُلِقْتُ هٰكَذَا؟ هَلْ سَمِعْتَ أَنَّ الْخُبْزَ يَنْبُتُ فِي الْحَقْلِ(٣) أَوْ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ؟ إِنَّكَ تَأْكُلُ مُسْتَرِيْحاً يَأْتِيْكَ رِزْقُكَ رَغَداً، وَلٰكِنِّي لَمْ أَزَلْ أَتَحَمَّلُ الْمَشَاقَّ(٤) لأَجْلِكَ، وَأَخْرُجُ مِنْ مُصِيْبَةٍ إِلَىٰ مُصِيْبَةٍ وَمِنْ مَحْبِسٍ إِلَىٰ مَحْبِسٍ

---

(١) كِسْرَة: جمعها: كِسَر: القطعة المكسورة من الشيء.

(٢) مَهْلاً يا سيِّدي: رِفْقاً لا تَعْجل يا سيِّدي.

(٣) الحَقْلُ: جمعها: حُقُول: كل قطعة من الأرض قابلة للحرث والزرع.

(٤) مَشَقَّة: جمعها: مَشَاق ومَشَقَّات: عناء وتعب.

حَتَّىٰ وَصَلْتُ إِلَىٰ يَدِكَ.

كَانَ مِنْ خَبِرَيْ أَنِّيْ كُنْتُ حَبَّةَ حِنْطَةٍ[١] مَعَ شَقِيْقَاتِيْ فِيْ غِرَارَةٍ[٢]، فَجَاءَ إِلَيْنَا رَجُلٌ، فَأَخَذَنِيْ مَعَ رَفِيْقَاتِيْ، فَبَذَرَنَا[٣] فِي التُّرَابِ.

هُنَالِكَ فِي الْحَقْلِ أَبْصَرْتُ الدُّنْيَا وَأَصَابَتْنِي الشَّمْسُ وَكُنْتُ مَسْرُوْرَةً جِدّاً، وَلٰكِنْ نَزَلَ الْمَطَرُ، وَدَخَلْتُ إِلَىٰ بَاطِنِ التُّرْبَةِ، وَبَقِيْتُ مَدْفُوْنَةً أَيَّاماً، وَأَخَذَ جِسْمِيْ يَكْبُرُ وَجِلْدِي يَضِيْقُ عَلَيَّ، حَتَّىٰ انْشَقَّ جِلْدِي، وَخَرَجَ مِنْهُ جُذَيْرَاتٌ كَالشَّعْرِ، ثُمَّ خَرَجَتْ وُرَيْقَاتٌ شَقَّتِ التُّرْبَةَ، وَظَهَرَتْ فَوْقَ الأَرْضِ، فَكُنْتُ يَا سَيِّدِيْ سُنْبُلَةً قَائِمَةً عَلَىٰ سَاقٍ.

ثُمَّ أَصْبَحَتُ سُنْبُلَةً صَفْرَاءَ فِيْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَكُنْتُ أَرَىٰ صَدِيْقَاتِيْ وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ وَنَهْتَزُّ طَرَباً، وَكَانَتْ أَيَّاماً جَمِيْلَةً.

وَمَا طَالَتْ تِلْكَ الْمُدَّةُ فَقَدْ جَاءَ رِجَالٌ يَحْمِلُوْنَ الْمَنَاجِلَ[٤]، فَحَصَدُوْا وَحَمَلُوْا، وَانْتَقَلْتُ إِلَىٰ بَيْدَرٍ[٥] وَمَكَثْتُ أَيَّاماً.

---

(١) حِنْطَةٌ: جمعها: حِنَط: قمح.

(٢) غِرَارَة: جمعها: غَرَائِر: وعاء من الخيش ونحوه توضع فيه الحبوب.

(٣) بَذَرَ: يَبْذُرُ الحب: أَلْقَاه في الأرض متفرِّقاً للزراعة.

(٤) مِنْجَل: جمعها: مَنَاجِل: آلة لحصْدِ الزرع أو لِحَشِّ العُشْبِ.

(٥) بَيْدر: جمعها: بَيَادِر: الموضع يُجْمع فيه ما يُحصد من الحبوب.

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ الأَيَّامِ فَقَدْ جَاءَ ثِيْرَانٌ فَدَاسَتْنَا[١] بِأَقْدَامِهَا، وَفَارَقْتُ السُّنْبُلَةَ، وَكُنْتُ طَرِيْحاً[٢] ذَلِيْلاً.

ثُمَّ أَخَذَنَا رِجَالٌ، وَذَرَوْنَا[٣] فِي الرِّيْحِ فَطَارَ الْقِشْرُ وَبَقِيَ الْقَمْحُ.

وَكَانَ أَشَدَّ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ: أَنَّ رَجُلاً حَمَلَنِيْ إِلَىٰ شَيْءٍ مُدَوَّرٍ مِنَ الْحَجَرِ، فِيْهِ ثَقْبٌ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ لَهُ صَوْتاً شَدِيْداً كَرِيْهاً وَجَعْجَعَةً[٤]، فَأَلْقَانِيْ فِيْهِ فَطَحَنَنِيْ طَحْناً، هَلْ تَعْرِفُ اسْمَهُ يَا سَيِّدِي؟ ذٰلِكَ هُوَ الطَّاحُوْنُ أَوِ الرَّحَىٰ.

فَلَمَّا صِرْتُ دَقِيْقاً أَخَذَنِي الْخَبَّازُ وَوَضَعَنِيْ فِيْ مِعْجَنَةٍ، وَغَمَرَنِيْ بِالْمَاءِ النَّقِيِّ، وَغَمَزَنِيْ[٥]، حَتَّى صِرْتُ عَجِيْناً، فَصَنَعَ مِنِّيْ كُرَةً.

هُنَالِكَ جَاءَتِ الْمُصِيْبَةُ، فَقَدْ دَحَانِيْ[٦] عَلَىٰ حَدِيْدٍ مُحَمّىً تُسَمُّوْنَهُ الطَّابقَ، لَا تَسْأَلْ يَا سَيِّدِيْ عَنْ أَلَمِيْ وَاحْتِرَاقِيْ فَقَدْ

---

(١) دَاسَ: يَدُوْسُ الشيءَ: وَطِئه وَطْئاً شديداً بقدمه.

(٢) طَرِيْح: مَتْرُوك.

(٣) ذَرَا يَذْرُو: أطار وفرّق.

(٤) جَعْجَعَة: تصويت الرحىٰ.

(٥) الغمزُ: العَصْرُ والكبسُ باليد.

(٦) دَحَا يَدْحو: بَسَطَ ومَدَّ ووسَّعَ.

الْتَوَيْتُ(١) وَانْكَمَشْتُ(٢)، وَلٰكِنَّ الْخَبَّازَ لَمْ يَرْحَمْنِيْ وَلَمْ يَرِقَّ لِيْ، حَتَّىٰ كُنْتُ رقَاقاً(٣).

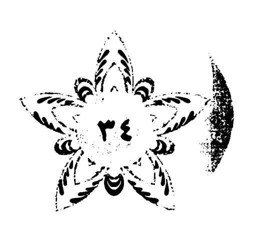
كُلَّ ذٰلِكَ فِيْ سَبِيْلِكَ يَا سَيِّدِيْ، كُنْتُ أَشْقَىٰ لِنَعِيْمِكَ وَأَتْعَبُ لِلَذَّتِكَ، وَأَنْتَقِلُ مِنْ طَوْرٍ(٤) إِلَىٰ طَوْرٍ، لِتَأْكُلَ هَنِيْئاً وَتَشْبَعَ، أَفَلَا يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقُوْلَ:

«الْحَمْدُ لله الَّذِيْ أَطْعَمَنِيْ وَسَقَانِيْ وَجَعَلَنِيْ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ».



---

(١) **الْتَوَىٰ**: يَلْتَوِيْ الشيءُ: اعْوَجَّ.
(٢) **انكَمَش يَنْكَمِشُ**: انْفَرَدَ وانْطَوَىٰ.
(٣) **الرِّقَاقُ**: الخبز المنبسط الرقيق.
(٤) **طَوْر**: جمع أَطْوَار: حال، هيئة.



عِيَادَةُ المَرِيْضِ

ذَهَبَ حَامِدٌ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ يَوْمَ السَّبْتِ فَوَجَدَ أَنَّ صَدِيْقَهُ حُسَيْناً مَا حَضَرَ فِي الْمَدْرَسَةِ، فَسَأَلَ أَخَاهُ عَلِيّاً عَنِ السَّبَبِ، فَقَالَ: إِنَّهُ مَحْمُوْمٌ(١) مِنْ يَوْمِ الْخَمِيْسِ، فَعَزَمَ حَامِدٌ عَلَىٰ أَنْ يَعُوْدَهُ فِي الرُّجُوْعِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ.

ذَهَبَ حَامِدٌ إِلَىٰ بَيْتِ حُسَيْنٍ فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ، فَخَرَجَ أَبُوْ حُسَيْنٍ، قَال حَامِدٌ: إِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَعُوْدَ(٢) صَدِيْقِيْ حُسَيْناً فَقَدْ أَخْبَرَنِيْ عَلِيٌّ أَنَّهُ مَرِيْضٌ، قَالَ أَبُوْهُ: نَعَمْ! إِنَّهُ أَصَابَتْهُ الْحُمَّىٰ يَوْمَ الْخَمِيْسِ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَعُوْدَهُ.

صَعِدَ حَامِدٌ إِلَىٰ السَّطْحِ، وَدَخَلَ غُرْفَةَ حُسَيْنٍ، فَرَأَىٰ حُسَيْناً

---

(١) مَحْمُومٌ: مُصَابٌ بالحمَّىٰ، والحُمَّى: عِلَّة يَسْتَحِرُّ بها الجسم.

(٢) أعودَ: أي أزور، يقال: عادَ فلانٌ المريضَ عوداً وعيادةً زاره.

مُضْطَجِعاً، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِلُطْفٍ، وَدَنَا مِنْهُ، وَقَالَ لَهُ: كَيْفَ حَالُكَ يَا أَخِيْ! عَافَاكَ اللهُ.

قَالَ حُسَيْنٌ: قَدْ أَصَابَتْنِيْ الْحُمَّىٰ يَوْمَ الْخَمِيْسِ، وَكَانَتْ شَدِيْدَةً يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَخَفَّتْ فِيْ اللَّيْلِ، وَلٰكِنِّي أَشْكُو الصُّدَاعَ[١] وَالدُّوَارَ[٢]، وَقَدْ ضَعُفْتُ كَثِيْراً، كَأَنِّيْ مَرِيْضٌ مُنْذُ أَيَّامٍ، وَلَا أَشْتَهِي الطَّعَامَ.

قَالَ حَامِدٌ: لَا بَأْسَ طَهُوْرٌ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَهَلْ عَادَكَ طَبِيْبٌ؟

قَالَ حُسَيْنٌ: نَعَمْ! قَدْ عَادَنِيْ طَبِيْبٌ أَمْسِ، وَمَوْعِدُهُ الآنَ.

وَلَمْ يَجْلِسْ حَامِدٌ إِلَّا قَلِيْلاً، حَتَّى حَضَرَ الطَّبِيْبُ فَجَسَّ[٣] يَدَ حُسَيْنٍ، وَقَاسَ الْحَرَارَةَ، وَامْتَحَنَ الصَّدْرَ بِالسَّمَّاعَةِ[٤]، وَأَبْدَىٰ الارْتِيَاحَ، وَغَيَّرَ فِي الْوَصْفَةِ قَلِيْلاً، وَقَالَ: إِنَّهُ بَارِئٌ بِحَمْدِ اللهِ، وَأَوْصَىٰ[٥] أَبَاهُ بِأَنْ يَحْمِيَ حُسَيْناً الْمَاءَ الْبَارِدَ وَالزَّيْتَ وَالْخُرُوْجَ فِي الْهَوَاءِ والتَّعَب، وَيَسْقِيَهُ اللَّبَنَ وَمَاءَ الشَّعِيْرِ وَمَاءَ الْفَوَاكِهِ.

---

(١) الصُّدَاعُ: وَجَعُ الرأس.
(٢) الدُّوَارُ: دَوَرَان يَأخذ بالرأس (دوخة) لمرض أو سفر.
(٣) جَسَّ، يَجُسُّ اليَدَ: مَسَّها.
(٤) السَّمَّاعَة: آلة يَسْمَع بها الطبيب نبض القلب.
(٥) أَوْصَاه، يُوْصِيْ بأمْر: أَمَرَه به.

وَجَلَسَ حَامِدٌ قَلِيْلاً، وَقَالَ: إِنَّ الْعَائِدَ إِذَا أَطَالَ الْجُلُوْسَ عِنْدَ الْمَرِيْضَ شَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَأَسْتَأْذِنُ وَأَنْصَرِفُ، وَأَعُوْد إِنْ شَاءَ اللهُ غَداً.





الْكِيْمِيَاء

كَانَ الأَوْلَادُ يَتَحَدَّثُوْنَ فِي اللَّيْلِ وَيَتَسَامَرُوْنَ[١]، وَكَانَ أَكْثَرُ حَدِيْثِهِمْ عَنِ الْكِيْمِيَاءِ، وَكَانَ إِسْمَاعِيْلُ يَقُوْلُ: سَمِعْتُ أَنَّ شَيْخاً يُحَوِّلُ التُّرَابَ ذَهَباً، وَيَجْعَلُ نُقُوْدَ النِّيْكَلِ وَالرَّصَاصِ دَنَانِيْرَ ذَهَبِيَّةً وَجُنَيْهَاتٍ.

وَصَدَّقَهُ مَحْمُوْدٌ وَقَالَ: نَعَمْ! إِنَّهُ فَنٌّ كَانَ النَّاسُ يَعْرِفُوْنَهُ، وَلٰكِنِ انْقَرَضَ[٢] عُلَمَاءُ هٰذَا الفَنِّ، وَطُوِيَ ذٰلِكَ الْبِسَاطُ.

فَتَأَسَّفَ الأَوْلَادُ كَثِيْراً، وَحَزِنُوْا، وَقَالُوْا: لَوْ وَجَدْنَا أَحَداً يَعْرِفُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ، لَتَعَلَّمْنَاهَا مِنْهُ، وَصِرْنَا أَغْنِيَاءَ بِدُوْنِ تَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ.

وَكَانَ أَبُوْهُ بِمَسْمَعٍ مِنْهُمْ، فَقَالَ: لَا تَتَأَسَّفُوْا يَا أَوْلَادِيْ! فَإِنِّيْ أَعْرِفُ الْكِيْمِيَاءَ، وَأَنْتُمْ أَعَزُّ النَّاسِ عِنْدِيْ، فَأَنَا أُعَلِّمُكُمْ

---

(١) تَسَامَرَ يَتَسَامَرُ: تَحدَّث بعضهم إلىٰ بعض ليلاً.

(٢) انْقَرَضَ، يَنْقَرِضُ القوم: ماتوا، ولم يبق منهم أحد.



غَداً، وَأُخْبِرُكُمْ بِصِنَاعَةِ الْكِيْمِيَاءِ.

فَرِحَ الأَوْلَادُ كَثِيْراً، وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْتَظِرُوْا إِلَىٰ الصَّبَاحِ، فَاسْتَطَالُوا اللَّيْلَ، وَلٰكِنَّ وَالِدَهُمْ قَالَ لَهُمْ: «لَا يُمْكِنُ تَعْلِيْمُ الكِيْمِيَاءِ إِلَّا فِي النَّهَارِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ فَنٌّ دَقِيْقٌ».

نَامَ الأَوْلَادُ، وَانْتَبَهُوْا مُبَكِّرِيْنَ، وَلَمْ يَزَلْ إِسْمَاعِيْلُ وَمَحْمُوْدٌ يَرَيَانِ الْكِيْمِيَاءَ فِي الْمَنَامِ، رَأَىٰ هَاشِمٌ أَنَّهُ فِيْ قَصْرٍ شَامِخٍ[١] وَلِبَاسٍ فَاخِرٍ، وَقَدْ بَنَىٰ الْقَصْرَ، وَصَنَعَ اللِّبَاسَ بِالْمَالِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ بِالْكِيْمِياءِ.

فَصَلَّوْا الصُّبْحَ، وَجَلَسُوْا حَوْلَ أَبِيْهِمْ يَنْتَظِرُوْنَ فَرَاغَهُ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَأَتَمَّ أَبُوْهُمْ حِزْبَهُ، وَقَالَ: هَلُمُّوْا[٢] يَا أَبْنَائِيْ! فَخَرَجُوْا مَعَهُ، وَقَدْ أَعْجَلَهُمُ الاشْتِيَاقُ إِلَىٰ الْكِيْمِيَاءِ مِنْ أَنْ يَفْطِرُوْا.

لَمْ يَزَلْ أَبُوْهُمْ يَسِيْرُ بِهِمْ طَرِيْقاً بَعْدَ طَرِيْقٍ، حَتَّىٰ وَقَفَ بِهِمْ عَلَىٰ حَقْلٍ يَحْرُثُهُ الْفَلَّاحُ، وَفِيْ يَدِهِ السِّكَّةُ، فَقَالَ الْوَالِدُ: الْكِيْمِيَاءُ يَا أَوْلَادِيْ! تَحْتَ سِكَّةِ الْمِحْرَاثِ.

فَتَعَجَّبَ الأَوْلَادُ، فَاسْتَفْسَرُوَا أَبَاهُمْ، فَقَالَ الْوَالِدُ: أَلَمْ أَسْمَعْكُمْ تَقُوْلُوْنَ: الْكِيْمِيَاءُ يُحَوِّلُ التُّرَابَ ذَهَباً؟ أَلَا يَتَحَوَّلُ هٰذَا

---

(١) شَامِخ: عالٍ.

(٢) هَلُمُّوا: تعالوا.

التُّرَابُ ذَهَباً بَعْدَ أَيَّام بَلْ أَغْلَىٰ مِنَ الذَّهَبِ؟ وَمَا يُغْنِي الذَّهَبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ؟ فَهٰذِهِ الْبُذُوْرُ الَّتِي بَذَرَهَا الْفَلَّاحُ، وَاجْتَهَدَ فِيْهَا أَيَّاماً سَتَأْتِيْ بِحَاصِلٍ كَبِيْرٍ، وَسَيَرُدُّ اللهُ إِلَيْهِ بِهٰذَا الْعَمَلِ أَضْعَافَ[١] مَا بَذَلَ.

ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ أَبُوْهُمْ عَلَىٰ مَصْنَعٍ كَانَ النَّاسُ فِيْهِ عَاكِفِيْنَ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ، وَالْعَرَقُ يَسِيْلُ مِنْ جِبَاهِهِمْ، وَصَنَعُوْا أَشْيَاءَ مُفِيْدَةً جِدّاً تُثْمِرُ لَهُمْ مَالاً كَثِيْراً، وَتَقْضِيْ لِلنَّاسِ حَاجَاتٍ كَبِيْرَةً، فَقَالَ الْوَالِدُ: الْكِيْمِيَاءُ يَا أَوْلَادِيْ! عَرَقُ الْجَبِيْنِ، وَكَدُّ الْيَمِيْنِ، ثُمَّ مَالَ بِهِمْ إِلَىٰ حَلْقَةِ مُعَلِّمٍ، وَإِلَىٰ مَجْلِسِ وَاعِظٍ، وَقَالَ: يَا أَوْلَادِيْ! الإِنْسَانُ أَغْلَىٰ شَيْءٍ فِي الوُجُوْدِ، وَتَثْقِيْفُهُ وَإِصْلَاحُهُ أَفْضَلُ مِنْ تَحْوِيْلِ التُّراب ذَهَباً.

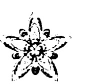
فَإِذَا تَعَلَّمَ هٰؤُلَاءِ الأَوْلَادُ، وَإِذَا اهْتَدَىٰ هٰؤُلَاءِ النَّاسُ، كَانَ لِلْمُعَلِّمِ وَالْوَاعِظِ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، لَهُ أَجْرُ كُلِّ مَا يَعْمَلُ هٰؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ وَبِرٍّ، وَلِذٰلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِسَيِّدِنَا عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ:

«يَا عَلِيُّ! لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَعَمِ».

فَاقْتَنَعَ الأَوْلَادُ، وَشَكَرُوْا أَبَاهُمْ، وَرَجَعُوْا، وَقَدْ تَعَلَّمُوا الْكِيْمِيَاءَ.

---

(١) ضِعْف: جمعها: أَضْعَاف الشيء: مثله أو ما زَادَ على ذٰلك.





يَوْمٌ صَائِفٌ

مَا أَشَدَّ الْحَرَّ! يَا لَطِيْفُ! النَّاسُ فِيْ بُيُوْتِهِمْ لَا يَخْرُجُوْنَ خَوْفَ السَّمُوْمِ[١]، وَقَدِ اتَّخَذُوْا سُتُوْراً مِنَ الْحَشِيْشِ يرُشُّوْنَ عَلَيْهَا الْمَاءَ، وَيُحَرِّكُوْنَ الْمَرَاوِحَ، وَقَدْ سَدُّو النَّوَافِذَ، لِئَلَّا تَدْخُلَ مِنْهَا السَّمُوْمُ، وَمَعَ ذٰلِكَ يَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ مِثْلِ الْجَمْرِ، هٰذَا، وَأَهْلُ الأَكْوَاخِ الْحَقِيْرَةِ وَالْخُصَصِ[٢] والْبُيُوْتِ الْمَبْنِيَّةِ مِنَ اللَّبِنِ أَنْعَمُ في الصَّيْفِ مِنْ أَهْلِ الْقُصُوْرِ الْمَبْنِيَّةِ مِنَ الْجِصِّ[٣] وَالآجُرِّ، فَإِذَا رَشُّوا[٤] الْمَاءَ عَلَىٰ الأَرْضِ وَالْجُدْرَانِ، وَهَبَّتْ لَفْحَةٌ[٥] مِنْ سَمُوْمٍ تَحَوَّلَتْ نَفْحَةً مِنَ نَسِيْمٍ، وَحَسِبُوْا أَنَّهُمْ فِيْ جَنَّةٍ وِنَعِيْمٍ.

---

(١) سَمُوم: حَرٌّ شديد.
(٢) خُصّ: جمعها: خُصَصٌ وأَخصاص: بيت من شجر أو قصب.
(٣) جَصّ: مادة كلسية بيضاء تُطلىٰ بها البيوت.
(٤) رَش، يَرُشُّ علىٰ الأرض: نَضَحَها وبَلَّها.
(٥) نَفحَة، جمعها: نَفَحَات: لَسْعَة النار.

اِرْتَفَعَتْ دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ إِلَىٰ مِئَةٍ وَثَمَانِي عَشْرَةَ نُقْطَةً، فَعِيلَ صَبْرُ النَّاسِ، وَسَافَرَ الأَغْنِيَاءُ إِلَىٰ قُلَلِ(١) الْجِبَالِ حَيْثُ يَصْطَافُوْنَ(٢) وَيَقْضُونَ شَهْرَيْ مَايُوْ وَيُوْنِيَهْ حَتَّىٰ إِذَا نَزَلَتِ الأَمْطَارُ، وَلَطُفَ الْحَرُّ هَبَطُوْا إِلَىٰ الْمُدُنِ وَالسُّهُوْلِ.

وَبَقِيَ أَوْسَاطُ النَّاسِ، وَأَهْلُ الأَشْغَالِ يَتَحَمَّلُوْنَ الْحَرَّ، وَيَصْبِرُوْنَ لِلسَّمُومِ.

الآنَ رَكَدَتِ(٣) السَّمُوْمُ، وَمَالَتِ الشَّمْسُ، وَطَابَ الْخُرُوْجُ، وَانْتَشَرَ النَّاسُ فِي الْبَسَاتِيْنِ وَالمَيَادِيْنِ وَشَوَاطِئِ الأَنْهَارِ يَتَرَوَّحُوْنَ وَيَتَنَزَّهُوْنَ، فَلَا تَجِدُ فِي الْبَيْتِ إِلَّا شَيْخاً هَرِماً أَوِ امْرَأَةً أَوْ عَاجِزاً، وَمَنْ حَبَسَهُ شُغْلٌ أَوْ مَرَضٌ أَوْ حَاجَةٌ، وَقَدْ تَسْتَمِرُّ السَّمُوْمُ إِلَىٰ اللَّيْلِ، فَلَا يَسْتَرِيْحُ النَّاسُ وَيَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ الْفِرَاشِ، وَقَدْ يَحْتَبِسُ الْهَوَاءُ، فَيَسِيْلُ الْعَرَقُ، وَتَتَحَرَّكُ الْمَرَاوِحُ، وَيَطِيْرُ النَّوْمُ.

---

(١) **قُلَّة**: جمعها: قُلَل: قمَّة.

(٢) **اصْطَافَ**، يَصْطَافُ بالمكان: أَمْضَىٰ صَيْفَه فيه.

(٣) **رَكَدَ**، يَرْكُدُ السمومُ: سَكَنَ وهَدأ وثَبُتَ.



النَّظَافَةُ

طَاهِرٌ ابْنُ فَلَّاحٍ، يَسْكُنُ أَبُوْهُ فِي الْقَرْيَةِ وَيُرْسِلُ إِلَىٰ طَاهِرٍ قَلِيْلاً مِنَ النُّقُوْدِ كُلَّ شَهْرٍ.

وَلٰكِنَّ طَاهِراً وَلَدٌ مُدَبِّرٌ عَاقِلٌ، ثِيَابُهُ مُتَوَاضِعَةٌ، وَلٰكِنَّهَا دَائِماً نَظِيْفَةٌ مُرَتَّبَةٌ لا تَرَىٰ فِيْهَا وَسَخاً، يَغْسِلُهَا بِيدِه كُلَّ جُمُعَةٍ، وَعِنْدَهُ إِبْرَةٌ وَخَيْطٌ، فَإِذَا تَخَرَّقَ[1] ثَوْبٌ خَاطَهُ بِالإِبْرَةِ أَوْ رَقَعَهُ بِنَفْسِهِ.

وَلَا يَخْجَلُ إِذَا خَرَجَ فِيْ ثَوْبٍ مَرْقُوْعٍ، وَلٰكِنَّهُ يَخْجَلُ إِذَا خَرَجَ فِيْ ثَوْبٍ وَسِخٍ، وَمَا رَآهُ أَصْدِقَاؤُهُ فِيْ ثِيَابٍ وَسِخَةٍ أَبَداً، فَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُ غَنِيٌّ، عِنْدَهُ ثِيَابٌ كَثِيْرَةٌ، وَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَرْبَعَ بِذْلَاتٍ[2].

وَإِذَا دَخَلْتَ فِيْ حُجْرَتِهِ رَأَيْتَهَا نَظِيْفَةً مُنْتَظِمَةً، وَرَأَيْتَ كُلَّ

---

(١) تَخَرَّقَ، يَتَخَرَّقُ الثوبُ: اتَّسَعَ شَقُّه.

(٢) بِذْلَة، جمعها: بِذْلَاتُ: مَا يُلْبَسُ في المهنة والعمل.

شَيْءٍ فِيْ مَحَلِّهِ، فَلَا يَضِيْعُ وَقْتُهُ فِيْ تَفَقُّدِ الأَشْيَاءِ وَالْتِمَاسِهَا، وَإِذَا دَخَلَ فِي الظَّلَامِ قَدَرَ عَلَىٰ أَنْ يَأْخُذَ مَا يُرِيْدُهُ؛ لأَنَّهُ فِيْ مَحَلِّهِ.

وَكُتُبُهُ فِيْ نِظَام دَائِماً، وَهِيَ نَظِيْفَةٌ لَا تَرَىٰ عَلَيْهَا غُبَاراً وَلَا تُرَاباً، وَلَا تَرَىٰ فِيْهَا أَثَرَ دُهْنٍ وَمِسْحَةَ يَدٍ، وَلَا كِتَابَةً وَتَمْرِيْناً، كَأَنَّهُ اشْتَرَاهَا الْيَوْمَ، وَلَا يَكْتُبُ اسْمَهُ إِلَّا فِيْ مَكَانٍ وَاحِدٍ بِخَطٍ جَيِّدٍ.

وَإِذَا قَامَ طَاهِرٌ فِي الصَّبَاحِ تَوَضَّأَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ وَاسْتَاكَ[1]، وَنَظَّفَ أَسْنَانَهُ.

وَيَغْتَسِلُ طَاهِرٌ كُلَّ يَوْمٍ فِي الصَّيْفِ، وَأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِيْ أُسْبُوْعٍ فِي الشِّتَاءِ، لِذٰلِكَ تَرَاهُ يَمْرَضُ قَلِيْلاً، وَهُوَ قَوِيٌّ نَشِيْطٌ.

وَفِيْ فَصْلِ طَاهِرٍ وَلَدٌ غَنِيٌّ اسْمُهُ شَاهِدٌ، وَهُوَ ضِدُّ طَاهِرٍ فِي النَّظَافَةِ وَالنِّظَام، فَثِيَابُهُ غَالِيَةٌ جَمِيْلَةٌ وَلٰكِنَّهَا فِي الْغَالِبِ وَسِخَةٌ دَنِسَةٌ[2]، وَهُوَ يُغَيِّرُ مَلَابِسَهُ سَرِيْعاً، وَلٰكِنَّهُ يُوَسِّخُهَا سَرِيْعاً.

وَكَذٰلِكَ كُتُبُهُ دَائِماً فَجِلْدُهَا مَشْقُوْقٌ، وَوَرَقُهَا مَخْرُوْقٌ، كَأَنَّ طِفْلاً عَبَثَ بِهَا أَوْ مَشَتْ عَلَيْهَا سِكَّةُ الْفَلَّاحِ، أَوْ دَاسَتْهَا مَرْكَبَةٌ.

---

(١) اسْتَاكَ يَسْتَاكُ: نَظَّفَ الأَسنانَ بالسِّواك.

(٢) دَنِس: وَسِخٌ.

وَكُتُبُهُ وَدَفَاتِرُهُ مَعْرِضٌ، أَوْ مُتْحَفٌ، تَرَىٰ فِيهَا رُسُوماً وَصُوَراً، وَتَوْقِيعَاتٍ وَتَمْرِينَاتٍ، وَأَشْكَالاً رِيَاضِيَّة وَخَرَائِطَ جُغْرَافِيَّةً.

وَإِذَا قُلْتَ لِشَاهِدٍ: لِمَاذَا لَا تُحَافِظُ عَلَىٰ النَّظَافَةِ وَالنِّظَامِ؟ قَالَ: إِنَّهُ يَضِيعُ فِي ذٰلِكَ وَقْتٌ كَثِيرٌ، وَالْوَقْتُ شَيْءٌ غَالٍ.

وَتَرَاهُ يُضَيِّعُ وَقْتاً طَوِيلاً فِي تَفَقُّدِ الأَشْيَاءِ وَتَغْيِيرِ الْمَلَابِسِ بِسُرْعَةٍ، وَلَا يَفْطَنُ(١) لِذٰلِكَ.



---

(١) فَطِنَ، يَفْطَنُ له أو إليه: تَنَبَّه له.



٣٨

الْحَنِيْنُ إِلَى الشَّهَادَةِ (١)

لَمَّا أَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ الْخُرُوجَ إِلَىٰ بَدْرٍ لِيُقَاتِلَ الْمُشْرِكِيْنَ وَخَرَجَ غُلَامٌ اسْمُهُ عُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عُمُرُهُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً.

وَكَانَ عُمَيْرٌ يَخَافُ أَلَّا يَقْبَلُهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ لأَنَّهُ صَغِيْرٌ، فَكَانَ يَجْتَهِدُ أَلَّا يَرَاهُ أَحَدٌ، وَكَانَ يَتَوَارَىٰ(١).

وَلٰكِنْ رَآهُ أَخُوْهُ الأَكْبَرُ سَعْدُ بْنُ أَبِيْ وَقَّاصٍ فَقَالَ لَهُ: مَالَكَ يَا أَخِيْ؟ لأَيِّ شَيْءٍ تَتَوَارَىٰ؟

قَالَ عُمَيْرٌ: أَخَافُ أَنْ يَرُدَّنِيْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَإِنِّي صَغِيْرٌ، وَأَنَا أُحِبُّ الْخُرُوْجَ، لَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُنِيَ الشَّهَادَةَ.

وَكَانَ كَمَا خَافَ عُمَيْرٌ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَأَىٰ أَنَّهُ صَغِيْرٌ، وَالْحَرْبُ لَيْسَتْ مِنْ شُغْلِ الأَطْفَالِ وَالْغِلْمَانِ، وَمَا يَصْنَعُوْنَ فِي الْحَرْبِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيْرَةٌ عَلَىٰ الرِّجَالِ؟

---

(١) تَوَارىٰ يَتَوَارىٰ: اسْتَتَر واخْتَفَى.

وَلـكِنَّ عُمَيْراً مَا أَحَبَّ أَنْ يَنْصَرِفَ، وَيَقْعُدَ فِي الْبَيْتِ، أَوْ يَلْعَبَ مَعَ أَتْرَابِهِ، وَأَصْدِقَائِهِ فِي الْمَدِيْنَةِ، وَإِنَّهُ لَيُرِيْدُ الشَّهَادَةَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ!

وَلـكِنَّ عُمَيْراً لَا يَعْصِيْ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، وَلَا يُعَانِدُ[1]، فَإِنَّهُ لَا يُرِيْدُ إِلَّا رِضَاءَ اللهِ، وَهَلْ يَنَالُ رِضَاءَ اللهِ إِذَا عَصىٰ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ؟ أَبَداً!

كَانَ عُمَيْرٌ فِيْ حَيْرَةٍ وَحُزْنٍ شَدِيْدٍ، هُوَ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الْقِتَالِ، وَلـكِنَّهُ يَحِنُّ[2] إِلَىٰ الشَّهَادَةِ، وَإِلَىٰ الْمَوْتِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَيَحِنُّ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَيَرَاهَا غَيْرَ بَعِيْدَةٍ، وَلـكِنْ كَيْفَ يَصِلُ إِلَيْهَا، وَهُوَ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الْقِتَالِ؟!

كُلُّ ذٰلِكَ ثَقُلَ[3] عَلَىٰ عُمَيْرٍ، وَكَانَ قَلْبُهُ صَغِيْراً فَبَكَىٰ، وَلَمَّا بَكَىٰ عُمَيْرٌ رَقَّ[4] لَهُ قَلْبُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَقِيْقاً رَفِيْقاً فَأَجَازَهُ.

لَا تَسْأَلُوْا عَنْ فَرَحِ عُمَيرٍ وَسُرُوْرِهِ لَمَّا أَجَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَكَأَنَّمَا نَالَ تَذْكِرَةَ الْجَنَّةِ.

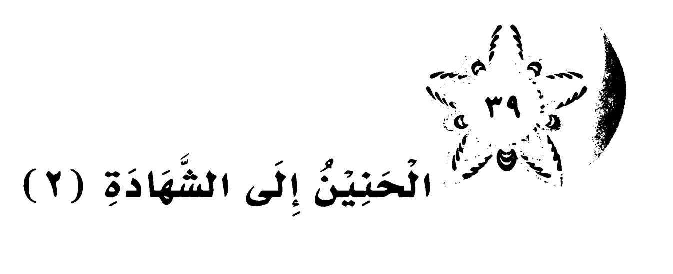
---

(١) عَانَدَ يُعَانِدُ: خَالَفَ وَعَارَضَ.
(٢) حَنَّ يَحِنُّ إليه: اشْتَاقَ، وعليه: عَطَفَ.
(٣) ثَقُلَ يَثْقُلُ عليه: صعب عليه.
(٤) رَقَّ يَرِقُّ له: رَحِمَهُ.

وَخَرَجَ عُمَيْرٌ مَعَ أَخِيْهِ وَمَعَ الْمُسْلِمِيْنَ، وَكُلُّهُمْ كِبَارٌ وَأَقْوِيَاءُ، وَكَانَ كَمَا أَرَادَ، فَقَدْ قُتِلَ شَهِيْداً فِي الْغَزْوَةِ، وَسَبَقَ كَثِيْراً مِنَ الشُّبَّانِ وَالشُّيُوْخِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ عُمَيْرٍ وَأَرْضَاهُ.





الْحَنِيْنُ إِلَى الشَّهَادَةِ (٢)

وَلَمَّا خَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِلىٰ أُحُدٍ لِقِتَالِ قُرَيْشٍ خَرَجَ مَعَهُ مِنَ الْمَدِيْنَةِ غِلْمَانٌ يُحِبُّوْنَ الْجِهَادَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَكَانُوا صِغَاراً، لَمْ يَتَجَاوَزُوا الْخَامِسَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِمْ، فَرَدَّهُمْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ؛ لأَنَّهُمْ صِغَارٌ لَمْ يَبْلُغُوْا سِنَّ الْقِتَالِ، فَيَكُوْنُوْنَ كَالْمَتَاعِ، وَيَشْغُلُوْنَ الْكِبَارَ أَيْضاً يُرَاقِبُوْنَهُمْ[1] وَيَحْرِسُوْنَهُمْ.

وَكَانَ فِيْ هٰؤُلَاءِ الْغِلْمَانِ وَلَدٌ، اسْمُهُ رَافِعُ بنُ خَدِيْجٍ، وَهُوَ دُوْنَ الْخَامِسَةَ عَشَرَةَ مِنْ سِنِّهِ، وَكَانَ يَتَطَاوَلُ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ، لِيَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُ كَبِيْرٌ، قَدْ بَلَغَ سِنَّ الْقِتَالِ، فَلَا يُفْطَنُ لِصِغَرِ سِنِّهِ وَضَعْفِهِ.

وَلٰكِنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ رَدَّهُ؛ لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ صَغِيْرٌ، وَأَنَّهُ

---

(١) رَاقَبَ يُرَاقِبُ: حَرَسَ وَلَاحَظَ.

يَتَطَاوَلُ، فشَفعَ[١] لَهُ أَبُوْهُ، وَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! إِنَّ ابْنِي رَافِعاً رَامٍ، فَأَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ.

فَفَرِحَ رَافِعٌ كَثِيْراً لَمَّا أَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ، وَخَرَجَ مَعَ الْمُجَاهِدِيْنَ، وَهُوَ أَكْثَرُ سُرُوْراً مِنْ غِلْمَانٍ يَخْرُجُوْنَ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ يَوْمَ الْعِيْدِ فِيْ لِبَاسٍ جَدِيْدٍ.

وَكَانَ وَلَدٌ آخَرُ اسْمُهُ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ فِيْ سِنِّ رَافِعٍ، فَعُرِضَ عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بَعْدَ رَافِعٍ فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لِصِغَرِهِ أَيْضاً، فَقَالَ سَمُرَةُ: لَقَدْ أَجَزْتَ رَافِعاً وَرَدَدْتَنِيْ، وَلَوْ صَارَعْتُهُ[٢] لَصَرَعْتُهُ.

فَأَمَرَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَمُرَةَ وَرَافِعاً بِالْمُصَارَعَةِ فَصَرَعَ سَمُرَةُ رَافِعاً كَمَا قَالَ، وَاسْتَحَقَّ أَنْ يُسْمَحَ لَهُ بالدُّخُوْلِ فِي صَفِّ الْمُجَاهِدِيْنَ.

فَأَجَازَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَمُرَةَ لِلْخُرُوجِ، فَخَرَجَ سَمُرَةَ وَقَاتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ.

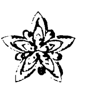
رَضِيَ اللهُ عَنْ رَافِعٍ وَسَمُرَةَ، وَرَزَقَنَا اتِّبَاعَهُمَا.



---

(١) شفَعَ، يَشْفَعُ له إلىٰ فلان: سَأَلَ فلاناً التجاوز عن ذنبه.

(٢) صَارَعَ يُصَارِعُ: غَالَبَ في المصارعة.



٤٠

كُنْ أَحَدَ السَّبْعَةِ (١)

كَانَ الْيَوْمُ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ يُوْنِيُوْ يَوْماً شَدِيْدَ الْحَرِّ، وَكَانَ يَوْمَ عُطْلَةٍ، فَكَانَ مَحْمُوْدٌ وَأَحْمَدُ وَعُثْمَانُ فِي الْبَيْتِ، وَكَانُوْا مَعَ أَبِيْهِمْ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي النَّهَارِ، وَكَانُوْا يَتَأَفَّفُوْنَ(١) مِنَ الْحَرِّ، وَيَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ الْفِرَاشِ كَأَنَّهُمْ عَلَىٰ الْجَمْرِ.

قَالَ مَحْمُوْدٌ: يَا لَطِيْفُ! مَا أَشَدَّ الْحَرَّ!

قَالَ أَبُوْهُمْ سُلَيْمَانُ: أَتَعْرِفُ يَامَحْمُوْدُ! كَمْ تَبْعُدُ الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ؟

مَحْمُوْدٌ: لَا يَا أَبِيْ! وَلٰكِنِّيْ أَعْرِفُ أَنَّها بَعِيْدَةٌ جِدّاً.

سُلَيْمَانُ: سَتَقْرَأُ فِي الْمَدْرَسَةِ أَنَّ الشَّمْسَ تَبْعُدُ مِنَ الأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِيْنَ مَلْيُوْناً مِنَ الأَمْيَالِ، وَالْحَرُّ كَمَا تَرَىٰ، فَكَيْفَ إِذَا دَنَتِ الشَّمْسُ حَتَّىٰ تَكُوْنَ مِقْدَارَ مِيْلٍ؟!

---

(١) تَأَفَّفَ، يَتَأَفَّفُ مِن الحرّ: تَضَجَّرَ منه.

مَحْمُوْدٌ: الْعِيَاذُ بِاللهِ! وَمَتَىٰ هٰذَا يَا أَبِيْ؟

سُلَيْمَانُ: ذٰلِكَ يَا بُنَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ يَقُوْمُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِيْن.

أَحْمَدُ: وَكَيْفَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا أَبَتِ؟

سُلَيْمَانُ: يَكُوْنُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ حَقْوَيْهِ(١)، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ(٢) الْعَرَقُ إِلْجَاماً.

عُثْمَانُ: أَوَلَيْسَ هُنَالِكَ ظِلٌّ أَوْ مَكَانٌ يَسْتَظِلُّ بِهِ النَّاسُ؟

سُلَيْمَانُ: بَلَىٰ يَا وَلَدِيْ! فَهُنَالِكَ ظِلٌّ لَا يَنْعَمُ بِهِ إِلَّا سَبْعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ.

الأَوْلَادُ: وَمَنْ أُوْلٰئِكَ السُّعَدَاءُ يَا أَبَانَا؟ لَعَلَّنَا نَجْتَهِدُ أَنْ نَكُوْنَ مِنْهُمْ.

سُلَيْمَانُ: يَا أَوْلَادِيْ! يَنْبَغِيْ(٣) لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَجْتَهِدَ أَنْ يَكُوْنَ أَحَدَ السَّبْعَةِ، وَأَنَا أَعُدُّ لَكُمْ أُوْلٰئِكَ السَّبْعَةَ:

١ ـ إِمَامٌ عَادِلٌ.

---

(١) الحَقْو: جمعها: أحْقَاء: خَصْر ووَسْط.
(٢) ألْجَمَ يُلْجِمُ العرق: بَلَغَ فاه.
(٣) يَنْبَغِي له: يَلْزم أو يَجِبُ عليه.

وَقَطَعَ عَلَيْهِ أَحَدُ الأَوْلَادِ، وَقَالَ: وَمَنْ هُوَ الإِمَامُ، أَهٰذَا الَّذِي يُصَلِّيْ بِالنَّاسِ؟

سُلَيْمَانُ: هُوَ أَيْضاً عَلىٰ خَيْرٍ، لٰكِنَّ الْمُرَادُ هُنَا أَمِيْرُ الْمُسْلِمِيْنَ.

وَابْتَدرَ[1] الأَوْلَادُ، وَقَالُوْا: قَدْ فَهِمْنَا، هٰذَا كَالخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ، وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ، وَقَدْ سَمِعْنَا كَثِيْراً مِنْ حِكَايَاتِهِمْ مِنْ أُمِّنَا.



---

(١) ابْتَدَرَ يَبْتَدِرُ: عَاجَلَ.

٤١ كُنْ أَحَدَ السَّبْعَةِ (٢)

٢ ـ قال سُلَيْمَانُ: وَالثَّانِيْ يَا أَوْلَادِيْ! شَابٌّ نَشَأَ فِيْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

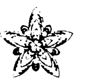
هُنَالِكَ وَقَفَ الشَّيْخُ، وَقَالَ: يُمْكِنُ كُلّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ يَا أَوْلَادِيْ أَنْ يَكُوْنَ ذٰلِكَ الشَّابَّ السَّعِيْدَ، وَلٰكِنْ إِذَا ضَيَّعْتُمْ فُرْصَةَ الشَّبَابِ، فَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ.

٣ ـ رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ:

قَالَ الأَوْلَادُ: هُوَ كَالشَّيْخ عَبْدِ الْغَنِيِّ فِيْ حَيِّنَا، فَإِنَّهُ لَا يَرْتَاحُ إِلَّا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَلَا تَفُوْتُهُ جَمَاعَةٌ، وَلَا نَظُنُّهُ يَبِيْتُ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: لَا يَا أَوْلَادِيْ! وَلٰكِنَّهُ مُحَافِظٌ عَلَىٰ الصَّلَاةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَقَدْ أَخْبَرَنِيْ أَنَّهُ مَا فَاتَتْهُ صَلَاةٌ فِيْ جَمَاعَةٍ مُنْذُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ أَوْ أَكْثَرَ.

٤ ـ رَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ:



وَإِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَرَوْهُمَا، فَانْظُرُوا إِلَىٰ الشَّيْخِ صَالِحٍ وَالشَّيْخِ حَمْزَةَ، فَهٰذَا مِنَ الْهِنْدِ، وَذٰلِكَ مِنْ بُخَارىٰ، وَهُمَا أَخَوَانِ فِي اللهِ.

وَيُمْكِنُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ هٰذِهِ الْفَضِيْلَةَ، وَذٰلِكَ بِأَنْ يَخْتَارَ مِنْ صَفِّهِ وَرُفْقَتِهِ[1] الصَّالِحَ مِنْ الأَوْلَادِ فَيُصَادِقَه، وَيَجْتَهِدُ أَنْ تكُوْنَ صَدَاقَتُهُ لِلدِّيْنِ.

٥ ـ وَرَجُلٌ اقْتَدىٰ بِيُوْسُفَ عليه الصلاة والسلام فِي العِفَّةِ[2] وَالأَمَانَةِ، وَقَدْ سَمِعْتُمْ قِصَّتَهُ.

قَالَ الأَوْلَادُ: نَعَمْ!

٦ ـ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ.

وَذٰلِكَ مِثْلُ جَدِّكُمْ، فَإِنَّا لَمْ نَعْرِفْ بِرَّهُ وَإِحْسَانَهُ إِلَىٰ الْمَسَاكِيْنِ وَالضَّعَفَةِ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ إِلَّا بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَقَدْ جَاءَتِ العَجَائِزُ وَالأَرَامِلُ[3] يَبْكِيْنَهُ، وَيَذْكُرْنَ خَيْرَهُ وَبِرَّهُ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَشْرَافُ مِنْ أَهْلِ هٰذَا الْحَيِّ أَنَّهُ كَانَ يُوَاسِيْهِمْ، وَيَصِلُهُمْ بِمَعْرُوْفٍ[4] كُلَّ شَهْرٍ، وَلَمْ نَعْلَمْ ذٰلِكَ أَهْلَ الْبَيْتِ.

---

(١) رُفْقَة: جمع رِفَاق: جماعَة مترافقون.

(٢) عِفَّة: ترك الشهوات والتَّجنب منها بكل شيء.

(٣) أَرَمْلَة: جمعها: أَرَامِل: الَّتِي مات زوجها.

(٤) وَصَلَ يَصِلُّ: بَرَّ وَأَحْسَنَ المعاملةَ.

٧ ـ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ:

قَالَ الأَوْلَادُ: أَمَّا نَحْنُ فَنَجْتَهِدُ جَمِيْعاً أَنْ نَكُوْنَ شُبَّاناً نَشَؤُوْا فِيْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَنَجْتَهِدُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْفَضَائِلِ أَيْضاً، وَلَعَلَّنَا يَا أَبَانَا إِذَا جَمَعْنَا مِنْهَا خِصَالاً نَنَالُ بِهَا مَكَاناً خَاصّاً فِيْ ذٰلِكَ الظِّلِّ أَيْضاً، فَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَأْتِيْ بِفَضِيْلَةٍ، وَبَيْنَ مَنْ يَأَتِي بِفَضَائِلَ.

سُلَيْمَانُ: هُوَ كَذٰلِكَ «إِنَّ اللهَ لَا يُضِيْعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِيْنَ، وَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً».





العَيْنُ (١)

الْعَيْنُ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَقَدْ خَلَقَهَا اللهُ تَعَالَىٰ مِرْآةً صَافِيَةً تَتَحَرَّكُ يَمِيْناً وَشِمَالاً، وَفَوْقُ وَتَحْتُ، يَنْظُرُ بِهَا الإِنْسَانُ إِلَىٰ جَمِيْعِ الْجِهَاتِ(١)، ثُمَّ وَضَعَهَا فِيْ مِحْجَرٍ صُلْبٍ مِنَ الْعَظْمِ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا مِنْ الْجُفُوْنِ(٢) غِطَاءً يَحْفَظُهَا مِنَ الأَذَىٰ، وَحَاطَهَا بِأَهْدَابٍ(٣) مِنَ الشَّعْرِ لِتَكُوْنَ سِيَاجاً(٤) يَذُبُّ عَنْهَا الذُّبَابَ وَالْبَعُوْضَ وَالْغُبَارَ الَّتِي تَدْخُلُ الْعَيْنَ، فَتُسَبِّبُ لَهَا الأَلَمَ وَالْمَرَضَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا مَاءً جَارِياً يَغْسِلُ مَا يَدْخُلُ فِيْهَا مِنَ الأَوْسَاخِ.

وَالْعَيْنُ عُرْضَةٌ لكَثِيْرٍ مِنَ الأَمْرَاضِ، كَالرَّمَدِ وَقِصَرِ النَّظَرِ،

---

(١) جِهَة: جمعها: جِهَات: ناحية.
(٢) جَفْن: جمعها: جُفُون وأَجْفَان: غطاء العين من أعلاها وأسفلها.
(٣) هُدْبٌ: جمعها: أَهْدَاب: شعر أشْفَار الْعَيْن.
(٤) سِيَاجُ: جمعها: سِيَاجَات: سورٌ من أسلاك أو حجارة أو غيرها يُحِيْط بمَنْزِلٍ أو غيره.

وَقَدْ عَمَّ هٰذَا الْمَرَضُ الأَخِيْرُ فِيْ هٰذَا الزَّمَانِ، فَلَجَأَ النَّاسُ حَتَّىٰ الأَطْفَالُ إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ مِنْظَرَةٍ، وَلِلاجْتِنَابِ عَنْ هٰذِهِ الأَمْرَاضِ يَحْسُنُ الِاعْتِزَالُ عَنِ الْغُبَارِ وَالأَتْرِبَةِ، وَيَحْسُنُ التَّجَوُّلُ فِي الأَمَاكِنِ الْفَسِيْحَةِ، وَكَثْرَةُ غَسْلِ الْوَجْهِ بِالْمَاءِ الصَّافِيْ، فَإِنَّهُ يَجْلُوْ الْعَيْنَ، وَيُنَقِّيْهَا مِنَ الأَوْسَاخِ وَالْقَذَىٰ(١)، وَلِذٰلِكَ كَانَ الْوُضُوْءُ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ـ خُصُوصاً فِي الصَّبَاحِ عِنْدَ الْقِيَامِ ـ نَافِعاً جِدّاً.

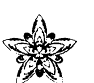
وَمُوَاصَلَةُ الْقِرَاءَةِ لَيْلاً فِي النُّوْرِ الضَّعِيْفِ تُؤَثِّرُ فِي النَّظَر تَأْثِيْراً كَبِيْراً، وَتَضُرُّ بِهِ ضَرَراً عَظِيْماً، فَعَلىٰ مَنْ أَلْجَأَتْهُ الضَّرُوْرَةُ إِلَىٰ ذٰلِكَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ مِنَ الْمَصَابِيْحِ مَا كَانَ ذَا نُوْرٍ رَائِقٍ(٢) مُعْتَدِلٍ غَيْرِ سَاطِعٍ وَلَا ضَعِيْفٍ.

وَالْعَيْنُ جَوْهَرَةٌ غَالِيَةٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُشْتَرَىٰ بِالْمَالِ، وَبِهَا يَتَمَتَّعُ الإِنْسَانُ بِجَمَالِ الطَّبِيْعَةِ، وَيَقْضِيْ بِهَا حَاجَاتٍ فِيْ نَفْسِهِ، وَيَكُوْنُ عُضْواً عَامِلاً مُفِيْداً مِنْ أَعْضَاءِ الأُسْرَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَإِذَا فَقَدَ الإِنْسَانُ بَصَرَهُ حُرِمَ شَيْئاً كَثِيْراً مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا،

---

(١) قَذىً: جمعها: أَقْذَاءٌ وقُذِيٌّ: ما يتكون في العين من وسخ أبيض، وما يتجمع فيها من تبنة وغيرها.

(٢) رائق: طيب.



فَكَأَنَّمَا أَظْلَمَ لَهُ الْعَالَمُ، وَكَانَ كَلّاً عَلَىٰ غَيْرِه، وَرُبَّمَا كَانَ عِيَالاً عَلَىٰ عَصاً حَقِيْرَةٍ لَا يَمْشِيْ بِغَيْرِهَا.





العين (٢)

وَلِذٰلِكَ كَانَتِ الْعَيْنُ ثَمِيْنَةً غَالِيَةً وَنِعْمَةً جَلِيْلَةً، حَتَّىٰ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيْ بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُما الجَنَّةَ» يُرِيْدُ عَيْنَيْهِ.

وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُوْنَ الإِنْسَانُ إِذَا فَقَدَ بَصَرَهُ عَاطِلاً ضَائِعاً، فَلَقَدْ فَاقَ كَثِيْرٌ مِنَ الْعُمْيَانِ كَثِيْراً مِنْ أَهْلِ الْبَصَرِ فِي الْعِلْم، وَأَقَرَّتْ لَهُمُ الدُّنْيَا بِالفَضْلِ، كَالمُفَسِّر قَتَادَةَ، وَالْمُحَدِّثِ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، وَالْفَقِيْهِ زُبَيْرٍ الْبَصْرِيِّ، وَالنَّحْوِيِّ أَبِي جَعْفَرٍ، وَالأَدِيْبِ أَبِي الْعَلَاءِ الْمَعَرِّيْ، وَالشَّاعِرِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ، وَإِمَامِ التَّجْوِيْدِ الإِمَامِ الشَّاطِبِيِّ.

وَمِنْ حَقِّ هٰذِهِ النِّعْمَةِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ وَأَنْ يَضِنَّ[١] بِهَا عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَإِنَّهُ سبحانه وتعالى «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ، وَمَا تُخْفِي الصُّدُوْرُ».

---

(١) ضَنَّ، يَضِنُّ ضَنّاً: بالشيء عليه: بَخِل بُخْلاً شديداً.

وَمِنْ حقِّها أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا فِي طَاعَةِ اللهِ، وَأَنْ يُرِيْقُ دَمْعَهَا فِيْ خَشْيَةِ اللهِ، وَقَدْ جاءَ فِي الْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةِ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَأَمَّا الأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَأَثَرٌ فِيْ فَرِيْضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ».

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُوْلُ فِيْ دُعَائِهِ: اللهم إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عَيْنٍ لَا تَدْمَعُ(١)، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَها.



---

(١) دَمَعَ، يَدْمَعُ دَمْعاً: دَمَعَتْ العَيْنُ: سَال ماؤُها.



أَدَبُ الْمُعَاشَرَة

أُسْلُكْ مَعَ النَّاسِ الأَدَبْ   تَرَ مِنَ الدَّهْرِ الْعَجَبْ
وَلَا تُطَاوِلْ بِنَشَبْ[1]   وَلَا تُفَاخِرْ بِنَسَبْ
الْعِزُّ فِي الأَمَانَهْ   وَالْكَيْسُ فِي الْفَطَانَهْ[2]
لَا تُغْضِبِ الْجَلِيْسَا   لَا تُوْحِشِ الأَنِيْسَا
لَا تُكْثِرِ الْعِتَابَا   تُنَفِّرِ الأَصْحَابَا
فَكَثْرَةُ الْمُعَاتَبَهْ[3]   تَدْعُوْ إِلَىٰ الْمُجَانَبَهْ[4]
وَإِنْ حَلَلْتَ مَجْلِسَا   بَيْنَ سَرَاةٍ[5] رُؤَسَا
فَاقْصِدْ رِضَا الْجَمَاعَة   وَكُنْ غُلَامَ الطَّاعَة

---

(١) نَشَب: مالٌ أَصيل مِن نقود وماشية.

(٢) الفَطَانةُ: قوّة استعداد الذهن لإدراك ما يراد إليه.

(٣) المعاتبة: الملامة برفق.

(٤) المُجَانَبة: الإبعاد عن الشيء.

(٥) سَريّ: جمعها: أسرياء وسَرَاة: شريف، كريم الحسب.

وَقُــلْ مِــنْ الْــكَــلَامِ مَــا رَاقَ(١) بِــالْــمَــقَــامِ
كَــرَائِــقِ الأَشْــعَــارِ وَطَــيِّــبِ الأَخْــبَــارِ
وَاتْــرُكْ كَــلَامَ الــسَّــفَــلَــه(٢) وَالــنُّــكَــتَ(٣) الْــمُــبْــتَــذَلَــه
وَلَا تَــكُــنْ مِــلْــحَــاحــا وَاجْــتَــنِــبِ الْــمِــزَاجَــا
فَــكَــثْــرَةُ الْــمُــجُــوْنِ نَــوْعٌ مِــنَ الْــجُــنُــونِ



(١) رَاقَ، يَرُوْق رَوْقاً بالشيء: أعجبه.
(٢) سَافِل: جمع سَفَلَة: سَيِّء الخلق، والسَّفَلَة تقال لأراذل الناس أيضاً.
(٣) نُكْتَة: جمعها: نُكَت ونِكَاتٌ: جملة لطيفة تؤثِّر في النفس انبساطاً.



عِيْدُ الأَضْحَىٰ

كَانَ الْيَوْمُ الأَخِيْرُ مِنْ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ، وَكَانَ الْيَوْمُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُوْنَ مِنَ الشَّهْرِ، رَأَىٰ وَالِدِي الْهِلَالَ، وَكَانَ دَقِيْقاً جِدّاً، وَمَا رَأَيْتُهُ إِلَّا بِاجْتِهَادٍ وَبَحْثٍ، وَرَأَيْتُ وَالِدِيْ يَقُوْلُ وَيَدْعُوْ، قُلْتُ لَهُ: مَاذَا تَقُوْلُ فِيْ دُعَائِكَ يَا أَبِيْ؟ قَالَ وَالِدِيْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَىٰ الْهِلَالَ قَالَ:

«اللهم أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ وَالإِيْمَانِ وَالسَّلَامَةِ وَالإِسْلَامِ، رَبِّيْ وَرَبُّكَ اللهُ، هِلَالَ رُشْدٍ وَخَيْرٍ».

فَتَعَلَّمْتُهُ مِنْ وَالِدِيْ وَحَفِظْتُهُ.

وَظَنَنْتُ أَنَّ الْعِيْدَ غداً، فَأَخْبَرَنِيْ أَبِيْ أَنَّ الْعِيْدَ بَعْدَ تِسْعَةِ أَيَّامٍ، فَإِنَّ عِيْدَ الأَضْحَىٰ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ.

وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ مِنَ الشَّهْرِ عُطِّلَتِ الْمَدْرَسَةُ، وَأَخْبَرَنِي الْمُعَلِّمُ أَنَّ الْحُجَّاجَ يَذْهَبُوْنَ الْيَوْمَ إِلَىٰ مِنًىٰ(١) حَيْثُ يَبِيْتُوْنَ،

(١) مِنًى: بلدة قرب مكة ينزلها الحجاج أيام التشريق.

وَهٰذَا الْيَوْمُ يُسَمَّىٰ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ(١).

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ، وَهُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ، يَذْهَبُ الحُجَّاجُ إِلَىٰ عَرَفَاتٍ، وَيَظَلُّوْنَ هُنَالِكَ يَدْعُوْنَ وَيَذْكُرُوْنَ اللهَ، وَيَذْهَبُوْنَ مِنْهَا إِلَىٰ الْمُزْدَلِفَةِ(٢) وَيَبِيْتَوْنَ هُنَالِكَ، وَفِيْ صَبَاحِ الْيَوْمِ الْعَاشِرِ يَرْجِعُوْنَ إِلَىٰ مِنَىٰ وَيَنْحَرُوْنَ(٣)، وَذٰلِكَ يَوْمُ النَّحْرِ(٤) وَهُوَ يَوْمُ الْعِيْدِ.

وَكَانَ أَبِيْ اشْتَرَىٰ بَقَرَةً سَمِيْنَةً لِلذَّبْحِ، قَالَ: فِيْهَا سَبْعَةُ سِهَامٍ: اثْنَانِ لِيْ وَلِأُمِّكَ، وَوَاحِدٌ لَكَ، وَأَرْبَعَةٌ لِأَخَوَيْكَ وَأُخْتَيْكَ.

وَكَانَ أَبِي يَعْلِفُهَا(٥) وَيَسْقِيْهَا بِنَفْسِهِ وَقَالَ: فِيْ ذٰلِكَ فَضِيْلَةٌ وَأَجْرٌ.

وَالْيَوْم الْعَاشِر غَيَّرْنَا اللِّبَاسَ، وَكَانَ أَبِيْ قَدْ أَعَدَّ لِي لِبَاساً جِدِيْداً، أَمَّا الْحِذَاءُ، فَكَانَ حِذَاءَ الْعِيْدِ، وَكَانَ نَظِيْفاً لَمْ يَتَوَسَّخْ، كَأَنَّهُ جَدِيْدٌ؛ لأَنِّيْ مَا كُنْتُ أَلْبَسُهُ إِلَّا قَلِيْلاً، وَتَطَيَّبَ

---

(١) يوم التَّرْوِيَة: أي الثامنُ مِن ذي الحجة.

(٢) المُزْدَلِفَة: موضع بين عرفات ومِنًى.

(٣) نَحرَ، يَنْحَرُ نَحْراً: ذَبَحَ.

(٤) النَّحْرُ: عَاشِر ذي الحجة.

(٥) عَلَفَ، يَعْلِفُ عَلْفاً الحَيْوَانَ: أَطْعَمَهُ.

أَبِيْ وَغَيَّرَ اللِّبَاسَ، وَخَرَجْنَا مَعَ الْجَمَاعَةِ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ، فَكَبَّرَ(١) وَهَلَّلَ(٢) جَهْراً(٣)، وَصَلَّىٰ الإِمَامُ بِالنَّاسِ وَخَطَبَ، وَذَكَرَ أَحْكَامَ الأُضْحِيَّةِ، وَرَجَعْنَا مِنَ الْمُصَلَّىٰ بِطَرِيْقٍ آخَرَ، وَذَبَحَ أَبِي الْبَقَرَةَ وَسَمَّىٰ اللهَ وَكَبَّرَ.

وَوَزَّعَتْ أُمِّي اللَّحْمَ عَلَىٰ الْمَسَاكِيْنِ وَالأَقَارِبِ وَالأَصْدِقَاءِ، وَطَبَخَتْ لَنَا أَيْضاً، فَمَا تَغَدَّيْنَا إِلَّا بِلَحْمِ أُضْحِيَتِنَا(٤).

وَتَوَفَّرَ كَثِيْرٌ مِنَ اللَّحْمِ، فَاحْتَفَظَتْ بِهِ أُمِّيْ وَأَيْبَسَتْهُ، وَلَمْ نَزَلْ نَأْكُلُ مِنْ هَـٰذَا الْقَدِيْدِ(٥) مُدَّةً طَوِيْلَةً.

وَكَانَتْ فِيْ أَيَّامِ الْعِيْدِ الثَّلَاثَةِ مَآدِبُ(٦) كَثِيْرَةٌ، وَكَانَتْ أَيَّامَ أَكْلٍ وَشُرْبٍ، وَقَدْ دَعَا أَبِيْ لَيْلَةَ يَوْمِ الْعِيْدِ جَمَاعَةً مِنْ أَصْدِقَائِهِ وَجِيْرَانِهِ، وَصَنَعَتْ أُمِّيْ طَعَاماً مُلَوَّناً، فَأَكْثَرَتْ وَأَطَابَتْ.

وَالْيَوْمِ الثَّانِي كُنَّا ضُيُوْفاً عِنْدَ جَارِنَا الْكَرِيْمِ: السَّيِّدِ حُسَيْنٍ الطَّبِيْبِ، وَكَانَتْ مَأْدُبَةً عَظِيْمَةً، وَلَمْ آكُلْ مِنَ اللَّحْمِ فِيْ طُوْلِ الشَّهْرِ مَا أَكَلْتُ فِيْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَلَمْ يَضُرَّ شَيئاً.

---

(١) **كَبَّرَ، يُكَبِّرُ تَكْبِيْراً**: قال: اللهُ أكبر.

(٢) **هَلَّلَ، يُهَلِّلُ تَهْلِيلاً**: قال: لا إله إلَّا الله.

(٣) **جَهْراً**: إعلاناً بصوت عالٍ.

(٤) **أُضْحِيَّة**: جمعها: أَضَاحٍ: شاة ونحوها يضحّىٰ بها في عيد الأضحىٰ.

(٥) **قَدِيْد**: لَحْمٌ مقطَّعٌ مُمَلَّح، مُجَفَّف في الشمس.

(٦) **مأْدبة**: جمعها: مَآدِبُ: الطعام الَّذي يصنع لدعوة.

وَكُنْتُ أَسْمَعُ الإِمَامَ مِنْ فَجْرِ يَوْمِ عَرَفَةَ إِلَىٰ عَصْرِ الْيَوْمِ الأَخِيْرِ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيْقِ يَعْنِيْ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ يُكَبِّرُ وَيُهَلِّلُ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوْبَةٍ.





تَارِيْخُ الْقَمِيْصِ

إِنَّكَ لَبِسْتَ قَمِيْصاً جَدِيْداً، فَأَبْلِ وَأَخْلِقْ! وَلٰكِنْ هَلْ تَعْرِفُ مِنْ تَارِيْخِهِ شَيئاً، هَلْ تَعْرِفُ كَمْ عَمِلَ فِيْهِ مِنَ الأَيْدِيْ، وَكَمِ اشْتَغَلَ بِهِ النَّاسُ، وَكَمْ تَعِبَ فِيْهِ الْعَامِلُوْنَ، وَكَيْفَ وَصَلَ إِلَيْكَ؟

كَانَ أَوَّلُ أَمْرِهِ أَنَّ الزَّرَّاعَ زَرَعَ الْقُطْنَ(١) وَتَحَمَّلَ فِيْ زِرَاعَتِهِ عَنَاءً(٢) شَدِيْداً، فَإِنَّ زِرَاعَةَ الْقُطْنِ فِيْهَا تَعَبٌ عَظِيْمٌ، وَشُغْلٌ طَوِيْلٌ، حَرَثَ الأَرْضَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، أَوْ أَكْثَرَ، وَشَقَّ خُطُوْطاً، وَمَلأَهَا بِالْمَاءِ، وَتَرَكَهَا حَتَّىٰ جَفَّتْ، وَحَفَرَ فِيْ جَنْبِهَا حُفَراً، ثُمَّ بَذَرَ(٣) فِيْهَا بُذُوْراً مِنَ الْقُطْنِ قَدْ نَقَعَهَا بِالْمَاءِ لَيْلَةً، وَلَمَّا

---

(١) **القُطْن**: جِنْس نباتات زراعية ليفية ثَمْرتها مادَّة بَيْضَاء ناعمة تُغْزَلُ وتُصْنَعَ منها الثياب ونحوها.

(٢) **عَنَاءً**: تَعَباً.

(٣) **بَذَرَ**، يَبْذُر بَذْراً: الحبَّ: ألقاه في الأرض متفرقاً للزراعة.

نَجَمَ(١) النَّبَاتُ عَزَقَ(٢) الْفَلَّاحُ الْخُطُوْطَ، فَجَعَلَ بَاطِنَهَا ظَاهِرَهَا، وَقَلَعَ الْحَشَائِشَ(٣) الَّتِي تَضُرُّ بِالْقُطْنِ، وَأَرْوَاهَا(٤) مِرَاراً، وَلَمْ يَزَلِ الْفَلَّاحُ يَخْدُمُ الْحَقْلَ، وَيَتْعَبُ وَلَا يَسْتَرِيْحُ شُهُوْراً، حَتَّىٰ ظَهَرَ فِيْهَا الْقُطْنُ، فَانْبَثَّ الأَوْلَادُ مِنَ الْبَنِيْنَ وَالْبَنَاتِ فِي الْحَقْلِ، وَجَنَوُا الْقُطْنَ.

وَلَمَّا جُمِعَ الْقُطْنُ أُرْسِلَ إِلَىٰ الْحَلَّاجِ(٥)، فَحَلَجَهُ(٦)، ثُمَّ نُقِلَ إِلَىٰ بَعْضِ الْمَصَانِعِ فَغُزِلَ، ثُمَّ أَخَذَهُ الْحَائِكُ، وَمَدَّهُ خُيُوطاً مُتَقَارِبَةً، وَلَمْ يَزَلْ يَشْتَغِلُ وَيَتْعَبُ أَيَّاماً، حَتَّىٰ نَسَجَهُ ثَوْباً نَاعِماً مَتِيْناً، وَاشْتَرَىٰ تَاجِرٌ ذٰلِكَ الثَّوْبَ وَوَضَعَهُ فِيْ دُكَّانِهِ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُوْكَ بِمَالِهِ الَّذِيْ اكْتَسَبَهُ بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ(٧) وَتَعِبَ فِيْهِ أَيَّاماً، وَأَنْتَ مُسْتَرِيْحٌ فِي الْبَيْتِ تَأْكُلُ وَتَنَامُ، وَذَهَبَ ذٰلِكَ الثَّوْبُ إِلَىٰ خَيَّاطٍ

---

(١) **نَجَمَ**، يَنْجُمُ نَجْماً وَنُجُوماً: طَلَعَ وظَهَرَ.

(٢) **عَزَقَ**: شقّ.

(٣) **حَشِيْش**: جمعها: حَشَائِش واحدته حشيشة: العشب الَّذي يكسو الحدائق ونحوها.

(٤) **أَرْوَىٰ**، يُرْوِي إِرْواءً: سَقَىٰ.

(٥) **الحلَّاج**: الَّذي يخلِّص القطن من بذره.

(٦) **حَلَجَ**، يَحْلُجُ حَلْجاً وحِلَاجَةً: القطْنَ: خَلَّصه من بذره.

(٧) **بِعَرَقِ الْجَبِيْن**: أي بالجهدِ والكدِّ.

فَفَصَّلَ مِنْهُ لَكَ قَمِيْصاً، ثُمَّ خاطَهُ لَيْلَةَ الْعِيْدِ وَهُوَ سَاهِرٌ، وَأَنْتَ فِيْ فِرَاشِكَ نَائِمٌ.

وَجَاءَ إِلَيْكَ الْقَمِيْصُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ مِنْكَ وَشُغْلٍ، أفَلَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَقُوْلَ إِذَا لَبِسْتَهُ:

«اللهم أَنْتَ كَسَوْتَنِيْهِ، وَأَلْبَستَنِيْهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّيْ وَلَا قُوَّةٍ، أَسَأَلُكَ خَيْرَهُ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ».





الأَسَدُ

الأَسَدُ مَلِكُ الْغَابَةِ، وَسَيِّدُ السِّبَاع، وَهَيْئَتُهُ تَدُلُّ عَلَىٰ ذٰلِكَ، فَلَهُ مَنْظَرٌ مَهِيْبٌ(١)، وَزَئِيْرٌ(٢) تَدْوِيْ(٣) لَهُ الْغَابَاتُ، وَيَطِيْرُ لَهُ قَلْبُ الشُّجَاعِ؛ قَوِيُّ الْبَأْسِ، كَبِيْرُ الْجِسْمِ، يُحِيْطُ بِرَأْسِهِ شَعْرٌ كَبِيْرٌ يَكَادُ يَحْجُبُ رُكْبَتَيْهِ(٤)، إِذَا غَضِبَ تَجَعَّدَتْ(٥) جَبْهَتُهُ وَخَدَّاهُ، وَكَشَّرَ(٦) عَنْ أَنْيَابِهِ وَأَبْرَقَتْ عَيْنَاهُ، وَاخْتَلَجَ(٧) حَاجِبَاهُ، وَوَقَفَ شَعْرُ بَدَنِهِ، وَضَرَبَ بِذَنَبِهِ جَنْبَيْهِ، وَأَطْبَقَ(٨) عَيْنَيْهِ، وَمَالَ

---

(١) مَهِيْبٌ: مَن يخافه النَّاسُ.

(٢) زَئِير: صَوْتُ الأَسد.

(٣) دَوِيَ، يَدْوَىٰ دوىٰ: شدة الصوت وبعده في الهواء.

(٤) رُكْبَة: جمعها: رُكَب: مَوْصِلُ أسفل الفخذ بأعلىٰ الساق.

(٥) تَجَعَّدَ، يَتَجَعَّدُ تجعُّداً: الجَبْهَةُ أو الشعرُ، أو الوجهُ، أو الخدُّ: اجتَمَعَ وَتقَبَّضَ والتوىٰ.

(٦) كَشَّرَ، يُكَشِّر تَكْشِيْراً: السبعُ: هَرَّ عند الوثوب.

(٧) اخْتَلَجَ، يَخْتَلِجُ: تحَرَّك واضْطَربَ.

(٨) أَطْبَقَ، يُطْبِقُ: عَيْنَيْه أو شَفتَيْه: أَغْلَقَهما.

إِلَىٰ الأَرْضِ، وَوَثَبَ[١] عَلَىٰ فَرِيْسَتِهِ كَالصَّاعِقَةِ، حَتَّىٰ إِذَا ظَفِرَ بِهَا أَخَذَ فِيْ مُلَاعَبَتِها، ثُمَّ مَزَّقَهَا بِأَنْيَابِهِ تَمْزِيْقاً.

وَإِذَا كَانَ الأَسَدُ مُقَيَّداً دَلَّتْ هَيْئَتُهُ عَلَىٰ الْهُدُوْءِ، فَإِذَا أُفْلِتَ وَهُيِّجَ انْدَفَعَ مِنْ عَرِيْنِهِ[٢]، وَهُوَ أَكْثَرُ شَجَاعَةً فِي اللَّيْل مِنْهُ فِي النَّهَارِ، وَيَمُرُّ بِالإِنْسَانِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ إِلَّا إِذَا كَانَ ضَارِياً أَوْ هاجَهُ إِنْسَانٌ.

وَيَهْجُمُ عَلَىٰ الْحَيْوَانَاتِ كَالْخَيْلِ وَالْجِمَالِ وَالْبَقَرِ وَغَيْرِهَا، وَيَصِيْدُ الظَّبْيَ وَيَأْكُلُهُ بِرَغْبَةٍ، وَتَدْفَعُهُ الْجَرَاءَةُ إِلَىٰ اخْتِطَافِ[٣] الإِنْسَانِ مِنْ بَينِ قَوْمِهِ.

وَأُنْثَىٰ الأَسَدِ تُعْرَفُ بِاللَّبُوْءَةِ[٤]، وَهِيَ أَصْغَرُ جُثَّةً، وَأَخَفُّ حَرَكَةً، وَأَشَدُّ غَضَباً مِنْهُ، وَجَرْوُهَا يُعْرَفُ بِالشِّبْلِ[٥]، وَيَبدَأُ فِي الِافْتِرَاسِ وَيَهْتَمُّ بِقُوَّتِهِ إِذَا بَلَغَ الثَّانِيَةَ مِنْ عُمُره.

وَمُعَدَّل طُوْلِ الأَسَدِ ثَلَاثُ أَذْرُعٍ، وَعُلُوُّهُ ذِرَاعٌ وَرُبْعٌ،

---

(١) **وَثَبَ**، يَثِبُ وَثْباً وَوُثُوْباً: قَفَزَ.
(٢) **عَرِيْن**، جمعها: عُرُن: مأوىٰ الأسد.
(٣) **اختطاف الشيء**: أي انتزاعه بسرعةٍ.
(٤) **اللَّبُوْءَة**: جمعها لُبُوء ولَبُؤات: أُنثى الأسد.
(٥) **الشِّبْلُ**: جمعها الأَشبال: وَلَدُ الأَسد.

وَمُعَدَّلُ مَا يَعِيْشُ خَمْسٌ وَعِشْرُوْنَ سَنَة، وَقَدْ يَبْلُغُ فِيْ قَفَصِهِ مِئَةَ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.





غُرُوْرُ الدُّنْيَا

تـقُـوْلُ لَـيْـسَ الْـمَـاجِـدُ(١) إِلَّا الْـقَـنُـوْعُ الـزَّاهِـدُ
فَـمَـا أَعَـزَّ مَـنْ قَـنِـعْ وَمَـا أَذَلَّ مَـنْ طَـمِـعْ
دُنْـيَـاكُـمُ حَـبِـيْـبَـه بِـحُـسْـنِـهَـا وَالـطِّـيْـبَـه
لَـكِـنَّـهَـا غَـدَّارَهْ(٢) خَـدَّاعَـةٌ غَـرَّارَهْ(٣)
لَـيْـسَ لَـهَـا حَـبِـيْـبٌ زَوَالُـهَـا قَـرِيْـبٌ
مَـلُـوْلَـةٌ خَـوَّانَـهْ لَـيْـسَ لَـهَـا أَمَـانَـهْ
تُـفَـرِّقُ الأَحْـبَـابَـا تُـشَـتِّـتُ الأَتْـرَابَـا
حَـرْبٌ لِـمَـنْ سَـالَـمَـهَـا(٤) تَـمَـلُّ(٥) مَـنْ لازَمَـهَـا

---

(١) مَاجِد: جمعها: أَمْاجد: شريف خَيِّر.

(٢) غَدَّارة: خَائنة.

(٣) غَرَّارَة: خَدَّاعة.

(٤) سَالَمَ، يُسَالِمُ مُسَالَمَةً: صَالَحَ.

(٥) مَلَّ، يَمَلُّ مَلَلاً ومَلَالاً ومَلَالَةً: سَئِمَ وَضَجِرَ.

عَــزِيْــزُهَــا ذَلِــيْــلُ كَــثِــيْــرُهَــا قَــلِــيْــلُ
وِصَــالُــهَــا عَــنَــاءُ صُــدُوْدُهَــا بَــلَاءُ
يَــحْــظَــىٰ بِــهَــا الْــجُــهَّــالُ وَيَــنْــعَــمُ الأَنْــذَالُ(١)
يَــشْــقَــىٰ بِــهَــا الــلَّــبِــيْــبُ(٢) وَيَــتْــعَــبُ الأَدِيْــب

(أبو العتاهية)



(١) **نَذْل**: جمعها: أَنْذَال: خَسِيْس سَاقِط في دينٍ أو حَسَبٍ.
(٢) **اللَّبِيْبُ**: جمعها: الأَلبَّاءُ: العاقل الذكيُّ.

٤٩ رِسَالَةٌ إِلَى رَسُوْلِ اللّٰه ﷺ

إِذَا جَاءَكَ قَرِيْبٌ أَوْ صَدِيْقٌ، وَقَالَ: إِنِّيْ مُسَافِرٌ إِلَىٰ الْوَطَنِ، وَسَأُقَابِلُ أَبَاكَ، فَهَلْ تُوْصِيْ بِشَيْءٍ؟ وَهَلْ لَكَ رِسَالَةٌ إِلَيْهِ أَحْمِلُهَا مِنْكَ، وَأُبَلِّغُهَا إِلَيْهِ؟ فَلَا تَشُكُّ أَنَّهُ سَيَجْتَمِعُ بِأَبِيْكَ، وَرُبَّمَا يَسْأَلُ أَبُوْكَ عَنْكَ خَبَراً سَارّاً، وَبُشْرَىٰ صِحَّتِكَ. فَتَقُوْلَ: تَقْرَأ عَلَىٰ وَالِدِيْ مِنِّيْ السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ ابْنَكَ بِخَيْرٍ، وَكَمَا تُحِبُّ مِنْ صِحَّةٍ وَسُرُورٍ.

كَذٰلِكَ كَانَ الْمُسْلِمُوْنَ يَعْتَقِدُوْنَ أَنَّ الْمَوْتَ جِسْرٌ[1] إِلَىٰ الآخِرَةِ، وَكُلُّ مَنْ عَبَرَ[2] هٰذَا الْجِسْرَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَصَلَ إِلَىٰ

---

(١) جَسْر: جمعها: جُسُوْر: القنطرة ونحوها مما يعبر عليه، وما يربط بين طرفين، وسيلة اتصال وتفاهم.

(٢) عَبَر، يَعْبُرُ عُبُوراً وعَبْراً، النَّهْرَ والطريقَ أو الجِسْرَ: قَطَعَه من جانبٍ إلىٰ جانبٍ.



الآخِرَةِ، وَاجْتَمَعَ هُنَالِكَ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَتَشَرَّفَ بِزِيَارَتِهِ، وَلَا بُدَّ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ سَائِلٌ عَنْ أُمَّتِهِ.

وَيُمْكِنُ أَلَّا يَصِلَ قَرِيْبُكَ أَوْ صَدِيْقُكَ إِلَىٰ الْوَطَنِ لِمَانِعٍ أَوْ حَادِثَةٍ، أَوْ يَصِلَ إِلَىٰ الْوَطَنِ، وَلَا يَجْتَمِعَ بِأَبِيْكَ، وَلٰكِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ مَا كَانُوْا يَشُكُّوْنَ فِيْ وُصُوْلِ الْمَيِّتِ إِلَىٰ عَالم الآخِرَةِ، وَاجْتِمَاعِ الشَّهِيْدِ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

زَحَفَ(١) الْمُسْلِمُوْنَ إِلَىٰ الشَّامِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَهُمْ: «لَتُفْتَحَنَّ كُنُوْزُ كِسْرَىٰ(٢) وَقَيْصَرَ(٣)» وَقَدْ وَعَدَهُمَا اللهُ بِالنَّصْرِ، وَقَالَ: «وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْمَنْصُورُوْنَ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُوْنَ» وَكَانُوْا وَاثِقِيْنَ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ، وَكَذٰلِكَ كَانَ، فَقَدْ فَتَحُوْا مَدِيْنَةً بَعْدَ مَدِيْنَةٍ، وَهَزَمُوَا جُنْداً بَعْدَ جُنْدٍ.

وَجَاءَ رَجُل يَوْمَ الْيَرْمُوْكِ(٤) إِلَىٰ أَبِيْ عُبَيْدَةَ رضي الله عنه، قَائِدِ الْمُسْلِمِيْنَ، فَقَالَ: إِنَّنِيْ قَدْ تَهَيَّأْتُ لأَمْرِيْ أَيْ لِلشَّهَادَةِ، فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ إِلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

---

(١) زَحَفَ، يَزْحَفُ زَحْفاً: تَقَدَّمَ في ثقلٍ.

(٢) كِسْرَىٰ: لقبُ ملوكِ الفُرس.

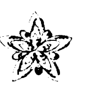
(٣) قَيْصَر: لقبُ ملوكِ الرُّوم.

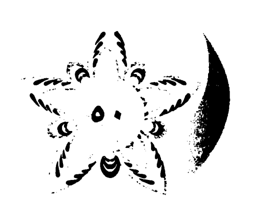
(٤) اليَرْمُوْك: من روافد الأردن، ينبع في هضبة حوران ويجري في حدود سورية، ويصبُّ في الأردن، عنده انتصر سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه علىٰ البيزنطيين سنة ١٥هـ.

قَالَ أَبُوْ عُبَيْدَةَ: نَعْم! تُقْرِئُهُ عَنِّيْ السَّلَامَ، وَتَقُوْلُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! إِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً[1].



(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير، ج٧، ص١٢.





حَادِثَةٌ

زَارَنَا مَرَّةً ضَيْفٌ كَرِيْمٌ، وَبَاتَ عِنْدَنَا لَيْلَةً، وَفِي الصَّبَاحِ قُلْتُ لَهُ: أَتَسْتَحِمُّ(١) يا سَيِّدِيْ؟

وَكَانَ يَوْمُ جُمُعَةٍ، قَالَ: نَعَمْ! قُلْتُ: هٰذَا مُغْتَسَلٌ(٢)، قَالَ: بَلْ أَسْتَحِمُّ فِي النَّهْرِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ يَعْرِفُ السِّبَاحَةَ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَتَّفِقْ لَهُ أَنْ يَسْبَحَ مِنْ مُدَّةٍ طَوِيْلَةٍ، وَسَمِعْتُ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَنْسَىٰ السِّبَاحَةِ إِذَا تَعَلَّمَهَا، إِلَّا أَنَّهُ يَتْعَبُ سَرِيْعاً.

وَكَانَ النَّهْرُ فَائِضاً(٣)، وَكَانَ يَجْرِيْ بِقُوَّةٍ، فَخَاضَ(٤) الشَّيْخُ

---

(١) اسْتَحَمَّ يَسْتَحِمُّ: اغْتَسَلَ.

(٢) مُغْتَسَل: مكان الغسل.

(٣) فائضاً: فاض النهر اندفع ماؤه حين رفدته الأمطار والسيول.

(٤) خَاضَ، يَخُوْضُ خَوْضاً: الماءَ: دَخَلَهُ ومَشَىٰ فيه.

النَّهْرَ، وَبَدَأَ يَسْبَحُ، فَمَا لَبِثَ أَنْ كَلَّتْ[١] عَضُدُهُ، وَخَارَتْ[٢] قُوَاهُ وَأَعْيَا، وَدَفَعَهُ الْمَاءُ بِقُوَّةٍ، فَجَعَلَ يَجْرِيْ فِي تَيَّارِهِ لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئاً، وَأَيْقَنَ بِالشَّرِّ.

فَجَعَلَ يَصْرخُ وَيَسْتَغِيْثُ، وَيَقُوْلُ: يَا رَجُلاً! خُذْ بِيَدِيْ، وَجَعَلَ يَذْكُرُ، وَيَقُوْلُ: اللهُ! اللهُ! كَأَنَّهُ فِيْ آخِرِ عَهْدِهِ بِالدُّنْيَا، وَجَعَلَ يَغْطِسُ وَيَطْفُوْ.

فَسُقِطَ فِيْ أَيْدِيْنَا، وَخِفْنَا عَلَيْهِ الْغَرَقَ، وَكَانَ أَحَدُ أَقَارِبِنَا مِمَّنْ يُحْسِنُوْنَ السِّبَاحَةَ يَغْتَسِلُ فِي النَّهْرِ فَقُلْنَا: دُوْنَكَ الأُسْتَاذَ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ بِسُرْعَةٍ، وَلَمَّا رَأَىٰ الشَّيْخُ مُنْجِداً تَشَجَّعَ قَلِيْلاً، وَأَرَادَ أَنْ يُمْسِكَهُ.

وَلٰكِنْ كَانَ الرَّجُلُ عَاقِلاً مُجَرِّباً، وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الْغَرِيْقَ يَرْكَبُ مَنْ يُنْجِدُ وَيَأْخُذُ بِتَلَابِيْبِهِ[٣]، وَيَغْرَقَانِ جَمِيْعاً، فَلَمْ يُمَكِّنْهُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ غَطَسَ[٤] وَدَفَعَهُ مِنْ أَسْفَلَ إِلَىٰ الشَّاطِئِ، وَلَمْ يَزَلِ الشَّيْخُ يَجْتَهِدُ أَنْ يُمْسِكَهُ، وَالرَّجُلُ يَدْفَعُهُ إِلَىٰ الأَمَامِ حَتَّىٰ أَوْصَلَهُ إِلَىٰ الشَّاطِئِ.

---

(١) كَلَّ، يَكَلُّ كُلُوْلاً وَكَلَالَةً: العَضُدُ: ضَعُفَتْ.

(٢) خَارَ، يَخُوْرُ خُؤوراً: القوةُ ونحوها: انكَسَرَتْ وَضَعُفَتْ. يُقال خَارَتْ قواه: أي مَرِضَ أي مَرِضَ أَوْ ضَعُفَ جِسْمَانِيّاً.

(٣) تَلَابِيْب: طَوْق الثَّوْب «أَخَذَ بِتَلَابِيْبِهِ» أي: أَمْسَكَهُ مِنْ أَعْلَىٰ ثَوْبِهِ.

(٤) غَطَسَ، يَغْطِسُ غَطْساً في الماء ونحوه: أي انْغَمَسَ فيه.

وَكَانَ الشَّيْخُ كَالْمُغْمَىٰ عَلَيْه لَا يَعْقِلُ(١) شَيْئاً، وَكَانَ عَلَىٰ الشَّاطِئِ رَجُلٌ يَصِيْدُ السَّمَكَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ: مُدَّ عُوْدَكَ(٢) لِيُمْسِكَهُ الشَّيْخُ، فَمَدَّ الصَّيَّادُ عُوْدَهُ، وَجَعَلَ يَضْرِبُ بِهِ عَلَىٰ رَأْسِهِ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ وَلَا يُمْسِكُهُ، وَبَعْدَ حِيْنٍ أَمْسَكَ بِالْعُوْدِ، وَوَصَلَ إِلَىٰ الشَّاطِئِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ قَدْ شَرِبَ كَثِيْراً مِنَ الْمَاءِ، فَنَكَّسُوْهُ(٣) حَتَّىٰ قَاءَ(٤) وَأَفَاقَ(٥)، وَرَجَعَ إِلَيْهِ الشُّعُوْرُ وَالْقُوَّةُ.

وَكَانَ عَلَىٰ شَاطِئٍ آخَرَ مِنَ النَّهْرِ، فَصَنَعُوْا لَهُ مَرْكَباً مِنَ الْجِرَارِ، وَرَكِبَهُ الشَّيْخُ، وَأَمْسَكَ بِالْحَبْلِ، وَحَوْلَهُ عَدَدٌ مِنْ فُرْسَانِ السِّبَاحَةِ، وَأَبْطَالِ الْمَاءِ، وَرَجَعَ فِي الْمَوْكِبِ إِلَىٰ الشَّاطِئِ، وَقَدْ ذُعِرَ(٦) الأُسْتَاذُ بِهٰذِهِ الْحَادِثَةِ، فَكَانَ يُوْصِيْ كُلَّ مَنْ يَزُوْرُ قَرْيَتَنَا أَلَّا يَدْخُلَ النَّهْر، وَكَانَ يَقُوْلُ: إِذَا أَرَدْتَّ أَنْ تَتَمَتَّعَ بِالدُّنْيَا، فَإِيَّاكَ وَالنَّهْرَ.

---

(١) عَقَلَ، يَعْقِلُ عَقْلاً: أدْرَكَ، مَيَّزَ.
(٢) عُوْد، جمعها: عِيْدَان وَأَعْوَاد: كل خشبة، دقيقة كانت أو غليظة، رطبة كانت أو يابِسَة.
(٣) نَكَسَ، يَنْكُسُ نَكْساً: الرجلَ: قلبه وجعل أعلاه أسفله أو مقدمه مؤخره.
(٤) قَاءَ، يَقِيءُ قَيْئاً: أَلْقَىٰ ما في بطنه من فَمِه.
(٥) أَفَاقَ، يُفِيْقُ إِفَاقَةً: الرجلُ: عَادَ إلىٰ طبيعته، استيقظ.
(٦) ذُعِرَ، يذْعَرُ مَذْعُورٌ: فَزِعَ.

وَكَانَ الشَّيْخُ لَا يَزَالُ يَعْتِبُ[1] عَلَىٰ الرَّجُلِ أَنَّهُ لَمْ يُنْجِدْهُ، وَلَمْ يَمُدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ، وَلَا يَرَاهُ مَعْذُوْراً فِيْ هٰذَا الأَمْرِ.



(١) عَتَبَ، يَعْتِبُ عَتْباً وعِتَاباً: الرَّجلُ علىٰ فلانٍ: لَامَه برفقٍ علىٰ قيامه بعمل ما، أو عدم قيامه به.



فَتَى(١) الإِسْلَامِ

هَلْ تَعْرِفُ فِتْيَاناً هُمْ فِيْ السَّابِعَةَ عَشَرَةَ، أَوِ الثَّامِنَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِمْ؟ بَلَّغَكَ اللهُ فَوْقَ هٰذِهِ السِّنّ وَعَمَّرَكَ طَوِيْلاً.

إِنَّكَ لَتَعْرِفُ مِنْهُمْ كَثِيْراً! فَهَلْ تَعْرِف عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُوْنَ وَيَشْرَبُوْنَ، وَيَرْتَعُوْنَ(٢) وَيَلْعَبُوْنَ وَيَتَجَمَّلُوْنَ(٣) فِيْ المَلَابِسِ، وَيَتَأَنَّقُوْنَ(٤) فِيْ الْهِنْدَامِ(٥) وَالزِّيْنَةِ.

وَإِذَا امْتَازَ فِيْهِمْ فَتًى، وَعَلَتْ هِمَّتُهُ، عَكَفَ(٦) عَلَىٰ دِرَاسَتِهِ

---

(١) فتًى: جمعها فِتْيَان وفِتْيَة: شابٌّ بين المراهقة والرُّجُولةِ.

(٢) يَرْتَعُوْنَ: (مِنْ رَتَعَ يرتَعُ رَتْعاً) في المكان: أي يُقيمون ويتنعَّمون ويأكلون فيه ويشربون ما يشاؤون في خصب وسعة.

(٣) تجَمَّل، يَتَجَمَّلُ تَجَمُّلاً: ظَهَرَ بما يَجْملُ.

(٤) تَأَنَّقَ، يَتَأَنَّقُ تَأَنُّقاً: اعْتَنَىٰ بمَظْهَرِهِ وَبَدَا أَنِيْقاً.

(٥) الهِنْدَامُ: حُسْنُ القدِّ وتَنْظِيمُ الْمَلَابِس.

(٦) عَكَفَ، يَعْكُفُ عُكُوْفاً: الرَّجلُ علىٰ الشيءِ أو الأمر: أَقْبَلَ عليه ولَزِمَهُ.

وَمُطَالَعَتِهِ، وَجَدَّ فِيْهَا وَاجْتَهَدَ، حَتَّىٰ بَرَزَ[١] فِي الِاخْتِبَارَاتِ، وَأَحْرَزَ الْجَوَائِزَ[٢] وَالْوِسَامَاتِ[٣].

وَإِذَا طَمَحَ[٤] فِيْهِمْ شَابٌّ اجْتَهَدَ لِوَظِيْفَةٍ فِيْ مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِ الْحُكُوْمِة فَصَارَ يَتَقَاضَىٰ رَاتِباً شَهْرِيّاً.

ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، وَتِلْكَ أَقْصَىٰ أَمَانِيْهِمْ فِيْ الْحَيَاةِ.

وَلٰكِنْ لَمَّا كَانَتْ دَوْلَةُ الإِسْلَامِ، وَكَانَتِ الْهِمَمُ عَالِيَةً، كَانَ الشَّابُّ الْمُسْلِمُ يَطْمَحُ إِلَىٰ إِقَامَةِ الْجِهَادِ، وَفَتْحِ الْبِلَادِ، فَيَفْتَحُ قُطْراً أَوْ يُؤَسِّسُ دَوْلَةً أَوْ يَمُوْتُ شَهِيْداً.

هٰذَا مُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمٍ الثَّقَفِيُّ قَدْ غَزَا[٥] الْهِنْد - وَهِيَ بِلَادٌ بَعِيْدَةٌ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ وَرَاءَ الْبِحَارِ - فَهَزَمَ الْجُنُوْدَ، وَقَتَلَ الْمُلُوْكَ، وَوَظَّفَ[٦] الْخَرَاجِ، وَسَبَىٰ[٧] الذُّرِّيَّةَ، وَفَتَحَ مُحَمَّدٌ

---

(١) بَرَّزَ، يُبَرِّزُ تَبْريزاً: فَاقَ أَقْرَانه.
(٢) أَحْرَزَ، يُحْرِزُ إِحْرَازاً: الجائزة وما نحوها: حَصَل عليها.
(٣) وِسَامة، جمعها: وِسَامات: ما يُعَلَّق علىٰ صدر من أحسن عملاً مكافأة له عليه.
(٤) طَمَحَ، يَطْمَحُ طُمُوْحاً: تَطَلَّعَ إلىٰ تحقيق هدفٍ بعيدٍ.
(٥) غَزَا، يَغْزُوْ غَزْواً: سَارَ إلىٰ قتال العدوّ في أرضه.
(٦) وَظَّف، يُوَظِّف تَوْظِيْفاً: الرجلُ فلاناً: أَسْنَدَ إليه وظيفةً.
(٧) سَبَىٰ، يَسْبِي سَبْياً: عَدُوَّه: أَسره.



السِّنْدَ(١)، وَتَوَغَّلَ فِي الْهِنْدِ، حَتَّىٰ قَطَعَ نَهْرَ بَيَاسَ(٢) إِلَىٰ الْمُلْتَانِ، وَفتَحَهَا، وَخَضَعَ أَهْلُ الهِنْدِ لِمُحَمَّدٍ، وَأَحَبُّوْهُ لِدِيْنِهِ وَكَرَمِهِ وَعَدْلِهِ، مَعَ أَنَّ الْعَدُوَّ الْقَاهِرَ لَا يُحَبُّ، وَصَنَعُوْا لَهُ تِمْثَالاً عَلَىٰ عَادَةِ أَهْلِ الْهِنْدِ.

وَتِلْكَ الْفُتُوْحُ الْعَظِيْمَةُ كُلُّهَا كَانَتْ فِيْ مُدَّةٍ قَصِيْرَةٍ جِدّاً.

هٰذَا، وَفَاتِحُ السِّنْدِ لَمْ يَتَجَاوَزِ السَّابِعَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، وَفِيْ ذٰلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:

سَاسَ الرِّجَالَ لِسَبْعَ عَشَرَةَ حِجَّةً(٣) وَلِدَاتُهُ عَنْ ذَاكَ فِيْ أَشْغَالِ



(١) السِّنْدُ: اسم مكان يطلق علىٰ الجزء الشمالي الغربي من الهند، يتوسطه حوض نهر السند، وأكثره الآن يقع في باكستان الغربية.

(٢) نَهْر بَيَاس: يُعَدُّ من أكبر وأهم الأنهار الَّتي تجري في الهند.

(٣) حِجَّة، جمعها: حِجج: السنة.





الرِّمَايةُ

سَأَلتُ أَبِيْ أَنْ يَشْتَرِيَ لِيْ بُنْدُقِيَّةً صَغِيْرَةً، لأَصِيْدَ الطُّيُوْرَ: كَالْيمامِ وَالْحَمَامِ وَالْغُرَابِ الَّذِيْ يُؤْذِيْ كَثِيْراً وَيَلَغُ(١) فِي الْمَاءِ، وَأَتَمَرَّنَ عَلَىٰ الرَّمْيَ، فَاشْتَرَىٰ لِيْ بُنْدُقِيَّةً وَحُقَّةً(٢) مِنَ الرَّشَاشِ.

وَكُنْتُ إِذَا رَجَعْتُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ، أَوْ كَانَ يَوْمُ عُطْلَةٍ أَخَذْتُ الْبُنْدُقِيَّةَ، وَعَدَداً مِنَ الرَّشَاشِ، وَذَهَبْتُ إِلَىٰ الْبُسْتَانِ أَرْمِي الطُّيُوْرَ.

وَفِي الأَوَّلِ لَا أُصِيْبُ طَائِراً، وَأُخْطِئُ كُلَّ مَرَّةٍ، ثُمَّ صِرْتُ أُصِيْبُ مَرَّةً فِيْ ثَلَاثِ طَلَقَاتٍ، وَأَصِيْدُ بَعْضَ الطُّيُوْرِ، حَتَّىٰ تَمَرَّنْتُ فِيْ شَهْرَيْنِ، وَاشْتَدَّ سَاعِدِيْ(٣).

---

(١) وَلَغَ، يَلَغُ وُلُوغاً: الحيوانُ الإناءَ، وفيه: شرب ما فيه بطرف لسانه. والطيورُ: شربتْ ما فيه من منقارها.

(٢) حُقَّة: جمعها: حُقَق وحِقَاق: وعاء صغير ذو غطاءٍ يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

(٣) اشتَدَّ سَاعِدي: قَوِيَ.

وَرَأَيْتُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الأَغْنِيَاءِ شَيْئاً غَرِيْباً، كَانَتْ عِنْدَهُ صَفِيْحَةٌ، وَكَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الصَّفِيْحَةِ مِثْلُ فَلْسٍ، لَهُ لَوْنٌ يَلْمَعُ، وَيَظْهَرُ مِنْ بَعِيْدٍ.

وَكَانَ بِجَانِبِ هٰذَا الْفَلْسِ مِثْلُ جِرَابٍ، كَانَ يَشْحَنُهُ بِالْبَارُوْدِ، وَيَسُدُّهُ بِالْقِرْطَاسِ، وَكَانَ فِيْ هٰذِهِ الصَّفِيْحَةِ رَسْمٌ مِنْ حَدِيْدٍ: جُنْدِيٌّ فِيْ لِبَاسِ جُنْدِيٍّ، فِيْ يَدِهِ قُبَّعَةٌ.

وَكُنَّا نُبَارِيْ(١) فِي الرَّمْي، وَنَرْمِيْ هٰذَا الْفَلْسِ بِالرَّشَاشِ، فَإِذَا أَصَابَ إِنْسَانٌ الْفَلْسَ انْطَلَقَ الْمِدْفَعُ، وَسَمِعَ النَّاسُ صَوْتَهُ مِنْ بَعِيْدٍ، وَانْفَتَحَ الْبَابُ، وَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْ حَدِيْدٍ، فِيْ يَده عَلَامَةٌ يُشِيْرُ بِهَا إِلَىٰ الْهَدَفِ وَيُخْبِرُ بِالإِصَابَةِ.

وَظَهَرَ الْجُنْدِيُّ رَافِعاً قُبَّعَتَهُ يُسَلِّمُ عَلَىٰ الْمُصِيْبِ، وَكَأَنَّهُ يُهَنِّئُهُ بِنَجَاحِهِ.

وَإِذَا أَخْطَأَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ: لَمْ يَنْطَلِقِ الْمِدْفَعُ، وَلَمْ يَتَحَرَّكَ الْجُنْدِيُّ مِنْ مَكَانِه، وَمِنَ الْغَرِيْبِ أَنِّي كُنْتُ أُصِيْبُ الْفَلْسَ فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ دَائِماً، وَإِذَا انْطَلَقَ الْمِدْفَعُ سُرِرْتُ سُرُوْراً عَظِيْماً.

وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قَدَرْتُ أَنْ أَسْتَعْمِلَ الْبُنْدُقِيَّةَ الْكَبِيْرَةَ، فَكُنْتُ

---

(١) بَارَىٰ، يُبَارِي مُبَاراة: فلانٌ في الأمر: عَارَضَه فيه أو فعل مثل فعلِه.

أَخْرُجُ فِي الصَّيْدِ، وَأَصِيْدُ الْحَمَامَ الأَخْضَرَ وَالْبَطَّ وَأَنواعاً مِنَ الطُّيُوْرِ.

وَسَمِعْتُ الْمُعَلِّمَ يَقُوْلُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَثَّ عَلَىٰ الرَّمْيِ كَثِيْراً، وَشَارَكَ فِي الْمُنَاضَلَةِ[1]، وَقَالَ: «ارْمُوْا يَا بَنِيْ إِسْمَاعِيْلَ! فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً»، وَقَالَ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ».

فَسُرِرْتُ كَثِيْراً، وَعَلِمْتُ أَنَّ عَمَلِي لَمْ يَكُنْ عَبَثاً، وَأَنِّيْ لَمْ أُضَيِّعْ وَقْتِي.



(١) المنَاضَلَة: المقاومة والمنافسة.



الْجَمَلُ (١)

انْظُرُوْا إِلَىٰ الإِبِلِ: كَيْفَ خُلِقَتْ، تَرَوْهَا لَا مَثِيْلَ لَهَا[1] فِي الْخِلْقَةِ، فَإِنَّ الْجَمَلَ أَكْبَرُ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ[2] جِسْماً وَأَطْوَلُهُ سَاقاً، وَلِذٰلِكَ كَانَتْ رَقَبَتُهُ طَوِيْلَةً، حَتَّىٰ يُمْكِنَهُ أَنْ يَرْعَىٰ الْكَلأَ مِنَ الأَرْضِ بِدُوْنِ أَنْ يَبْرُكَ، وَرَأْسُهُ صَغِيْرٌ لِيَكُوْنَ خَفِيْفَ الْحَمْلِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، وَأَرْجُلُهُ فِيْهَا أَخْفَافٌ[3] تَمْنَعُ سَوْخَها[4] فِي رِمَالِ الصَّحْرَاءِ الَّتِيْ كَثِيْراً مَا يَسِيْرُ فِيْهَا، وَعَلَىٰ ظَهْرِهِ سَنَامٌ[5] كُلُّهُ شَحْمٌ، يُرَكَّبُ عَلَيْهِ الْقَتَبُ[6]، وَعَيْنَاهُ سَوْدَاوَانِ وَاسِعَتَانِ،

---

(١) لا مَثِيْلَ لها: لا نظير لها.

(٢) الدَّاجِن، جمعها: الدَّوَاجن: كل ما أَلِفَ البيوتَ وأقام بها من حيوان وطير.

(٣) خف، جمعها: أَخْفَاف: حافِر.

(٤) سَوْخَهَا: غَوْصها.

(٥) سَنَامٌ، جمعها: أَسْنِمَة: كتلة كبيرة من الشَّحْم تكون محدَّبة علىٰ ظهر الجمل.

(٦) القَتَب، جمعها: الأَقْتَاب: الرَّحْلُ الصغير يوضع علىٰ قدر سنَام البَعِيْر.

تَشِفَّانِ[١] عَنْ حِلْمٍ وَدَعَةٍ، وَلَهُ فِيْ وَسْطِ بَطْنِهِ قُرْصٌ غَلِيْظٌ يُسَمَّىٰ الْكَلْكَل، يَسْتَنِدُ عَلَيْهِ مَتَىٰ بَرَكَ، وَلَهُ فِيْ أَرْجُلِهِ قِطَعٌ عَدِيْمَةُ الْحِسِّ فِيْ مَوَاقِعِهَا عَلَىٰ الأَرْضِ.

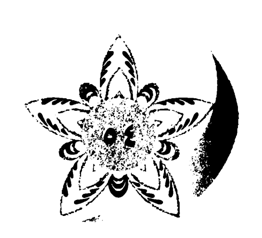
وَجَوْفُ الْجَمَلِ عَجِيْبٌ فِيْ تَرْكِيْبِهِ؛ لأَنَّهُ يَحْتَوِيْ عَلَىٰ جُمْلَةِ كُرُوْشٍ[٢]، يَخْزُنُ فِيْهَا مِقْدَاراً عَظِيْماً مِنَ الْغِذَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا جَاعَ، وَلَمْ يَجِدْ أَكْلاً، أَخْرَجَ مِنْ كِرْشِهِ جَرَّةً، وَاجْتَرَّهَا، وَلِذٰلِكَ يُسَمَّىٰ حَيَوَاناً مُجْتَرّاً، وَإِذَا فَرَغَ مَا خَزَنَهُ فِيْ جَوْفِهِ، فَإِنَّ شَحْمَ سَنَامِهِ يَتَحَلَّلُ شَيْئاً فَشَيْئاً لِيَغْذُوَهُ وَيَكْفِيْهِ مُدَّةً طَوِيْلَةً.

وَلِلْجَمَلِ فَيْ جَوْفِهِ جُمْلَةُ أَزْقَاقٍ[٣] تَمْتَلِئُ بِالْمَاءِ عِنْدَمَا يَشْرَبُ، حَتَّىٰ إِذَا عَطِشَ فِي مَكَانٍ قَفْرٍ لَا مَاءَ فِيْهِ، أَغْنَاهُ مَا خَزَنَهُ عَنِ الشُّرْبِ زَمَناً طَوِيْلاً.



(١) تَشِفَّان، أي: تَرِقَّانِ حتىٰ يُرىٰ ما خلف عينيه من حلم ودعة.
(٢) كِرْشٌ: جمعها: كُرُوْش: مِعْدَة.
(٣) زَقٌّ، جمعها: أزْقَاق: وعاء من جلد.





الْجَمَلُ (٢)

فِيْ عِدَّةِ جِهَاتٍ مِنَ الدُّنْيَا صَحَارَىٰ قَاحِلَةٌ لَا حَيَوَانَ فِيْهَا، وَلَا نَبَاتَ، أَرْضُهَا رِمَالٌ جَافَّةٌ.

لَا تَرَىٰ فِيْهَا قَطْرَةَ ماءٍ، يَسْلُكُهَا النَّاسُ اضْطِرَاراً، فَيَحْمِلُوْنَ زَادَهُمْ: مِنْ مَاءٍ وَطَعَامٍ، عَلَىٰ ظُهُوْرِ الْجِمَالِ، وَيَسِيْرُوْنَ فِيْ تِلْكَ الْقِفَارِ[1] مُجْتَمِعِيْنَ، وَإِبِلُهُمْ مُتَتَابِعَةٌ كَالْقِطَارِ، وَهِيَ تَسِيْرُ بِهِمْ هَادِئَةً سَاكِنَةً، تَصْبِرُ عَلَىٰ الْجُوْعِ وَالْعَطَشِ مُعْظَمَ الطَّرِيْقِ؛ لأَنَّهَا قَدْ خَزنَتْ مُؤْنَتَهَا فِيْ جَوْفِهَا قَبْلَ الرَّحِيْلِ، وَتَحْمِلُ فَوْقَ ذٰلِكَ مِنَ الْمَتَاجِرِ أَحْمَالاً ثِقَالاً، لَا تَئِنُّ[2] مِنْهَا وَلَا تَكِلُّ[3]، فَتَرَىٰ الْجَمَلَ كَأَنَّهُ مَرْكَبٌ يَشُقُّ تِلْكَ الرِّمَالَ الْوَاسِعَةَ، وَلِذَا سُمِّيَ «سَفِيْنَةَ الصَّحْرَاءِ». وَإِنْ ضَلَّ الْمُسَافِرُوْنَ الطَّرِيْقَ فِي الصَّحْرَاءِ

---

(١) قَفْر: جمعها: قِفَار: أرض خالية من الماء والعُشب والناس.

(٢) يَئِنُّ أَنِيْناً: تَأَوَّه ألماً.

(٣) كَلَّ، يَكِلُّ كَلًّا: تَعِبَ.



يَأْخُذُهُمُ الْقَلَقُ عَلَىٰ حيَاتِهِمْ، مَخَافَةَ أَنْ يَنْفَدَ زَادُهُمْ فَيَمُوْتُوْنَ جُوْعاً وَعَطَشاً، وَلٰكِنَّ الْجَمَلَ يُنْقِذُهُمْ أَحْيَاناً مِنْ تِلْكَ الأَخْطَارِ؛ لأَنَّهُ يَشُمُّ الْمَاءَ مِنْ بُعْدٍ، فَيَسِيْرُ نَحْوَهُ بِسُرْعَةٍ غَرِيْبَةٍ، لِيَستَقِيَ صَاحِبُهُ.

وَالْجَمَلُ سَهْلُ الْقِيَادِ، لَيِّنُ الطِّبَاعِ، يَتَحَمَّلُ كَثِيْراً مِنَ الأَذَىٰ بِالصَّبْرِ، وَلٰكِنَّهُ يَثُوْرُ مَتَىٰ بَلَغَ الأَذَىٰ شِدَّةً عَظِيْمَةً، فَيَنْتَقِمُ مِمَّنْ آذَاهُ، وَلَا يَتْرُكُهُ إِلَّا إِذَا ثَأَرَ لِنَفْسِهِ وَفَتَكَ(١) بِهِ.

وَإِذَا قَوِيَ الْجَمَلُ اشْتَدَّ بَأْسُهُ(٢) وَعَافَ(٣) الأَكْلَ مَا لَمْ يُوْضَعُ فِيْ فَمِهِ، وَيَقُوْلُ النَّاسُ عَنْهُ: إِنَّهُ صَائِمٌ، وَفِيْ هٰذِهِ الْحَالَةِ يُخْرِجُ شِقْشِقَتَهُ(٤) مِنْ حَلْقِهِ وَيُشَقْشِقُ(٥) مِنَ الْغَضَبِ.



---

(١) **فَتَكَ، يَفْتِكُ فَتْكاً**: به، قَتَلَهُ.

(٢) **اشْتَدَّ بَأْسُه**: كَثُرَتْ شدَّتُه وقوَّتهُ.

(٣) **عَافَ، يَعَافُ عَيْفاً**: الجملُ الأكلَ: كَرِهَه فتَرَكَه.

(٤) **شِقْشِقَة**: جمعها: شَقَاشِق: شيء كالرئة يُخرجه الجملُ من فيه إذا هَاجَ وَهَدَرَ.

(٥) **شَقْشَقَ يُشَقْشِقُ**: الجملُ: هَدَر.



أنَا هُنَا فَاعْرِفُوْنِي!

مَوْلِدِيْ وَوَطَنِيْ مَا تُسَمُّوْنَهُ الْبَحْرَ! أَنَا ابْنُ أُمَّةٍ عظِيْمَةٍ، قَدِ امْتَدَّتْ عَلَىٰ مَسَافَةِ آلَافٍ مِنَ الأَمْيَالِ، وَيَقُوْلُوْنَ: إِنَّ أُمَّتِيْ أَعْظَمُ مِنْ أُمَّةِ الْبَرِّ؛ فَقَدْ شَغَلْنَا نَحْنُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْكُرَةِ، وَالْيَابِسُ مِنْهَا نَحْوُ رُبْعٍ.

وَقَدْ فَارَقْتُ وَطَنِيْ قَبْلَ شَهْرَيْنَ، لَمَّا اشْتَدَّ الْحَرُّ فِيْ هٰذَا الصَّيْفِ، تَكَوَّنَ بُخَارٌ، وَفَارَقَ الْبَحْرَ، وَسَارَتْ بِهِ الرِّيَاحُ إِلَىٰ الْجِبَالِ، وَهُوَ السَّحَابُ الْمُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَلَمَّا جَاءَهُ الأَمْرُ مِنَ اللهِ، تَحَلَّلَ هٰذَا الْبُخَارُ بِالْحَرَارَةِ، وَنَزَلَ قَطَرَاتٍ قَطَرَاتٍ عَلَىٰ الأَرْضِ، وَقَالَ النَّاسُ: الْمَطَرُ! الْمَطَرُ! وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ.

لَعَلَّكُمْ رَأَيْتُمْ قِدْراً(١) عَلَىٰ النَّارِ فِيْهَا مَاءٌ، فَإِذَا غَلَتِ الْقِدْرُ، تَصَاعَدَ(٢) مِنْهَا مِثْلُ دُخَانٍ، وَهُوَ الْبُخَارُ، وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ.

---

(١) قِدْرٌ: جمعها: قُدُوْر: إناء يُطْبَخُ فِيه الطعام.

(٢) تَصَاعَدَ يَتَصَاعَدُ: الشيءُ: ارْتَفَعَ.

وَإِذَا نَزَلَ الْمَطَرُ، وَجَمَدَتْ قَطَرَاتِيْ مِنَ الْبَرْدِ، وَوَقَعَتْ عَلَىٰ الأَرْضِ مِثْلَ الزُّجَاجِ، قَالَ النَّاسُ: الْبَرَدُ! الْبَرَدُ! وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَقَدْ أَسْقُطُ فِي الْجِبَالِ مِثْلَ الصُّوْفِ[١] الأَبْيَضِ اللَّامِعِ، وَأَلْمَعُ فِي الشَّمْسِ مِثْلَ اللُّجَيْنِ، فَيَكُوْنُ مَنْظَراً جَمِيْلاً، وَيَقُوْلُ النَّاسُ: الثَّلْجُ! الثَّلْجُ! وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَقَدْ يَشْتَدُّ الْبَرْدُ فِي الشِّتَاءِ، فَيَجْمُدُ مَا كَانَ مِنَ الْمَاءِ، وَيَقُوْلُ النَّاسُ: الْجَلِيْدُ[٢] الْجَلِيْدُ! وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِي!

وَإِذَا هَبَطْتُّ مِنَ الْجِبَالِ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَزَاحَمَنِي[٣] صُخُوْرٌ أَوْ أَحْجَارٌ، كَانَ شَلَّالٌ[٤] يَكُوْنُ لَهُ صَوْتٌ هَائِلٌ وَمَنْظَرٌ جَمِيْلٌ، وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ!

وَإِذَا اجْتَمَعَتْ شَلَّالَاتٌ، خَرَجْتُ مِنَ الْجِبَالِ، فَكُنْتُ نَهْراً، يَكُوْنُ فِي مَبْدَئِهِ صَغِيراً، ثُمَّ يَكُوْنُ عَرِيْضاً عَمِيْقاً، وَقَالَ النَّاسُ: نَهْرُ السِّنْدِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ، وَالْفُرَاتِ، وَالنِّيْلِ، وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ.

---

(١) صُوف: جمعها: أَصْوَاف: مَا يَنْبُتُ علىٰ جسم الشاة ونحوها ممَّا ليس وبراً ولا شعراً.

(٢) الجَلِيْدُ: المياه المتجمِّدة بتأثير البرودة.

(٣) زَاحَمَ، يُزَاحِمُ مُزَاحمةً: الشيءَ: دَفَعَه في مكانٍ ضيِّق.

(٤) شلَّال، جمعها: شَلَّالَات: انحدار فجائي في مجرىٰ النهر.

لَعَلَّكَ رَأَيْتَ فِي الصَّبَاحِ أَيَّامِ الشِّتَاءِ مِثْلَ الدُّخَانِ، وَيُسَمِّيْهِ النَّاسُ الضَّبَابَ، وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ قَطَرَاتٍ عَلَىٰ أَوْرَاقِ الأَشْجَارِ، وَعَلَىٰ العُشْبِ وَالأَزْهَارِ، فِيْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ، وَيُسَمِّيْهَا النَّاسُ الطَّلَّ[1] وَالنَّدَىٰ[2]، وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَقَدْ أَجْمُدُ بِالصِّنَاعَةِ فِي الْمَصَانِعِ، وَيَحْرِصُ عَلَيَّ النَّاسُ أَيَّامَ الصَّيْفِ، فَلَا يَشْرَبُوْنَ الْمَاءَ بِغَيْرِ هٰذَا الْجَمَدِ، وَلَا يَرْوَوْنَ إِلَّا بِهِ، وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِي.



(١) **الطَّل**: المطر الخفيف يكون له أثر قليل.

(٢) **النَّدىٰ**: قطرات ماء كالمطر تُرىٰ عند الصباح علىٰ النبات وغيره.



سَفِيْنَة عَلَى الْبَرِّ

هَلْ سَمِعْتَ بِسَفِيْنَةٍ تَسِيْرُ عَلَىٰ الْبَرّ؟ وَهَلْ تُصَدِّقُ إِذَا أَخْبَرَكَ بِهِ أَحَدٌ؟!

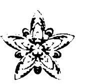
أَظُنُّكَ تَقُوْلُ ـ وَلَكَ الْحَقُّ ـ: مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِيْ آبَائِنَا الأَوَّلِيْنَ، وَلٰكِنَّ مُحَمَّداً الثَّانِيَ الْعُثْمَانِيَّ فَاتِحَ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ سَيَّرَ سَبْعِيْنَ سَفِيْنَةً عَلَىٰ الْبَرِّ.

هَلْ تَعْرِفُ كَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

غَزَا الْعَرَبُ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةَ الْعُظْمَىٰ سِتَّ مَرَّاتٍ، وَلَمْ يَفْتَحُوْهَا، وَقَدْ قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُوْنَ هٰذَا الْفَتْحُ الْعَظِيْمُ بِيَدِ شَابٍّ مُسْلِمٍ مِنْ آلِ عُثْمَانَ، وَهُوَ فِي الرَّابِعَةِ وَالْعِشْرِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ، وَذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ.

زَحَفَ مُحَمَّدٌ إِلَىٰ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ، وَأَعَدَّ لِذٰلِكَ عُدَّةً عَظِيْمَةً، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

فَكَانَ تَحْتَ قِيَادَتِهِ ثَلَاثُمِئَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، وَمَعَهُ مِدْفَعِيَّةٌ هَائِلَةٌ،



فِيْهَا مِدْفَعٌ لا يُوْجَدُ فِيْ أَوْرُبَّا أَضْخَمُ[١] مِنْهُ، أَعَدَّهُ لِذٰلِكَ، مَرْمَاهُ[٢] أَكْثَرُ مِنْ مِيْلٍ.

وَكَانَ أُسْطُوْلُهُ[٣] مُرَكَّباً مِنْ مِئَةِ سَفِيْنَةٍ حَرْبِيَّةٍ.

وَكَانَ مُحَمَّدٌ رَأَىٰ أَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ سَلْسَلَ[٤] خَلِيْجَ قَرْنِ الذَّهَبِ ـ وَهُوَ مَدْخَلُ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ ـ بِالسَّلَاسِلِ، فَكَيْفَ يَعْبُرُهُ بِأُسْطُوْلِهِ؟

فَكَّرَ مُحَمَّدٌ، وَلَمْ يَعْجَزْ وَلَمْ يَيْأَسْ، وَوَجَدَ حِيْلَةً!

رَأَىٰ أَنَّهُ يُمْكِنُ الْعُبُوْرُ إِلَىٰ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ مِنْ جِهَةِ قَاسم بَاشَا.

وَلٰكِنَّ هٰـذِهِ الْجِهَةَ بَعِيْدَةٌ مِنْ سُفُنِهِ، فَمَنْ يَحْمِلُهَا وَمَنْ يَنْقُلُهَا مِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ إِلَىٰ تِلْكَ الْجِهَةِ، وَالْمَسَافَةُ بَعِيْدَةٌ؟

فَكَّرَ مُحَمَّدٌ، وَلَمْ يَعْجَزْ وَلَمْ يَيْأَسْ وَوَجَدَ حِيْلَةً!

طَلَىٰ[٥] الأَخْشَابَ بِالشَّحْمِ، فَلَمَّا أَمْلَسَتْ[٦] أَزَلقَ[٧] عَلَيْهَا السُّفُنَ، وَهِيَ سَبْعُوْنَ سَفِيْنَةً.

---

(١) أضخم منه: أعظم منه.

(٢) مرمىٰ، جمعها: مرام: ما ترمىٰ إليه السهام ونحوها.

(٣) أسطول، جمعها: أساطيل: مجموعة من السفن تعد للحرب أو للنقل التجاري.

(٤) سلسل يسلسل: الأشياء: وصل بعضها ببعض كأنها سلسلة.

(٥) طلىٰ، يطلي طلياً: دهن.

(٦) أملس، يملس إملاساً: لان ونعم.

(٧) أزلق، يزلق إزلاقاً عليه السفن: دفعها ودحرجها.

وَمَا رَاعَ(١) أَهْلُ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ إِلَّا وَسُفُنُ الْمُسْلِمِيْنَ قَدْ أَرْسَتْ(٢) عَلَىٰ سَاحِلِ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ، وَسُقِطَ فِيْ أَيْدِيْهِمْ(٣).

وَهٰكَذَا أَخَذَ مُحَمَّدٌ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةَ ـ عَاصِمَةَ الدَّوْلَةِ الْبِيْزَنْطِيَّةِ ـ وَسَقَطَتْ عَاصِمَةُ النَّصْرَانِيَّةِ الْمَنِيْعَةُ أَمَامَ قَائِدٍ مُسْلِمٍ شَابٍّ.

وَلَا تَزَالُ هٰذِهِ الْمَدِيْنَةُ الْعَظِيْمَةُ وَتُرْكِيًّا فِيْ يَدِ الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ سنة ٨٥٣هـ ـ يَوْمَ فَتَحَهَا مُحَمَّدُ بْنُ مُرَادٍ ـ إِلَىٰ يَوْمِ النَّاسِ هٰذَا.

و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

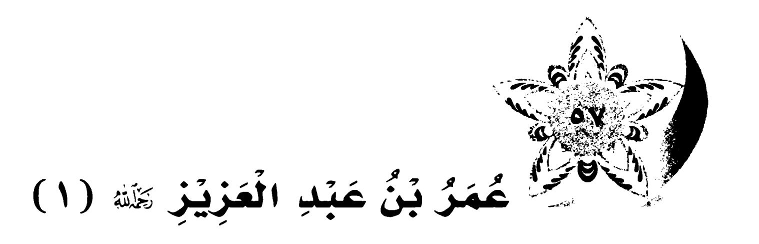


---

(١) **ما راع**: ما أفزع. والروع: الفزع والخوف.

(٢) **أرسىٰ**، يرسي إرساءً: توقف (توقفت السفن عند الشاطئ).

(٣) **سقط في أيديهم**: تحيروا.



عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ رَحِمَهُ اللهُ (١)

وُلِدَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ سنة (٦١هـ)، وَأُمُّهُ أُمُّ عَاصِمٍ بِنْتُ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، جَمَعَ الْقُرْآنَ وَهُوَ صَغِيْرٌ، وَبَعَثَهُ أَبُوْهُ إِلَىٰ الْمَدِيْنَةِ يَتَأَدَّبُ بِهَا، وَكَانَ يَأْتِيْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ كَثِيْراً، لِمَكَانِ أُمِّهِ مِنْهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ أُمِّهِ، فَيَقُوْلُ: يَا أُمَّهْ! أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ مِثْلَ خَالِيْ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ فِيْ شَبَابِهِ مُتَنَعِّماً، يُكْثِرُ مِنَ الطِّيْبِ، حَتَّىٰ تُوْجَدَ رَائِحَتُهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِيْ يَمُرُّ بِهِ، وَيَمْشِيْ مِشْيَةً تُسَمَّىٰ «الْعُمَرِيَّةَ» كَانَ الْجَوَارِيْ يَتَعَلَّمْنَهَا مِنْ حُسْنِهَا، وَلَمْ يَزَلْ عَلَىٰ هٰذَا التَّنَعُّمِ حَتَّىٰ وَلِيَ الْخِلَافَةَ، فَزَهِدَ فِي الدُّنْيَا وَرَفَضَهَا.

وَكَانَ فِيْ شَبَابِهِ وَوِلَايَتِهِ لِلْمَدِيْنَةِ كَثِيْرَ التَّعْظِيْمِ لِلْعُلَمَاءِ، شَدِيْدَ الإِعْظَامِ لِمَسْجِدِ الرَّسُوْلِ ﷺ، خَاشِعاً مُتَدَيِّناً.

وَعَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ وَعُمَرُ لَا يَعْلَمُ، فَلَمَّا عَلِمَ فَزِعَ.

وَقَالَ: وَاللهِ إِنَّ هٰذَا الأَمْرَ مَا سَأَلْتُ اللهَ قَطُّ.

وَقَدَّمَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْمَرَاكِبِ مَرْكَبَ الْخَلِيْفَةِ فَأَبَىٰ وَقَالَ: ائْتُوْنِي بِبَغْلَتِيْ، وَرَدَّ الْمَرَاكِبَ وَالسُّرَادِقَاتِ[١] وَالْفُرُشَ وَالأَدْهَانَ وَالثِّيَابَ الْخَاصَّةَ بِالْخَلِيْفَةِ إِلَىٰ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِيْنَ.

وَجَلَسَ لِلنَّاسِ بَعْدَ ثَلَاثٍ، وَحَمَلَهُمْ عَلَىٰ الشَّرِيْعَةِ، وَرَدَّ الْمَظَالِمَ، وَأَحْيَا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَسَارَ بِالْعَدْلِ، وَرَفَضَ الدُّنْيا، وَزَهِدَ فِيْهَا، وَنَهَىٰ عَنِ الْقِيَامِ، وَابْتَدَأَ بِالسَّلَامِ، وَتَرَكَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ، وَتَرَكَ أَنْ يُخْدَمَ.

كَانَ عِنْدَهُ قَوْمٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَامَ إِلَىٰ السِّرَاجِ، فَأَصْلَحَهُ، فَقِيْلَ لَهُ: يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ نَكْفِيْكَ، قَالَ: وَمَا ضَرَّنِيْ؟ قُمْتُ وَأَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ، وَرَجِعْتُ وَأَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ.

وَأُتِيَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْفَيْءِ[٢] بِعَنْبَرَةٍ[٣]، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَمَسَحَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُفِعَتْ حَتَّىٰ تُبَاعَ، ثُمَّ أَمَرَّ يَدَهُ عَلَىٰ أَنْفِهِ، فَوَجَدَ رِيْحَهَا، فَدَعَا بِوَضُوْءٍ فَتَوَضَّأَ.

---

(١) سُرَادِق، جمعها: سُرَادِقات: خَيْمَة يجتمع فيها الناس لعُرْسٍ ومأتم أو غيرهما.

(٢) فِيْءٌ: جمعها: أفْيَاء: خَرَاج، غَنِيمة.

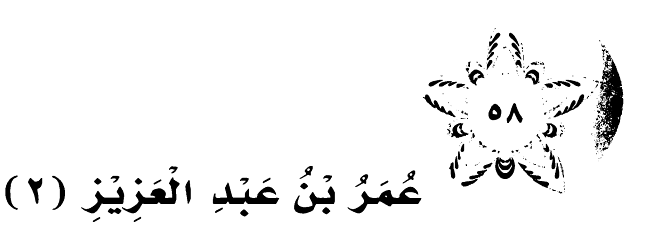
(٣) عَنْبَرَة: مادة صُلْبَة لَا طَعْمَ لها ولا رائحة، تُصبح نوعاً من الطّيب إذا سُحِقَتْ أو أُحْرِقَتْ.

وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ يَأْتِيْهِ بِقُمْقُمٍ[١] مِنْ مَاءٍ مُسَخَّنٍ يَتَوَضَأُ مِنْهُ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ يَوْماً: أَتُسَخِّنُ الْمَاءَ فِي مَطْبَخِ الْمُسْلِمِيْنَ؟ قَالَ: نَعَمْ! قَالَ: أَفْسَدْتهُ عَلَيْنَا، ثُمَّ حَاسَبَ تِلْكَ الأَيَامَ، وَأَدْخَلَ الْحَطَبَ فِي الْمَطْبَخِ، وَأَبْطَأَ يَوْماً عَنِ الْجُمُعَةِ قَلِيْلاً فَعُوْتِبَ فِيْ ذٰلِكَ فقَالَ: إِنَّمَا انْتَظَرْتُ قَمِيْصِيْ غَسَلْتُهُ أَنْ يَجِفَّ.

قَالَ أَزْهَرُ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيْزِ يَخْطُبُ النَّاسَ وَعَلَيْهِ قَمِيْصٌ مَرْقُوْعٌ.



(١) **قُمْقُمٌ**: جمعها: قَمَاقِم: إناء صغير من نُحاسٍ أو فِضَّةٍ.



عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ (٢)

وَلَمْ يُحْدِثْ عُمَرُ مُنْذُ وَلِيَ دَابَّةً[١] وَلَا امْرَأَةً وَلَا جَارِيَةً حَتَّىٰ لَحِقَ بِاللهِ، وَلَمْ يُرَ ضَاحِكاً مُنْذُ وَلِيَ الْخِلَافَةَ حَتَّىٰ لَقِيَ اللهَ.

وَأَتَتْهُ سَلَّتَا رُطَبٍ مِنَ الأُرْدُنِّ، فَقَالَ: مَا هَـٰذا؟ قَالُوا: رُطَبٌ مِنَ الأُرْدُنِّ، قَالَ: عَلَامَ جِيْءَ بِهِ؟ قَالُوْا: عَلَىٰ دَوَابِّ الْبَرِيْدِ. قَالَ: فَمَا جَعَلَنِيَ اللهُ أَحَقَّ بِدَوَابِّ الْبَرِيْدِ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ، أَخْرِجُوْهُمَا فَبِيْعُوْهُمَا، وَاجْعَلُوْا ثَمَنَهُمَا فِي عَلَفِ دَوَابِّ الْبَرِيْدِ، وَاشْتَرَاهُمَا فِي السُّوْقِ ابْنُ أَخِيْهِ وَأَهْدَىٰ إِحْدَاهُمَا إِليهِ، فَأَكَلَ وَقَالَ: الآنَ طَابَ أَكْلُهُ.

وَدَخَلَ عَلَىٰ بَنَاتِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَوَضَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِنَّ، فَقَالَ لِلْحَاضِنَةِ[٢]: مَا شَأْنُهُنَّ؟ قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ شَيْءٌ يَتَعَشَّيْنَهُ إِلَّا عَدَسٌ وَبَصَلٌ، فَكَرِهْنَ أَنْ تَشُمَّ ذٰلِكَ

---

(١) دَابَّة: جمع دَوَابّ: مَا يُرْكَبُ من الحيوان كالفرس والبغل.

(٢) حَاضِنَة: جمعها: حَوَاضِن: المرأة الَّتي تقوم علىٰ تربية الصغير.



مِنْ أَفَوَاهِهِنَّ، فَبَكَىٰ عُمَرُ، ثُمَّ قَالَ لَهُنَّ: يَا بَنَاتِيْ مَا يَنْفَعُكُنَّ أَنْ تَعَشَّيْنَ الأَلْوَانَ وَيُمَرُّ بِأَبِيْكُنَّ إِلَىٰ النَّارِ، فَبَكَيْنَ حَتَّىٰ عَلَتْ أَصْوَاتُهُنَّ، وَوَضَعَ عُمَرُ حِلِيَّ زَوْجَتِهِ فِي بَيْتِ الْمَالِ، وَأَرْجَعَ مَزَارِعَهُ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِيْ عَهْدِ الرَّسُوْلِ ﷺ.

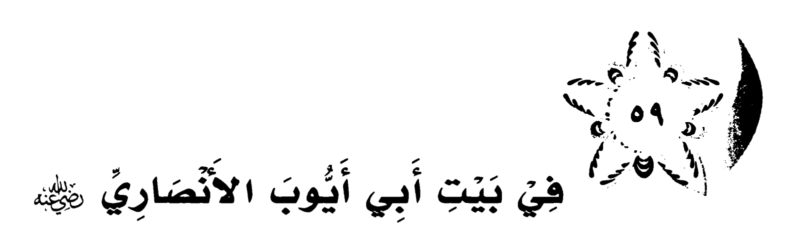
وَإِذَا كَانَ فِي حَوَائِجِ الْعَامَّةِ كَتَبَ عَلَىٰ الشَّمْعِ، وَإِذَا صَارَ إِلَىٰ حَاجَةِ نَفْسِهِ دَعَا بِسِرَاجِهِ.

وَقَدْ أَغْنَىٰ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ النَّاسِ، حَتَّىٰ لَمْ يُوْجَدْ فَقِيْرٌ فِيْ بِلَادِ الْمُسْلِمِيْنَ، وَلَمْ يُوْجَدْ أَحَدٌ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ.

وَكَانَ لَا يُؤَخِّرُ عَمَلَ الْيَوْمِ لِلْغَدِ، وَلَا يَعْجِزُ، قَالَ بَعْضُ إِخْوَتِهِ: يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ! لَوْ رَكِبْتَ فَتَرَوَّحْتَ، قَالَ: فَمَنْ يَقْضِيْ شُغْلَ ذٰلِكَ الْيَوْمِ؟ قَالَ: تَقْضِيْهِ مِنَ الْغَدِ، قَالَ: لَقَدْ ثَقُلَ عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ؟

مَاتَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ سنة (١٠١هـ).





فِيْ بَيْتِ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه

قَالَ سَيِّدُنَا أَبُوْ أَيُّوْبَ رضي الله عنه:

«لَمَّا نَزَلَ عَلَيَّ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ بَيْتِيْ نَزَلَ فِي السُّفْلِ[١]، وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ فِي الْعُلُوِّ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ! إِنِّيْ لأَكْرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكُوْنَ فَوْقَكَ وَتَكُوْنَ تَحْتِيْ، فَاظْهَرْ أَنْتَ فَكُنْ فِي الْعُلُوِّ، وَنَنْزِلُ نَحْنُ فَنَكُوْنَ فِي السُّفْلِ، فَقَالَ: يَا أَبَا أَيُّوْبَ! إِنَّ أَرْفَقَ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا أَنْ نَكُوْنَ فِي سُفْلِ الْبَيْتِ.

قَالَ: فَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ سُفْلِهِ وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ، فَلَقَدِ انْكَسَرَ حُبٌّ لَنَا فِيْهِ مَاءٌ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ بِقَطِيْفَةٍ[٢] لَنَا، مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرُهَا، نُنَشِّفُ[٣] بِهَا الْمَاءَ تَخَوُّفاً أَنْ يَقْطُرَ عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيَه.

---

(١) السُّفْل: تَحْت.

(٢) قَطِيْفَة: نَسِيْج من الحرير أو القُطن.

(٣) نَشَّفَ، يُنَشِّفُ تَنْشِيفاً: جَفَّفَ.

قَالَ: وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ الْعَشَاءَ، ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلَهُ تيَمَّمْتُ(١) أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ مَوْضِعَ يَدِهِ فَأَكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِيْ بِذٰلِكَ الْبَرَكَةَ، حَتَّىٰ بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بِعَشَائِهِ، وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ فِيْهِ بَصَلاً أَوْ ثُوْماً، فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ، وَلَمْ أَرَ لِيَدِه فِيْه أَثَراً، قَالَ: فَجِئْتُهُ فَزِعاً، فَقُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ! رَدَدْتَ عَشَاءَكَ، وَلَمْ أَرَ فِيْهِ مَوْضِعَ يَدِكَ، وَكُنْتَ إِذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا تيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُوْبَ مَوْضِعَ يَدِكَ، نَبْتَغِيْ بِذٰلِكَ الْبَرَكَةَ.

قَالَ: إِنِّيْ وَجَدْتُّ فِيْهَ رِيْحَ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ، وَأَنَا رَجُلٌ أُنَاجِيْ، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوْهُ.

قَالَ: فَأَكَلْنَاهُ، وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدُ.

(سِيْرَةُ ابْنِ هِشَامٍ)



(١) تيَمَّمَ يَتَيَمَّمُ: الشيء: تَوَخَّاه وتَعَمَّده.



الإِمَامُ مَالِكٌ بْنُ أَنَسٍ

وُلِدَ الإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِيْنَ فِي الْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَسَمِعَ الزُّهْرِيَّ(١) وَنَافِعاً مَوْلَىٰ ابْنِ عُمَرَ(٢)، وَأَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ رَبِيْعَةَ الرَّأْيِ(٣)، وَقَالَ: قَلَّ رَجُلٌ كُنْتُ أَتَعَلَّمُ مِنْهُ مَا مَاتَ حَتَّىٰ يجِيْئَنِيْ وَيَسْتَفْتِيَنِيْ(٤).

وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ عَظِيْمٌ فِي الْعِلْمِ يَرْحَلُ النَّاسُ إِلَيْهِ مِنَ الآفَاقِ، وَيَزْدَحِمُوْنَ(٥) عَلَىٰ بَابِهِ لأَخْذِ الْحَدِيْثِ وَالْفِقْهِ

---

(١) هو ابن شهاب محمد الزهري، تابعيّ من أهل المدينة، أول من دوّن الحديث، نزل الشام واستقرَّ بها، توفي سنة ١٢٤هـ.

(٢) هو نافع بن عمر القرشي الجمحي المكي، حافظ للحديث، كان محدث مكة المكرمة في زمانه، وتوفي فيها سنة ١٦٩هـ.

(٣) كان إماماً، حافظاً، فقيهاً، مجتهداً، بصيراً بالرأي، وكان صاحب الفتاوىٰ بالمدينة المنورة وعليه تفقه الإمام مالك، توفي سنة ١٣٦هـ.

(٤) اسْتَفْتَىٰ، يَسْتَفْتِي اسْتِفْتَاءً: الرجلُ العالمَ في مَسْألةٍ: سَألَه رأيَه فيها.

(٥) ازْدَحَمَ، يَزْدَحِمُ ازْدِحَاماً: الناسُ: تَضَايَقوا وتَدافَعوا بالمناكب.

كَازْدِحَامِهِمْ عَلَىٰ بَابِ السُّلْطَانِ، وَكَانَ النَّاسُ يَفْتَخِرُوْنَ بالرِّوَايَةِ عَنْهُ، وَكَانَ ذٰلِكَ شَرَفاً كَبِيْراً فِيْ عَصْرِهِ، فَإِذَا قَالَ أَحَدٌ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، رَفَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ.

وَكَانَ إِلَيْهِ الْمُنْتَهَىٰ فِي الْفِقْهِ وَالْفَتْوَىٰ. قَالَ ابْنُ وَهبٍ: سَمِعْتُ مُنَادِياً يُنَادِيْ بِالْمَدِيْنَةِ: أَلَا لَا يُفْتِي النَّاسَ إِلَّا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَابْنُ أَبِيْ ذِئْبٍ، وَمِنَ الأَمْثَالِ السَّائِرَةِ: لَا يُفْتَىٰ وَمَالِكٌ فِي الْمَدِيْنَةِ.

وَكَانَ كَثِيْرَ الأَدَبِ، شَدِيْدَ التَّعْظِيْمِ لِحَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ[1] وَلَبِسَ ثِيَاباً جُدَداً، وَتَعَمَّمَ[2] وَقَعَدَ بِخُشُوْعٍ وَخُضُوْعٍ وَوَقَارٍ، وَتَبَخَّرَ[3] بِالْعُوْدِ مِنْ أَوَّلِهِ فَلَا يَزَالُ يَتَبَخَّرُ إِلَىٰ فَرَاغِهِ، وَقِيْلَ لَهُ فِيْ ذٰلِكَ، فَقَالَ: أُحِبُّ أَنْ أُعَظِّمَ حَدِيْثَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَلَا أُحَدِّثَ بِهِ إِلَّا مُتَمَكِّناً عَلَىٰ طَهَارَةٍ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُحَدِّثَ عَلَىٰ الطَّرِيْقِ، أَوْ مُسْتَعْجِلاً، وَيَقُوْلُ: أُحِبُّ أَنْ أَتَفَهَّمَ مَا أُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: كُنْتُ عِنْدَ مَالِكٍ، وَهُوَ يُحَدِّثُنَا، فَلَدَغَتْهُ عَقْرَبٌ سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً، وَمَالِكٌ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ، وَلَا يَقْطَعُ

---

(١) تَطَيَّبَ، يَتَطَيَّبُ تَطَيُّباً: الرجلُ: وضع علىٰ نفسه الطِّيب.
(٢) تَعَمَّمَ، يَتَعَمَّمَ تَعَمُّماً: لَبِسَ العمامة.
(٣) تبَخَّرَ، يَتَبَخَّرُ تَبَخُّراً: الرجلُ بالعود أو البَخُور: تَطَيَّبَ.

الْحَدِيْثَ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ قَالَ: إِنَّمَا صَبَرْتُ إِجْلَالاً لِلْحَدِيْثِ.

وَكَانَ لَا يَرْكَبُ فِي الْمَدِيْنَةِ عَلَىٰ ضَعْفِهِ وَكِبَرِ سِنِّهِ، وَيَقُوْلُ: لَا أَرْكَبُ فِيْ مَدِيْنَةٍ فَيْهَا جُثَّةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مَدْفُوْنَةٌ.

وَكَانَ مَجْلِسُهُ مَجْلِسَ وَقَارٍ وَحِلْمٍ، وَكَانَ رَجُلاً مَهِيْباً نَبِيْلاً، لَيْسَ فِيْ مَجْلِسِهِ شَيءٌ مِنَ الْمِرَاءِ(١) وَاللَّغَطِ(٢)، وَلَا رَفْعُ صَوْتٍ، وَكَانَ الْغُرَبَاءُ يَسْأَلُوْنَهُ عَنِ الْحَدِيْثِ فَلَا يُجِيْبُ إِلَّا فِي الْحَدِيْثِ بَعْدَ الْحَدِيْثِ.

سَأَلَ هَارُوْنُ الرَّشِيْدُ مَالِكاً أَنْ يَأْتِيَ فَأَبَىٰ، فَأَتَىٰ هَارُوْنُ مَالِكاً، وَهُوَ فِيْ مَنْزِلِهِ، وَمَعَهُ بَنُوْهُ، وَسَأَلَ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِم، فَقَالَ: مَا قَرَأْتُ عَلَىٰ أَحَدٍ مُنْذُ زَمَانٍ، وَإِنَّمَا يُقْرَأُ عَلَيَّ، فَقَالَ هارون: أَخْرِجِ النَّاسَ حَتَّىٰ أَقْرَأَ أنا عليكَ، فقال: إِذَا مُنِعَ الْعَامُّ لِبَعْضِ الْخَاصِّ لَمْ يَنْتَفِعِ الْخَاصُّ.

وَدَخَلَ مَالِكٌ عَلَىٰ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ مَنْصُوْرٍ، وَهُوَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ، إِذْ جَاءَ صَبِيٌّ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ، فَقَالَ لِيْ: أَتَدْرِيْ مَنْ هٰذَا؟ فَقُلْتُ: لَا! قَالَ: ابْنِيْ، وَإِنَّمَا يَفْزَعُ مِنْ هَيْبَتِكَ.

---

(١) المِرَاءُ: التَّكَلُّفُ.

(٢) اللَّغَطُ: جمعها: الأَلْغَاط: الصوت والجلبة.

وَفِيْ سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَمِئَةٍ ضُرِبَ مَالِكٌ سَبْعِيْنَ سُوْطاً لأَجْلِ فَتْوَىٰ لَمْ تُوَافِقْ غَرَضَ السُّلْطَانِ، فَغَضِبَ وَدَعَا بِهِ، وَجَرَّدَهُ[1] وَضَرَبَهُ بِالسِّيَاطِ، وَمُدَّتْ يَدُهُ حَتَّىٰ انْخَلَعَتْ كَتِفُهُ، فَلَمْ يَزَلْ بَعْدَ ذٰلِكَ الضَّرْبِ فِيْ عُلُوٍّ وَرِفْعَةٍ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تِلْكَ السِّيَاطُ[2] حَلْياً حُلِّي بِهِ.

وَكِتَابُهُ الْمُوطَّأُ مِنْ أَشْهَرِ كُتُبِ الْحَدِيْثِ، وَمِنَ الْكُتُبِ الْمَقْبُوْلَةِ فِي الإِسْلَامِ، رَزَقَكَ اللهُ قِرَاءَتَهُ، وَالِانْتِفَاعَ بِهِ، وَسَيَكُوْنُ ذٰلِكَ (إِنْ شَاءَ اللهُ) فِيْ بِضْعِ سِنِيْنَ إِذَا تَقَدَّمْتَ فِي الْعِلْمِ.

تُوُفِّيَ مَالِكٌ سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِيْنَ وَمِئَةٍ.



---

(١) جَرَّدَ، يُجَرِّدُ تَجْرِيْداً: الرجلُ الفلانَ: عَرَّاه.

(٢) سَوْطٌ: جمعها: سِيَاط: أداة من الجلد يضرب بها الإنسان أو الحيوان.



الْقَاطِرَةُ (١)

ذَهَبَ رَشِيْدٌ مَعَ أَبِيْهِ سَعِيْدٍ إِلَىٰ الْمَحَطَّةِ يَسْتَقْبِلُ أَخَاهُ مَحْمُوْداً، وَكَانَ قَادِماً مِنْ دِيُوْبَنْد[١] فِيْ مُسَامَحَةِ عِيْدِ الأَضْحَىٰ.

وَكَانَ الْقِطَارُ مُتَأَخِّراً، فَأَخَذَ سَعِيْدٌ يَتَجَوَّلُ عَلَىٰ الْمَحَطَّةِ يُحَدِّثُ رَشِيْداً عَنِ الْقِطَارِ وَنِظَامِ الْمَحَطَّةِ، وَانْتَقَلَ مَعَهُ إِلَىٰ رَصِيْفٍ آخَرَ.

وَكَانَ قِطَارٌ وَاقِفاً هُنَا تَصْفِرُ[٢] قَاطِرَتُهُ[٣]، وَيَخْرُجُ مِنْهَا بُخَارٌ كَثِيْفٌ[٤] مُتَصَاعِدٌ.

---

(١) ديوبند: قرية من القرىٰ التابعة لمدينة سهارنفور الواقعة في ولاية أترابرديش في الهند.

(٢) صَفَرَ، يَصْفِرُ صَفيراً: صَوَّت بصوت عالٍ.

(٣) قَاطِرَة: جمعها: قَاطِرَات: آلة بخارية أو كهربائية تجرُّ عَرَبَاتٍ علىٰ سكك الحديد.

(٤) كَثِيْفٌ: غَلِيْظ.

قَالَ رَشِيْدٌ: حَدِّثْنِي الْيَوْمَ يَا أَبِيْ! عَنِ الْقَاطِرَةِ كَيْفَ تَجُرُّ الْقِطَارَ، وَكَيْفَ تُسْرِعُ فِي السَّيْرِ؟

قَالَ سَعِيْدٌ: لَقَدْ سَأَلْتَ بِهِ خَبِيْراً، فَقَدْ كُنْتُ مُوظَّفاً فِي الْقِطَارِ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْهَا فِيْ تَفْصِيْلٍ، فَقُمْ بِجَانِبِيْ أَمَامَ هٰذِهِ الْقَاطِرَةِ وَلَاحِظْهَا.

أُنْظُرْ يَا رَشِيْدُ! إِلَىٰ الْقَاطِرَةِ تَرَهَا صُنِعَتْ مِنَ الْحَدِيْدِ، وَلَهَا سِتُّ عَجَلَاتٍ تَسِيْرُ عَلَيْهَا، وَهِيَ قَوِيَّةٌ جِدّاً كَأَنَّهَا عِفْرِيْتٌ مِنَ الْجِنِّ، تَجُرُّ قِطَارَ الْبِضَاعَةِ، وَهُوَ طَوِيْلٌ وَثَقِيْلٌ جِدّاً، وتَجُرُّ قِطَارَ الرُّكَّابِ وَفِيْهِ النَّاسُ وَأَثْقَالُهُمْ، وَتَجُرُّ الْقِطَارَ السَّبَّاقَ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْقُطُرِ، يَقْطَعُ خَمْسَةً وَأَرْبَعِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ.

وَالْقِطَارُ السَّرِيْعُ يَقْطَعُ نَحْوَ أَرْبَعِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ، وَالْقِطَارُ الْوَقَّافُ يَقْطَعُ نَحْوَ ثَلَاثِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ، تَجُرُّ الْقِطَارَ مِنْ أَقْصَىٰ الْهِنْدِ إِلَىٰ أَقْصَاهَا، مَثَلاً مِنْ بَمْبَيءَ[١] إِلَىٰ بِشَاوَرَ[٢]، وَمِنْ دِهْلِي[٣] إِلَىٰ مَدْرَاسَ[٤].

وَقُوَّةُ هٰذِهِ الْقَاطِرَةِ إِنَّمَا هِيَ الْبُخَارُ الْحَقِيْرُ الَّذِيْ لَا تَعْبأ[٥]

---

(١) بَمْبَيء: من أكبر مدن الهند تقع في غربها.

(٢) بِشَاوَر: مدينة قديمة تقع في شمال باكستان.

(٣) دِهْلِي: عاصمة الهند.

(٤) مَدْرَاس: مَرْفأ في جنوب شرقي الهند، ومن أكبر مدنها.

(٥) لا تَعْبَأ به: لا تهتم به ولا تبالي.



بِهِ، وَلَا تُحَاسِبُ لَهُ حِسَاباً، وَقَدِ اهْتَدَىٰ «استيفنسن» مُخْتَرِعُ الْقِطَارِ إِلَىٰ قُوَّةِ هٰذَا الْبُخَارِ، وَاهْتَدَىٰ إِلَىٰ تَسْخِيْرِهِ وَالانْتِفَاعِ بِهِ فِيْ الأَغْرَاضِ، وَعَلِمَ بِعَقْلِهِ وَدِرَاسَتِهِ أَنَّهُ بِقُوَّتِهِ يَحْمِلُ الأَثْقَالَ، وَيَنْقُلُ الْجِبَالَ، وَيَأْتِيْ بِالْعَجَائِبِ.

وَذٰلِكَ هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْجَاهِلِ وَالْعَالِمِ، وَبَيْنَ الْعَامِّيِّ وَالْمُكْتَشِفِ، يَرَىٰ الأَوَّلُ كُلَّ شَيْءٍ فَلَا يَرْفَعُ بِهِ رَأْساً، وَلَا يُلْقِيْ عَلَيْهِ بَالاً، وَيَرَاهُ الثَّانِيْ فَيَعْرِفُ قِيْمَتَهُ وَيَجْتَهِدُ فِيْهِ، حَتَّىٰ يُسَخِّرَهُ لِغَرَضِهِ.





الْقَاطِرَةُ (٢)

انْظُرْ يَا رَشِيْدُ! إِلَىٰ هٰذَا الْمَوْقِدِ فِيْ الْقَاطِرَةِ، يُلْقِيْ فِيْهِ الرَّجُلُ الْفَحْمَ الْحَجَرِيَّ، وَفَوْقَ هٰذَا الْمَوْقِدِ حَوْضٌ مِنْ مَاءٍ مَتِيْنٌ جِدّاً، وَفِيْهِ أَنَابِيْبُ عَدِيْدَةٌ يَسْخنُ هٰذَا الْمَاءُ بِالنَّارِ وَيَتَحَوَّلُ بُخَاراً، وَيَنْتَقِلُ هٰذَا الْبُخَارُ إِلَىٰ الأَنَابِيْبِ.

وَتَعَالَ مَعِيَ نَدْخُلْ فِي الْقَاطِرَةِ، فَإِنَّ سَائِقَهَا مِنْ أَصْدِقَائِيْ، وَهُنَا تَفْهَمُ تَرْكِيْبَ الْقَاطِرَةِ جَيِّداً.

انْظُرْ إِلَىٰ الأَنَابِيْبِ، إِنَّهَا مُتَّصلَةٌ بِهٰذِهِ الآلَاتِ الدَّقِيْقَةِ الَّتِيْ تُدِيْرُ عَجَلَاتِ الْقَاطِرَةِ، فَإِذَا اجْتَمَعَ هٰذَا الْبُخَارُ فِي الأَنَابِيْبِ دَفَعَ بِقُوَّتِهِ الآلَاتِ فَأَدَارَهَا، وَبِدَوَرَانِهَا تَدُوْرُ الْعَجَلَاتُ، وَتَسِيْرُ الْقَاطِرَةُ.

وَهٰذَا هُوَ الْوَقَّادُ الَّذِيْ يُرَاقِبُ النَّارَ وَالْمَاءَ، وَيُشْرِفُ عَلَيْهِمَا، وَهٰذَا صَدِيْقُنَا السَّائِقُ، وَإِذَا كَانَتِ الْقَاطِرَةُ تَجُرُّ الْقِطَارَ، وَتُوْصِلُ الرُّكَّابَ مِنْ دِيَارٍ إِلَىٰ دِيَارٍ، فَصَاحِبُنَا يَسُوْقُ

الْقَاطِرَةَ، فَهُوَ مِفْتَاحُ الْقِطَارِ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِيْ سَيْرِ الْقِطَارِ، وَهُوَ يَسْهَرُ عَلَىٰ عَمَلِهِ، وَيَقُوْمُ بِوَاجِبِهِ بِأَمَانَةٍ وَجِدٍّ، وَكَذٰلِكَ أَمِيْنُ الْقِطَارِ يَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ مِنَ الرُّكَّابِ، فَإِنَّهُ يُلَاحِظُ الطَّرِيْقَ وَيَلْحَظُ وُقُوْفَ الْقِطَارِ وَسَيْرَهُ، وَالسَّائِقُ وَالْقَاطِرَةُ طَوْعُ إِشَارَتِهِ، فَإِذَا هَزَّ الْبَيْرَقَ[1] الأَحْمَرَ وَقَفَ الْقِطَارُ، وَإِذَا هَزَّ الْبَيْرَقَ الأَخْضَرَ تَحَرَّكَ الْقِطَارُ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ هٰذِهِ الآلَةِ الَّتِيْ فِيْ يَدِ السَّائِقِ هٰذِهِ... فَإِذَا رَفَعَهَا السَّائِقُ إِلَىٰ فَوْقُ، انْدَفَعَ الْبُخَارُ وَسَارَتِ الْقَاطِرَةُ، وَإِذَا ضَغَطَ[2] عَلَيْهَا سَكَنَ الْبُخَارُ وَهَدَأَتِ الْقَاطِرَةُ، حِيْنَئِذٍ يَضْغَطُ السَّائِقُ عَلَىٰ آلَةٍ أُخْرَىٰ، وَهِيَ هٰذِهِ وَتُسَمَّىٰ الْمِصَدَّ، وَتَقِفُ الْقَاطِرَةُ مِنْ سَاعَتِهَا، وَالْعَرَبَاتُ كُلُّهَا مُرَكَّبَةٌ بِالْقَاطِرَةِ تَسِيْرُ بِسَيْرِهَا، وَتَقِفُ بِوُقُوْفِهَا.

وَهٰذَا هُوَ الْخَطُّ الْحَدِيْدِيُّ الَّذِي يَسِيْرُ عَلَيْهِ الْقِطَارُ، وَلَوْلَا هُوَ لَغَاصَ الْقِطَارُ فِي الأَرْضِ؛ لأَنَّ التُّرْبَةَ لَا تَحْمِلُ ثِقْلَ الْقِطَارِ.

هٰذِهِ هِيَ الْقَاطِرَةُ الَّتِيْ تَجُرُّ الْقِطَارَ، وَهٰذَا هُوَ الْقِطَارُ الَّذِيْ

---

(١) البَيْرَق: جمعها: البَيَارِق: العَلَم الكبير.
(٢) ضَغَطَ، يَضْغَطُ ضَغْطاً: عليه (عليها) شَدَّدَ وضَيَّقَ.

يُوْصِلُ الرُّكَّابَ مِنْ دِيَارٍ إِلَىٰ دِيَارٍ، وَيَحْمِلُ أَثْقَالَ النَّاسِ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ يَكُوْنُوْا بَالِغِيْه إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ[1].

انْظُرْ يَا رَشِيْدُ! كَيْفَ أَلْهَمَ اللهُ الإِنْسَانَ الْحِكْمَةَ وَالصِّنَاعَةَ، وَرَزَقَهُ الْعَقْلَ الَّذِيْ يُسَخِّرُ بِهِ الْحَدِيْدَ وَالْبُخَارَ، أَفَلَا يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَقُوْلَ إِذَا رَكِبْتَ الْقِطَارَ:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.



(١) بِشِقِّ الأَنْفُسِ: بالجُهْدِ والمَشَقَّة.



جِسْمُ النَّبَاتِ (١)

كَانَ أَمَامَ بَيْتِ عَبَّاسٍ حَدِيْقَةٌ فِيْهَا أَنْوَاعُ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ، قَالَ لَهُ أَبُوْهُ عُمَرُ مَرَّةً فِيْ يَوْمِ عُطْلَةٍ: هَلْ رَأَيْتَ يَا عَبَّاسُ! حَدِيْقَةَ الدَّارِ؟

قَالَ عَبَّاسٌ: كَيْفَ لَا يَا أَبِيْ! وَهِيَ حَدِيْقَةُ دَارِنَا؟ أَلْعَبُ فِيْهَا كُلَّ يَوْمٍ وأَتَرَدَّدُ[1] إِلَيْهَا صَبَاحَ مَسَاءَ.

قَالَ عُمَرُ: مَا أَظُنُّكَ رَأَيْتَهَا! فَتَعَالَ مَعِي نَتَمَشَّ فِي الْحَدِيْقَةِ وَنَدْرُسُ النَّبَاتَ، فَإِنَّهُ مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِ اللهِ، وَكِتَابٌ يَجِبُ أَنْ تُطَالِعَهُ.

خَرَجَ عُمَرُ وَعَبَّاسُ إِلَىٰ الْحَدِيْقَةِ، فَرَأَىٰ عَبَّاسٌ الْبُسْتَانِيَّ يُصْلِحُ قِطْعَةً مِنَ الأَرْضِ، وَيُنَحِّي[2] الْحَجَرَ وَالْخَزَفَ، وَيَقْلَعُ الْحَشَائِشَ وَالأَعْشَابَ، فَسَأَلَ عَبَّاسٌ أَبَاهُ عَنْ ذٰلِكَ.

---

(١) تَرَدَّدَ يَتَرَدَّدُ: إلىٰ المكان: اختلف إليه.

(٢) نَحّىٰ، يُنَحّي تَنْحِيَة: الشيءَ: أَبْعَدَهُ وأزاله عن مكانه.

قَالَ عُمَرُ: الرَّجُلُ يُصْلِحُ الأَرْضَ وَيُهَيِّئُهَا(١) لِغَرْسِ الأَشْجَارِ، فَإِذَا بَقِيَتِ الأَحْجَارُ وَالْخَزَفُ لَمْ يَثْبُتِ الْفَسِيْلُ(٢) فِي الأَرْضِ، وَلَمْ تَمْتَدَّ جُذُوْرُهُ فِيْ بَاطِنِ(٣) الأَرْضِ، وَإِذَا تُرِكَتْ هٰذِهِ الحَشَائِشُ الشَّيْطَانِيَّةُ امْتَصَّتْ غِذَاءَ الْفَسِيْلِ وَذَوَىٰ الْفَسِيْلُ، وَالْبُسْتَانِيُّ النَّاصِحُ الْمُجْتَهِدُ يَحْرُثُ الأَرْضَ كَمَا يَحْرُثُ الْفَلَّاحُ الْحَقْلَ، وَيُلْقِيْ فَيْهَا السَّمَادَ(٤) وَيَسْقِيْهَا كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّىٰ تُصْبِحَ الأَرْضُ رِخْوَةً(٥) كَرِيْمَةً، تَقْبَلُ كُلَّ مَا يُلْقَىٰ فِيْهَا.

ثُمَّ يَغْرِسُ الْفَسَائِلَ فِيْ مَكَانٍ تَصِلُ إِلَيْهِ الشَّمْسُ كُلَّ يَوْمٍ.

هُنَا قَاطَعَهُ عَبَّاسٌ وَقَالَ: وَهَلْ يَحْتَاجُ النَّبَاتُ أَيْضاً إِلَىٰ الشَّمْسِ؟

قَالَ عُمَرُ: نَعَمْ! يَا عَبَّاسُ! فَالنَّبَاتُ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ وَالْمَاءِ.

وَاسْتَمَرَّ عُمَرُ فِيْ حَدِيْثِهِ: ثُمَّ يَغْرِسُ الْفَسَائِلَ فِيْ صَفٍّ

---

(١) هَيَّأَ، يُهَيِّئُ تَهْيِئَةً: الشيءَ: أعدَّه.
(٢) فَسِيْلَة: جمعها: فَسِيْل وَفَسَائِل: غُصْن يُفْصَل للغرس.
(٣) بَاطِن الأرض: داخل الأرض.
(٤) السَّمَاد: جمعها: الأَسْمِدة: مادة توضع في الأرض لإخصابها.
(٥) رِخْوَة: سهلة ليِّنة.

وَيَتْرُكُ بَيْنَ فَسِيْلَيْنِ فُسْحَةً يُمْكِنُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَمْتَدَّ فِيْهَا، وَلَا يُضَايِقُ بَعْضُهَا بَعْضاً.

وَيَحْسُنُ أَنْ تَكُوْنَ الْفَسَائِلُ أَتْرَاباً فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ، وَإِذَا كَانَتْ ذَاتَ أَزْهَارٍ فَلأَزْهَارِهَا مِيْعَادٌ وَاحِدٌ، لِيَتِمَّ جَمَالُ كُلِّ صَفٍّ مِنْ صُفُوْفِهَا.

وَلَا يَسْتَرِيْحُ الْبُسْتَانِيُّ بَعْدَ ذٰلِكَ، بَلْ يَسْهَرُ عَلَىٰ هٰذِهِ الْفَسَائِلِ، فَلَا يَزَالُ يَسْقِيْهَا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ، وَيَقْلَعُ الْحَشَائِشَ، وَيَعْزِقُ[1] الأَرْضَ حَوْلَها، فَيَجْعَلُ بَاطِنَهَا ظَاهِرَهَا.

هُنَا فَرَغَ الْبُسْتَانِيُّ مِنْ إِصْلَاحِ الأَرْضِ وَذَهَبَ يَنْقُلُ فَسِيْلاً، فَتَبِعَهُ عُمَرُ وَعَبَّاسٌ، وَوَقَفَا بِجَانِبِهِ.



---

(١) عَزَقَ، يَعْزِقُ عَزْقاً: الأَرْضَ: شَقَّها.



جِسْمُ النَّبَاتِ (٢)

حَفَرَ الْبَسْتَانِيُّ الأَرْضَ حَوْلَ الْفَسِيْلِ بِاحْتِرَاسٍ[١]، وكَأَنَّهُ يَخَافُ شَيْئاً، فَسَأَلَ عَبَّاسٌ وَالِدَهُ عَنْ ذٰلِكَ، وَقَالَ: لِمَاذَا يَتَوَانَىٰ[٢] الْبُسْتَانِيُّ فِيْ شُغْلِهِ، وَلَا يُعَجِّلُ؟

قَالَ عُمَرُ: هُوَ يَخَافُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْضَ الْجُذُوْرِ فَيَضُرُّ بِالْفَسِيْلِ، وَرُبَّمَا يَمُوْتُ؛ لأَنَّ الْجُذُوْرَ لَازِمَةٌ لِلشَّجَرَةِ وَبِهَا حَيَاتُهَا.

قَالَ عَبَّاسٌ: وَمَا فَائِدَةُ الْجُذُوْرِ وَمَا شُغْلُهَا حَتَّىٰ لَا تَحْيَا الشَّجَرَةُ بِغَيْرِهَا؟

قَالَ عُمَرُ: النَّبَاتُ إِنَّمَا يَثْبُتُ فِي الأَرْضِ بِالْجُذُوْرِ، فَهِيَ الَّتِيْ تَمْتَصُّ[٣] الْغِذَاءَ مِنَ الأَرْضِ، وَتَبْحَثُ عَنْهُ، أَلَا تَرَاهَا

---

(١) بِاحتِرَاس: بِحِيطة وَحَذَر.

(٢) تَوَانَىٰ، يَتَوانَىٰ تَوانياً: تَأَخَّرَ وأَبْطَأَ.

(٣) امْتَصَّ، يَمْتَصُّ امْتِصَاصاً: الشيءَ: رَشَفَهُ وَشَرِبَهُ مَعَ جَذْب نَفَسٍ.

مُمْتَدَّةً مُتَشَعِّبَةً فِيْ بَاطِنِ الأَرْضِ، كَأَنَّهَا جَوَاسِيْسُ وَعُيُوْنٌ قَدِ انْبَثَّتْ لِعَمَلِهَا.

عَبَّاسٌ: وَمَا هِيَ الأَجْزَاءُ اللَّازِمَةُ لِلنَّبَاتِ غَيْرُ الْجُذُوْرِ؟

قَالَ عُمَرُ: مِنَ الأَعْضَاءِ اللَّازِمَةِ لِلنَّبَاتِ السَّاقُ، وَهُوَ الْجُزْءُ الْبَارِزُ عَلَىٰ الأَرْضِ، وَهُوَ الَّذِيْ يَحْمِلُ الْفُرُوْعَ وَالأَوْرَاقَ، وَيَسِيْلُ فِيه غِذَاءُ الشَّجَرَةِ، وَيَنْتَقِلُ إِلَىٰ أَجْزَائِهَا.

وَالآخَرُ اللَّازِمُ لِلنَّبَاتِ الأَوْرَاقُ، وَبِهَا يَتَنَفَّسُ النَّبَاتُ، وَيَأْخُذُ مِنَ الْهَوَاءِ مَا يُصْلِحُ بِهِ حَيَاتَهُ.

وَهٰذِهِ الثَّلَاثَةُ: الْجُذُوْرُ، وَالسَّاقُ، وَالأَوْرَاقُ، هِيَ أَعْضَاءُ النَّبَاتِ اللَّازِمَةُ لِحَيَاتِهِ وَنَمَائِهِ، وَيَكْفِيْكَ يَا عَبَّاسُ هٰذَا الدَّرْسُ الأَوَّلُ عَنِ النَّبَاتِ.

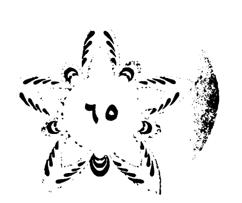
قَالَ عَبَّاسٌ: عَجَباً يَا أَبِيْ! ما كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ النَّبَاتَ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٍ، لَهُ تَرْكِيْبٌ دَقِيْقٌ.

قَالَ عُمَرُ: وَكَذٰلِكَ كُلُّ شَيْءٍ، فَإِذَا دَرَسْتَهُ كَكِتَابٍ تَعَجَّبْتَ مِنْ صُنْعِ اللهِ الَّذِيْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، وَعَرَفْتَ أَنَّ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ آيَةً للهِ، وَفِيْ ذٰلِكَ يَقُوْلُ الشَّاعِرُ:

وَللهِ فِيْ كُلِّ تَحْرِيْكَةٍ ... وَفِيْ كُلِّ تَسْكِيْنَةٍ شَاهِدُ
وَفِيْ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ(١) ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

---

(١) آيَة: جمعها: آيات وآي: عَلَامة.



الْببَّغَاءُ

أَلِفْتُهَا[١] صَبِيْحَةً مَلِيْحَهْ   نَاطِقَةً بَاللُّغَةِ الفَصِيْحَهْ
عُدَّتْ مِنَ الأَطْيَارِ وَاللِّسَانُ   يُوْهِمُنِي[٢] بِأَنَّهَا إِنْسَانُ
تُنْهِيْ[٣] إِلَىٰ صَاحِبِهَا الأَخْبَارَا   وَتَكْشِفُ الأَسْرَارَ وَالأَسْتَارَا
بَكْمَاءُ[٤] إِلَّا أَنَّهَا سَمِيْعَهْ   تُعِيْدُ مَا تَسْمَعُهُ طَبِيْعَهْ
زَارَتْكَ مِنْ بِلَادِهَا الْبَعِيْدَهْ   وَاسْتَوْطَنَتْ عِندَكَ كَالْقَعِيْدَهْ[٥]
ضَيْفٌ قِرَاهُ[٦] الْجوزُ وَالأَرزُّ   وَالضَّيْفُ فِيْ إِتْيَانِهِ يُعَزُّ

---

(١) أَلِفَ، يَأْلِفُ إِلْفاً: الرجلُ فلاناً: أَنِسَ به وأَحَبَّه.
(٢) أَوْهَمَ، يُوْهِمُ إِيْهَاماً: أَوْهَمَ الرجلُ الشيءَ: أَوْقَعَهُ في الوَهْم (والْوَهْمُ ما يقع في الذِّهنِ من الخَاطِرِ).
(٣) أَنْهَىٰ، يُنْهِي إِنْهاءً الشيءَ: أَوْصَلَهُ وَأَبْلَغَهُ.
(٤) بَكْمَاءُ، (مؤنث) أَبْكَمُ (مذكر) جمعها بُكْمٌ: عاجِزٌ عن الكلام، أَخْرَس.
(٥) الْقَعِيْدَة: المُجَالِسَة.
(٦) القِرَىٰ: ما يُقَدَّم إلىٰ الضَّيْفِ من الطَّعام.

تَـرَاهُ فِـيْ مِـنْـقَـارِهِ الـرَّقِـيْـقِ　　كَلُؤْلُوءٍ يَلْقُطُ[1] بِالْعَقِيْقِ[2]
تَنْظُرُ مِنْ طَرْفَيْنِ كَالْفَصَّيْنِ[3]　　فِي النُّوْرِ وَالظُّلْمَةِ بَصَّاصَيْنِ[4]
خَرِيْدَةٌ[5] خُدُوْرُهَا[6] الأَقْفَاصُ　　لَيْسَ لَهَا مِنْ حَبْسِها خَلَاصُ
تَـحْـبِـسُـهَـا وَمَـا لَـهَـا مِـنْ ذَنْـبِ　　وَإِنَّـمَـا ذَاكَ لِـفَـرْطِ الْـحُـبِّ

(أَبُوْ إِسْحاقَ الصَّابِيُّ)



(١) لَقَطَ، يَلْقُطُ لَقْطاً: الشيءَ: أَخَذَهُ مِن الأرض.
(٢) العَقِيْق: حجر كريم أحمر.
(٣) الفَصُّ: جمعها الفُصُوص: مَا يُرَكَّبُ في الخاتَم من الحجارة الكريمة وغيرها.
(٤) بَصَّاصٌ: لامِعٌ وَمُتَلألئ.
(٥) خَرِيْدَةٌ: جمعها: خَرَائِد: لُؤلُؤة لم تُثْقَب.
(٦) خِدْرٌ: جمعها: خُدُوْر: سِتْرٌ يُمَدُّ ليحجب ما وراءه، وستارة.



٦٦ الْحَجَّاجُ وَالْفِتْيَةُ

أَمَرَ الْحَجَّاجُ صَاحِبَ حَرَسِهِ أَنْ يَطُوْفَ لَيْلاً، فَمَنْ رَآهُ بَعْدَ الْعِشَاءِ سَكْرَانَ ضَرَبَ عُنُقَهُ، فَطَافَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِيْ فَوَجَدَ ثَلَاثَةَ فِتْيَانٍ يَتَمَايَلُوْنَ(١)، وَعَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ(٢) السُّكْرِ، فَأَحَاطَتْ بِهِمْ الْغِلْمَانُ وَقَالَ لَهُمْ صَاحِبُ الْحَرَسِ:

مَنْ أَنْتُمْ حَتَّىٰ خَالَفْتُمْ أَمْرَ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ، وَخَرَجْتُمْ فِيْ مِثْلِ هٰذَا الْوَقْتِ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمْ:

أَنَا ابْنُ مَنْ دَانَتِ(٣) الرِّقَابُ لَهُ   مِنْ بَيْنِ مَخْزُوْمِهَا وَهَاشِمِهَا
تَأْتِيْهِ بِالرَّغْمِ وَهِيَ صَاغِرَةٌ(٤)   يَأْخُذُ مِنْ مَالِهَا وَمِنْ دَمِهَا

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ مِنْ أَقَارِبِ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ.

---

(١) تَمَايَلَ، يَتَمَايَلُ تَمَايُلاً: الرجلُ في مشْيَتِهِ: تبَخْتَرَ.

(٢) أَمَارَة: جمعها: أَمَارَات: عَلَامَة.

(٣) دَانَ، يَدِيْنُ ديْناً وَدِيَانَةً: الرجلُ لفلانٍ: خضعَ وذَلَّ.

(٤) صَاغِرَة: رَاضِيَة بالذلِّ والهَوَانِ.

ثُمَّ قَالَ لِلآخَرِ: وَأَنْتَ مَنْ تَكُوْنُ؟ فَقَالَ:

أَنَا ابْنُ مَنْ لا تَنْزِلُ الدَّهْرَ قِدْرُهُ   وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْماً فَسَوْفَ تَعُوْدُ

تَرَىٰ النَّاسَ أَفْوَاجاً إِلىٰ ضَوْءِ نَارِهِ   فَمِنْهُمْ قِيَامٌ حَوْلَهَا وَقُعُودُ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ ابْنُ أَشرَفِ الْعَرَبِ.

ثُمَّ قَالَ لِلآخَرِ: وَأَنْتَ مَنْ تَكُوْنُ؟ فَأَنْشَدَ قَائِلاً:

أَنَا ابْنُ مَنْ خَاضَ[١] الصُّفُوْفَ بِعَزْمِهِ   وقَوَّمَهَا[٢] بِالسَّيْفِ حَتَّىٰ اسْتَقَامَتِ

رِكَابَاهُ لَا تَنْفَكُّ رِجْلَاهُ مِنْهُمَا   إِذَا الْخَيْلُ فِيْ يَوْمِ الْكَرِيْهَةِ وَلَّتِ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْجَعِ الْعَرَبِ، وَاحْتَفَظَ بِهِمْ.

فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ رَفَعَ أَمْرَهُمْ إِلَىٰ الأَمِيْرِ، فَأَحْضَرَهُمْ وَكَشَفَ عَنْ حَالِهِمْ، فَإِذَا الأَوَّلُ ابْنُ حَجَّام، وَالثَّانِي ابْنُ خُضَرِيٍّ، وَالثَّالِثُ ابْنُ حَائِكٍ[٣]، فَتَعَجَّبَ مِنْ فَصَاحَتِهِمْ، وَقَالَ لِجُلَسَائِهِ: عَلِّمُوْا أَوْلَادَكُمْ الأَدَبَ، فَوَاللهِ لَوْلَا فَصَاحَتُهُمْ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ.

---

(١) خَاضَ، يَخُوْضُ خَوْضاً: الرجلُ الصُّفوفَ: دَخلهَا وَمَشَىٰ فِيْها.

(٢) قَوَّمَ، يُقَوِّمُ تَقْوِيماً: الرجلُ الصُّفوفَ: سَوَّاها وَعَدَّلها.

(٣) حائك: جمعها: حائكين: ناسِجٌ (مَنْ حرفته الحِيَاكة).



أنَا تُرَابٌ

أنَا تُرَابٌ حَقِيْرٌ يَطَؤنِي(١) النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ وَنِعَالِهِمْ، وَيَضْرِبُوْنَ بِيْ مَثَلاً فِي الْحقَارَةِ والذُّلِّ.

النَّاسُ يَنْتَفِعُوْنَ بِيْ فِيْ كُلِّ سَاعَةٍ، وَفِيْ كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ، ثُمَّ يَحْتَقِرُوْنَنِيْ وَيَهْجُوْنَنِيْ(٢) كَالشَّعِيْرِ يُؤْكَلُ وَيُذَمُّ.

فَفِيْ مَنَاكِبِيْ يَمْشِي النَّاسُ، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ يَبْنُوْنَ بُيُوْتاً وَمَبَانِيَ عَظِيْمَةً، وَمِنْ بَطْنِيْ تَخْرُجُ لِلنَّاسِ حُبُوْبٌ يَأْكُلُهَا النَّاسُ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُوْنُ والرُّمَّانُ، وَالنَّخْلُ وَالزَّرْعُ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ.

وَمِنْ بَطْنِيْ يَخْرُجُ ذٰلِكَ الْقُطْنُ الَّذِيْ بِهِ لِبَاسُكُمْ وَكِسْوَتُكُمْ فِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، وَسَرَابِيْلُ(٣) تَقِيْكُمُ(٤) الْحَرَّ.

---

(١) وَطِئَ، يَطَأُ وَطْئاً: الرجلُ الشيءَ برِجله: دَاسَهُ.

(٢) هَجَا، يَهْجُوْ هَجْواً وَهِجَاءً: الرجلُ فلاناً: عَدَّدَ معايبه وذَمَّه.

(٣) سِرْبَالٌ: جمعها: سَرَابِيْل: كُلُّ مَا يُلبسُ مِن قميص أو دِرْعٍ ونحوهما.

(٤) وَقَىٰ، يَقِي وِقَايَةً: (وَقَاهُ السِّرْبَالُ الحَرَّ: صَانَهُ وَحَمَاه من الحرِّ).

وَفِيْ لِبَاسِ الْحَرِيْرِ أَيْضاً يَرْجِعُ إِلَيَّ الْفَضْلُ[١] فَإِنَّ دُوْدَةَ الْقَزِّ[٢] تَتَغَذَّىٰ مِنْ وَرَقِ التُّوْتِ، وَمِنِّي تَتَغَذَّىٰ شَجَرَةُ التُّوْتِ، وَعَلَيَّ تَنْمُوْ وَتَعِيْشُ، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ تَحْفِرُوْنَ الْبِئْرَ الَّتِيْ تَشْرَبُوْنَ مَاءَهَا، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ تَجْرِيْ الأَنْهَارُ الَّتِيْ تَسْقِيْكُمْ، وَتَسْقِيْ زُرُوْعَكُمْ.

وَمِنَ الطِّيْنِ يَبْنِي الْفَخَّارِيُّ الأَوَانِيَ وَالظُّرُوْفَ، الَّتِيْ تَأْكُلُوْنَ فِيْهَا وَتَشْرَبُوْنَ، وَاللُّعَبَ وَالدُّمَىٰ[٣] الَّتِيْ يَلْعَبُ بِهَا الأَطْفَالُ.

وَهَلْ تُصَدِّقُوْنَ إِذَا أَخْبَرْتُكُمْ بِأَنِّيَ مَادَّةُ هٰذَا الْكِتَابِ الَّذِيْ تَقْرَؤُوْنَهُ، وَمَادَّةُ كُلِّ كِتَابٍ وَصَحِيْفَةٍ، فَإِنَّ مَادَّةَ الْوَرَقِ الْحَشِيْشُ الَّذِيْ يَنْبُتُ فِي الأَرْضِ، فَلِيَ مِنَّةٌ عَلَىٰ كُلِّ عَالِمٍ وَطَالِبٍ، وَلِيَ مِنَّةٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ عَلَيْهِ مِنَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ.

وَمِنْ بَطْنِيْ يَخْرُجُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيْدُ، الَّذِيْ فِيْهِ بَأْسٌ شَدِيْدٌ[٤] وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَالزَّيْتُ الَّذِيْ يُضِيءُ، وَالْفَحْمُ الْحَجَرِيُّ الَّذِيْ تَسِيْرُ بِهِ الْقَاطِرَةُ، وَالْبِتْرَوْلُ الَّذِيْ تَسِيْرُ بِهِ السَّيَّارَاتُ وَالطَّائِرَاتُ.

---

(١) يَرْجِعُ إِليَّ الفَضْلُ: يعود.

(٢) القَزُّ: حريرٌ طبيعي يَخْرُجُ من دود الحريرِ.

(٣) دُمْيَة: جمعها: دُمىً: تِمثال صغير.

(٤) بَأْسٌ شديد: قوَّة شديدة.

إِنَّكُمْ تُفْسِدُوْنَ أَطْيَبَ الأَشْيَاءِ، فَكُلُّ مَا تَلَبَّسَ بِكُمْ فَسَدَتْ رَائِحَتُهُ، وَذَهَبَتْ نَضَارَتُهُ[١]، وَأَنَا أُعِيْدُهُ غَضّاً طَرِيّاً[٢]، وَبِهٰذَا السَّمَادِ الَّذِيْ تُلْقُوْنَهُ فِي الْحُقُوْلِ وَالْفَسَائِلِ أُنْبِتُ لَكُمْ حَبّاً صَحِيْحاً، وَفَاكِهَةً لَذِيْذَةً، وَزُهُوْراً جَمِيْلَةً.

أَنَا أَمِيْنُ أَجْسَادِ الأَنْبِيَاءِ، أَنَا مَرْقَدُ[٣] الشُّهَدَاء، أَنَا مُسْتَوْدَعُ الأَوْلِيَاءِ، أَنَا مَضْجَعُ الْعُلَمَاءِ وَالصُّلَحَاءِ، أَنَا مَدْفَنُ الأُمَّهَاتِ وَالآبَاءِ، فَلَا تَمْشُوْا عَلَيَّ مَرَحاً، وَاذْكُرُوْا قَوْلَ صَاحِبِكُمْ:

خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيْمَ الـ أرضِ إِلَّا مِنْ هٰذِهِ الأَجْسَادِ
وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِنْ قَدُمَ الْعَهْـ ـدُ هَوَانُ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ
سِرْ إِنِ اسْتَطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُوَيْداً[٤] لا اخْتِيَالاً[٥] عَلَىٰ رُفَاتِ[٦] الْعِبَادِ



(١) نَضَارة وَنَضَارٌ: الخالِص مِنْ كلِّ شيءٍ.
(٢) غَضّاً طَرِيّاً: نَاعِماً.
(٣) مَرْقَدٌ: جمعها: مرَاقِد: قَبْرٌ.
(٤) رُوَيْداً: مَهْلاً أو أَمْهِلْ.
(٥) لا اخْتِيَالاً: لا تكبُّراً وتمايلاً في المشي.
(٦) رُفاتٌ: حُطَام وَفُتَاتٌ مِن كل ما تكسر واندق.

٦٨

مَحْمُوْد بْنُ مُحَمَّدٍ الْغُجْرَاتِي

السُّلْطَانُ الْعَادِلُ الْمُجَاهِدُ، أَبُوْ الْفَتْحِ سَيْفُ الدِّيْنِ مَحْمُوْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْغُجْرَاتِيُّ، كَانَ مِنْ خِيَارِ[١] السَّلَاطِيْنِ، وُلِدَ بِغُجْرَاتَ[٢] فِيْ عَاشِرِ رَمَضَانَ سنة (٨٤٩هـ)، وَقَامَ بِالْمُلْكِ بَعْدَ دَاوُدَ شَاهْ سنة (٨٦٢هـ) وَكَانَ يَوْماً مَشْهُوْداً.

اسْتَقَلَّ بِالْمُلْكِ خَمْساً وَخَمْسِيْنِ سَنَةً، وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ الْجِهَادِ، وَوَسَّعَ حُدُوْدَ مُلْكِهِ إِلَىٰ مَالْوَهْ[٣]، وَإِلَىٰ بِلَادِ السِّنْدِ، وَلٰكِنَّهُ فِيْ تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيْلَةِ لَمْ يَطْمَحْ إِلَىٰ بِلَادِ الْمُسْلِمِيْنَ وَلَمْ يَسْتَشْرِفْ[٤] لَهَا، وَإِذَا اسْتَوْلَىٰ الْقَوِيُّ مِنْهُمْ عَلَىٰ الضَّعِيْفِ قَامَ

---

(١) خَيْر: جمعها: خِيَار: حَسَن لذاته أو ما يحققه من نفع أو سعادة.

(٢) غجرات: ولاية تقع في شمال غربي الهند قرب البحر العربي، كانت مركزاً فنياً هاماً في القرون الوسطىٰ.

(٣) مَالْوَهْ: ولاية قديمة تقع الآن في ولاية مامدهيابرديش في الهند، كانت مركزاً ثقافياً كبيراً في القرن العاشر الميلادي.

(٤) اسْتَشْرَفَ يَسْتَشرِف: الرَّجلُ الشيءَ: رَفَعَ بَصَرَهُ يَنْظر إليه.

بِنُصْرَةِ الضَّعِيْفِ، وَكَانَ قَائِماً بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، يُنَفِّذُ أَمْرَ الشَّرْعِ فِي السِّيَاسَةِ، وَيُمْضِيْ حُكْمَ الْقِصَاصِ، وَلَا يَمْنَعُ كَوْنُ أَحَدٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُلْكِ الْخَاصَّةِ بِهِ أَلَّا يَعْمَلَ بِالشَّرِيْعَةِ.

وَمِنْ مَكَارِمِهِ(١) قِيَامُهُ بِتَعْمِيْرِ الْبِلَادِ وَتَأْسِيْسِ الْمَسَاجِدِ، وَالْمَدَارِسِ وَالزَّوَايَا، وَتَكْثِيْرِ الزِّرَاعَةِ وَغَرْسِ الأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ، وَبِنَاءِ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِيْنِ، وَتَحْرِيْضِ النَّاسِ عَلَىٰ ذٰلِكَ، وَإِعَانَتِهِمْ بِحَفْرِ الآبَارِ وَإِجْرَاءِ الْعُيُوْنِ، وَلِذٰلِكَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ إِقْبالاً كُلِّيّاً(٢)، وَوَفَدَ عَلَيْهِ الْبَنَّاؤوْنَ وَالْمُهَنْدِسُوْنَ وَأَهْلُ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْ بِلَادِ الْعَجَمِ، فَقَامُوْا بِحِرَفِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ، فَصَارَتْ غُجْرَاتُ رِيَاضاً(٣) مُخْضَرَّةً بِكَثْرَةِ الْحِيَاضِ وَالآبَارِ، وَالْحَدَائِقِ وَالزُّرُوْعِ وَالْفَوَاكِهِ الطَّيِّبَةِ، وَصَارَتْ بِلادُ كُجْرَاتَ مَتْجَرَةً تُجْلَبُ مِنْهَا الثِّيَابُ الرَّفِيْعَةُ إِلَىٰ بِلَادٍ أُخْرَىٰ، وَذٰلِكَ كُلُّهُ بِمَيْلِ سُلْطَانِهَا مَحْمُوْدٍ شَاهُ إِلَىٰ مَا يَصْلُحُ بِهِ الْمُلْكُ وَالدَّوْلَةُ، وَيَتَرَفَّهُ بِهِ رَعَايَاهُ.

وَمِنْ مَكَارِمِهِ قِيَامُهُ بِتَرْبِيَةِ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ لِمَا كَانَ مَجْبُوْلاً عَلَىٰ حُبِّ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ، فَاجْتَمَعَ فِيْ حَضْرَتِهِ خَلْقٌ كَثِيْرٌ مِنْ أَفَاضِلِ الْعَرَبِ، حَتَّىٰ صَارَتْ بِلَادُ كُجْرَاتَ عَامِرَةً آهِلَةً

---

(١) مَكْرِمَة: جمعها: مَكَارِم: فعل الخَيْر.

(٢) إِقْبالاً كلياً: إقبالاً تاماً.

(٣) رَوْضَة: جمعها: رِيَاض وَرَوْضات: أرض ذات خضرة وماء.

بِالْعُلَمَاءِ، وَوَفَدَ عَلَيْهِ الْمُحَدِّثُوْنَ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ، وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَىٰ الْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ، فَتَشَابَهَتْ غُجْرَاتُ بِالْيمنِ الْمَيْمُوْنِ، وَفَاقَتْ سَائِرَ بِلَادِ الْهِنْدِ فِيْ ذٰلِكَ.

وَكَانَ غَايَةً فِي الْعِفَّةِ وَالْحَيَاءِ، حَسَنَ الأَخْلَاقِ، عَظِيْمَ الْهِمَّةِ، كَرِيْمَ السَّجِيَّةِ، شَرِيْفَ النَّفْسِ، كَثِيْرَ الْبِرِّ وَالإِحْسَانِ، أَطَالَ الْمُؤَرِّخُوْنَ فِيْ مَنَاقِبِهِ وَفَضَائِلِهِ.

فِيْ سنة (٩١٦هـ) تَوَجَّهَ إِلَىٰ نَهْرِ وَالَهْ بَتَنْ[١]، وَزَارَ أَئِمَّةَ الدِّيْنِ بِهَا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً، وَعَقَدَ مَجْلِساً خَاصّاً لِمُذَاكَرَةِ التَّفْسِيْرِ وَالْحَدِيْثِ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْجَوَائِزِ، وَأَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْوَظَائِفِ، وَالْتَمَسَ الدُّعَاءَ، وَكَانَ أَنْشَأَ مَضْجَعَهُ فِيْ جِوَارِ قَبْرِ مَوْلَانَا الشَّيْخِ أَحْمَدَ فِيْ سَرْكَهِيْجَ[٢]، يَتَعَهَّدُهُ أَحْيَاناً، وَقَبْلَ وَفَاتِهِ بِأَيَّام فَتَحَ الْقَبْرَ وَجَلَسَ عِنْدَهُ وَقَالَ: اللهم إِنَّ هٰذَا أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَسَهِّلْهُ وَاجْعَلْهُ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ مَلأَهُ فِضَّةً وَتَصَدَّقَ بِهَا.

وَكَانَتْ وَفَاتُهُ عَصْرَ يَوْم الإِثْنَيْنِ ثَانِيَ شَهْرِ رَمَضَانَ سنة (٩١٧هـ)، وَلَهُ تِسْعٌ وَسِتُّوْنَ سَنَةً، وَمُدَّةُ سَلْطَنَتِهِ خَمْسٌ وَخَمْسُوْنَ سَنَةً.

(الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)

للعلامة عبد الحي الحسني رَحِمَهُ ٱللَّهُ

---

(١) إحدىٰ مدن ولاية غُجْرَات.

(٢) إحدىٰ مدن ولاية غُجْرَات.



الْبَاخِرَةُ (١)

كَانَ النَّاسُ فِيْ قَدِيْمِ الزَّمَانِ يُسَافِرُوْنَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ عَلَىٰ الإِبِلِ وَالْبِغَالِ، وَعَجَلَاتِ الْخَيْلِ وَعَجَلَاتِ الثِّيْرَانِ، فَتَرَاهَا غَادِيَةً رَائِحَةً[1] عَلَىٰ الطُّرُقَاتِ وَالشَّوَارِعِ تَحْمِلُ الرُّكَّابِ وَالْبَضَائِعَ.

وَكَانَ النَّاسُ يَخَافُوْنَ السَّفَرَ فِيْ الْبِحَارِ وَيَتَحَامَوْنَهُ[2]، وَلٰكِنْ أَلْجَأَتْهُمُ الضَّرُوْرَةُ إِلَىٰ السَّفَرِ فِيْهَا؛ لأَنَّهُ يَحْمِلُ الأَثْقَالَ الْعَظِيْمَةَ وَلَا يُكَلِّفُ نَفَقَةً، فَوَصَلُوْا الأَنْهَارَ وَالْبُحَيْرَاتِ بِالتُّرَعِ، وَصَارُوْا يُسَافِرُوْنَ فِيْهَا عَلَىٰ السُّفُنِ الشِّرَاعِيَّةِ، وَيَنْقُلُوْنَ بَضَائِعَهُمُ التِّجَارِيَّةَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ بَعِيْدٍ.

وَكَانَتْ هٰذِهِ السُّفُنُ الشِّرَاعِيَّةُ تَسِيْرُ ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ فِيْ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَتْ هٰذِهِ السُّفُنُ تَحْتَ حُكْمِ الرِّيَاحِ، فَإِنْ وَافَقَتْ

---

(١) غاديةً ورائحةً: ذاهبةً وآيبةً.

(٢) تَحامَىٰ، يَتَحَامَىٰ تَحَامِياً: الرجلُ شيئاً: تَجَنَّبه.

وَصَلَتِ السَّفِيْنَةُ فِيْ وَقْتٍ قَرِيبٍ، وَإِنْ عَارَضَتْ وَقَفَتْ أَسَابِيْعَ وَشُهُوْراً، وَإِنْ عَانَدَتْ(١) صَدَمَتْهَا بِصَخْرَةٍ فَكَسَرَتْهَا، أَوْ قَلَبَتْهَا، وَهَلَكَ الرُّكَّابُ وَغَرِقَتِ الْبَضَائِعُ، وَكَانَ هٰذَا يَقَعُ كَثِيراً حَتّٰى ذَهَبَ مَثَلاً، وَقَال الشَّاعِرُ:

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنّٰى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ   تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِيْ السُّفُنُ

وَكَانَ السَّفَرُ خَطِراً لا يَدْرِيْ الإِنْسَانُ أَيَصِلُ إِلَى الْمَنْزِلِ أَمْ يَمُوْتُ فِي الطَّرِيْقِ، فَكَانَ الْوَاحِدُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ فِيْ سَفِيْنَةٍ شِرَاعِيَّةٍ أَوْصَىٰ أَقَارِبَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ بِدُيُوْنِهِ وَبِمَا عَلَيْهِ، وَكَانَ الإِنْسَانُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَقُوْلَ: إِنَّهُ يَصِلُ فِيْ شَهْرٍ أَوْ عَامٍ، فَإِنَّهُ يُسَافِرُ فِيْ ظُلُمَاتِ الْبَحْرِ، وَكَانَ دُوْداً عَلَى عُوْدٍ، لَا يَدْرِيْ أَيَمُوْتُ فِي الطَّرِيْقِ أَمْ يَصِلُ سَالِماً وَيَعُوْدُ.

وَكَانَ النَّاسُ رَغْمَ ذٰلِكَ كُلِّهِ يُخَاطِرُوْنَ(٢) بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَكَانَ الْمُسْلِمُوْنَ يُسَافِرُوْنَ لِلْحَجِّ مِنْ كُلِّ بِلَادٍ، وَلَا يَمْنَعُهُمْ خَطَرٌ أَوْ خَوْفٌ مِنَ السَّفَرِ إِلَى بَيْتِ اللهِ، وَأَدَاءِ فَرِيْضَةِ الْحَجِّ، فَكَانَ الْمُسْلِمُوْنَ من الْهِنْدِ، وَالصِّيْنِ، وَجَزَائِرِ بَحْرِ الْهِنْدِ، وَكَذٰلِكَ مِنْ مَرَّاكِشَ وَبِلَادِ الأَنْدَلُسِ يُسَافِرُوْنَ كُلَّ عَامٍ لِلْحَجِّ، وَقَدْ يَسْتَغْرِقُ سَفَرُهُمْ عاماً كَامِلاً أَوْ أَكْثَرَ.

---

(١) عَانَدَ، يُعَانِدُ مُعَانَدةً: عَارَضَ.

(٢) خاطَرَ، يُخَاطِرُ مُخَاطرةً: الرجلُ بنفسِه عَرَّضَها للهلاك.

وَكَانَ الْجَوَّابُوْنَ(١) يَسِيْحُوْنَ فِي الأَرْضِ، وَيَرْكَبُوْنَ الْبَحْرَ مِنَ الْمَغْرِبِ الأَقْصَىٰ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ الأَقْصَىٰ، وَكَانَ الْعَالَمُ الإِسْلَامِيُّ كَبَيْتٍ وَاحِدٍ، وَالْمُسْلِمُوْنَ كَأُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ، يَنَالُ الْجَوَّابُ فِي السَّفَرِ كُلَّ مَا يَجِدُهُ فِي الْوَطَنِ.

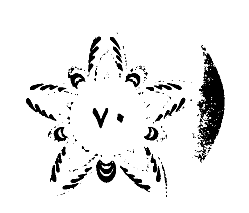
أَهْلاً بِأَهْلٍ وَجِيْرَاناً بِجِيْرَانٍ.

وَقَدْ سَافَرَ ابْنُ بَطُّوْطَةَ الْمَغْرِبِيُّ، وَابْنُ جُبَيْرٍ الأَنْدلُسِيُّ، وَسُلَيْمَانُ التَّاجِرُ، إِلَىٰ مُعْظَمِ الْمَعْمُوْرَةِ بِهٰذِهِ السُّفُنِ.



---

(١) **الجوَّاب**: جمعها: الجوَّابين: السَّيَّاح.



الْبَاخِرَةُ (٢)

مَضَىٰ عَلَىٰ ذٰلِكَ قُرُوْنٌ، ثُمَّ بَدَأَ النَّاسُ يُفَكِّرُوْنَ وَيَخْتَرِعُوْنَ حَتَّىٰ تَوَصَّلُوْا إِلَىٰ سَفِيْنَةٍ تَسِيْرُ بِالْبُخَارِ، وَكَانَ ذٰلِكَ بِالتَّدْرِيْجِ[1]، وَفِيْ عِدَّةِ قُرُوْنٍ.

كَانَتِ السُّفُنُ الشِّرَاعِيَّةُ تَسِيْرُ بِالْمَجَادِيْفِ[2]، وَتَقَدَّمَ بَعْضُ الأَذْكِيَاءِ فَرَكَّبَ فِيْ سَفِيْنَةٍ عَجَلَةً رَبَطَ بِهَا الْمَجَادِيْفَ، فَإِذَا دَارَتِ الْعَجَلَةُ بَدَأَتِ الْمَجَادِيْفُ تَعْمَلُ وَتَمْخُرُ[3] الْمَاءَ.

ثُمَّ اهْتَدَىٰ بَعْضُ الأَذْكِيَاءِ إِلَىٰ إِدَارَةِ الْعَجَلَةِ بِالْبُخَارِ، وَالاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْيَدِ الْعَامِلَةِ، وَلَمْ تَزَلِ الصِّنَاعَةُ تَرْتَقِيْ، حَتَّىٰ

---

(١) بالتدريْجِ: قليلاً قليلاً.

(٢) مِجْدَاف: جمعها: مَجَادِيْف: خشبة في رأسها لَوْحٌ عريض تُسيّر بها القوارب.

(٣) مَخَرَ، يَمْخُرُ مَخْراً: مَخرتِ السفينةُ: جرتْ تَشُقُّ الماءَ.



ظَهَرَتْ أَوَّلُ سَفِيْنَةٍ بُخَارِيَّةٍ، صَنَعَهَا رَجُلٌ أَمْرِيْكِيٌّ اسْمُهُ «هِلْتَنْ كِلَرْ مَا وُنْت» قَطَعَتْ مِئَةَ مِيْلٍ فِيْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِيْنَ سَاعَةً.

وَلَمْ تَزَلِ السُّفُنُ الْبُخَارِيَّةُ تَتَقَدَّمُ فِي السُّرْعَةِ وَالْقُوَّةِ، حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ تَعْبُرُ الْبَحْرَ الأَطْلَانْتِيْكِيَّ بَيْنَ إِنْكِلْتَرَةَ وَأَمْرِيْكَةَ فِيْ خَمْسَةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ السَّفَرُ فِيْ هٰذَا الْبَحْرِ يَأْخُذُ شَهْرَيْنِ.

وَالْبَاخِرَةُ كَالْقَاطِرَةِ تَسِيْرُ بِقُوَّةِ الْبُخَارِ، فَإِنَّهُ يُدِيْرُ الْعَجلَةَ، وَالْعَجَلَةُ مُتَّصلَةٌ بِآلَاتٍ تَتَحَرَّكُ الْبَاخِرَةُ بِدَوَرَانِهَا وَتَسِيْرُ.

وَكَذٰلِكَ هُنَالِكَ آلَاتٌ تُوَجِّهُ الْبَاخِرَةَ مِنْ جِهَةٍ إِلَىٰ جِهَةٍ، وَتُسَخِّرُهَا لِلرُّبَّانِ يَسِيْرُ بِهَا كَيْفَ يَشَاءُ.

وَقَدْ تَقَدَّمَتِ التِّجَارَةُ تَقَدُّماً عَظِيْماً، وَأَصْبَحَ النَّاسُ يُسَافِرُوْنَ فِي الْبَحْرِ عَلَىٰ مَتْنِ[1] الْبَاخِرَةِ كَأَنَّهُمْ يُسَافِرُوْنَ فِي الْبَرِّ عَلَىٰ الْقِطَارِ، أَوْ مُطْمَئِنُّوْنَ فِي الْبَلَدِ وَجَالِسُوْنَ فِي الدَّارِ.

وَكَبُرَتِ الْمَرَاكِبُ وَتَوَسَّعَتْ، حَتَّىٰ كَأَنَّهَا حَارَةٌ مِنْ حَارَاتِ الْبَلَدِ، أَوْ قَرْيَةٌ صَغِيْرَةٌ، فِيْهَا الْمَطْعَمُ وَالْمَلْعَبُ وَمُنْتَزَهَاتٌ، وَتَحْمِلُ مِنَ الرُّكَّابِ مِنْ خَمْسِمَئَةٍ إِلَىٰ أَلْفٍ.

وَإِذَا رَأَىٰ الإِنْسَانُ السُّفُنَ الشِّرَاعِيَّةَ وَالْمَرَاكِبَ الْبُخَارِيَّةَ

---

(١) علىٰ مَتْن الباخرة: علىٰ ظَهْر الباخرة.

تَجْرِيْ فِي الْبَحْرِ رُخَاءً[1] تَعَجَّبَ، وَرَأَىٰ تَصْدِيْقَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾.



(١) رُخَاءً: لينة دون تحرُّكٍ.



جِسْمُ الطُّيُوْرِ

إِنَّ اللهَ وَهَبَ لِكُلِّ حَيَوَانٍ صَغِيْرٍ وَكَبِيْرٍ جِسْماً لَائِقاً، وَأَعْضَاءً يَسْتَعِيْنُ بِهَا عَلَىٰ قَضَاءِ حَوَائِجِهِ، وَتَحْصِيْلِ قُوْتِهِ، وَسِلَاحاً يُدَافِعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، فَهُوَ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ.

انْظُرُوا إِلَىٰ الْفِيْلِ كَيْفَ مَدَّ اللهُ فِيْ أَنْفِهِ لِيَسْتَخْدِمَهُ فِيْ حَوَائِجِهِ، وَيَتَنَاوَلَ بِهِ الطَّعَامَ وَالْمَاءَ، وَيُوَجِّهَهُ حَيْثُ شَاءَ، وَفِيْ طَرَفِهِ زَائِدَةٌ يَلْتَقِطُ[١] بِهَا الأَشْيَاءَ الدَّقِيْقَةَ، وَقَدْ قَرَأْتُم أَنَّ الْجَمَلَ رَقَبَتُهُ، طَوِيْلَةٌ، لأَنَّهُ كَبِيْرُ الْجِسْم، طَوِيْلُ الأَرْجُلِ، فَلَوْ كَانَتْ رَقَبَتُهُ قَصيْرَةً لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَرْعَىٰ الْكَلأَ مِنَ الأَرْضِ حَتَّىٰ يَبْرُكَ، وَفِيْ ذٰلِكَ تَعَبٌ عَظِيْمٌ، وَشُغْلٌ كَثِيْرٌ، فَمَدَّ اللهُ فِيْ عُنُقِهِ، وَرَأْسُهُ صَغِيْرٌ، فَكَانَ خَفِيْفَ الْحَمْلِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، وَلَمَّا قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُوْنَ

---

(١) الْتَقَط، يَلْتَقِطُ الْتِقَاطاً: أَخَذ.

الْجَمَلُ سَفِيْنَةَ الصَّحْرَاءِ جَعَلَ أَرْجُلَهَا مُنَاسِبَةً لَذٰلِكَ، فَلَا تَسُوْخُ[١] فِي الرِّمَالِ وَخَلَق فِيْ جَوْفِهِ كُرُوْشاً وَأَزْقَاقاً يُخزِّنُ فِيْهَا الْغِذَاءَ وَالْمَاءَ؛ لأَنَّ السَّفرَ فِيْ الصَّحْرَاءِ يَحْتَاجُ إِلىٰ ذٰلِكَ كَثِيْراً.

انْظُرُوا إِلَىٰ الْقَنْغَرِ وَالأَرْنَبِ، تَرَوا رِجْلَيْهِمَا الْخَلْفِيَّتَيْنِ طَوْيْلَتَيْنِ وَكَبِيْرَتَيْنِ، وَرِجْلَيْهِمَا الأَمَامِيَّتَيْنِ صَغِيْرَتَيْنِ وَقَصِيرَتَيْنِ، لِيُمْكِنَهُمَا الْجَرْيُ قَفْزاً، وَفِيْ قَدَمَيْ الرِّجْلَيْنِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ لِلْقَنْغَرِ ظِلْفٌ[٢] حَادٌّ جِداً، هَوْ سِلَاحُهُ يَبْقُرُ بِهِ بَطْنَ عَدُوِّهِ بِطَعْنَةٍ وَاحِدَةٍ.

كَذٰلِكَ الطُّيُوْرُ، فَفِي جِسْمِهَا وَخِلْقَتِهَا آيَاتُ اللهِ، فَقَدْ كَسَا اللهُ جِسْمَهَا بِالرِّيْشِ؛ لأَنَّهُ أَخفُّ لِلطَّيَرَانِ، وَجَعَلَ عِظَامَ الطَّائِرِ رَقِيْقَةً جَوْفَاءَ، فَلَا يَعُوْقهُ[٣] ثِقْلُ رِيْشٍ أَوْ جِسْمٍ عَنِ الطَّيَرَانِ.

ثُمَّ وَهَبَ أَنْوَاعَ الطُّيُوْرِ أَنْوَاعاً مِنَ الْمَنَاقِيْرِ، تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبِيْعَةِ الطَّيْرِ وَغِذَائِهِ وَعَادَاتِهِ، وَكذٰلِكَ يَخْتَلِفُ تَرْكِيْبُ أَقْدَامِهِ.

انْظُرْ إِلَىٰ الْعَصَافِيْرِ وَالْحَمَام، وَالْيَمَامِ وَالْغِرْبَانِ، لَيْسَتْ أَجْسَامُهَا عَالِيَةً، وَأَنَّهَا تَلْقُطُ حَبّاً صَغِيْراً مِنَ الأَرْضِ، فَلَمْ تَكُنْ

---

(١) سَاخَ، يَسُوْخُ سَوْخاً الرِّجْلُ في الأرض أو الرمل: غَاصَتْ ودخلت.
(٢) الظِّلْفُ: ج أظْلَاف: الظُّفُر.
(٣) عَاقَ، يَعُوْقُ عوقاً: عن الشيء: مَنَعَهُ (فَلَا يَعُوْقُه: فَلا يمنعه).

فِيْ حَاجَةٍ إِلَىٰ طُوْلِ الأَعْنَاقِ، وَمَنَاقِيْرُهَا مُسْتَقِيْمَةٌ وَقَصِيْرَةٌ تُعِيْنُهَا فِيْ حَاجَاتِهَا.

انْظُرْ إِلَىٰ الطُّيُوْرِ الَّتِيْ تَعِيْشُ فِيْ الْمَاءِ، وَتَبْحَثُ عَنْ قُوْتِهَا فِي الْمَاءِ كَالْبَطِّ وَاللَّقْلَق، تَرَ أَعْنَاقَهَا وَمَنَاقِيْرَهَا طَوِيْلَةً؛ لأَنَّهَا تُرْسِلُ مَنَاقِيْرَهَا فِيْ أَعْمَاقِ الأَنْهَارِ وَالْبِرَكِ، وَتَسْتَخْرِجُ قُوْتَهَا مِنْ أَحْشَائِهَا، فَخَلَقَ اللهُ لَهَا أَعْنَاقاً طَوِيْلَةً، وَمَنَاقِيْرَ مُسْتَقِيْمَةً وَطَوِيْلَةً كَذٰلِكَ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ الطُّيُوْرِ الَّتِي تَقْتَاتُ[١] بِاللَّحْمِ وَالْفَاكِهَةِ وَتَأْكُلُهَا نَهْشاً[٢]، كَالْحِدَاءِ والنُّسُوْرِ وَالصُّقُوْرِ لَا تَجِدُ مَنَاقِيْرَهَا مُسْتَقِيْمَةً؛ لأَنَّهَا لَا تُغْنِي عَنْهَا، وَلَا تَقْضِيْ حَاجَتَهَا، فَخَلَقَ اللهُ لَهَا مَنَاقِيْرَ مُتَقَوِّسَةً[٣] حَادَّةَ الطَّرْفِ، وَيَكُوْنُ طَرْفُهَا الأَعْلَىٰ مُتَقَدِّماً مُتَقَوِّساً، فَيُعِيْنُهَا فِيْ نَهْشِ اللُّحُوْمِ وَقَرْضِ الْفَوَاكِهِ وَفِيْ الْعَضِّ عَلَيْهَا.

كَذٰلِكَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ أَرْجُلِ الطُّيُوْرِ وَمَخَالِبِهَا، رَأَيْنَا بَيْنَهَا فَرْقاً بِحَسْبِ أَنْوَاعِ الطُّيُوْرِ وَطَبَائِعِهَا، وَعَادَاتِهَا، وَغِذَائِهَا، فَالطُّيُوْرُ الَّتِي تَعِيْشُ عَلَىٰ الْبَرِّ، وَتَلْتَقِطُ الْحَبَّ لَيْسَتْ أَرْجُلُهَا طَوِيْلَةً، وَأَنَّهَا تَرْفَعُ رِجْلَيْهَا فِيْ وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَتَمْشِيْ وَثْباً، وَأَمَّا

---

(١) **اقْتَاتَ يَقْتَاتُ**: الشيءَ: جَعَلَهُ قوتاً.

(٢) **تَأْكُلُهَا نَهْشاً**: تتناولها بِفَمِهَا.

(٣) **مُتَقَوِّسَة**: مُنْعَطِفَة كَالْقَوْسِ.

الطُّيُوْرُ الَّتِيْ تَعِيْشُ فِيْ الْمَاءِ وَتَصِيْدُ السَّمَكَ وَهَوَامَّ الْمَاءِ فَإِنَّهَا تُقَدِّمُ رِجْلاً فِي الْمَشي وَتُؤَخِّرُ أُخْرَىٰ كَالإِنْسَانِ، وَتَمْشِيْ رُوَيْداً، فَإِنَّهَا إِذَا وَثَبَتْ وَثَبَاتٍ أَوْ قَفَزَتْ أَفْلَتَهَا[١] الصَّيْدُ.

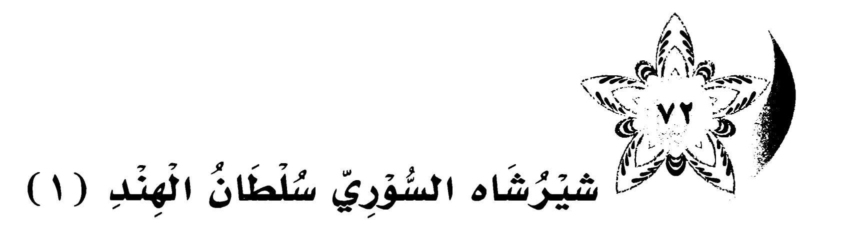
كَذٰلِكَ الطُّيُوْرُ الَّتِي تَسْبَحُ فِي الْمَاءِ، وَتَصِيْدُ فَلَهَا جِلْدٌ رَقِيْقٌ وَفِيْ مَخَالِبِها يَصِلُ بَيْنَ أَصَابِعِهَا، فَتَنْتَشِرُ مَخَالِبُهَا كَالْمِظَلَّاتِ إِذَا نَشَرَتْ، وَتُسَاعِدُهَا فِي السِّبَاحَةِ مُسَاعَدَةً عَالِيَةً.

وَالطُّيُوْرُ الَّتِيْ تَقْتَاتُ بِاللَّحْمِ لَهَا أَرْجُلٌ قَوِيَّةٌ وَمَخَالِبُ كَبِيْرَةٌ، وَفِيْ أَصَابِعِهَا أَظْفَارٌ مُتَقَوِّسَةٌ حَادَّةُ الأَطْرَافِ تُسَاعِدُهَا فِيْ نَهْشِ اللُّحُوْمِ، وَتَقُوْمُ أَرْجُلُهَا وَمَخَالِبُهَا مَقَامَ الأَرْجُلِ وَالأَيْدِيْ، فَإِذَا مَشَتْ كَانَتْ لَهَا أَرْجُلاً تَمْشِيْ بِهَا، وَإِذَا طَارَتْ أَوْ أَرَادَتْ أَنْ تَأْكُلَ كَانَتْ لَهَا أَيْدِياً تَبْطِشُ، وَهٰذَا النَّوْعُ مِنَ الطَّيْرِ قَدْ يُمْسِكُ عُوْداً أَوْ قِطْعَةَ لَحْم، وَيَطِيْرُ فِيْ الْجَوِّ وَيَسْتَقِلُّ بِهِ، فَلَا يَسْقُطُ مِنْ يَدِهِ، وَكَثِيْراً مَا رَأَيْنَا الْبَازِي[٢] قَدْ قَبَضَ عَلَىٰ طَائِرٍ كَبِيْرٍ بِمَخَالِبِهِ وَطَارَ بِهِ إِلَىٰ عُشِّهِ، وَأَكَلَهُ هُنَالِكَ آمِناً مُطْمَئِنّاً.

---

(١) أَفْلَتَ، يُفْلِتُ إِفْلَاتاً: نجا وتخلَّص.

(٢) البَّازِيُّ: جمعها: البَوَازِي: جِنْس من الصُّقُورِ الصغِيرة أو المتوسطة الحجم يُصطادُ بِهِ.



شيْرُشَاه السُّوْرِيّ سُلْطَانُ الْهِنْدِ (١)

كَانَ شِيْرُشَاهَ مِنْ خِيَارِ السَّلَاطِيْنِ، عَادِلاً بَاذِلاً[١] رَحِيْماً شُجَاعاً مِقْدَاماً[٢]، وَكَانَ أَبُوْهُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ، وَكَانَ شِيْرُشَاهَ يَتَعَلَّمُ فِيْ جَوَنِ بُوْرَ[٣]، وَيَقْرَأُ الْكُتُبَ الدَّرْسِيَّةَ، وَلَمْ يَزَلْ يَجْتَهِدُ وَيَرْتَقِيْ حَتَّىٰ نَالَ الْمُلْكَ.

وَكَانَ وَزَّعَ أَوْقَاتَهُ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، شَطْراً[٤] مِنْهَا لِلْعِبَادَةِ، وَشَطْراً لِلْعَدْلِ وَالْقَضَاءِ، وَبَعْضَهَا لإِصْلَاحِ الْعَسْكَرِ، فَكَانَ يَنْتَبِهُ مِنَ النَّوْمِ فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ، وَيَغْتَسِلُ وَيَتَهَجَّدُ وَيَشْتَغِلُ بِالأَورادِ إِلَىٰ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِيْ حِسَابَاتِ الإِدَارَاتِ

---

(١) باذِلاً: سخياً.
(٢) مِقْدَامٌ: جمعها: مَقَادِيْم: كثير الإقدام علىٰ العدوّ، جريء في الحرب.
(٣) جَوْن بور: مدينة تقع في ولاية أترابرديش في الهند، كانت مركزاً ثقافياً إسلامياً في القرن الرابع والخامس عشر الميلادي.
(٤) شطْراً: جُزْءاً.

الْمُخْتَلِفَةِ، وَيُرْشِدُ الأُمَرَاءَ فِيْمَا يُهِمُّهُمْ مِنَ الأُمُوْرِ فِيْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ، وَيَهْدِيْهِمْ إِلَىٰ بَرْنَامِجِ الْعَمَلِ لِئَلَّا يُشَوِّشُوْا أَوْقَاتَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِالأَسْئِلَةِ، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيَتَوَضَّأُ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ وَيُصَلِّيْهَا بِالْجَمَاعَةِ، ثُمَّ يَقْرَأُ الْمُسَبَّعَاتِ الْعَشْرَ وَغَيْرَهَا مِنَ الأَوْرَادِ، ثُمَّ يَحْضُرُ لَدَيْهِ الأُمَرَاءُ فَيُسَلِّمُوْنَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيُصَلِّيْ صَلَاةَ الإِشْرَاقِ، ثُمَّ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَوَائِجِهِمْ وَيُعْطِيْهِمْ مَا يَحْتَاجُوْنَ إِلَيْهِ، مِنْ خَيْلٍ، وَأَقْطَاعٍ، وَأَمْوَالٍ وَغَيْرِ ذٰلِكَ، لِئَلَّا يَسْأَلُوْهُ فِيْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الأَوْقَاتِ، ثُمَّ يَتَوَجَّهُ إِلَىٰ الْمَظْلُوْمِيْنَ وَالْمُسْتَغِيْثِيْنَ، وَيَجْتَهِدُ فِيْ إِغَاثَتِهِمْ.

وَمِنْ عَوَائِدِهِ(١) بَعْدَ الإِشْرَاقِ أَنَّهُ أَلْزَمَ نَفْسَهُ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ الْعَسَاكِرُ فَيَنْظُرَ إِلَيْهِمْ وَإِلَىٰ أَسْلِحَتِهِمْ، ثُمَّ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَنْ يُرِيْدُ أَنْ يَثْبُتَ فِي الْعَسْكَرِيَّةِ، فَيَتَكَلَّمُ مَعَهُ وَيَخْتَبِرُهُ، ثُمَّ يَأْمُرُ أَنْ يُثْبَتَ اسْمُهُ فِي الْعَسْكَرِيَّةِ، ثُمَّ يُعْرَضُ عَلَيْهِ الْجِبَايَاتُ(٢) الَّتِيْ تُوْرَدُ عَلَيْهِ مِنْ بِلَادِهِ كُلَّ يَوْمٍ، ثُمَّ يَتَمَثَّلُ بَيْنَ يَدَيْهِ الأُمَرَاءُ وَالْمَرَازِبَةُ وَسُفَرَاءُ الدُّوَلِ وَالْوُكَلَاءُ، فَيَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ، ثُمَّ تُعْرَضُ عَلَيْهِ عَرَائِضُ الأُمَرَاءِ وَالْعُمَّالِ، فَيَسْمَعُهَا وَيُمْلِيْ جَوَابَهَا، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيُقْبِلُ إِلَىٰ الطَّعَامِ، وَعَلَىٰ مَائِدَتِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمَشَايِخِ،

---

(١) عَائِدة: جمعها: عوائِد: المعروف والصلة.

(٢) جِبَايَةُ: جمعها: جِبَايَات: الخراج أو الضرائب.

ثُمَّ يَشْتَغِلُ نَحْوَ سَاعَتَيْنِ بِأُمُوْرٍ خُصُوْصِيَّةٍ، وَيَقِيْلُ إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيُصَلِّيْ بِجَمَاعَةٍ، وَيَشْتَغِل بِتلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْحَكِيْمِ، ثُمَّ بِمُهِمَّاتِ الأمُوْرِ لِلدَّوْلَةِ، وَكَانَ لَا يَتْرُكُ شَيئاً مِنْ ذٰلِكَ فِيْ ظَعْنٍ[1] وَلَا إِقَامَةٍ، وَكَانَ يَقُوْلُ: الرَّجُلُ الْكَبِيْرُ مَنْ يَصْرِفُ أَوْقَاتَهُ فِي الأُمُوْرِ الْمُهِمَّةِ.

وَكَانَ يَتَوَجَّهُ إِلَىٰ الْمُهِمَّاتِ وَيُبَاشِرُ الأُمُوْرَ بِنَفْسِهِ، وَيَقُوْلُ: لَا يَنْبَغِيْ لِصَاحِبِ الأَمْرِ أَنْ يَسْتَصْغِرَ مَا يُهِمُّهُ مِنْ الأُمُوْرِ نَظَراً إِلَىٰ عُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ، فَيُلْقِيْهَا عَلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ رِجَالِهِ؛ لأَنَّهُمْ لَا يَجْتَهِدُوْنَ فِيْهَا، وَرُبَّمَا يَتَغَافَلُوْنَ عَنْهَا طَمَعاً وَارْتِشَاءً.

وَكَانَ يُعَاقِبُ الْبُغَاةَ وَقُطَّاعَ السُّبُلِ وَالظَّلَمَةَ أَشَدَّ عُقُوْبَةٍ، وَيُعَزِّرُهُمْ أَشَدَّ تَعْزِيْرٍ، وَكَانَ لَا تَأْخُذُهُ بِهِمْ رَأْفَةٌ[2] وَإِنْ كَانُوْا مِنْ أَصْهَارِهِ وَأَقْرِبَائِهِ.



---

(١) ظَعْن: سَفَر.

(٢) رَأْفة: رحم وعطف.

٧٣

شَيْرُشَاهَ السُّوْرِيُّ سُلْطَانُ الْهِنْدِ (٢)

وَمِنْ مَآثِرِهِ أَنَّهُ أَسَّسَ شَارِعاً كَبِيْراً مِنْ «سُنَارْ كَاؤُنْ» أَقْصَىٰ بِلَادِ بَنْكَالَهْ، إِلَىٰ مَاءِ «نِيْلَابَ» مِنْ أَرْضِ السِّنْدِ، مَسَافَتُهَا أَلْفٌ وَخَمْسُمِئَةِ كُرُوْهٍ، وَالْكُرُوْهُ فِيْ عُرْفِ أَهْلِ الْهِنْدِ مِيْلَانِ، وَأَسَّسَ فِيْ كُلِّ كُرُوْهٍ رِبَاطاً، وَرَتَّبَ بِهِ طَعَاماً لأَهْلِ الإِسْلَامِ عَامَّةً وَلِلْهَنَادِكِ خَاصَّةً، وَأَسَّسَ مَسْجِداً فِيْ كُلِّ كُرُوْهٍ مِنْ الآجُرِّ وَالْجِصِّ، وَوَظَّفَ الْمُؤَذِّنَ، وَالْمُقْرِئَ وَالإِمَامَ فِيْ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَعَيَّنَ فِيْ كُلِّ رِبَاطٍ فَرَسَيْنِ لِلْبَرِيْدِ، فَكَانَ تُرْفَعُ إِلَيْهِ أَخْبَارُ نِيْلَابَ إِلَىٰ أَقْصَىٰ بِلَادِ بَنْكَالَهْ كُلَّ يَوْمٍ، وَغَرَسَ الأَشْجَارَ الْمُثْمِرَةَ بِجَانِبَي الشَّارِعِ الْكَبِيْرِ، فَيَسْتَظِلُّ بِهَا الْمُسَافِرُ وَيَأْكُلُ مِنْهَا.

وَكَذٰلِكَ غَرَسَ الأَشْجَارَ الْمُثْمِرَةَ عَلَىٰ الطَّرِيْقِ مِنْ «آكْرَهْ»[١]

---

(١) آكْرَهْ: مدينة تقع في ولاية أترابرديش بالهند، كانت عاصمة المغول، وعاصمة الثقافة الإسلامية في الهند، أهم آثارها: ضريح «تاج محل».

إِلَىٰ «مَنْدُوْ»[١]، وَبَيْنَهُمَا مَسَافَةُ ثَلَاثِمِئَةِ كُرُوْهٍ، وَأَسَّسَ الرِّبَاطَاتِ وَالْمَسَاجِدَ، وَبَلَغَ الأَمْنُ وَالأَمَانُ فِيْ عَهْدِهِ مَبْلَغاً لَا يَسْتَطِيْعُ أَحَدٌ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ فِي الصَّحْرَاءِ إِلَىٰ عَجُوْزٍ تَحْمِلُ مَتَاعَهَا.

وَكَانَ شِيْرُ شَاهَ يَتَأَسَّفُ عَلَىٰ أَنَّهُ نَالَ السُّلْطَةَ فِيْ كِبَرِ سِنِّهِ، وَيَقُوْلُ: إِنْ سَاعَدَنِي الزَّمَانُ أَبْعَثُ رِسَالَةً إِلَىٰ عَظِيْمِ الرُّوْمِ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَرْكَبَ بِعَسَاكِرِهِ إِلَىٰ بِلَادِ الْفُرْسِ، وَنَحْنُ نَرْكَبُ مِنْ هَـٰهُنَا إِلَىٰ تِلْكَ الْبِلَادِ، فَنَدْفَعُ بِمُسَاعَدَةِ مَلِكِ الرُّوْمِ شَرَّ الأَوْبَاشِ[٢] الَّذِيْنَ يَقْطَعُوْنَ طَرِيْقَ الْحُجَّاجِ، وَنُحْدِثُ شَارِعاً آمِناً إِلَىٰ مَكَّةَ الْمُبَارَكَةِ، وَلٰكِنَّ الأَجَلَ لَمْ يُمْهِلْهُ فَمَاتَ قَبْلَ بُلُوْغِهِ إِلَىٰ تِلْكَ الأُمْنِيَّةِ، وَكَانَ ذٰلِكَ فِيْ ثَانِيْ عَشَرَ مِنْ رَبِيْعِ الأَوَّلِ سنة (٩٥٢هـ).

(الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)
للعلّامة عبد الحي الحسني رحمه الله



---

(١) مَنْدُوْ: مدينة هندية قديمة، كانت عاصمة سلالة الغوري، اشتهرت بأطلالها الرائعة، ومساجدها ومعابدها الجميلة.
(٢) الأوباش: الأخلاط والسِّفْلة.

القراءة الراشدة

لتعليم اللغة العربية في المدارس الإسلامية

للداعية الحكيم، المفكر الإسلامي الكبير

العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي

الجزء الثالث



٧٤ الحَيَاةُ فِي مَدِيْنَةِ الرَّسُوْلِ ﷺ

هَا هُوَ ذَا قَدْ أَسْفَرَ النَّهَارُ، والنَّاسُ رَاجِعُونَ مِنَ المسْجِدِ النَّبَوِيِّ فِيْ سَكِيْنَةٍ وَوَقَارٍ، وَلَكِنْ فِيْ خِفَّةٍ وَنَشَاطٍ، هُنَا دُكَّانٌ يفتحُ في السُّوقِ، وَهُنَاكَ سكَّةٌ تَمْشِي فِيْ الحَقْلِ، وَهٰذا بُستَانٌ من نَخِيْلٍ يُسْقَى، وَذٰلِكَ أَجِيرٌ يَشْتَغِلُ فِيْ حَائِطٍ عَلَىٰ أُجْرَةٍ يَأْخُذُهَا فِي المَسَاءِ، قَد انْدَفَعُوا إلىٰ أَشْغَالِهم بِمَا سَمِعُوا مِنْ فَضِيْلَةِ كَسْبِ الحَلَاْلِ، وَطَلَبِ مَرْضَاةِ اللهِ بالمالِ، تَرَوْنَهُمْ خِفَافَ الأَيْدِي فِي العَمَلِ، ذُلَلَ اللِّسَانِ بِذِكْرِ اللهِ، عَاْمِرِي القُلُوْبِ بالْحِسْبَةِ وَطَلَبِ الأَجْرِ، يَحْتَسِبُوْنَ فِيْ أَشْغَاْلِهِم مَا لا يَحْتَسِبُ الْمُصَلِّي اليَوْمَ في صَلَاْتِهِ، مُقْبِلِيْنَ بِقُلُوْبِهِمْ إِلَىٰ الله وَبقَالِبِهِمْ إلىٰ شُغْلِهِمْ، وَهَاْ هُوَ ذَاْ قَدْ أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ، فَإِذَا بِهِمْ يَنْفُضُونَ أَيْدِيَهُمْ مِمَّاْ كَانُوا فِيْهِ، كَأَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهِ عَهْدٌ، وخَفُّوا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وَهَا هُم ذَا قَدْ قَضَوْا صَلَاْتَهُمْ، وَانْتَشَرُوْا فِي الأَرْضِ يَبْتَغُوْنَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَيَذْكُرُوْنَ اللهَ، وَقَدْ مَاْلَتِ الشَّمْسُ إِلَىٰ الغُرُوْبِ فَرَجِعُوْا إِلَىٰ بُيُوْتِهِمْ وَقَاْبَلُوْا أَهْلَهُمْ وَجَلَسُوْا إِلَيْهِمْ يَتَحَدَّثُوْنَ مَعَهُمْ، يُلَاْطِفُوْنَهُمْ وَيُؤْنِسُوْنَهُمْ طَمَعاً فِيْ أَجْرٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَاْن، وَنَامُوْا بَعْدَ صَلَاْةِ الْعِشَاْءِ، وَإِذَاْ بِهِمْ قَاْئِمُوْنَ أَمَاْمَ رَبِّهِمْ فِيْ الأَسْحَاْرِ، لَهُمْ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ الْنَّحْلِ، وَفِيْ صُدُوْرِهِمْ أَزِيْزٌ كَأَزِيْزِ الْمِرْجَلِ، وَيَنْصَرِفُوْنَ بَعْدَ صَلَاْةِ الصُّبْحِ إِلَىٰ أَشْغَاْلِهِمْ فِيْ نَشَاْطِ الْجُنْدِيِّ وَقُوَّتِهِ، كَأَنْ لَمْ يَتْعَبُوْا فِي النَّهَاْرِ، وَلَمْ يَسْهَرُوْا فِي اللَّيْلِ.

انْظُرُوْا إِلَىٰ مَجَاْلِسِ الذِّكْرِ وَالْعِلْم فِي الْمَسْجِدِ، وَقَدْ ضَمَّتْ صُنُوْفاً وَأَنْوَاعاً مِنَ النَّاسِ، فَهَـٰذَا هُوَ الْفَلَّاْحُ الَّذِيْ رَأَيْتُه فِي النَّهَاْرِ فِيْ حَقْلِهِ، وَهَـٰذَا هُوَ الأَجِيْرُ الَّذِيْ رَأَيْتُهُ يَنْزِعُ الدِّلَاْءَ، وَيَسْقِي النَّخِيْلَ فِيْ بُسْتَانِ يَهُوْدِيٍّ، وَهَـٰذَاْ هُوَ التَّاْجِرُ الَّذِيْ رَأَيْتُهُ فِيْ سُوْقِ الْمَدِيْنَةِ يَبِيْعُ، وَهَـٰذَا هُوَ الصَّنَّاْعُ الَّذِيْ وَجَدْتُهُ مُشْتَغِلاً بِصِنَاْعَتِهِ، وَلَيْسُوا الآنَ إِلَّا طَلَبَةَ عِلْمٍ، وَقَدْ هَجَرُوْا رَاْحَتَهُمْ ـ وَهُمْ فِيْ حَاْجَةٍ إِلَيْهَاْ بَعْدَ شُغْلِ النَّهَاْرِ ـ وَتَرَكُوْا أَهْلَهُمْ وَهُمْ فِيْ حَنِيْنٍ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ سَمِعُوْا: «أَنَّ الْمَلَاْئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَاْ لِطَاْلِبِ الْعِلْم رِضاً بِمَاْ صَنَعَ»؛ وَلِأَنَّهُمْ سَمِعُوْا: «لَاْ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُوْنَ اللهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَاْئِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ

عَلَيْهِمُ السَّكِيْنَةُ، وَذَكَرَهُم اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» تَراهُمْ سَاكِنِيْنَ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوْسِهِم الطَّيْرُ، خَاشِعِيْنَ كَأَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. يَتَسَابَقُ الْعِلْمُ والخُشُوْعُ، فَلَا يُدْرَىٰ أَيُّهُمَا أَسْبَقُ، وَتَبْتَدِرُ الْمَعَانِي إِلَىٰ الْقُلُوْبِ وَالْكَلِمَاتُ إِلَىٰ الآذَانِ، فَلَا يُدْرَى أَيُّهُمَا أَسْرَعُ.

وَقَد اتَّفَقَ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَىٰ التَّنَاوُبِ، فَإِذَا غَابَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَجْلِسِ الرَّسُوْلِ الكَرِيْمِ حَضَرَ جَارُهُ أَوْ أَخُوْهُ، فَيُخْبِرُ الأَوَّلَ بِمَا دَارَ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ حَدِيْثٍ، وَمَا نَزَلَ مِنْ آيَةٍ.

وَهٰؤُلَاءِ هُمُ القُرَّاءُ قَدْ انْقَطَعُوْا إِلَىٰ الْعِلْمِ، فَإِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ انْطَلَقُوْا إِلَىٰ مُعَلِّمٍ لَهُمْ فِي الْمَدِيْنَةِ، فَيَدْرُسُوْن اللَّيْلَ حَتَّىٰ يُصْبِحُوْا، فَإِذَا أَصْبَحُوا فَمَنْ كَانَتْ له قُوَّةٌ اسْتَعْذَبَ مِنَ الْمَاءِ، وَأَصَابَ مِنَ الْحَطَبِ، وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ سَعَةٌ اجْتَمَعُوا فَاشْتَرَوْا الشَّاةَ، وَأَصْلَحُوْهَا، فَيُصْبِحُ ذٰلِكَ مُعَلَّقاً بِحجرِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

وَمَا مِنْ أَحَدٍ في الْمَدِيْنَةِ إِلَّا وَيَعْرِفُ الْحَلَالَ وَالحَرَامَ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِحَيَاتِهِ وَحِرْفَتِهِ وَشُغْلِهِ مِنَ الأَحْكَامِ، وَيَحْفَظُ مِنَ الْقُرآنِ مَا يَقُوْمُ بِهِ فِيْ صَلَاتِهِ، ثُمَّ هُوَ مُسْتَمِرٌّ فِيْ طَلَبِ الْعِلْمِ، يَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ فِقْهاً فِي الأَحْكَامِ، وَرُسُوْخاً فِي الدِّيْنِ، وَحِرْصاً عَلَىٰ العَمَلِ، وَشَوْقاً إِلىٰ الآخِرَةِ، وَرَغْبَةً فِي الثَّوَابِ، وَعِلْمُهُمْ

بِالفَضَائِلِ أَكْثَرُ مِنْ عِلْمِهِم بِالْمَسَائِل، وَبِأُصُوْلِ الدِّيْنِ أَكْثَرُ مِنْ عِلْمِهِمْ بِفُرُوْعِهِ، أَبَرُّ النَّاسِ قُلُوْباً، وَأَعْمَقُهُم عِلْماً، وَأَقلُّهُمْ تَكَلُّفاً.

وَإِذَا تَعَلَّمَ أَحَدٌ مِنْهُم شَيْئاً مِنَ الدِّيْنِ أَسْرَعَ إِلَىٰ إِخْوَانِهِ يُعَلِّمُهُمْ؛ لِأَنَّهُ سَمِعَ: «أَلَاْ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ» وَسَمِعُوا نَبِيَّهُمْ يَقُوْلُ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً» وَسَمِعُوْهُ يقول: «لَاْ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاْهُ اللهُ مَاْلاً فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ، وَرَجُلٌ آتَاْهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِيْ بِهَا، وَيُعَلِّمُهَا».

وَهٰكَذَا انْقَسَمَ الْمُسْلِمُوْنَ فِي الْمَدِيْنَةِ بَيْنَ طَاْلِبٍ وَمُعَلِّمٍ، فَإِمَّا طَاْلِبٌ وَإِمَّاْ مُعَلِّمٌ، بَلْ كُلُّ وَاْحِدٍ مِنْهُمْ طَاْلِبٌ وَمُعَلِّمٌ فِي وَقْتٍ وَاْحِدٍ، يَأْخُذُ مِنْ مَكَاْنٍ، وَيَدْفَعُ إِلَىٰ مَكَاْنٍ.

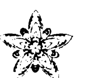
هَلْ عَرَفَ التَّاْرِيْخُ مَدْرَسَةً أَوْسَعَ مِنْ هٰذِهِ الْمَدْرَسَةِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِيْ يَقْرَأُ فِيْهَا التَّاْجِرُ، وَالْفَلَّاْحُ، وَالأَجِيْرُ، وَالصَّنَّاْعُ، وَالْمُحْتَرِفُ، وَالمَشْغُوْلُ، وَالشَّبَاْبُ النَّاْهِضُ، وَالشَّيْخُ الفَانِي؟ يَتَعَلَّمُونَ فِيْهَا بِجَمِيْعِ قوَاْهُمْ، فَالأُذُنُ تَسْمَعُ، وَالعَيْنُ تُبْصِرُ، وَالْقَلْبُ يَشْعُرُ، وَالعَقْلُ يُفَكِّرُ، وَالْجوَاْرِحُ تَعْمَلُ.

عَرَفُوْا أَحْكَاْمَ الاجْتِمَاعِ فِي الاجْتِمَاعِ، وَأَحْكَاْمَ الاخْتِلَاْطِ فِي الاخْتِلَاْطِ، وَأَحْكَاْمَ التِّجَاْرَةِ فِي التِّجَارَةِ، وَأَحْكَاْمَ الْمُعَاْشَرَةِ فِي الْمُعَاشَرَةِ، فَاسْتَطَاْعُوْا أَنْ يُحَافِظُوا عَلَىٰ دِيْنِهِمْ وَنِيَّاتِهِم

وَخُشُوْعِهِمْ، وَذِكْرِهِمْ، فِي الْمَجَامِعِ وَالْمَجَالِسِ، وَفِيْ صَخَبِ الأَسْوَاْقِ، وَفِتْنَةِ البُيُوْتِ، فَإِذَا خَاْضُوا فِي الْحَيَاةِ لَمْ يُغْلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِم، شَأْنُ الَّذِيْ يَتَعَلَّمُ السِّبَاْحَةَ فِي بَحْرٍ مُتَلَاْطِم، وَفي نَهْرٍ فَيَّاْضٍ، فَكَاْنُوا فِي المَسْجِدِ إِذَاْ خَرَجُوْا مِنَ المَسْجِدِ، وفِي الصَّلَاْةِ إِذَا انْصَرفُوا مِنَ الصَّلَاْةِ، بَرَرَةَ القُلُوْبِ، صَاْدِقِي الوَعْدِ، سَديدي القَوْلِ فِي المسَاْجِدِ والأَسْوَاْقِ مَعاً، وَفِي الْمُعْتَكَفِ وَالْحَاْنُوْتِ مَعاً، وَفِي الحَضَرِ وَالسَّفرِ مَعاً، وَمَعَ الصَّدِيْقِ وَالعَدُوِّ مَعاً.

حَتَّىٰ إِذَا نَادَىٰ مُنَاْدِي الجِهَاْدِ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ٤١]. وَهَتَفَ هَاْتِفُ الجَنَّةِ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. أَقْفَلَ التَّاْجِرُ دُكَّاْنَهُ، وَتَركَ الفَلَّاْحُ سِكَّتَهُ، وَرَمَىٰ الصَّنَّاْعُ آلَاْتِهِ، وَتَرَكَ الأَجِيْرُ رِشَاْءَ دَلْوِهِ، وَخَرَجُوْا فِي سَبِيْلِ اللهِ لَاْ يَلْوُوْنَ عَلَىٰ شَيْءٍ، كَأَنَّهُمْ كَاْنُوْا مِنْ ذٰلِكَ عَلَىٰ مِيْعَاْدٍ، وَفِي دِيَارِهِمْ وَأَهْلِهِمْ عَلَىٰ مُسَاْمَحَةٍ ورُخْصَةٍ.

وَتَرَوْنَهُمْ يَتَجَوَّلُوْنَ فِي البِلَاْدِ، ويَسِيْحُوْنَ فِي الأَرْضِ، كَأَنَّهُمْ عَلَىٰ ظُهُوْرِ الخَيْلِ، وَوُلِدُوْا عَلَىٰ مُتُوْنِ الإِبِلِ، يَغْدُوْنَ غُدْوَةً أَوْ رَوْحَةً فِي سَبِيْلِ اللهِ أَفْضَلَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا، يَصِلُوْنَ النَّهَاْرَ بِاللَّيْلِ، وَالشِّتَاْءَ بِالصَّيْفِ، وَهُمْ أَيْنَمَا رَحلُوا وَنَزَلُوْا



مَدَارِسُ سَيَّارَة، وَمَسَاجِدُ مُتَنَقِّلَة، وَهـٰكَذَا نَشَروا الدِّيْنَ مِنْ أَقْصَىٰ الأَرْضِ إِلَىٰ أَقْصَاهَا، وَمِنْ شَرْقِهَا إِلَىٰ غَرْبِهَا.

(مِنْ رِسَالَة: «إِلَىٰ مُمَثِّلِي البِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ» لِلْمُؤلِّفِ)





المنارة تتحدث (١)

خَرَجْتُ يَوْماً مِنْ مَدِيْنَةِ دهلي أُرَوِّحُ نَفْسِيْ مِنْ صَخَبِ الأَسْوَاْقِ، وَعَنَاْءِ الأَشْغَاْلِ، وَذَهَبْتُ إِلىٰ مَنَاْرَةِ قُطْبِ الدِّيْنِ خَاْرِجَ دهلي.

وَرَأَيْتُ هَـٰذِهِ الْمَنَاْرَةَ الشَّاْمِخَةَ، فَإِذَا هِيَ آيَةٌ في الْهَنْدَسَةِ وَالبِنَاْءِ، مَبْنِيَّةٌ مِنَ الْحِجَاْرَةِ الصُّلْبَةِ الْحَمْرَاء، تَنْطِقُ بِعَظَمَةِ القُدَمَاْءِ.

وَبَيْنَمَاْ أَنَاْ أَدُوْرُ حَوْلَ هـٰذِهِ المَنَاْرَةِ بَيْنَ قُبُوْرٍ وَقُصُوْرٍ، وَأُفَكِّرُ فِي ضَعْفِ الإِنْسَانِ وَقُوَّةِ البُنْيَانِ، إِذَاْ صَوْتٌ يَرِنُّ فِي أُذُنِي، وَيَقُوْلُ: «أَيُّهَا الرَّجُلُ! اِسْمَعْ».

وَالْتَفَتُّ فَلَمْ أَرَ أَحداً، وَسَرَحْتُ طَرْفِيْ فَإِذَا المَكَاْنُ هَاْدِئٌ، لَيْسَ هُنَاْ دَاْعٍ وَلَاْ مُجِيْبٌ، وَلَيْسَ هُنَا إِلَّا الحِجَاْرَةُ الصَّمَّاْءُ البَكْمَاْءُ.

وَإِذَاْ صَوْتٌ يَتَرَدَّدُ: «أَيُّهَا الرَّجُلُ! اسْمَعْ» فَأَصْغَيْتُ إِلَىٰ هٰذَا الصَّوْتِ، وَقَدْ دَنَوْتُ مِنَ المَنَاْرَةِ، فَرَأَيْتُ عَجَباً.

رَأَيْتُ عَجَباً إِذْ سَمِعْتُ الْمَنَارَةَ تَتَكَلَّمُ، فَقُلْتُ: لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ حِجَاْرَةً تَنْطِقُ، وَمَنَاْرَةً تَتَحَدَّثُ!

وَإِذَاْ صَوْتٌ أَجْهَرُ وَأَوْضَحُ مِنْ قَبْلُ: اسْمَعْ أَيُّهَا الرَّجُلُ، وَلَاْ تَخَفْ، فَقَدْ أَنْطَقَنِي اللهُ الَّذِيْ أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، هُنَاْلِكَ وَقَفْتُ أَسْتَمِعُ لِهٰذَا الصَّوْتِ، فَإِذَا المَنَاْرَةُ تَقُوْلُ:

أَنَاْ وَاْقِفَةٌ هُنَا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعَةِ قُرُوْنٍ، لَمْ أَبْرَحْ مَكَاْنِي سَاْعَةً، وَلَمْ أُغْمِضْ عَيْنِيْ طَرْفَةً، أُشَاْهِد تَقَلُّبَاْتِ الزَّمَانِ، وَتَحوُّلَ المُلْكِ وَالسُّلْطَاْنِ، كَأَنِّيْ قُطْبٌ تَدُوْرُ حَوْلي رَحَىٰ الْحَوَاْدِثِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ فِيْ هٰذِهِ المُدَّةِ مِنَ العَجَاْئِبِ مَاْ أَضْحَكَنِي قَلِيْلاً، وَمِنَ المُحْزِنَاْتِ مَاْ أَبْكَاْنِي طَوِيْلاً، وَلَوْلَا أَنَّ قَلْبِي مِنْ حَجَرٍ لانْشَقَّ حُزْناً.

وَلَاْ أنْكِرُ أَنِّيْ رَأَيْتُ فِي هٰذِهِ المُدَّةِ مُلُوْكاً عَاْدِلِيْنَ، وَرِجَاْلاً مِنَ العُلَمَاْءِ وَالصَّاْلِحِيْنَ، قَرَّتْ بِهِمْ عَيْنِي، وَزَاْلَتْ بِهِمْ أَحْزَاْنِيْ.

وَهَاْ أَنَاْ أَقُصُّ عَلَيْكَ خَبَرِيْ، وَمَاْ جَرَىٰ فِي هٰذِهِ البِلَاْدِ بَيْنَ سَمْعِيْ وَبَصَرِيْ.

سَمِعْتُ أَنَّ السُّلْطَاْنَ مَحْمُوْدٌ الغَزْنَوِيُّ هُوَ الَّذِيْ فَتَحَ هٰذِهِ

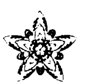
البِلَاْدَ لِلْإِسْلَاْمِ، ودَوخها مِنَ الشَّمَاْلِ إِلَىٰ الْجَنُوْبِ، وَهَزَمَ الأَحْزَاْبَ وَالْجُنُوْدَ المُجَنَّدَةَ لِمُلُوْكِ الهِنْدِ، فَكَاْنَ بُرْهَاْناً عَلَىٰ أَنَّ الإِيْمَاْنَ يَغْلِبُ الْعَدَدَ، وذٰلِكَ فِيْ فَجْرِ القَرْنِ الخَاْمِس الهِجْرِيِّ.

وَبَعْدَ قَرْنٍ وَنِصْفٍ غَزَاْ الهِنْدَ السُّلْطَاْنُ شِهَاْبُ الدِّيْنِ الغُوْرِيُّ، وَهُوَ الَّذِيْ رَسَخَتْ بِهِ قَدَمُ المُسْلِمِيْنَ فِي هٰذِهِ البِلَاْدِ، وَقَاْمَتْ لَهُمْ دُوْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ.

وَلٰكِنَّ الَّذِيْ فَتَحَ هٰذِهِ البِلَاْدَ فِي الحَقِيْقَةِ، وَأَخْضَعَهَا لِلْإِسْلَاْمِ هُوَ الرَّجُلُ الصَّاْلِحُ، الشَّيْخُ مُعِيْنُ الدِّيْنِ الْجَشْتِيُّ، الَّذِيْ اهْتَدَىٰ بِهِ إِلَىٰ الإِسْلَاْمِ أُلُوْفٌ مِنَ المُشْرِكِيْنَ، وَكَاْنَ دُعَاْؤُهُ سِلَاْحاً لِلْغُوْرِيِّ وَجُنَّة.

أَنَاْ أَقُوْلُ: «سَمِعْتُ» لِأَنِّيْ لَمْ أَكُنْ فِيْ تِلْكَ الأَيَّاْم، فَأَنَاْ وَلِيْدَةُ الْقَرْنِ السَّاْبعِ، فَقَدْ بَنَاْنِي قُطْبُ الدِّيْنِ مَنَاْرَةً لِجَاْمِعِ: «قُوَّةِ الإِسْلَاْمِ» وَتَمَّ بِنَاْئِيْ عَلَىٰ يَدِ شَمْسِ الدِّيْنِ، وَبَقِيْتُ فَرِيْدَةً مُنْذُ وُلِدْتُ.

وَمِنْ حَسَنَاْتِ الإِسْلَاْمِ أَنَّهُ جَعَلَ الْعَبِيْدَ سَاْدَةً، وَالْمَمَاْلِيْكَ مُلُوْكاً، فَقَدْ خَلَفَ الْغُوْرِيَّ مَمْلُوْكُهُ قُطْبُ الدِّيْنِ، وَخَلَفَهُ مَمْلُوْكُهُ شَمْسُ الدِّيْنِ، وَاسْتَمَرَّتْ دَوْلَةُ المَمَاْلِيْك (٨٧ سَنَةً) جَاْءَ فِيْ خِلَاْلِهَاْ مُلُوْكٌ يَتَجَمَّلُ تَاْرِيْخُكُمْ بِهِمْ، كَالْقَاْئِدِ قُطْب الدِّين أَيْبك، وَالْمَلِكِ الصَّاْلِحِ نَاْصِرالدِّيْنِ مَحْمُوْد بْنِ التّمش، وَالْمَلِكِ العَاْدِلِ غِيَاْثِ الدِّيْنِ بلبَن.



وَفِي عَصْرِ السُّلْطَانِ شَمْسِ الدِّيْنِ كَاْنَ فِيْ دِهْلِي الشَّيْخُ الكَبِيرُ قُطْبُ الدِّيْنِ بِخْتِيَاْر الكَعْكِي، وَطَاْلَمَاْ رَأَيْتُ السُّلْطَانَ شَمْسَ الدِّيْنِ يَدْخُلُ عَلَيْهِ فِي اللَّيْلِ، وَيَخْدِمُهُ، وَيَغْمِزُ رِجْلَيْهِ، وَيَبْكِي.

وَانْقَرَضَتْ دَوْلَةُ سَاْدَتِي المَمَاْلِيْكِ، وَالْأَرْضُ للهِ يُوْرِثُهَاْ مَنْ يَشَاْءُ، وَجَاْءَ الخَلَجُ، وَرَأَيْتُ مِنْ غَرَاْئِبِ الإِنْسَاْنِ عَمّاً كَرِيْماً يَقْتُلُهُ ابْنُ أَخِيْهِ وخُتَنُهُ.

وَلَـكِنَّ عَلَاْءَ الدِّيْنِ بَعْدَمَاْ قَتَلَ عَمَّهُ جَلَاْلَ الدِّيْنِ ضَبَطَ البِلَاْدَ، وسَنَّ القَوَاْنِيْنَ، وَعَيَّنَ الأَسْعَارَ، وبَسَطَ الأَمْنَ، وَأَوْغَلَ فِي الهِنْدِ.

وَقُضِيَ عَلَىٰ الخلجيين بِالزَّوَالِ بَعْدَ (٣١ سنة)، سُنَّةَ اللهِ فِي الأَرْضِ، وَوَرِثَهُمْ آلُ تَغْلق، وَكَاْنَ مِنْهُمْ مَلِكٌ غَرِيْبُ الأَخْلَاْقِ، أَعْنِيْ مُحَمَّد تغْلق، الْمَلِكُ العَاْقِلُ المَجْنُوْنُ، الَّذِيْ أَرَاْدَ أَنْ يُحَوِّلَ الْعَاْصِمَةَ إِلَىٰ دولَت آبَاْد، وَلَـكِنَّ اللهَ رَحِمَ وحشتي، وَلَمْ يُفْلِحِ الْمَلِكُ.

وَخَلَفَهُ شَاْبٌّ صَاْلِحٌ مِنْ بَيْتِهِ اِسْمُهُ فَيْرُوْز، الَّذِيْ بَنَىٰ الْمَسَاْجِدَ وَالْمَدَاْرِسَ، وَأَنْشَأَ الشَّوَاْرِعَ وَالرِّبَاْطَاْتِ، وَرَدَّ المَظَاْلِمَ.

وَفِيْ هـٰذَا الْعَهْدِ كَاْنَ الْعَبْدُ الصَّاْلِحُ الشَّيْخُ نِظَاْمُ الدِّيْنِ البَدَايُوني، وَكَاْنَتْ لَهُ زَاوِيَةٌ عَاْمِرَةٌ يَؤُمُّهَاْ مِئَاْتٌ مِنَ الطَّاْلِبِيْنَ،

فَكَاْنَتْ إِمَاْرَةً رُوْحِيَّةً فِيْ جَنْبِ إِمَاْرَةٍ مَاْدِّيَّةٍ، تَفُوْقُهَا فِي السُّلْطَانِ عَلَىٰ القُلُوْبِ.

حَكَمَ آل تغلق (١٣٥ سنة)، مُدَّةً طَوِيْلَةً، ثُمَّ طُوِيَ بِسَاْطُهُمْ ـ وَالْحُكْمُ للهِ ـ وَآلَ الأَمْرُ إِلَىٰ اللودهيين، وَكَاْنَ أَوْسَطُهُمْ سكندر اللودهي، وَكَاْنَ عَاْدِلاً فَاْضِلاً، يُحِبُّ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاْءَ.

وَفِي هٰذَا الْعَهْدِ ازْدَهَرَتْ مَدِيْنَةُ جون بور، وَبَلَغَتْ أَوْجَهَا فِي عَهْدِ إِبْرَاْهِيْمَ شَاْهِ الشَّرْقِي (٨٠٤هـ/ ٨٤٤هـ) وَكُنْتُ أَسْمَعُ أَحَاْدِيْثَ مَلِكِهَا، وَأَخْبَاْرَ عُلَمَاْئِهَا كَمَلِكِ الْعُلَمَاْءِ الْقَاْضِيْ شِهَاْبِ الدِّيْنِ الدولت آبادي، والشَّيْخِ أَبِيْ الْفَتْحِ بْنِ عَبْدِ الْمُقْتَدِرِ الدهلوي، وَقَصَصَ جَوَاْمِعِهَاْ وَمَدَاْرِسِهَا.

وَازْدهَرَتْ كَذٰلِكَ مَدِيْنَةُ «أَحْمَد آبَاْد» وَفَاْقَت الهِنْدَ بِمُلُوْكِهَا الرَّاْشِدِيْنَ، وَعُلَمَائِهَا المُحَدِّثِيْن، وبِصَنَاْئِعِهَا، وَكَثْرَةِ جِنَاْنِهَاْ وَحَدَاْئِقِهَاْ، وَحُسْنِ نِظَاْمِهَاْ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ أَخْبَاْرَ مَحْمُوْد شَاهْ وَابْنِهِ مُظَفَّر شَاْه الْحَلِيْم (٨٦٢هـ/ ٩٣٢هـ) فَكَأَنِّيْ أَسْمَعُ أَخْبَاْرَ رِجَاْلِ خَيْرِ الْقُرُوْنِ.





المنارة تتحدث (٢)

وَفِي عَهْدِ إِبْرَاهِيْمَ اللودهي سَنَةَ (٩٣٣هـ) جَاءَ بَابِر، وَهُوَ مِنْ آلِ تَيْمُوْر مِنْ كَابُل، وَكَسَرَ جُنُوْدَ اللودهي، وَهِيَ مِئَةُ أَلْفِ مُقَاتِل فِي سَاحَةِ بَانِي بِتْ بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، فَكَانَ بُرْهَاناً عَلَىٰ أَنَّ الْعَزِيْمَةَ تَغْلِبُ الْكَثْرَة، وَأَسَّسَ دَوْلَةَ الْمَغُوْلِ، الَّتِيْ لَهَا دَوِيٌّ فِي الْعَالَمِ، وَآثَارٌ خَالِدَةٌ فِي «الهِنْدِ».

وَفِيْ عَهْدِ ابْنِهِ هَمَايُون نَهَضَ شَيْرُ شَاه السُّوْرِيُّ، فَطَرَدَ هَمَايُون إِلَىٰ «إِيرَانَ» وَأَسَّسَ دَوْلَةً مُنَظَّمَةً لَمْ تُسْبَقْ، وَعَمِلَ أَعْمَالاً جَلِيْلَةً، لَوْ وُزِّعَتْ عَلَىٰ عِدَّةِ مُلُوْكٍ لَوَسِعَتْهُمْ، فَأَنْشَأَ شَارِعاً مَسِيْرَتُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَغَرَسَ عَلَيْهِ الأَشْجَارَ، وَبَنَى عَلَيْهِ الْمَنَازِلَ وَالمَسَاجِدَ، وَذٰلكَ كُلُّهُ فِي خَمْس سَنَوَاتٍ، وَلاَ أَزَالُ أَغْبِطُ «سهسرام» إِذْ كَانَتْ عَاصِمَتَهُ وَمَدْفَنَهُ، وَهُنَا تَخَلَّفَتْ دِهلي، وَسَبَقَتْهَا مَدِيْنَةٌ صَغِيْرَةٌ.

وَخَلَفَ همايون الَّذِيْ اسْتَرَدَّ مُلْكَهُ بِمُسَاْعَدَةِ شَاْهِ إِيْرَانَ ابْنَهُ الأمي أَكْبَر.

وَهُوَ الَّذِيْ مَرقَ مِنَ الإِسْلَاْمِ، وَاخْتَرَعَ دِيْناً جَدِيْداً، وَعَانَدَ الْمُسْلِمِيْن، وَقَدْ أَنْجَاْنِي اللهُ مِنْ مُصَاْحَبَتِهِ، إِذِ اتَّخَذَ «أكره» عَاْصِمَتَهُ.

وَخَلَفَهُ ابْنُهُ جهانكير، وَكَاْنَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِيْهِ، وَدُوْنَ ابْنِهِ وَحَفِيْدِهِ، وَاضْمَحَلَّتْ آثَاْرُ «أَكْبَرَ» في عَهْدِهِ.

وَفِي هٰذَا الْعَصْرِ نَهَضَ الْمُصْلِحُ الْكَبِيْرُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ السَّرْهِنْدِي الْمُجَدِّدُ (م١٠٣٤هـ) فَقَلَبَ التَّيَّاْرَ، وغَيَّرَ اللهُ بِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَاْرَ، وَانْتَصَرَ بِهِ الدِّيْنُ، وَزَاْلَتْ بِهِ دَوْلَةُ الْمُبْتَدِعِيْنَ.

وَفِي هٰذَا الْعَصْرِ سَعِدَت الْهِنْدُ أَيْضاً بِوُجُوْدِ عَاْلِم كَبِيْرٍ، خَدَمَ عِلْمَ الْحَدِيْثِ، وَصَنَّفَ، وَدَرَس طَوِيْلاً، وَهُوَ الْعَلَّاْمَةُ عَبْدُ الْحَقِّ الْبُخَاْرِيُّ (م١٠٥٢هـ) وَأَنَا سَعِيْدٌ بِأَنَّهُ لَاْ يَزَاْلُ فِي جِوَاْرِيْ.

وَخَلَفَ جهانكير ابْنُهُ شَاهُ جهان، وَهُوَ صَاْحِبُ الآثَاْرِ الْجَمِيْلَةِ فِي الْهِنْدِ، بَنَى جَاْمِعاً فِي دِهْلِي مِنْ أَجْمَلِ مَسَاْجِدِ الْمُسْلِمِيْنَ فِي الْعَاْلَمِ، وَبَنَىٰ الْقَلْعَةَ الْحَمْرَاْءَ، وَبَنَىٰ عَلَىٰ قَبْرِ زَوْجِهِ التَّاْج مَحَل، وَهِيَ الدُّرَّةُ الْيَتِيْمَةُ فِي الْبِنَاْءِ، وَمَاْ وَدِدْتُ أَنْ أَبْرَحَ مِنْ مَكَاْنِيْ إِلَّا لِأَرَاْهُ.

وَخَلَفَ شَاْه جهان ابْنُهُ السُّلْطَاْنُ أورنْكُ زيب عَالمكيْر، وَهُوَ رَجُلُ هٰذَا الْبَيْتِ الرَّشِيْد، فَأَمَرَ بِتَدْوِيْنِ الْفِقْهِ، وَأَبْطَلَ الْمُكُوْسَ وَالْمَظَاْلِمَ عَن الْمُسْلِمِيْنَ، وَضَرَبَ الجِزْيَةَ عَلَىٰ الْمُشْرِكِيْن، وَنَصَّبَ الْمُحْتَسِبِيْنَ، وَأَقَاْمَ دَوْلَةَ الْعِلْم وَالدِّيْنِ.

وَمِنْ سُوْءِ حَظِّ الْمُسْلِمِيْنَ فِي هٰذِهِ الْبِلَاْدِ أَنَّ خُلَفَاْءَ أُوْرِنْك زيْب لَمْ يَكُوْنُوْا رِجَاْلاً أَكْفَاءَ فِي الدِّيْنِ وَالسِّيَاْسَةِ، فَأَصْبَحَتْ السِّيَاْسَةُ هَزْلاً، والدَّوْلَة أُلْعُوْبَةً، مُلُوْكٌ يَحْكُمُوْن صَبَاْحاً وَيُقْتَلُوْنَ مَسَاْءً، وَيُسْتَبْدَلُوْنَ كَالخلْقَاْنِ مِنَ الثِّيَاْبِ.

وَلَاْ أُضِيْعُ وَقْتَكَ الثَّمِيْنَ فِي سَرْدِ أَسْمَاْئِهِم الفَاْرِغَةِ.

وَهُنَا رَأَيْتُ مَا أَبْكَاْنِي، فَقَدْ فَسَدَتْ أَخْلَاْقُ الْمُسْلِمِيْنَ فِي هٰذَا الْعَصْرِ، فَشَاْ فِيْهِمُ الفُجُوْرُ، وَعَمَّتِ الخُمُوْرُ، وَكَثُرَتِ الْمَلَاْهِي، وَأَقْبَل النَّاْسُ عَلَىٰ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ والرَّقْصِ وَالْغِنَاْءِ، فَكَأَنْ لَمْ يُبْعَثْ نَبِيٌّ، وَلَمْ يَنْزِلْ كِتَابٌ، وَالنَّاْسُ فِي جَاْهِلِيَّةٍ.

وَكُنْتُ أَذْكُرُ قَوْلَ اللهِ تَعَاْلَىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، وَأَخَاْفُ بَطْشَهُ.

وَفِي عَهْدِ مُحَمَّدْ شَاهْ (م١١٦١هـ) بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبى، وَطَمَّ الْوَاْدِيْ عَلَىٰ القُرَىٰ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَىٰ دِهْلي عِبَاْداً لَهُ أُوْلِيْ بَأْسٍ شَدِيْدٍ فَجَاْسُوْا خِلَاْلَ الدِّيَاْرِ.

جَاْءَ نَاْدِر شَاْه سَنَةَ (١١٥١هـ) مِنْ إِيْرَاْن، فَوَضَعَ فِيْهِمُ السَّيْفَ، وَبَلَغَ الْقَتْلَىٰ مِنَ الهِنْدِيِّيْنَ فِي دِهْلِي مِئَةَ أَلْفٍ وَنَيِّفًا، وَسَاْلَتْ بِدِمَاْئِهِمُ الشَّوَاْرِعُ، وَلَمْ يُغْمَدِ السَّيْفُ إِلَّا بَعْدَ ثَلَاْثَةِ أَيَّاْمٍ.

وَلَمْ يُفِقْ أَهْلُ دِهْلِي وَالْمُسْلِمُوْنَ مِنْ سَكْرَتِهِمْ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهم المرهتة وَالسكه اجْتِمَاعَ الأَكَلَةِ عَلَىٰ الْقَصْعَةِ، وَفِي كُلِّ يَوْم غَاْرَةٌ، وَنَهْبٌ، وَسَلْبٌ، وَإِهَاْنَةٌ، وَجَلَاءٌ، فَخَرِبَتْ قُرَىٰ كَثِيْرَةٌ، وَهُدِّمَتْ مَسَاجِدُ ذُكِرَ فِيْهَا اسْمُ اللهِ كَثِيْراً، وَعَجِزَ الْمُسْلِمُوْنَ عَنْ مُقَاْوَمَتِهِمْ، وَدَخَلَ فِيْ قُلُوْبِهِمُ الْجُبْنُ وَالْخَوْفُ.

هُنَالِكَ رَحِمَ اللهُ هَٰذِهِ الأُمَّةَ الهِنْدِيَّة، فَبَعَثَ لَهَاْ أَحْمَد شَاْه الأَبْدَاْلِي مِنْ أَفْغَاْنِسْتَاْن سَنَةَ (١١٧٤هـ) فَنَازَل المرهتة فِي سَاْحَةِ بَاْني بت، وَقَتَلَ مِنْهُمْ نَحو مِئَتَيْ أَلْفٍ، وَهَزَمَهُمْ هَزِيْمَةً لَم تَقُمْ لَهُمْ بَعْدَهَاْ قَاْئِمَةٌ.

وَفِي هٰذِهِ الأَيَّاْمِ الْعَقِيْمَةِ أَنْجبَتْ دِهْلي رَجُلاً عَظِيْماً، وَهُوَ الشَّيْخُ وَلِيُّ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيْم، فَنَاْدَىٰ بِالْمُسْلِمِيْنَ إِلَىٰ الدِّيْنِ، وَانْتَقَدَ الأُمَرَاْءَ الْجَاْئِرِيْنَ، وَالشُّيُوْخَ الْمُبْتَدِعِيْنَ، وَخَرَّجَ العُلَمَاْءَ الرَّاسِخِيْنَ، والدُّعَاْةَ الْمُخْلِصِيْنَ، وَصَنَّفَ الكُتُبَ البَدِيْعَةَ فِي عُلُوْمِ الدِّيْنِ.

وَشَمَّرَ هُوَ وَأَبْنَاْؤُهُ النُّجبَاْءُ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيْزِ، وَالشَّيْخُ رَفِيْعُ

الدِّيْنِ، والشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ، وَابْنُ ابْنِهِ الشَّيْخُ إِسْمَاعِيْل - دفِيْن بالاكوْت - عَنْ سَاقِ الجدِّ فِي خِدْمَةِ الدِّيْنِ، فَمِنْ مُتَرْجِم لِلْقُرْآنِ، وَمِنْ شَارِحٍ لِلْحَدِيْثِ، وَمِنْ فَقِيْهٍ تُضْرَبُ إِلَيْهِ أَكْبَادُ الإِبِلِ، وَمِنْ مُزَكٍّ لِلنُّفُوْسِ، وَمِنْ مُدَرِّسٍ لِلْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ، وَمِنْ مُجَاهِدٍ بِالسَّيْفِ وَشَهِيْدٍ فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَمِنْ مُهَاجِرٍ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ، وَالهِنْدُ تُبَاهِي بِهَـٰذَا البَيْتِ الشَّرِيْفِ الأَقْطَارَ الأُخْرَىٰ، وَتُنْشِدُ:

أُولَـٰئِكَ أَبْنَائِيْ فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ ... إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيْرُ الْمَجَامِعُ





المنارة تتحدث (٣)

أَرَاْكَ يَاْ سَيِّدِيْ قَدْ سَئِمْتَ حَدِيْثِيْ وَطُوْلَ القِيَاْمِ هُنَا، فَاصْبِرْ قَلِيْلاً لَعَلِّي أُخَفِّفُ عَنْ نَفْسِيَ بَعْضَ مَاْ أَجِدُهُ مِنَ الْحُزْنِ.

نَسِيْتُ أَنْ أَذْكُرَ لَكَ أَنَّ الإِنْكِلِيْزَ قَدْ دَخَلُوْا الهِنْدَ فِي الْقَرْنِ السَّاْدِسَ عَشَرَ الْمَسِيْحِيِّ تُجَّاراً، وَأَسَّسُوْا شَرِكَةً تِجَاْرِيَّةً سَمَّوْهَاْ الشَّرِكَةَ الهِنْدِيَّةَ الشَّرْقِيَّةَ، وَكَاْنَت بِذْرَةَ فَسَاْدٍ أَغْفَلَهَاْ الْمُلُوْكُ الْمُسْلِمُوْنَ فِي بَسَاْطَتِهِمْ وَحُسْنِ ظَنِّهِمْ، وَبَقِيَتْ هٰذِهِ الشَّرِكَةُ تَشْتَغِلُ بِالتِّجَاْرَةِ حَتَّىٰ اضْطَرَبَ حَبْلُ الدَّوْلَةِ الْمَغُوْلِيَّةِ فَطَمِعَ رِجَاْلُهَا إِلىٰ المُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ، وَصَاْرُوا يَتَدَخَّلُوْنَ فِي الأُمُوْرِ، وَيُحَرِّشُوْنَ بَيْنَ الأُمَرَاْء، وَيَضْرِبُوْنَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، وَيَنْتَهِزُوْنَ فُرْصَةً بَعْدَ فُرْصَةٍ، حَتَّىٰ أَصْبَحُوْا قُوَّةً فِي الهِنْدِ.

وَلَمْ يَزَلْ أَمْرُ الإِنْكِلِيْزِ يَقْوَىٰ، وَأَمْرُ الهِنْدِيِّيْنَ يَضْعُفُ حَتَّىٰ أَخَذُوا فِي الْجَنُوْبِ «كرنَاْتك» وَفِي الشَّرْقِ «كَلْكُتَّة» وذٰلِكَ كُلّهُ

بِمَاْلِ الهِنْدِ وَرِجَاْلِهَاْ، لَمْ يَبْذُلُوا فِي سَبِيْلِ ذٰلِكَ دِرْهَماً، وَلَاْ دَماً مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ.

وَقَدْ عُنِيَ بَأَمْرِ الإِنْكلِيْزِ فَتىً شَهْمٌ، وَهُوَ النَّوَّابُ سِرَاْجُ الدَّوْلَةِ أَمِيْرُ «مُرْشِد آبَاْد»، وَكَاْنَتْ بَيْنَهُ وبَيْنَ الإِنْكلِيْزِ وَقْعَةٌ فِي بلَاْسِي سَنَةَ (١١٧١هـ/ ١٧٥٧م) غَدَرَ فِيْهَا الوَزِيْرُ مِيْر جَعْفَر، وَانْسَلَّ إِلىٰ الإِنْكِلِيْزِ فَانْهَزَمَ سِرَاْجُ الدَّوْلَةِ، وَاْنْتَقَلَتْ مُقَاْطَعَةُ «بنْكَاْل» إِلىٰ الإِنْكِلِيْزِ.

وَاجْتَهَدَ الأُمَرَاْءُ مَرَّةً ثَاْنِيَةً، وَاجْتَمَعَ مِيْر قَاْسِم ختن مِيْر جَعْفَر، أَمِيْرُ «مُرْشِد آبَاْدْ» وَشَاْه عَاْلِم «مَلِكُ دِهْلِي» وَالنَّوَّاْبُ شُجَاْعُ الدَّوْلَةِ، أَمِيْرُ «أُوْدَه» بِجُنُوْدِهِ الكَثِيْفَةِ، وَقَاْتَلُوْا الإِنْكلِيْزَ، وَهُمْ أَقَلُّ مِنْهُمْ عَدَداً، وَلَـكِنْ أَحْسَنُ مِنْهُمْ نِظَاْماً، فَانْهَزَمَ الهِنْدِيُّوْنَ، وَانْكَسَرُوا فِي سَاْحَةٍ بِكسر سَنَةَ (١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م)، فَكَاْنَ بُرْهَاْناً عَلَىٰ أَنَّ النِّظَاْمَ يَغْلِبُ الزِّحَاْمَ، وَكَاْنَتْ لِلْإِنْكِلِيْزِ الْيَدُ العُلْيَا، وَالْكَلِمَةُ النَّاْفِذَةُ مَاْ بَيْنَ «كَلْكُتَّة» وَ«دِهْلِي».

ثُمَّ قَاْمَ الْفَتَىٰ الأَبِيُّ الْغَيُوْرُ السُّلْطَاْنُ تيبو أَمِيْرُ مَيْسُوْر، وَقَاْتَلَ الإِنْكلِيْزَ قِتَاْلاً شَدِيْداً، وَهَزَمَهُ الإِنْكليْزُ بِقُوَّةِ المُسْلِمِيْنَ والمرهتة سَنَةَ (١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م) وَغَدَرَ الْوَزِيْرُ مِيْر صَاْدق، وَانْسَلَّ إِلَىٰ الإِنْكِلِيْزِ، وَمَاْتَ السُّلْطَاْنُ الشَّهِيْدُ فِي سَاْحَةِ القِتَاْلِ مَوْتَ الأَبْطَاْلِ مُدَاْفِعاً عَنْ دِيْنِهِ وَوَطَنِهِ.

وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَ أَهْلَ الهِنْدِ، فَمَنَحَهُمْ فُرْصَةً أُخْرَىٰ، فَنَهَضَتْ عِصَابَةٌ مِنَ الشُّبَّانِ المُخْلِصِيْنَ، يَقُوْدُهَا فَتىً مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الرَّسُوْلِ ﷺ قَدْ جَاءَ مِنَ الشَّرْقِ، كُنْتُ أَرَاهُ كَثِيْراً فِي مَدْرَسَةِ الشَّيْخ عَبْدِ العَزِيْزِ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ وَمَسْجِدِ الشَّيْخ عَبْدِ الْقَادِرِ، وَاشْتُهِرَ سَرِيْعاً بِاسْمِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ، وَتَهَافَتَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَبَايَعَهُ مُحَمَّدُ إِسْمَاعِيْل ابنُ أَخِ الشَّيْخِ عَبْدِ العَزِيْزِ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ وَعَبْدُ الْحَيِّ خَتَنُ الشَّيْخِ، وَعَالِمُ «دَهْلِي» الْكَبِيْر، وَالْعُلَمَاءُ والصُّلَحَاءُ، وَطَافَ هٰؤُلَاءِ فِي البُلْدَانِ وَالقُرَىٰ، وَبَثُّوا دَعْوَةَ الرُّجُوْعِ إِلَىٰ الدِّيْنِ وَالتَّمَسُّكِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَشْعَلُوا فِي الصُّدُوْرِ شُعْلَةَ الجِهَادِ، وَاجْتَمَعَ حَوْلَهُمْ أُنَاسٌ هُمْ خَيْرُ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِمْ عَيْنِي دِيْناً وَعِبَادَةً، وَخُلُقاً وَمُعَاشَرَةً، وَغَيْرَةً وَحَمَاسَةً، فَكَانُوْا بِاللَّيْلِ رُهْبَاناً وَبِالنَّهَارِ فُرْسَاناً، وَفِي الدِّيْنِ أَبْدَالاً، وَفِي القُوَّةِ أَبْطَالاً.

وَهَاجَرَ هٰؤُلَاءِ سَنَةَ (١٢٤١هـ) إِلَىٰ ثُغُورِ الهِنْدِ، وَرَفَعُوْا رَايَةَ الجِهَادِ ضِدَّ السكه، وَبَايَعَ النَّاسُ إِمَامَهُمْ السَّيِّدَ أَحْمَد، وَكَانَتِ الحَرْبُ بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ السكه سِجَالاً، وَسَمِعْتُ بَعْدَ قَلِيْلٍ أَنَّهُمْ فَتَحُوا أَرْضاً وَاسِعَةً، وَأَسَّسُوْا إِمَارَةً عَلَىٰ مِنْهَاجِ الخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَنَفَّذُوْا فِيْهَا أَحْكَامَ الشَّرْعِ، وَأَقَامُوْا الصَّلَاةَ، وَآتَوا الزَّكَاةَ، وَأَمَرُوْا بِالمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، وَفَتَحُوا بِيْشَاوَر

عَاصِمَةَ الثُّغُوْرِ، فَعَظُمَ شَأْنُهُمْ، وَكَاْتَبُوْا أَمِيْرَ بُخَاْرَىٰ، وَجِنِرَاْل، وَأُمَرَاْءَ أَفْغَاْنسْتَاْن، وَكَاْنُوْا يُرِيْدُوْنَ أَنْ يُقِيْمُوْا دَوْلَةً شَرْعِيَّةً مُسْتَقِلَّةً فِي الهِنْدِ.

كُنْتُ أَسْمَعُ ذٰلِكَ كُلَّهُ، وَالنَّاْسُ يَفْرَحُوْنَ، وَأَنَاْ أَخَاْفُ لِأَنِّيْ لَمْ أَكُنْ آمَنُ عَلَيْهِمْ مِنَ المُسْلِمِيْنَ الْغَدْرَ وَالْخِيَاْنَةَ، وَهُمَا مِنْ أَمْرَاْضِ المُسْلِمِيْنَ، وَلَمْ تَذْهَبْ دَوْلَتُهُمْ إِلَّا بِغَدْرِ المُسْلِمِيْنَ وَخِيَاْنَتِهِمْ وَنِفَاْقِهِمْ - وَسَاْمِحْنِيْ يَاْ سَيِّدِيْ فِيْ هٰذَا العِتَاْبِ المُرِّ فَلِيَ العُذْرُ - وَكُنْتُ أَخَاْفُ ذٰلِكَ خَاْصَّةً فِي تِلْكَ البِلَاْدِ، وَلَمْ تَمْضِ يَاْ سَيِّدِيْ أَيَّامٌ قَلِيْلَةٌ حَتَّىٰ وَقَعَ مَاْ كُنْتُ أَحْذَرُهُ، فَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ غَدَرَ بِهِمْ الأُمَرَاْءُ الأَفْغَاْن، وَقَتَلُوْا نُوَّاْبَهُمْ وَعُمَّاْلَهُمْ سُجَّداً وَقِيَاْماً، وسَمِعْتُ أَنَّهُمْ الآنَ فِي طَرِيْقِهِمْ إِلىٰ كَشْمِيْر.

ثُمَّ سَمِعْتُ بَعْدَ أَيَّاْم أَنَّهُمْ دَهَمَهُمْ العَدُوُّ فِي وَاْدِي بِالاكوت فِي جِبَاْلِ هَزَاْرَا، وَذٰلِكَ بِدَسِيْسَةِ بَعْضِ المُسْلِمِيْنَ أَيْضاً، وَقُتِلَ أَكْثَرُهُمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا القَلِيْلُ، وَكَاَنَتْ هٰذِهِ الحَاْدِثَةُ الأَلِيْمَةُ سَنَةَ (١٢٤٦هـ).

وَهٰكَذَاْ ضَاْعَتْ هَٰذِهِ الفُرْصَةُ الثَّمِيْنَةُ، وَللهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

وَأَعُوْدُ إِلىٰ حَدِيْثِ الإِنْكلِيْزِ وَأَقُوْلُ: إِنَّهُمْ اخْتَلَقُوْا ذُنُوْباً

عَلَىٰ الأُمَرَاْءِ، كَمَاْ سَمِعْتَ فِي قِصَّةِ الذِّئْبِ وَالنَّعْجَةِ، وَانْتَزَعُوْا «بنجاب» وَ«السند» و«بُوْرمَا» وَ«أوده» وَامْتَلَكُوْهَا.

وَانْتَبَهَ الهِنْدِيُّوْنَ مِنْ سُبَاْتِهِم، وَاجْتَهَدُوْا أَنْ يَتَخَلَّصُوْا مِنَ الإِنْكلِيْزِ سَنَةَ (١٨٥٧م).

فَكَاْنَتْ ثَوْرَةٌ كَبِيْرَةٌ، وَلَكِنْ فَشِلَتْ أَيْضاً بِسُوءِ نِظَاْمِ الهِنْدِيِّيْنَ، وَرَسَخَتْ قَدَمُ الإِنْكلِيْزِ، وَعَاْقَبُوا الهِنْدِيِّيْنَ عِقَاْباً شَدِيْداً، وَعَذَّبُوْهُمْ عَذَاْباً أَلِيْماً، وَفتَكُوْا بِالْبَيْتِ الْمَلَكِيِّ فَتْكاً شَدِيْداً، وَأَسَرُوْا بهَاْدِر شَاْه، وَنَفَوْهُ إِلَىٰ «رنْكُون».

وَمِنْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ أَفَلَ نَجْمُ المُسلِمِيْنَ فِي هَٰذِهِ الدِّيَاْرِ وَانْحَطُّوْا فِي الدُّنْيَا وَالدِّيْنِ، وَرَضُوْا بِالذُّلِّ وَالْعُبُوْدِيَّةِ، وَفَسَدَتِ الأَخْلَاْقُ، وَسَقَطَتِ الهِمَمُ، وَضَاْقَتِ الأَرْزَاْقُ، وَغَلَتِ الأَسْعَاْرُ، وَعَمَّتِ المَجَاْعَاْتُ، وَعَطَّلَتِ الْمَدَاْرِسُ، وَأَقْفَرَتِ الزَّوَاْيَا، وَأَوْحَشَتِ المَسَاجِدَ.

وَفِي سَنَةِ (١٩٤٧م) تَحَرَّرَتِ البِلَاْدُ مِنَ الإِنْكلِيْزِ، وَوَقَعَتِ اضْطِرَاْبَاْتٌ هَاْئِلَةٌ، وَهَاْجَرَ كَثِيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ بِلَاْدِهِمْ، وَقَاْمَت لَهُمْ دَوْلَةٌ فِي شَمَاْلِي الهِنْدِ الْغَرْبِيِّ، وَبَقِيَ سَاْئِرُهُمْ فِي الحُكُوْمَةِ الهِنْدِيَّةِ، وَقَدْ فَقَدُوْا نَشَاْطَهُم، وَاسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِمُ اليَأْسُ.

وَلَسْتُ قَاْنِطاً يَاْ سَيِّدِيْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وَلَمْ أَيْأَسْ مِنْ نَهْضَةِ الْمُسْلِمِيْنَ، فَإِنِّيْ رَأَيْتُهُمْ طُوْلَ هٰذِهِ الْمُدَّةِ كَالشَّمْسِ إِذَا غَرُبَتْ فِي جِهَةٍ طَلَعَتْ فِي جِهَةٍ أُخْرَىٰ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا وَطَلَعَ لَهُمْ نَجْمٌ آخَرُ، فَإِنَّ مُسْتَقْبَلَ الْعَالَمِ مَعْقُوْدٌ بِنَاْصِيَتِهِمْ، وَإِنَّ اللهَ لَاْ يُحِبُّ الْفَسَاْدَ فِي الأَرْضِ، وَلَاْ يَرْضَىٰ لِعِبَاْدِهِ الْكُفْرَ.

اِقْرَأْ عَلَىٰ أُمَّتِكَ مِنِّي السَّلَاْمَ، وَقُلْ لَهَاْ: إِنِّيْ أُشْهِدُ اللهَ أَنَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ مَا أَفْلَحَتْ إِلَّا بِالتَّمَسُّكِ بِالدِّيْنِ، وَمَاْ خَسِرَتْ إِلَّا بِالْغَفْلَةِ عَنِ الدِّيْنِ، وَلَنْ يُصْلِحَ آخِرُ هٰذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا مَاْ أَصْلَحَ أَوَّلَهَاْ، هٰذَا الَّذِيْ شَهِدْتُهُ وَاخْتَبَرْتُهُ فِي هٰذِهِ الْقُرُوْنِ الْمُتَطَاوِلَةِ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وَلَمَّا انْتَهَتِ الْمَنَاْرَةُ مِنْ كَلَاْمِهَاْ، اِنْصَرَفْتُ عَنْهَاْ، وَرَجَعْتُ إِلَىٰ مَكَاْنِي، وَبِتُّ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِيْمَا سَمِعْتُ، وَبَاْدَرْتُ فِي الصَّبَاْحِ فَقَيَّدْتُ حَدِيْثَ الْمَسَاْءِ.



٧٨
عمر بن الخطاب وأم البنين

لَدَىٰ عُمَرَ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَاْ   قِفُوْا بِيْ وِقْفَةَ الْمُتَهَيِّبِيْنَاْ
مَلِيْكٌ ذُوْ مَآثِرَ بَاْسِقَاتٍ   يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاْهَا السَّاْبِقُوْنَاْ
خَوَاْلِدُ مَاْ عَفَتْ قِدَماً وَلَكِنْ   يُعَطِّرُ نَشْرَ ذِكْرَاْهَا الْقُرُوْنَاْ
فَمَنْ يَمْدَحْ لِمَكْرُمَةٍ فَإِنِّيْ   نَظَمْتُ بِمَدْحِهِ عِقْداً ثَمِيْنَاْ
وَهَاْكُمْ مَاْ رَوَىٰ الْعَبَّاْسُ عَنْهُ   أَرَاْهُ بِانْتِبَاْهِكُمُ قَمِيْنَاْ
يُمَثِّلُ صُوْرَةً لِلْبُؤْسِ فِيْنَاْ   وَيُمْلِيْ عِبْرَةً لِلْحَاْكِمِيْنَاْ
يَقُوْلُ: لَقَدْ دَعَاْنِي الْمُلْكُ وَهْناً   فَكُنْتُ لَهُ بِجَوْلَتِهِ خَدِيْنَاْ
أَفَزَّتْهُ مَحَبَّتُهُ لِشَعْبٍ   يَعُزُّ عَلَيْهِ يَوْماً أَنْ يَهُوْنَاْ
سَرَىٰ مُتَنَكِّراً وَاللَّيْلُ قَرٌّ   إِلَىٰ الأَثْلَاْتِ يَفْتَقِد الشُّؤُوْنَاْ
يُطَوِّفُ فِي الْخِيَاْمِ عَسَاْهُ يَلْقَىٰ   بِمُنْزَوِيَاْتِهَاْ رَهْطاً حَزِيْنَاْ
فَمَرَّ هُنَاْكَ بِامْرَأَةٍ عَجُوْزٍ   حَوَاْلَيْهَاْ صِغَاْرٌ يَعْوِلُوْنَاْ
وَقِدْرٌ أَرْكَزَتْهُ عَلَىٰ أَثَاْفٍ   غَلَىٰ عَبَثاً لِتَعْلِيْلِ الْبَنِيْنَاْ

تَقُوْلُ: وَدَأْبُهَا التَّنْفِيْخُ صَبْراً ... بُنَيَّ، سَتَأْكُلُوْنَ وَتَشْبَعُونَاْ
فَظَلَّ الْمَلِكُ يُمْعِنُ نَاْظِرَيْهِ ... بِهَاْ حِيْناً وَبالأَوْلَاْدِ حِيْنَاْ
وَطَاْلَ وُقُوفُهُ فِي الْحَيِّ حَتَّىٰ ... تَوَجَّسَ أَنْ يَرِيْبَ بِهِ الظُّنُوْنَاْ
يَمِيْناً لَيسَ يَبْغِيْ الْبَيْنَ حَتَّىٰ ... يَرَىٰ الأَوْلَاْدَ قَدْ مَلَؤُوْا الْبُطُوْنَاْ
وَمَاْ زَاْلُوْا كَذٰلِكَ بِضْعَ سَاْعٍ ... تُنَفِّخُ فِي الْوُقُوْدِ وَيَصْرُخُوْنَاْ
فَعِيْلَ تَصَبُّراً، وَدَنَاْ إِلَيْهَا ... وَحَيَّاْ قَاْئِلاً: مَاْ تَصْنَعِيْنَاْ؟
وَمَاْ لِبَنِيْكِ يَنْتَحِبُوْنَ؟ قَاْلَتْ: ... جِيَاْعٌ! قَاْلَ: لِمَ لَمْ يَأْكُلُوْنَاْ؟
أَجَاْبَتْ! وَالْمَحَاْجِرُ دَاْمِعَاْتٍ ... أَأُطْعِمُ صِبْيَتِي الْمَاْءَ السَّخِيْنَاْ
فَمَاْ فِي القِدْرِ غَيْرُ حَصىً وَمَاْءٍ ... أُحَاْوِلُ أَنَّهُمْ يَتَعَلَّلُوْنَاْ
لَعَلَّهُمُ مَتَىٰ مَلُّوْا انْتِظَاْرِيْ ... وَسَاْوَرَهُمْ نُعَاْسٌ يَهْجَعُوْنَاْ!!
فَقَاْلَ لَهَاْ: لَقَدْ أَخْطَأْتِ رَأْياً ... وَأَوْرَثْتِ الصِّغَاْرَ ضَنىً وَهُوْنَاْ
فَلِمْ لَمْ تَعْرُضِيْ شَكْوَاْكِ يَوْماً ... عَلَىٰ عُمَرَ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَاْ؟
إِذاً لَكَفَاكِ مُرَّ الْعَيْشِ مِمَّاْ ... يَجُوْدُ وَلَمْ يَكُنْ عُمَراً ضَنِيْنَاْ
فَقَاْلَتْ: لَاْ سَقَتْ عُمَرَ الْغَوَاْدِيْ ... وَنُكِّسَ بَنْدُهُ فِي الْعَاْلَمِيْنَاْ
لَقَدْ سَمَحَتْ بِظُلْمِيَ مُقْلَتَاْهُ ... وَتَحْمِيْلِي الْخَصَاْصَةَ وَالْأَنِيْنَاْ
فَرَاْعَ فُؤَاْدَهُ مَاْ تَدَّعِيْهِ ... وَقَاْلَ لَهَاْ: بِرَبِّكِ أَخْبِرِيْنَاْ
فَقَاْلَتْ: قَدْ أَمَاْلَ الطَّرْفَ عَنَّاْ ... وَلَمْ يَعْبَأْ بِمَاْ قَدْ حَلَّ فِيْنَاْ

أَيَغْفَلُ عَنْ سَوَاْئِمِهِ مَلِيْكٌ يُسَمِّيْ نَفْسَهُ الرَّاْعِيْ الْأَمِيْنَاْ؟
عَلَيْهِ أَنْ يُفَتِّشَ فِي الرَّعَاْيَاْ وَيَرْتَاْدَ الْمَزَاْرِعَ وَالْحُزُوْنَاْ
عَسَاْهُ أَنْ يَرَىٰ مِثْلِي عَجُوْزاً تَبِيْتُ اللَّيْلَ تَنْتَظِرُ الْمُنُوْنَاْ
فَيُنْعِمُ مِنْ خَزِيْنَتِهِ بِشَيْءٍ تُعِيْلُ بِهِ بَنِيْهَاْ الْمُدْنَفِيْنَاْ
فَكَمْ عَاْفٍ يُمَنِّعُهُ حَيَاْءٌ! فَلَاْ يَجْرِيْ مَعَ الْمُتَسَوِّلِيْنَاْ
يَكَاْدُ يَمُوْتُ مِنْ ظَمَأٍ وَجُوْعٍ وَلَاْ يَبْغِيْ أَكُفَّ الْمُحْسِنِيْنَا
إِذَاْ مَلِكٌ تَغَاْضَىٰ عَنْ ذَوِيْهِ فَيُحْسَبُ فِيْ عِدَاْدِ الظَّاْلِمِيْنَاْ
فَقَاْلَ لَهَاْ: صَدَقْتِ فَعَنْ قَلِيْلٍ نَعُوْدُ بِمَا تَيَسَّرَ، فَانْظُرِيْنَاْ
وَسَاْرَ وَسِرْتُ مُحْتَنِياً خُطَاْهُ كَأَنَّ بِنَاْ إِلَىٰ وَطَرٍ حَنِيْنَاْ!
أَكُرُّ وَرَاْءَهُ تَحْتَ الدَّيَاْجِيْ وَتَنْبَحُنَا الْكِلَاْبُ وَتَقْتَفِيْنَاْ
إِلَىٰ بَيْتِ المَؤُوْنَةِ حَيْثُ أَمْسَىٰ هُنَاْلِكَ يَنْبِشُ الذُّخْرَ الدَّفِيْنَاْ
وَمَاْ هُوَ غَيْرُ لَمْحِ الطَّرْفِ حَتَّىٰ حَمَلْتُ السَّمْنَ وَاحْتَمَلَ الطَّحِيْنَاْ
وَعُدْنَاْ وَالدَّقِيْقُ عَلَيْهِ يَذْرِيْ فَعَفَّرَ عَاْرِضَيْهِ وَالْجَبِيْنَاْ
يَكَاْدُ يَنُوْءُ تَحْتَ الْحِمْلِ لَكِنْ مَشَىٰ طُوْلَ الْمَسَاْفَةِ مُسْتَكِيْنَاْ
كَأَنِّيْ إِذْ عَرَضْتُ يَدِيْ عَلَيْهِ ضَرَبْتُ عَلَىٰ صفَاْةٍ لَنْ تَلِيْنَاْ
فَقَاْلَ: اصْمُتْ فَمَاْ حُمِّلْتَ عَنِّيْ ذُنُوْبِي يَوْمَ يُجْزَىٰ الْمُذْنِبُوْنَاْ
إِلَىٰ ٱلأَوْلَاْدِ يَاْ عَبَّاْسُ سِرْ بِيْ أَمُدُّ لِكَشْفِ كُرْبَتِهِمْ يَمِيْنَاْ

أَنَأْكُلُ كُلَّ يَوْمٍ كُلَّ لَوْنٍ؟! وَهُمْ مِنْ جُوْعِهِمْ يَتَضَوَّرُوْنَا
وَنَسْرَحُ فِي رُبُوْعِ الأُنْسِ دَوْماً وَهُمْ مِنْ جُوْعِهِمْ يَتَمَلْمَلُوْنَاْ
وَنَرْقُدُ لَاْ نُبَاْلِيْ بِاْلبَلَاْيَاْ وَهُمْ لِنِبَاْلِهَاْ مُسْتَهْدَفُوْنَاْ
جَفَاْنِيْ عِنْدَ رُؤْيَتِهِمْ رُقَاْدِيْ وَوَاْصَلَنِيْ صُدَاْعٌ لَنْ يَبِيْنَاْ
وَكِدْتُ أُحِسُّ أَنَّ الأَرْضَ مَاْدَتْ وَجَوْفُ الْغمْرِ أَوْشَكَ يَحْتَوِيْنَاْ
إِلَىٰ الْأَوْلَاْدِ يَاْ عَبَّاْسُ أَمْحُوْ خُطَاْيَ وَأَغْسِلُ الْعَاْرَ اْلمُبِيْنَاْ
فَوَيْمُ اللهِ مَاْ القلَلُ الرَّوَاْسِيْ كَحِمْلِ ظَلْاَمَةِ الْمُسْتَضْعَفِيْنَاْ
فَأَزْجَيْنَا الخُطَىٰ فِي الْمَهْلِ حَتَّىٰ طَوَيْنَا مِنْهُ قَاْحِلَةً شَطُوْنَاْ
فَأَدْرَكْنَا الْعَجُوْزَ عَلَىٰ قَتَاْدٍ وَقَدْ أَغْضَتْ مِن التَّعَبِ الجُفُوْنَاْ
وَجَفَّتْ قِدْرُهَاْ فَوْقَ الأَثَاْفِي فَكَاْنَ ثمَاْلُهَاْ كَدَراً وَطِيْنَاْ
فَأَفْرَغَهَا، وَأَفْعَمَهَاْ دَقِيْقاً بِيُمْنَاْهُ، وَدَسَّ بِهِ السَّموْنَاْ
وَكَاْدَ الْوَقْدُ تَحتَ الْقِدْرِ يَخْبُوْ فَأَوْلَجَ فِيْ بَقَاْيَاْهُ غُصُوْنَاْ
مُكِبّاً لَاْ يُثَبِّطُهُ دُخَاْنٌ تَنَاْوَلَ مِنْخَرَيْهِ وَالْعُيُوْنَاْ
يُجِيْدُ الطَّبْخَ تَحْرِيْكاً وَغَلْياً كَأَنَّكَ تَشْهَدُ الطَّاْهِي الْفَطِيْنَاْ
فَأَنْضَجَهُ وَنَحْنُ بِجَاْنِبَيْهِ أَبَى إِصْرَاْرُهُ أَنْ يَسْتَعِينَاْ
وَأَسْرَعَ وَالْبَشَاْشَةُ مِلءُ فِيْهِ بِتَلْقِيْمِ الصِّغَاْرِ الْجَاْئِعِيْنَاْ
يَتَاْمَىٰ مَاْ حَنَاْ أَحَدٌ عَلَيْهِمْ وَلَاْ عَرَفُوْا سِوَاهُ أَباً حَنُوْنَاْ

وَمَاْلَ إِلَىٰ الْعَجُوْزِ فَقَاْلَ: مَهْلاً أَقِلِّيْ اللَّوْمَ وَالْتَزِمِي السُّكُوْنَاْ
سَنَذْكُرُ لِلْأَمِيْرِ بَلَاْكِ إِنَّاْ إِلَىٰ عَرْشِ الإِمَاْرَةِ مُنْتَمُوْنَاْ
كَفَاْكِ كَآبَةً وَطَوَىً وَسَهْداً فَنَاْمِيْ مِلْءَ جَفْنِكِ واصْبِحِيْنَاْ
وَكَاْنَ غَدٌ لَدَىٰ عُمَرَ رَهِيْباً عَلَيْهَاْ حَيْثُ أَدْرَكَتِ اليَقِيْنَاْ
لَدَىٰ عُمَرَا وَقَدْ رَشَقَتْ سِهَاْماً مِنَ التَّنْدِيْدِ بَاْتَ بِهَاْ طَعِيْنَاْ
فَيَاْلَكَ مَوْقِفاً حَرِجاً تَمَنَّتْ لِشِدَّة رَوْعِهَا أَلَّا تَكُوْنَاْ
وَلٰكِنْ نَاْلَهَاْ مِنْهُ الْتِفَاْتٌ نَفَىٰ عَنْهَا التَّأَثُّرَ وَالشُّجُوْنَاْ
فَأَجْزَلَ رَفْدَهَاْ بَعْدَ اعْتِذَارٍ وَبَدَّلَ شِدَّةَ الأَيَّاْمِ لِيْنَاْ
فَرَاْحَتْ وَهِيَ تَرْوِيْ عَنْهُ عَدْلاً وَإِحْسَاناً وَفَرْطَ تُقَىٰ وَدِيْنَاْ
كَذَاْ كَاْنَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ قَدِيْمٍ مِثَاْلاً لِلْمُلُوْكِ الصَّاْلِحِيْنَاْ

(الأستاذ جرجي نخلة سعد)





٧٩ الإمام أبو حامد الغزالي

وُلِدَ أَبُوْ حَامِدٍ مُحَمَّدُ الْغَزَاْلِيُّ بِطوْس سَنَةَ (٤٥٠هـ)، وَكَاْنَ وَاْلِدُهُ يَغْزِلُ الصُّوْفَ، وَيَبِيْعُهُ فِي دُكَّاْنِهِ بِطوْس، وَكَاْنَ فَقِيْراً صَاْلِحاً، لَاْ يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ كَسْبِ يَدِهِ، وَيَطُوْفُ عَلَىٰ الْمُتَفَقِّهَةِ، وَيُجَاْلِسُهُمْ، وَيُنْفِقُ عَلَيْهِمْ بِمَاْ يُمْكِنُهُ، وَكَاْنَ إِذَاْ سَمِعَ كَلَاْمَهُمْ بَكَىٰ، وَتَضَرَّعَ، وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يَرْزُقَهُ ابْناً فَقِيْهاً وَاْعِظاً، فَاسْتَجَاْبَ اللهُ دَعْوَتَهُ، وَلَمَّاْ حَضَرَتْهُ الْوَفَاْةُ وَصَّىٰ بِهِ، وَبِأَخِيْهِ أَحْمَدَ إِلَىٰ صَدِيْقٍ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، فَلَمَّاْ مَاْتَ أَقْبَلَ الرَّجُلُ عَلَىٰ تَعْلِيْمِهِمَاْ إِلَىٰ أَنْ فَنِيَ ذٰلك الَّذِيْ خَلَّفَهُ لَهُمَا أَبُوْهُمُاْ، فَقَاْلَ لَهُمَاْ: اعْلَمَاْ أَنِّي قَدْ أَنْفَقْتُ عَلَيْكُمَاْ مَاْ كَاْنَ لَكُمَاْ، وَأَنَاْ رَجُلٌ فَقِيْرٌ، لَاْ مَاْلَ لِي، فَأَرَىٰ أَنْ تَلْجَأَا إِلَىٰ مَدْرَسَةٍ، فَإِنَّكُمَا مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْم، فَيَحْصُلُ لَكُمَاْ قُوْتٌ يُعِيْنُكُمَا عَلَىٰ وَقْتِكُمَاْ، فَفَعَلَاْ ذٰلِكَ، وَكَاْنَ هُوَ السَّبَبَ فِي سَعَاْدَتِهِمَاْ، وَعُلُوِّ دَرَجَتِهِمَاْ.

قَرَأَ الْغَزَاْلِيُّ فِي صِبَاْهُ طَرَفاً مِنَ الْفِقْهِ بِبَلَدِهِ عَلَىٰ أَحْمَدَ بنِ

مُحمَّدٍ الرَّاْذكَاْنِي، ثُمَّ سَاْفَرَ إِلَىٰ جُرْجَاْن إِلَىٰ الإِمَاْمِ أَبِيْ نَصْرٍ الإِسْمَاْعِيْلِيِّ، وَعلقَ عَنْهُ التَّعْلِيْقَةَ، ثُمَّ رَجعَ إِلَىٰ «طُوْس»، قَاْلَ الْغزَاْلِيُّ: قُطِعَتْ عَلَيْنَاْ الطَّرِيْقُ، وَأَخذَ الْعَيَّاْرُوْنَ جَمِيْعَ مَاْ مَعِيَ، وَمَضَوْا، فَتَبِعْتُهُمْ فَالْتَفَتَ إِليَّ مُقَدَّمُهُمْ، وَقَاْلَ: اِرْجِعْ وَيْحَكَ، وَإِلَّا هَلَكْتَ، فَقُلْتُ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِالَّذِيْ تَرْجُوْ السَّلاْمَةَ مِنْهُ أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ تَعْلِيْقَتِي فَقَطْ، فَمَاْ هِيَ بِشَيْءٍ تَنْتَفِعُوْنَ بِهِ، فَقَاْلَ لِيْ: وَمَاْ هِيَ تَعْلِيْقَتُكَ؟ فَقُلْتُ: كُتُبٌ فِي تِلْكَ الْمخلاة، هَاْجَرْتُ لِسَمَاْعِهَا، وَكِتَابَتِهَا، وَمَعْرِفَةِ عِلْمِهَاْ، فَضَحِكَ، وَقَاْلَ: كَيْفَ تَدَّعِيْ أَنَّكَ عَرَفْتَ عِلْمَهَاْ وَقَدْ أَخَذْنَاْهَاْ مِنْكَ، فَتَجَرَّدْتَ مِنْ مَعْرِفَتِهَاْ، وَبَقِيْتَ بِلاْ عِلْمٍ؟! ثُمَّ أَمَرَ بَعْضَ أَصْحَاْبِهِ فَسَلَّمَ إِلَيَّ الْمخلاةَ، قَاْلَ الْغَزَاْلِيُّ: هٰذَاْ مُسْتَنْطقٌ أَنْطَقَهُ اللهُ لِيُرْشِدَنِيْ بِهِ فِي أَمْرِيْ، فَلَمَّاْ وَاْفَيْتُ «طُوْس» أَقْبَلْتُ عَلَىٰ الاشْتِغَاْلِ ثَلاْثَ سِنِيْنَ، حَتّىٰ حَفِظْتُ جَمِيْعَ مَاْ عَلَّقْتُهُ، وَصِرْتُ بِحَيْثُ لَوْ قُطِعَ عَلَيَّ الطَّرِيْقُ لَمْ أَتَجَرَّدْ مِنْ عِلْمِي.

وَقَدِمَ الْغَزَاْلِيُّ «نَيْسَاْبُوْر» وَلاْزَمَ إِمَاْمَ الْحَرَمَيْنِ، وَجَدَّ وَاجْتَهَدَ، حَتَّىٰ بَرَعَ فِي المَذْهَبِ وَالخِلاْفِ وَالْجَدَلِ والأَصْلين وَالْمَنْطِقِ، وَقَرَأَ الحِكْمَةَ والفَلْسَفَةَ، وَأَحْكَمَ كُلَّ ذٰلِكَ، وَفَهِمَ كَلاْمَ أَرْبَاْبِ هٰذِهِ الْعُلُوْمِ، وَتَصَدَّىٰ لِلرَّدِ عَلَيْهِم، وَإِبْطَاْلِ دَعَاْوِيْهِم، وَصَنَّفَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ هٰذِهِ الْعُلُوْمِ كُتُباً جَلِيْلَةً.



وَلَمَّا مَاْتَ إِمَاْمُ الْحَرَمَيْنِ خَرجَ الْغَزَاْلِيُّ إِلَىٰ «الْمُعَسْكَرِ» قَاْصِداً الوَزِيْرَ نِظَاْم المُلْكِ، إِذْ كَاْنَ مَجْلِسُهُ مَجْمَعَ أَهْلِ الْعِلْم، فَنَاْظَرَ الأَئِمَّةَ وَالْعُلَمَاْءَ فِي مَجْلِسِهِ، وَقَهرَ الْخُصُوْمَ، وَظَهرَ كَلاْمُهُ عَلَيْهِم، وَاْعترَفُوْا بِفَضْلِهِ، وَتَلَقَّاْهُ الصَّاْحِبُ بِالتَّعْظِيْم وَالتَّبْجِيْل، وَوَلّاْهُ تَدْرِيْسَ مَدْرَسَةٍ بِبَغْدَاْدَ، وَأَمرَهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا، فَقَدِمَ بَغْدَاْدَ فِي سَنَةِ (٤٨٤هـ) وَدَرّسَ بِالنّظَاْمِيَّةِ، وَأَعْجَبَ الخَلْقُ حُسْنَ كَلَاْمِهِ، وَكَمَاْلَ فَضْلِهِ، وَفَصَاْحَةَ لِسَاْنِهِ، وَنُكَتَهُ الدَّقِيْقَةَ، وَإِشَاْرَاْتِهِ اللَّطِيْفَةَ، وَأَحبُّوْهُ.

وَأَقَاْمَ عَلَىٰ تَدْرِيْسِ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ بِالتَّعْلِيْم وَالفُتْيَا وَالتَّصْنِيْفِ مُدَّةً، عَظِيْمَ الْجَاْهِ، زَاْئِدَ الحِشْمَةِ، عَاْلِيَ الرُّتْبَةِ، مَسْمُوْعَ الكَلِمَةِ، مَشْهُوْرَ الاسْم، وَعَلَتْ حِشْمَتُهُ وَدَرجتُهُ فِي بَغْدَاْدَ حَتَّىٰ كَاْنَتْ تَغْلِبُ حِشْمَةَ الأَكَاْبِرِ وَالأمَرَاْءِ وَدَاْرِ الخِلَاْفَةِ.

ثُمَّ تَبَرَّمَتْ نَفْسُهُ مِمَّا كَاْنَ فِيْهِ مِنَ الجَاْهِ، وَكَثْرَةِ الطَّلَبَةِ، والاقْتِدَاْرِ عَلَىٰ العُلُوْمِ وَتَدْرِيْسِهَا، واعْتَرَاْهُ شَكٌّ فِي العُلُوْم، وَظَهَر لَهُ أَنَّهُ لَاْ مَطْمَعَ فِي سَعَادَةِ الآخِرَةِ إِلَّا بِالتَّقْوىٰ، وَكَفِّ النَّفْسِ عَنِ الهَوىٰ، وَالإقْبَاْلِ عَلَىٰ اللهِ تَعَاْلَىٰ، وَأَنَّ ذٰلِكَ لَاْ يَتِمُّ إِلَّا بِالإِعْرَاْضِ عَنِ الجَاْهِ وَالْمَاْلِ، وَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ، فَإِذَا هُوَ مُقْبِلٌ عَلَىٰ عُلُوْمٍ غَيْرِ مُهِمَّةٍ، وَلَاْ نَاْفِعَةٍ فِي طَرِيْقِ الآخِرَةِ، وَتَفَكَّرَ فِي نِيَّتِهِ، فَإِذَا هِيَ غَيْرُ خَاْلِصَةٍ لِوَجْهِ اللهِ تَعَاْلَىٰ، فَتَيَقَّنَ أَنَّهُ عَلَىٰ

خَطَرٍ، وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِي مُفَارَقَةِ بَغْدَادَ، وَتَرَكَ التَّدْرِيْسَ قَرِيْباً مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَأَوْرَثَ ذٰلِكَ حُزْناً فِي القَلْبِ بَطُلَ مَعَهُ الهَضْمُ، وتَعَدَّى إِلَىٰ ضَعفِ القُوَىٰ، حَتَّىٰ يَئِسَ مِنْهُ الأَطِبَّاءُ، وَأَشَارُوْا عَلَيْهِ بِالتَّرْوِيْحِ، وَخَفَّ عَلَيْهِ الإِعْرَاضُ عَنِ الجَاهِ وَالْمَالِ فَفَارَقَ بَغْدَادَ، وَفَرَّقَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ، وَلَمْ يَدَّخِرْ إِلَّا قَدْرَ الْكَفَافِ، وَحَجَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، ثُمَّ دَخَلَ الشَّامَ، وَأَقَامَ بِهِ قَرِيْباً مِن سَنَتَيْن، لَا شُغْلَ لَهُ إِلَّا العُزْلَةَ، والخَلْوَةَ، والرِّيَاضَةَ، وَالْمُجَاهَدَةَ، اشْتِغَالاً بِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَتَهْذِيْبِ الأَخْلَاقِ، وَتَصْفِيَةِ الْقَلْبِ لِذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، ثَمَّ تَوَجَّهَ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، فَجَاوَرَ بِهِ مُدَّةً، ثُمَّ إِلَىٰ دِمَشْقَ، وَاعْتَكَفَ بِالمَنَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْجَامِع، وَصَنَّفَ التَّصَانِيْفَ الْمَشْهُوْرَةَ الَّتِي لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهَا، مِثْل: إِحْيَاءِ عُلُوْمِ الدِّيْنِ، وَصَادَفَ دُخُوْلُهُ يَوْماً الْمَدْرَسَةَ الأَمِيْنِيَّةَ، فَوَجَدَ الْمُدَرِّسَ يَقُوْلُ: قَالَ الْغَزَالِي، وَهُوَ يُدَرِّسُ مِنْ كَلَامِهِ، فَخَشِيَ الْغَزَالِيُّ عَلَى نَفْسِهِ الْعُجْبَ، فَفَارَقَ «دِمَشْقَ»، وَأَخَذَ يَجُوْلُ فِي البِلَادِ، فَدَخَلَ مِنْهَا إِلَىٰ مِصْرَ، وَتَوَجَّهَ مِنْهَا إِلَىٰ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، فَأَقَامَ بِهَا مُدَّةً، وَاسْتَمَرَّ يَجُوْلُ فِي البُلْدَانِ، وَيَزُوْرُ الْمَشَاهِدَ، وَيُرَوِّضُ نَفْسَهُ، وَيُجَاهِدُهَا، وَاسْتَفَادَ مِنْ صُحْبَةِ الشَّيْخِ أَبِي عَلِي الْفَارْمَدِي، وَانْكَشَفَتْ عَلَيْهِ عُلُوْمٌ وَحِكَمٌ، وَعَلَتْ مَدَارِكُهُ، وَعَادَ إِلَىٰ الوَطَنِ، وَآثَرَ الْعُزْلَةَ.

وَأُلْزِمَ بِالْعَوْدِ إِلَىٰ نيسَابُوْرَ وَالتَّدْرِيْس بِهَا فِي الْمَدْرَسَةِ النِّظَامِيَّةِ، فَأَجَابَ إِلَىٰ ذٰلِكَ بَعْدَ تِكْرَارِ المُعَاوَدَاتِ، وَدَرَّسَ مُدَّةً يَسِيْرَةً، وَكُلُّ قَلْبِهِ مُعَلَّقٌ مِمَّا فُتِحَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّرِيْقِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ مَدِيْنَةِ «طُوْس»، وَاتَّخَذَ إِلَىٰ جَانِبِ دَارِهِ مَدْرَسَةً لِلْفُقَهَاءِ، وَزَاوِيَةً لِلصُّوفيَّةِ، وَوَزَّعَ أَوْقَاتَه عَلَىٰ وَظَائِفَ مِنْ خَتْمِ الْقُرْآنِ، وَمُجَالَسَةِ أَرْبَابِ الْقُلُوْبِ، وَالتَّدْرِيْسِ لِطَلَبَةِ الْعِلْم، وَإِدَامَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَسَائِرِ الْعِبَادَاتِ، بِحَيْثُ لاَ تَخْلُوْ لَحْظَةٌ مِنْ لَحظَاتِهِ، وَلَحَظَاتِ مَنْ مَعَهُ عَنْ فَائِدَةٍ، إِلَىٰ أَنِ انْتَقَلَ إِلَىٰ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي يَوْمِ الإِثْنَيْنِ (١٤) جُمَادَىٰ الآخِرَة سنة (٥٠٥هـ).

قَالَ أَخُوْهُ أَحْمَدُ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْخَمِيْسِ وَقْتَ الصُّبْحِ تَوَضَّأَ أَخِيْ أَبُوْ حَامِدٍ، وَصَلَّىٰ، وَقَالَ: عَلَيَّ بِالْكَفَنِ، فَأَخَذَهُ، وَقَبَّلَهُ، وَوَضَعَهُ عَلَىٰ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: سَمْعاً وَطَاعَةً لِلدُّخُوْلِ عَلَىٰ الْملكِ، ثُمَّ مَدَّ رِجْلَيْهِ، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَمَاتَ قَبْلَ الإِسْفَارِ.

وَكَانَتْ خَاتِمَةُ أَمْرِهِ إِقْبَالَهُ عَلَىٰ حَدِيْثِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَمُجَالَسَةَ أَهْلِهِ، وَمُطَالَعَةَ الصَّحِيْحَيْنِ؛ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِم، وَمَاتَ وَكِتَابُ الصَّحِيْح لِلْبُخَارِيِّ عَلَىٰ صَدْرِهِ.

كَانَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ شَدِيْدَ الذَّكَاءِ، سَدِيْدَ النَّظَرِ، عَجِيْبَ الْفِطْرَةِ، عَالِيَ الهِمَّةِ، مُفْرِطَ الإِدْرَاكِ، قَوِيَّ الْحَافِظَةِ، بَعِيْدَ الْغوْرِ، غَوَّاصاً عَلَىٰ المعَانِي الدَّقِيْقَةِ، مُنَاظِراً، قَوِيَّ الحُجَّةِ.

٨٠

بين والد جندي وولد فقيه

خَرَجَ فروْخُ أَبُوْ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ فِي الْبُعُوْثِ إِلَىٰ خُرَاْسَاْنَ أَيَّاْمَ بَنِيْ أُمَيَّةَ غَاْزِياً، وَوَلَدُهُ رَبِيْعَةُ حِمْلٌ فِيْ بَطْنِ أُمِّهِ، وَخَلَفَ عِنْدَ زَوْجَتِهِ أُمِّ رَبِيْعَةَ ثَلَاْثِيْنَ أَلْفَ دِيْنَاْرٍ، فَقَدِمَ الـمَدِيْنَةَ بَعْدَ سَبْعٍ وَعِشْرِيْنَ سَنَةً، وَهُوَ رَاْكِبٌ فَرَساً، فِي يَدِهِ رُمْحٌ، فَنَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ، ثُمَّ دَفَعَ الْبَاْبَ بِرُمْحِهِ، فَخَرَجَ رَبِيْعَةُ، فَقَاْلَ لَهُ: يَاْ عَدُوَّ اللهِ! أَتَهْجِمُ عَلَىٰ مَنْزِلِي؟

فَقَاْلَ: لَاْ.

وَقَاْلَ فَروْخُ: يَاْ عَدُوَّ اللهِ! أَنْتَ رَجُلٌ دَخَلْتَ عَلَىٰ حُرْمَتِي.

فَتَوَاْثَبَاْ، وَتَلَبَّبَ كُلُّ وَاْحِدٍ مِنْهُمَاْ بِصَاْحِبِهِ، حَتَّىٰ اجْتَمَعَ الجِيْرَاْنُ، فَبَلَغَ مَاْلِك بن أَنَس وَالمَشْيَخَة، فَأَتَوا يُعِيْنُوْنَ رَبِيْعَةَ، فَجَعَلَ رَبِيْعَةُ يَقُوْلُ: وَاللهِ لَاْ فَاْرَقْتُكَ إِلَّا عِنْدَ السُّلْطَاْنِ، وَجَعَلَ فَروْخُ يَقُوْلُ: وَاللهِ لَاْ فَاْرَقْتُكَ إِلَّا بالسُّلْطَاْنِ، وَأَنْتَ مَعَ امْرَأَتِي، وَكَثُرَ الضَّجِيْجُ.

فَلَمَّاْ بَصرُوْا بِمَاْلِكٍ سَكَتَ النَّاْسُ كُلُّهُمْ، فَقَاْلَ مَاْلِك: أَيُّها الشَّيْخُ، لَكَ سعَةٌ فِيْ غَيْرِ هٰذِهِ الدَّاْر، فَقَاْلَ الشَّيْخُ: هِيَ دَاْرِيْ وَأَنَاْ فَروْخُ مَوْلَىٰ بَنِيْ فُلَاْنٍ، فَسَمِعَت امْرَأَتُه كَلَاْمَه، فَخَرَجَتْ، فَقَاْلَتْ: هـٰذا زَوْجِيْ، وَهـٰذَا ابْنِي الَّذِيْ خَلَّفْتُهُ وَأَنَاْ حَاْمِلُ بِهِ، فَاْعتَنَقَا جَمِيْعاً وَبَكَيَا، فَدَخَلَ فَروخُ المَنْزِلَ، وَقَاْلَ: هٰذَا ابْنِي؟

قَاْلَتْ: نَعَمْ!

قَاْلَ: فَأَخْرِجِي الْمَاْلَ الَّذِي لِيْ عِنْدَكِ، وَهٰذِهِ مَعِيَ أَرْبَعَةُ آلَاْفِ دِيْنَاْرٍ.

فَقَاْلَتْ: الْمَالُ قَدْ دَفَنْتُهُ، وَأَنَاْ أُخْرِجُهُ بَعْدَ أَيَّاْمٍ.

فَخَرَجَ رَبِيْعَةُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَجَلَسَ فِي حَلْقَتِهِ، وَأَتَاْهُ مَاْلِكُ ابْنُ أَنَس، وَالحَسَنُ بنُ زَيْدٍ، وَابْنُ أَبِي عَلِيٍّ اللّهَبِي، والمساْحِقِي، وَأَشْرَاْفُ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ، وَأَحْدَقَ النَّاْسُ بِهِ، فَقَاْلَت امْرَأَتُهُ: اخْرُجْ صَلِّ فِيْ مَسْجِدِ الرَّسُوْلِ ﷺ، فَخَرَجَ فَصَلَّىٰ، فَنظَرَ إِلَىٰ حَلَقَةٍ وَاْفِرَةٍ، فَأَتَاْهُ فَوَقَفَ عَلَيْهِ، فَفرَّجُوْا لَهُ قَلِيْلاً، وَنَكَّسَ رَبِيْعَةُ رَأْسَهُ يُوْهِمُهُ أَنَّهُ لَمْ يرَهُ، وَعَلَيْهِ طَوِيْلَةٌ، فَشَكَّ فِيْهِ أَبُوْ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ، فَقَاْلَ: مَنْ هَـٰذَا الرَّجُلُ؟

فَقَاْلُوْا لَهُ: هٰذَا رَبِيْعَةَ بنُ أَبِيْ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ.

فَقَاْلَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ: لَقَدْ رَفَعَ اللهُ ابْنِي، فَرَجَعَ إِلَىٰ

مَنْزِلِهِ، فَقَاْلَ لِوَاْلِدَتِهِ: لَقَدْ رَأَيْتُ وَلَدَكِ فِيْ حَاْلَةٍ مَاْ رَأَيْتُ أَحداً مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالفِقْهِ عَلَيْهَا.

فَقَاْلَتْ أُمُّهُ: أيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، ثَلاْثُوْنَ ألف دِيْنَاْراً، أَوْ هٰذَا الَّذِيْ هُوَ فِيْهِ مِنَ الْجَاْهِ؟

قَاْلَ: لَاْ وَاللهِ، إِلَّا هٰذَا.

قَاْلَتْ: فَإِنِّي أَنْفَقْتُ الْمَاْلَ كُلَّهُ عَلَيْهِ.

قَاْلَ: فَوَ اللهِ مَاْ ضَيَّعْتِهِ.

(تَاْرِيْخُ بَغْدَاْد لِلْخَطِيْبِ: ج٨، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢)





٨١

فاكهة الهند

إِنْ كُنْتَ تَبْغِيْ أَطْيَبَ اللَّذَّاْتِ   فَعَلَيْكَ صَاْحِ بِأَنْبَهِ الثَّمَرَاْتِ
فِيْ حُسْنِ مَرْأَىٰ فِيْ نَبَاْهَةِ سِيْرَةٍ   فِيْ لُطْفِ ذَاْتٍ فِيْ سُمُوِّ صِفَاْتِ
يَاْ حُسْنَ حُمْرَتِهَاْ وَخُضْرَتِهَاْ وَصُفْرَ   تِهَاْ عَلَىٰ الأَشْجَاْرِ فِي الرَّوْضَاْتِ
وَتَرَىٰ ثِمَاْراً عُلِّقَتْ فِيْ غُصْنِهَاْ   مَخْتُوْمِ رَاْحٍ فِيْ أَكُفِّ سُقَاْةِ
لَمْ يَخْتَلِفْ كَمِثَاْلِهَا الأَثْمَارُ فِي   الأَلْوَاْنِ وَالأَذْوَاْقِ وَالْهَيْئَاْتِ
هٰذَاْ وَلَاْ تَحْسَبْهُ صِنْفاً وَاْحِداً   بَلْ جُمْلَةُ الأَصْنَاْفِ مُخْتَلِفَاْتِ
سُبحَاْنَ مَنْ بِالْفَضْلِ فَضَّلَهَاْ عَلَىٰ   أَشْهَىٰ مَذُوْقَاْتٍ وَمَشْمُوْمَاْتِ
بِالْجَاْمِعِيَّةِ فَاْقَتِ الأَثْمَارَ كَا   لْإِنسَاْنِ فَاْقَ جَمِيْعَ حَيْوَاْنَاْتِ
جَلَّ الْقَدِيْرُ مَنْ فِيْ ثَمْرَةٍ   بِالصُّنْعِ يَجْمَعُ سَاْئِرَ الثَّمَرَاْتِ
وَإِذَاْ تَجَلَّىٰ فِي الغُصُوْنِ رَأَيْتَهُ   دَاْنِي الصِّفَاْتِ بَعِيْد مَوْصُوْفَاْتِ
لِلّٰهِ دَرُّ بَهَاْئِهَا وَوَفَاْئِهَاْ   مِنْ غُصْنِهَاْ تَنْفَكُّ بِالْعَبَرَاْتِ
لِلْمَرْءِ فِيْهِ مُنْتَهَىٰ حَاْجَاْتِهِ   تُغْنِيْهِ عَنْ مَاْءٍ وَعَنْ أَقْوَاْتِ

وَإِذَاْ دَعَاْكَ اللهُ صَاْحَ فَوَاْتُهُ: وَتَمَتَّعَنْ بِهِ قُبَيْلَ فَوَاْتِ
فَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّاْمُهُ كَالبَرْقِ لَاْ يُجْدِيْكَ حِيْنَئِذٍ سِوَىٰ الحَسَرَاْتِ
لَاْ غَرْوَ إِنْ قَصُرَتْ مَدَاْهَا إِنَّ أَيْـ ـيَّامَ السُّرُوْرِ تَمُرُّ كَالسَّاْعَاْتِ
يَاْ صَاْحِ مَاْ هٰذَا الْجُمُوْدُ فَقُمْ بِنَاْ نَخْرُجُ إِلَىٰ الأَنْهَاْرِ وَالدَّوْحَاتِ
فَالْغَيْمُ تَبْكِيْ مِثْلَ صَبٍّ هَاْئِمٍ وَالْبَرْقُ يَضْحَكُ نَحْو مُبْتَسِمَاْتِ
وَالْوَرَقُ يَصْفُقُ بِاتِّفَاْقِ غُصُوْنِهَا وَالطَّيْرُ يَسْجَعُ بِاخْتِلَاْفِ لُغَاْتِ
أَوَ مَاْ تَرَىٰ الْمَاْءَ الْمُبَاْرَكَ كَيْفَ أَنْبَتَ سَاْئِرَ الأَزْهَاْرِ وَالْحَبَّاْتِ
فَدَعِ التَّنَسُّكَ سَاْعَةً بِخَلَاْعَةٍ نَقْضِيْ فَرَاْئِضَ هٰذِهِ الأَوْقَاْتِ
نَلْهُوْ وَنَتَرَاْمَىٰ الثِّمَاْرَ وُجُوْهَهَاْ وقُشُوْرَهَاْ بِبَدَاْئِعِ الْحَرَكَاْتِ
نَفْرِيْ شُرُوْرَ الدَّهْرِ عَنَّا يَوْمَنَاْ بِتَرَنُّمٍ يُحْيِي العِظَاْمَ رُفَاْتِ
وَلَئِنْ يَلُمْكَ اللَّاْئِمُوْنَ فَقُلْ لَهُمْ: الاضْطِرَاْرُ يُبِيْحُ مَحْظُوْرَاْتِ

(الشيخ ذو الفقار علي الديوبندي)





حديث القمر (١)

كَاْنَتِ السَّمَاْءُ مَصْحِيَّةً لَاْ غَيْمَ فِيْهَا، وَاللَّيْلَةُ مُقْمِرَةً، وَكَاْنَ هِشَاْمُ يُطَاْلِعُ الْقَمَرَ كَأَنَّمَا يُطَاْلِعُ فِي كِتَاْبٍ.

وَكَاْنَ أَبُوْهُ يَرَىٰ ذٰلِكَ فِي اللَّيَاْلِي الْمُقْمِرَةِ فَأَرَاْدَ أَنْ لَاْ يَضِيْعَ هٰذَا النَّظَرُ وَلَاْ يَخْلُوَ مِنْ دَرْسٍ.

قَاْلَ الْوَاْلِدُ: يَاْ هِشَاْمُ! أَرَاْكَ تَنْظُرُ إِلَىٰ الْقَمَرِ طَوِيْلاً، كَأَنَّكَ تَتَمَتَّعُ بِمَنْظَرِهِ.

هِشَاْمُ: نَعَمْ يَاْ أَبِيْ! إِنَّ مَنْظَرَهُ جَمِيْلٌ جِدّاً لَاْ أَكَاْدُ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ قَدِرْتُ لَصَعَدْتُ إِلَيْهِ بِسُلَّمٍ.

الْوَاْلِدُ: وَكَمْ تُقَدِّرُ بُعْدَهُ يَاْ هِشَاْمُ؟ وَأَيَّ سُلَّمٍ أَوْ مَنَاْرَةٍ تُرَاْهَا تَكْفِيْكَ لِلصُّعُوْدِ إِلَىٰ الْقَمَرِ؟

هِشَاْمُ: إِنِّي لَمْ أَرَ يَاْ أَبِي سُلَّماً رَفِيْعاً جِدّاً، وَلٰكِنِّيْ أَقْدِرُ إِذَاْ كَاْنَتْ هُنَاْلِكَ مَنَاْرَةٌ ارْتِفَاْعُهَا ضِعْفُ مَنَاْرَةِ قطْبِ الدِّيْنِ فِي دهْلِي لَأَمْكَنَ الصُّعُوْدُ إِلَىٰ الْقَمَرِ.

الْوَاْلِدُ: وَكَم ارْتِفَاْعُ مَنَاْرَةِ قُطْبِ الدِّيْنِ يَاْ هِشَاْمُ؟

هِشَاْمُ: سَمِعْتُ أَنَّ ارْتِفَاْعَهَا مِئَتَاْنِ وَاثْنَتَاْنِ وَأَرْبَعُوْنَ قَدَماً أَوْ ثَمَاْنُوْنَ ذِرَاْعاً، وَذٰلِكَ ارْتِفَاْعٌ كَبِيْرٌ.

الْوَاْلِدُ: سُبْحَاْنَ اللهِ إِنَّكَ وَلَدٌ بَسِيْطٌ، إِنَّ الْقَمَرَ يَاْ وَلَدِيْ يَبْعُدُ مِنَ الأَرْضِ مِئَتَيْ أَلْفٍ وَخَمْسِيْنَ أَلْفَ مِيْلٍ، وَهُوَ أَقْرَبُ الْكَوَاْكِبِ إِلَىٰ الأَرْضِ.

هِشَاْمُ: فَفِيْ كَمْ مُدَّةٍ يَصِلُ الإِنْسَاْنُ إِلَىٰ الْقَمَرِ إِذَاْ سَاْفَرَ إِلَيْهِ؟

الْوَاْلِدُ: إِذَاْ سَاْفَرَ الإِنْسَاْنُ إِلَىٰ الْقَمَرِ فِيْ قِطَاْرٍ يَسِيْرُ خَمْسِيْنَ مِيْلاً فِيْ سَاْعَةٍ فَإِنَّهُ يَصِلُ إِلَىٰ الْقَمَرِ فِي نَحْوِ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ.

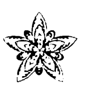
وَإِذَاْ كَاْنَتِ الطَّاْئِرَةُ تَطِيْرُ خَمْسَمِئَةِ مِيْلٍ فِيْ سَاْعَةٍ فَالإِنْسَاْنُ يَصِلُ إِلَىٰ الْقَمَرِ بِالطَّاْئِرَةِ فِيْ يَوْمَيْنِ وَعِشْرِيْنَ سَاْعَةً.

هِشَاْمُ: يَاْ سُبْحَاْنَ اللهِ! أَبِيْ! تَقُوْلُ إِنَّ الْقَمَرَ أَقْرَبُ الْكَوَاْكِبِ إِلَىٰ الأَرْضِ، فَهَل الْقَمَرُ كَوْكَبٌ؟

الْوَاْلِدُ: نَعَمْ يَاْ وَلَدِيْ! الْقَمَرُ وَالشَّمْسُ وَالأَرْضُ وَالنُّجُوْمُ كُلُّهَاْ كَوَاْكِبُ، مِنْهَا الْقَرِيْبُ وَمِنْهَا الْبَعِيْدُ، وَمِنْهَا الصَّغِيْرُ وَمِنْهَا الْكَبِيْرُ.

هِشَاْمُ: شَيْءٌ غَرِيْبٌ، فَهَل الشَّمْسُ أَقْرَبُ الْكَوَاْكِبِ إِلَىٰ الأَرْضِ وِلذٰلِكَ نُوْرُهَا سَاْطِعٌ وَقَوِيٌّ جِدّاً؟

الْوَاْلِدُ: لاَ يَاْ وَلَدِيْ! الشَّمْسُ تَبْعُدُ مِنَ الأَرْضِ مِقْدَاْرَ ثَلاَثَةِ



وَتِسْعِيْنَ مِلْيُوْنَ مِيْلٍ، فَالإِنْسَانُ يَصِلُ إِلَىٰ الشَّمْسِ فِيْ ذٰلِكَ الْقِطَارِ في مِئَتَي عَامٍ وَعَشَرَة أَعْوَامٍ.

هِشَامُ: اللهُ أَكْبَرُ، لِأَيِّ شَيْءٍ هِيَ سَاطِعَةٌ، وَاضِحَةٌ جِدّاً؟

الْوَالِدُ: لِأَنَّهَا أَكْبَرُ مِنَ الْأَرْضِ بِمِلْيُوْنٍ وَثَلَاثمِئَةِ أَلْفِ مَرَّةٍ، وَلَوْلَا هٰذَا الْبُعْدُ الشَّاسِعُ لَكَانَتْ أَسْطَعَ وَأَوْضَحَ.

هِشَامُ: وَهَلْ هٰذِهِ النُّجُوْمُ الَّتِيْ نَرَاهَا كَالنُّقَطِ صَغِيْرَةٌ جِدّاً.

الْوَالِدُ: لَا يَا وَلَدِيْ! إِنَّ بَعْضَ النُّجُوْمِ أَكْبَرُ مِنَ الشَّمْسِ بِكَثِيْرٍ، وَلٰكِنَّهَا أَبْعَدُ عَنْهَا كَذٰلِكَ بِكَثِيْرٍ، حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَهَا لَا يُرَىٰ إِلَّا بِالْمُكَبِّرَةِ.





حديث القمر (٢)

هِشَاْمُ: وَكَيْفَ النَّاْسُ فِيْ عَاْلَمِ الْقَمَرِ؟ وَكَيْفَ دِيَاْنَتهُمْ وَأَخْلَاْقُهُمْ؟ وَكَيْفَ الْمَسَاْجِدُ وَالْمَدَاْرِسُ؟ وَهَلْ فِي الْمَدَاْرِسِ اخْتِبَاْرٌ سَنَوِيٌّ؟ وَكُتُبٌ صَعْبَةٌ وَمُعَلِّمُوْنَ غِلَاْظٌ؟

الْوَاْلِدُ: إِنَّكَ لَسَؤُوْلٌ وَحَدِيْثٌ، وَهَلْ إِذَاْ خَبَّرْتُكَ بأَنَّ عَاْلَمَ الْقَمَر لَيسَ فِيْهِ مَدَاْرِسُ، أَوْ هُنَاْلِكَ مَدَاْرِسُ وَلَـٰكِنْ لَيْسَ فِيْهَا اخْتِبَاْرٌ وَامْتِحَاْنٌ، وَالْمُعَلِّمُوْنَ كُلُّهُمْ رَحْمَةٌ وَشَفَقَةٌ لَاْ يُعَاْقِبُوْنَ وَلَاْ يَغْضَبُوْنَ، فَهَل تُهَاْجِرُ مِنَ الأَرْضِ إِلَىٰ الْقَمَرِ؟

هِشَاْمُ: نَعَمْ يَاْ أَبِي! إِذَاْ هَاْجَرْتَ مَعِي وَهَاْجَرَتْ مَعَنَا أُمُّنَاْ وَأُسْرَتُنَاْ، وَلَـٰكِنِّيْ أَعِدُكَ بِأَنِّيْ أَقْرَأُ هُنَاْلِكَ.

الْوَاْلِدُ: يُؤْسِفُكَ أَنَّ الْقَمَرَ لَيسَ فِيْهِ عُمْرَاْنٌ، وَلَاْ يُوْجَدُ فِيْهِ السُّكَّاْنُ، بَلْ هُوَ قَاْعٌ صَفْصَفٌ؛ لِأَنَّ الْبَرْدَ هُنَاْلِكَ شَدِيْدٌ لَاْ يُطِيْقُهُ الإِنْسَاْنُ.

هـٰذَاْ مَاْ وَصَلَ إِلَيْهِ الإِنْسَاْنُ وَانْتَهَىٰ إِلَيْهِ عِلْمُهُ إِلَىٰ هـٰذَا

الْوَقْتِ، وَمَنْ يَدْرِيْ؟ لَعَلَّهُ يَثْبُتُ خِلَاْفُ ذٰلِكَ غَداً! فَإِنَّ عِلْمَ الإِنْسَاْنِ نَاْقِصٌ، وَهُوَ كَالْكَوْكَبِ السَّيَّاْرِ، يَتَحَوَّلُ وَيَتَغَيَّرُ.

فَقَدْ نَقَضَ الْعِلْمُ الْحَدِيْثُ الْعِلْمَ الْقَدِيْمَ، وَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَقُوْلَ: إِنَّهُ لَاْ يَنْقُضُ هٰذَاْ الْحَدِيْثَ أَحْدَثُ مِنْهُ وَأَحْكَمُ مِنْهُ؟ فَالآلَاْتُ تَتَحَسَّنُ وَتَرْتَقِيْ، وَالإِنْسَاْنُ فِي اكْتِشَاْفٍ وَاخْتِبَاْرٍ.

فَالأَمْسُ كَاْنَ النَّاسُ يَعْتَقِدُوْنَ أَنَّ الشَّمْسَ تَدُوْرُ حَوْلَ الأَرْضِ، وَأَنَّ الأَرْضَ سَاْكِنَةٌ مُسَطَّحَةٌ، وَيَسْتَدِلُّوْنَ عَلَىٰ ذٰلِكَ بِكُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ أَثْبَتُوْا بِالدَّلَاْئِلِ وَالاخْتِبَاْرِ أَنَّ الأَرْضَ مُسْتَدِيْرَةٌ، كُرَوِيَّةُ الشَّكْلِ، تَدُوْرُ حَوْلَ الشَّمْسِ، وَإِذَاْ خَاْلَفَ ذٰلِكَ إِنْسَاْنٌ رَأَىٰ إِلَيْهِ النَّاْسُ شَزَراً، وَظَنُّوْا أَنَّهُ مِنْ رِجَاْلِ الْقُرُوْنِ الْمَاْضِيَةِ.





حديث القمر (٣)

هِشَاْمُ: وَمِنْ أَيْنَ هٰذَا النُّوْرُ يَاْ أَبِيْ؟ وَهَلْ هُنَاْلِكَ قَمَرٌ آخَرُ؟

الْوَاْلِدُ: هٰذَا النُّوْرُ عَاْرِيَةٌ مِنَ الشَّمْسِ، فَإِنَّ نُوْرَ الشَّمْسِ يَنْعَكِسُ فِي الْقَمَرِ فَيَسْتَنِيْرُ، كَمَاْ يَنْعَكِسُ نُوْرُ الْمِصْبَاْحِ فَتَسْتَنِيْرُ الْمِرْآةُ.

هِشَاْمُ: وَمَاْ هُوَ الْخُسُوْفُ يَاْ أَبِي؟ فَقَدْ رَأَيْتُ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ مَخْسُوْفاً، وَرَأَيْتُ النَّاْسَ يَتَصَدَّقُوْنَ وَيُصَلُّوْنَ.

الْوَاْلِدُ: الْقَمَرُ يَدُوْرُ حَوْلَ الأَرْضِ وَ. . . . .

هِشَاْمُ: وَهَلِ الْقَمَرُ أَصْغَرُ مِنَ الأَرْضِ؟

الْوَاْلِدُ: نَعَم، الأَرْضُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَمَرِ خَمْسِيْنَ مَرَّةً، فَالْقَمَرُ يَدُوْرُ حَوْلَ الأَرْضِ، وَالأَرْضُ كَمَاْ عَلِمْتَ تَدُوْرُ مَعَ الْقَمَرِ حَوْلَ الشَّمْسِ، فَإِذَاْ حَاْلَتِ الأَرْضُ بَيْنَ الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ أَصْبَحَتْ حِجَاْباً لِلْقَمَرِ وَانْقَطَعَ عَنْهُ نُوْرُ الشَّمْسِ وَأَظْلَمَ الْقَمَرُ، فَإِذَا

حَجَبَتِ الأَرْضُ جُرْمَ الْقَمَرِ كُلَّهُ احْتَجَبَ الْقَمَرُ كُلُّهُ، وَإِذَاْ حَجَبَتْ بَعْضَ جُرْمِهِ احْتَجَبَ وَأَظْلَمَ هٰذَا الْجُزْء فَقَطْ!

هِشَاْمُ: لَمْ أَفْهَمْ ذٰلِكَ جَيِّداً يَاْ أَبِيْ!

الْوَاْلِدُ: اُنْظُرْ! هٰذَاْ مِصْبَاْحٌ مُنِيْرٌ، وَهٰذِهِ مِرْآةٌ مَصْقُوْلَةٌ وَقَدْ أَشْرَقَتِ الْمِرْآةُ بِنُوْرِ الْمِصْبَاْحِ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ يَاْ عَزِيْزِيْ؟

هِشَاْمُ: بَلَىٰ يَاْ سَيِّدِيْ!

الْوَاْلِدُ: وَلِمَاْذَاْ أَظْلَمَتْ هَذِهِ الْمِرْآةُ الآنَ؟ وَأَيْنَ ذَهَبَ النُّوْرُ الْمُنْعَكِسُ فِيْهَا؟

هِشَاْمُ: لِأَنَّكَ وَقَفْتَ بَيْنَهُمَاْ فَحَجَبْتَ النُّوْرَ عَنِ الْمِرْآةِ، وَالْمِرْآةُ الْمِسْكِيْنَةُ لَيْسَ نُوْرُهَاْ فِيْهَا بَلْ يَأْتِيْهَا مِنَ الْمِصْبَاحِ.

الْوَاْلِدُ: صَدَقْتَ يَاْ وَلَدِيْ، وَكَذٰلِكَ الْقَمَرُ مَعَ الشَّمْسِ، لَاْ يَزَاْلُ مُسْتَنِيْراً بِنُوْرِهَاْ حَتَّىٰ يَحُوْلَ بَيْنَهُمَا حَاْئِلٌ، وَالْحَاْئِلُ هُوَ الأَرْضُ فَقَطْ.

هِشَاْمُ: وَلِمَاْذَاْ لَاْ تَحُوْلُ الأَرْضُ دَاْئِماً بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؟ وَلِمَاْذَاْ لَاْ يَنْخَسِفُ الْقَمَرُ دَاْئِماً؟

الْوَاْلِدُ: أَحْسَنْتَ السُّؤَاْلَ، وَذٰلِكَ لِأَنَّ الْقَمَرَ يَتَزَحْزَحُ قَلِيْلاً عَنْ مَكَاْنِهِ فِي الدَّوَرَاْنِ، فَلَاْ تَجْتَمِعُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالأَرْضُ عَلَىٰ خَطٍّ وَاْحِدٍ إِلَّا فِي النَّاْدِرِ، وَإِذَنْ يَنْخَسِفُ الْقَمَرُ أَوْ تَنْكَسِفُ الشَّمْسُ.

هِشَاْمُ: وَلَاْ بُدَّ أَنَّ الشَّمْسَ تَنْكَسِفُ إِذَاْ حَاْلَ الْقَمَرُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالأَرْضِ، فَيَحْجِبُ نُوْرَ الشَّمْسِ عَنِ الأَرْضِ بِطَبِيْعَةِ الْحَاْلِ.

الْوَاْلِدُ: إِنَّكَ لَوَلَدٌ فَطِنٌ، وَقَدْ أَصَبْتَ فِي الْقِيَاْسِ.

هِشَاْمُ: وَمَاْذَاْ يَنْبغِيْ لَنَا أَنْ نَعْمَل عِنْدَ الْكُسُوْفِ وَالْخُسُوْفِ.

الْوَاْلِدُ: كَاْنَ النَّاْسُ فِي قَدِيْمِ الزَّمَاْنِ يَعْتَقِدُوْنَ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ إِنَّمَا يَنْكَسِفَانِ لِحَادِثَةٍ مُهِمَّةٍ فِي الأَرْضِ، لِمَوْتِ رَجُلٍ جَلِيْلٍ مَثَلاً، وَمَاْتَ إِبْرَاْهِيْمُ بنُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَانْكَسَفَتِ الشَّمْسُ فَقَاْلُوا: إِنَّمَا انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ لِمَوْتِ اِبْنِ الرَّسُوْلِ، فَقَاْمَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَجُرُّ رِدَاْءَهُ حَتَّىٰ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلَ الْمُسْلِمُوْنَ، فَصَلَّىٰ بِهِمْ رَكْعَتَيْنِ حَتَّىٰ انْجلَتِ الشَّمْسُ، فَقَاْلَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَاْ يَنْكَسِفَاْنِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَاْ لِحَيَاْتِهِ، فَإِذَاْ رَأَيْتُمُوْهَاْ فَصَلُّوْا وَاْدْعُوْا حَتَّىٰ يُكْشَفَ مَاْ بِكُمْ».

وَقَاْلَ: «إِنَّهُمَا آيَتَاْنِ مِنْ آيَاْتِ اللهِ لَاْ يُخْسَفَاْنِ لِموْتِ أَحَدٍ وَلَاْ لِحَيَاْتِهِ، فَإِذَاْ رَأَيْتُمُوْهَاْ فَاْفْزَعُوْا إِلَىٰ الصَّلَاْةِ».





مظفر حليم الكجراتي (١)

السُّلْطَاْنُ الفَاْضِلُ الْعَاْدِلُ، السُّلْطَاْنُ مُظَفَّر المحَدِّثُ الْفَقِيْهُ مُظَفَّرُ بنُ مَحْمُوْدٍ بنِ مُحَمَّدٍ بنِ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدٍ بنِ مُظَفَّرٍ الكجرَاْتِي، أَبُوْ النَّصرِ شَمْسُ الدِّيْنِ مُظَفَّر شَاْه الحَلِيْم صَاْحِبُ الرِّيَاْسَتَيْنِ، وُلِدَ يَوْمَ الْخَمِيْسِ لِعَشْرٍ بَقِيْنَ مِنْ شَوَّاْلَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِيْنَ وَثَمَاْنِمِئَةٍ بِأَرْضِ كجْرَاْت، وَنَشَأَ فِي عَهْدِ السُّلْطَةِ وَرَضِعَ مِنْ لِبَاْنِ الْعِلْم وَتَنَبَّلَ فِي أَيَّام أَبِيْهِ، وَقَرَأَ عَلَىٰ مَجدِ الدِّيْنِ مُحَمَّدِ بنِ مُحَمَّدِ الأَيْجِي، العَلَّاْمَة، وَعَلَىٰ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاْءِ، وَأَخَذَ الْحَدِيْثَ عَنْهُ وَعَنِ الشَّيْخِ الْمُحَدِّثِ جَمَالِ الدِّيْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَر بن المُبَاْرَكِ الحِمْيَرِيِّ الْحَضْرَمِيِّ الشَّهِيْرِ بِبُحْرُق، وَتَدَرَّبَ فِي الفُنُوْنِ الْحَرْبِيَّةِ حَتَّىٰ فَاْقَ أَسْلَاْفَهُ فِي الْعِلْم وَالأَدَبِ وَفِي كَثِيْرٍ مِنَ الفِعَاْلِ الْحَمِيْدَةِ، وَقَاْمَ بِالمُلْكِ بَعْدَ وَاْلِدِهِ يَوْمَ الثُّلَاْثَاْءِ، ثَاْلِثَ شَهْرِ رَمَضَاْنَ سنة (٩١٧) مِنَ الهِجْرَةِ، وَافْتَتَح

أَمْرَهُ بِالعَدْلِ وَالسَّخَاءِ وَالنَّجْدَةِ وَالجِهَادِ وَسَدِّ الثُّغُور وَإِكْرَامِ العُلَمَاءِ.

وَكَانَ غَايَةً فِي التَّقْوىٰ وَالعَزِيْمَةِ وَالْعَفْوِ وَالتَّسَامُحِ عَن النَّاسِ، وَلِذٰلِكَ لَقَّبُوْهُ بِالسُّلْطَانِ الْحَلِيْم، وَكَانَ جَيِّدَ الْقَرِيْحَةِ، سَلِيْمَ الطَّبْعِ، حَسَنَ الْمُحَاضَرَةِ، عَارِفاً بِالمُوْسِيْقَى، مُشَارِكاً فِي أَكْثَرِ الْعُلُوْمِ وَالْفُنُوْنِ، مَاهِراً فِي الْفُنُوْنِ الْحَرْبِيَّةِ، مِنَ الرَّمْيِ وَالضَّرْبِ بِالسَّيْفِ وَالطَّعْنِ بِالرِّمَاحِ وَالْفُرُوْسِيَّةِ وَالْمُصَارَعَةِ، خَطَّاطاً جَيِّدَ الْخَطِّ، كَانَ يَكْتُبُ النَّسْخَ وَالثُّلُث والرِّقَاعَ بِكَمَالِ الجَوْدَةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْقُرْآنَ الْحَكِيْمَ بِيَدِهِ ثُمَّ يَبْعَثُهُ إِلَىٰ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيْفَيْنِ، وَحَفِظَ الْقُرَآنَ فِيْ حَيَاةِ وَالِدِهِ أَيَّامَ الشَّبَابِ.

وَكَانَ يَقْتَفِيْ آثَارَ السُّنَّةِ السَّنِيَّةِ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَيَعْمَلُ بِنُصُوْصِ الأَحَادِيْثِ النَّبَوِيَّةِ، وَرُبَّمَا يَذْكُرُ الْموتَ وَيَبْكِيْ، وَيُكْرِمُ الْعُلَمَاءَ وَيُبَالِغُ فِي تَعْظِيْمِهِمْ، وَكَانَ لاَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِمَشَايِخِ عَصْرِهِ فِي بِدَايَةِ حَالِهِ ثُمَّ مَالَ إِلَيْهِمْ.

وَلَمْ يَزَلْ يُحَافِظُ عَلَىٰ الْوُضُوْءِ، وَيُصَلِّي بِالْجَمَاعَةِ، وَيَصُوْمُ رَمَضَانَ، وَلمْ يَقْرَبِ الْخَمْرَ قَطُّ، وَلَمْ يَقَعْ فِي عِرْضِ أَحَدٍ، وَكَانَ يَعْفُوْ وَيُسَامِحُ عَن الخَطَّائِينَ، وَيَجْتَنِبُ الإِسْرَافَ وَالتَّبْذِيْرَ وَبَذْلَ الأَمْوَالِ الطَّائِلَةِ عَلَىٰ غَير أَهْلِهَا.

وَكَانَ كَثِيْرَ التَّفَحُّصِ عَنْ أَخْبَارِ النَّاسِ، عَظِيْمَ التَّجَسُّسِ عَنْ



أَخْبَاْرِ الْمَمَاْلِكِ، وَرُبَّمَا يُغَيِّرُ زِيَّهُ وَلِبَاْسَهُ وَيَخْرُجُ مِنْ قَصْرِهِ آنَاْءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَاْرِ وَيَطَّلِعُ عَلَىٰ الأَخْبَاْرِ وَيَسْتَكْشِفُ الأَسْرَاْرَ.

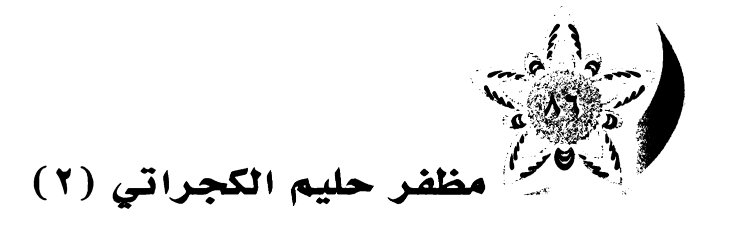
قَاْلَ الآصِفِيُّ: إِنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهِ يَوْماً مِن القَاْضِيْ بجانبا نير رَسُوْلُ الطَّلَبِ وَقَدْ تَظَلَّمَ مِنْهَ تَاْجِرُ خَيْلٍ، فَكَمَا بَلَغَهُ ـ وَعَلَىٰ مَاْ كَاْنَ عَلَيْهِ فِي حَاْلِ الْخَلْقِ ـ أَجَاْبَ الرَّسُوْلَ وَخَرَجَ مَاْشِياً إِلَىٰ مَجْلِسِ الْقَاْضِيْ، وَجَلَسَ مَعَ خَصْمِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَادَّعَىٰ التَّاْجِرُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْهُ ثَمنُ أَفْرَاْسِهِ وثَبَتَ ذٰلِكَ، وَأَبَىٰ التَّاْجِرُ أَنْ يَقُوْمَ مِنْ مَجْلِسِهِ قَبْلَ أَدَاْءِ الثَّمَنِ، وَحَكَمَ الْقَاْضِي بِهِ، فَمَكَثَ السُّلْطَاْنُ مَعَ خَصْمِهِ إِلَىٰ قَبْضِ التَّاْجِرِ الثَّمَنَ، وَكَاْنَ الْقَاْضِي لَمَّاْ حَضَرَ السُّلْطَاْنُ فِي الْمَحْكَمَةِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ لَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ مَجْلِسِهِ وَمَاْ كَفَاْهُ ذٰلِكَ حَتَّىٰ إِنَّهُ أَمرَهُ أَنْ لاْ يَتَرَفَّعَ عَلَىٰ خَصْمِهِ وَيَجْلِسَ مَعَهُ، وَالسُّلْطَاْنُ لاْ يَخْرُجُ عَنْ حُكْمِهِ، وَلَمَّاْ قَبَضَ التَّاْجِرُ الثَّمَنَ وَسَأَلَهُ الْقَاْضِي: هَلْ بَقِيَتْ لَكَ دَعْوَىٰ عَلَيْهِ وَقَاْلَ: لاْ، عِنْدَ ذٰلِكَ قَاْمَ الْقَاْضِيْ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَسَلَّمَ عَلَىٰ عَاْدَتِهِ فِيْهِ، وَنَكَّسَ رَأْسَهُ فِي مَاْ يَعْتَذِرُ بِهِ، وَأَجْلَسَهُ فِيْ مَجْلِسِ حُكْمِهِ كَمَاْ كَاْنَ، وَجَلَسَ إِلَىٰ جَنْبِهِ، وَشَكَرَهُ عَلَىٰ عَدَمِ مُدَاْهَنَتِهِ فِي الْحَقِّ، حَتَّىٰ إِنَّهْ قَاْلَ: لَوْ عَدَلْتَ عَنْ سِيْرَتِكَ هٰذِهِ رِعَاْيَةً لِيْ لاَنْتَصَفْتُ لِلْعَدَاْلَةِ مِنْكَ، وَأَنْزَلْتُكَ مَنْزِلَةَ آحَاْدِ النَّاْسِ لِئَلَّاْ يَأْتِي بَعْدَكَ غَيْرُكَ بِمَاْ أَتَيْتَ،

فَجَزَاْكَ اللهُ عَنِّيْ خَيْراً بِوُقُوْفِكَ مَعَ الْحَقِّ، فَمِثْلُكَ يَكُوْنُ قَاْضِياً، فَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ الْقَاْضِيْ وَقَاْلَ: مِثْلُكَ يَكُوْنُ سُلْطَاْناً.

قَاْلَ الآصِفِيُّ: وَمِنْ بِرِّهِ الْمُستَفِيْضِ لأَهْلِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيْفَيْنِ أَنَّهُ نَجَّرَ مَرْكِباً وَشَحَنَهُ بِالْقِمَاْشِ الثَّمِيْنِ، وَأَرْسَلَهُ إِلَىٰ مِيْنَاْءِ الْحِجَاْزِ جَدَّةَ، وَجَعَلَهُ وَمَاْ فِيْهِ صِلَةً لَهُم، وَلَهُ بِمَكَّةَ الْمُشَرَّفَةِ رِبَاْطٌ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَدْرَسَةٍ وَسَبِيْلٍ وَعِمَاْرَةٍ وَغَيْرِهَاْ، وَعَيَّنَ وَقْفاً يَتَجَهَّزُ مَحْصُوْلُهُ إِلَىٰ مَكَّةَ فِيْ كُلِّ مَوْسِمٍ لِلْمُدَرِّسِيْنَ بِمَدْرَسَتِهِ وَالطَّلَبَةِ وَسَكَنَةِ الْخَلَاْوِيْ وَالْخَدَم وَمَاْ فِيْ مَعْنَاْهُ، وَيَتَجَهَّزُ سِوَاْهُ لِأَهْلِ الْحَرَمَيْنِ، وَكَاْنَ ذٰلِكَ مُسْتَمِرّاً فِيْ أَيَّاْمِهِ.

وَمِنْ مَآثِرِهِ الْحَسَنَةِ بِالْحَرَمَيْنِ مُصْحَفَاْنِ بِخَطِّهِ الْمَنْسُوْبِ، كَتَبَهَاْ بِقَلَمِ الثُّلُثِ الْمُجَرَّدِ بِمَاءِ الذَّهَبِ، وَإِمَاْمُ الْحَنَفِيَّةِ مَخْصُوْصٌ بِالْقِرَاْءَةِ فِيْهِمَاْ، وَرَبْعَتَاْنِ أَيْضاً بِخَطِّه كَذٰلِكَ، وَلِلْمُصْحَفَيْنِ وَالرَّبْعَتَيْنِ وَقْفٌ مَخْصُوْصٌ يَتَجَهَّزُ كُلَّ عَامٍ إِلَىٰ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيْفَيْنِ، لِقَاْرِئِ الْمُصْحَفِ وَقِرَاْءَةِ الأَجْزاْءِ وَشَيْخ الرَّبْعة وَمفرقِهَاْ وَالْحَاْفِظِ لَهَاْ والدَّاْعِي لَهُ عِنْدَ الْخَتْم وَالسَّقَّاْءِ فِي الْوَقْتِ وَالنَّقِيْبِ وَالفَرَّاْشِ، وَقَدْ رَأَيْتُ ذٰلِكَ، وَكَاْنَ مُسْتَمِرّاً إِلَىٰ شَهَاْدَةِ السُّلْطَاْنِ مَحْمُوْدٍ.





مظفر حليم الكجراتي (٢)

وَمِنْ نَوَاْدِرِ فِعَاْلِهِ أَنَّهُ لَمَّا تغلب «مدني راىٔ» عَلَىٰ بِلَاْدِ «مَالوَه»، وَضُيِّقَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِيْنَ، وَخَرَجَ مَحْمُوْد شَاْه الخلجي ـ صَاْحِبُ «مَالوَه» ـ مِنْ بِلَاْدِهِ هَاْرِباً عَنْهُ إِلَىٰ «كجرات»، نَهَضَ السُّلْطَاْنُ مُظَفَّر الْحَلِيْمُ مِنْ بِلَاْدِهِ إِلَىٰ «مَالوَه» سَنَةَ ثَلَاْثٍ وَعِشْرِيْنَ وَتِسْعِمِئَة بِعَسَاْكِرِهِ، فَوَصَلَ إِلَىٰ «دهار»، ثُمَّ إِلَىٰ «مندو»، وَنَزَلَ عَلَىٰ الْقَلْعَةِ، وَشَرَعَ في الْمُحَاْصَرَةِ، وَأَمَّاْ «مدني رأىٔ» فَإِنَّهُ لَمَّاْ بَلَغَهُ نُزُوْلُ السُّلْطَاْنِ «بديوله» قَاْلَ لِأَصْحَاْبِهِ: قَرُبَ مِنَّا الْمُظَفَّرُ وَلَاْ سَبِيْلَ إِلَىٰ الْحَرْبِ إِلَّا إِذَاْ حَضَرَ «رانا سانجا» ـ صَاْحِبُ «جتور» ـ فَاكْفُوْنِيْ أَنْتُمُ الْقَلْعَةَ وَأَنَاْ أَسِيْرُ إِلَيْهِ وَأَصِلُ بِهِ، وَعَلَىٰ هَـٰذَاْ وَدَّعَهُمْ وَعَزَمَ لِطَلَبِهِ، فَلَمَّاْ نَزَلَ السُّلْطَاْنُ عَلَىٰ الْقَلْعَةِ خَرَجَ يَوْماً نُخْبَةٌ مِنْ رِجَاْلِ الْقَلْعَةِ عَلَىٰ أَنْ يَشْتَبِكُوْا بِالْمُسْلِمِيْنَ، وَكَاْنُوْا حَذِرِيْنَ فَشَدُّوْا عَلَيْهِمْ وَقَتَلُوْا مِنْهُمْ كَثِيْراً وَهَرَبَ الْبَاقُوْنَ، وَتَرَكُوْا السَّيْفَ، وَاعْتَمَدُوْا الْخَدِيْعَةَ؛ فَطَلَبُوْا الأَمَاْنَ لِتَسْلِيْمِ الْقَلْعَةِ

وَتَرَدَّدُوْا فِيْهِ أَيَّاماً، ثُمَّ سَأَلُوْا الأَمَاْنَ لِأَمْوَاْلِهِمْ، فَلَمَّاْ أُجِيْبُوْا طَلَبُوْا المُهْلَةَ لِلْجُمُعَةِ، ثُمَّ سَأَلُوْا التَّبَاْعُدَ عَن الْقَلْعَةِ لِيَأْمَنوْا فِي الْخُرُوْجِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذٰلِكَ بَلَغَهُ وُصُوْلُ «رانا سانجا» إِلَىٰ «أجين» فَغَضِبَ السُّلْطَاْنُ، وَرَكِبَ عَلَىٰ رَبْوَةٍ مُرْتَفِعَةٍ هُنَاْكَ وَجَلَسَ عَلَيْهَا، وَأَمَّا الأُمَرَاْءُ فَكُلٌّ مِنْهُمْ فِي سِلَاْحِهِ الْكَاْمِلِ فِيْ ظِلِّ عَلَمِهِ وَاْقِفٌ تَحْتَ الرَّبْوَةِ، فَطَلَبَ مِنْ بَيْنِهِمْ عَاْدِل خَاْن الْفَاْرُوْقِي، صَاْحِبَ «برهان فور»، وَقَلَّدَهُ إِمَاْرَةَ الْعَسْكَرِ الْمُجَهَّزِ لِحَرْبِ صَاْحِب «جتور»، وَخَلَعَ عَلَيْهِ، وَقَلَّدَهُ سَيْفاً وَحِيَاْضَةً وَمِجَنّاً وَتِسْعَةً مِن الْخَيْلِ وَحَلَقَةً مِن الأَفْيَاْلِ، وَأَوْصَاْهُ وَوَدَّعَهُ، وَكَذٰلِكَ طَلَبَ فَتْح خَاْن، صَاْحِبَ «رادهن فور»، وَأَعْطَاْهُ مِثْلَهُ، وَكَذٰلِكَ طَلَبَ قوام خَاْن، ثُمَّ أَوْصَاْهُمَاْ بِعَاْدِل خَاْن وَوَدَّعَهُمَاْ، ثُمَّ اسْتَدْعَىٰ عَسْكَرَ هَـٰؤُلَاْءِ وَوَعَدَهُمْ جَمِيْلاً، وَخَصَّ وُجُوْهَ الْعَسْكَرِ بِالأَقْبِيَةِ، وَأَمَرَ بِسَاْئِرِهِمْ بِالتَّنَبُّلِ عَلَىٰ عَاْدَةِ الْهِنْدِ فِي الرُّخْصَةِ لَهُم، وَنَهَضَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ الأَوَّل، وَجَدَّ فِي أَسْبَاْبِ الْفَتْحِ، وَدَخَلَ الْقَلْعَةَ عُنْوَةً فِيْ ثَاْنِيْ يَوْمِ نُزُوْلِهِ، وَأَعملَ السَّيْفَ فِيْهِمْ، وَكَاْنَ آخِرُ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ دَخَلُوْا مَسَاْكِنَهُمْ، وَغَلَّقُوْا الأَبْوَاْبَ، وَأَشْعَلُوْهَاْ نَاْراً فَاحْتَرَقُوْا وَأَهْلِيْهِمْ، وَالسُّلْطَاْنُ تَحْتَ الْمِظَلَّةِ، وَهٰكَذَاْ مَحْمُوْد، وَهُمَا يَسِيْرَاْنِ رُوَيْداً رُوَيْداً، وَالدِّمَاْءُ تَسِيْلُ كَالْعَيْنِ الجَارِيَةِ فِي سِكَكِ الْقَلْعَةِ مِنْ كُلِّ جَاْنِبٍ إِلَىٰ مَخَاْرِجِ الْمَاء مِنْهَاْ، وَبَلَغَ عَدَدُ الْقَتْلَىٰ

مِن الْكَفَرَةِ تِسْعَةَ عَشَرَ أَلْفاً سِوَىٰ مَنْ غَلَقَ بَاْبَهُ وَاحْتَرَقَ، وَسِوَىٰ أَتْبَاْعِهِمْ، فَلَمَّاْ وَصَلَ السُّلْطَاْنُ إِلَىٰ دَاْر سَلْطَنَةِ الخلجِي الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَهَنَّأَهُ بِالْفَتْحِ وَبَاْرَكَ لَهُ فِيُ الْمُلْكِ، وَأَشَاْرَ بِيَدِهِ المُبَاْرَكَةِ إِلىٰ الْبَاْبِ، وَقَاْلَ لَهُ: بِسْمِ اللهِ ادْخُلُوْهَاْ بِسَلَاْمٍ آمِنِيْن، وَعَطَفَ عَنَاْنَهُ خَاْرِجاً مِنَ الْقَلْعَةِ إِلَىٰ الْقِبَاْبِ، وَدَخَلَ الخَلَجِيُّ مَنْزِلَهُ وَاجْتَمَعَ بِأَوْلَاْدِهِ وَأَهْلِهِ، وَسَجَدَ شُكْراً للهِ سُبْحَاْنَهُ، فَلَمَّاْ بَلَغَ مدني رأىٔ شَهقَ شَهْقَةً وَغشِيَ عَلَيْهِ، وَسَمِعَ رانا سانجا بِعَاْدِل خَاْن، وَقُرْبَ مِنْ «أجين» فَاضْطَرَبَ، وَقَاْلَ لِمدني رأىٔ: مَاْ هَـٰذِهِ الشَّهْقَةُ؟ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ! فَإِنْ عَزَمْتَ عَلَىٰ أَنْ تَلْحقَ بِأَصْحَاْبِكَ فَهَا عَاْدِلْ خَاْن يُسْمَعُ نَفِيْرُهُ، وَإِلَّا فَأَدْرِكْ نَفْسَكَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَحُمِلَ عَلَىٰ فِيْلٍ، وَخَرَجَ مِنْ «أجين» إِلىٰ «جهاته» خَاْئِباً، وَتَبِعَهُ عَاْدِل خَاْنِ إِلَىٰ «ديبال فور» وَتَوَقَّفَ بِهَاْ حَتَّىٰ جَاْءَهُ الطَّلَبُ.

ثُمّ إِنَّ الخلجي تَفَقَّدَ ذَخَاْئِرَهُ، وَهَيَّأَ الضِّيَاْفَةَ، وَنَزَلَ إِلَىٰ مُظَفَّر شَاْه السُّلْطَان، وَسأَلَهُ التَّشْرِيْفَ بِالطُّلُوْعِ فَأَجَاْبَهُ، فَلَمَّاْ فَرَغَ مِنْ الضِّيَاْفَةِ دَخَلَ بِهِ فِي الْعِمَاْرَاْتِ الَّتِيْ كَاْنَتْ مِنْ آثَاْرِ أَبِيْهِ وَجَدِّهِ، فَأُعْجِبَ بِهَاْ وَتَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ جَلَسَاْ فِيْ جَاْنِبٍ مِنْهُ، وَشَكَرَهُ الخلجي، وَقَاْلَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِيْ أَرَاْنِي بِهِمَّتِكَ مَاْ كُنْتُ أَتَمَنَّاْهُ بِأَعْدَاْئِي، وَلَمْ يَبْقَ لِيْ الآنَ إِرَبٌ فِيْ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَاْ، وَالسُّلْطَاْنُ أَوْلَىٰ بِالْمُلْكِ مِنِّي، وَمَاْ كَاْنَ لَهُ فَهُوَ لِيْ، فَأَسْأَلُكَ

قُبُوْلَ ذٰلِكَ وَلِلسُّلْطَاْنِ أَنْ يُقِيْمَ بِهِ مَنْ شَاْءَ، فَالْتَفَتَ السُّلْطَاْنُ إِلَيْهِ، وَقَاْلَ لَهُ: إِنَّ أَوَّلَ خُطْوَةٍ خَطَوْتُهَاْ إِلَىٰ هٰذِهِ الْجِهَةِ كَاْنَتْ للهِ تَعَاْلَىٰ، وَالثَّاْنِيَةَ كَاْنَتْ لِنُصْرَتِكَ، وَقَدْ نِلْتُهَاْ، فَاللهُ يُبَاْرِكُ لَكَ فِيْهَاْ وَيُعِيْنُكَ عَلَيْهِ، فَقَاْلَ الخلجي: خَلاَ الْمُلْكُ مِنَ الرِّجَاْلِ فَأَخْشَىٰ ضَيَاْعَهُ، فَأَجَاْبَهُ مُظَفَّر شَاْه الْحَلِيْم، وَقَاْلَ لَهُ: أَمَّاْ هٰذَا فَمَقْبُوْلٌ، سَيَكُوْنُ آصِفْ خَاْن مَعَكَ بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ فَاْرِسٍ إِلَىٰ أَنْ يَجْتَمِعَ رِجَاْلُكَ، فَطَلَبَ الخلجي أَنْ يَكُوْنَ عِنْدَهُ وَلَدُهُ تَاْج خَاْن، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ، فَأَجَاْبَه إِلَىٰ ذٰلِكَ، وَوَعَدَهُ بِالنَّصْرِ فِيْ جَمِيْعِ الأَوْقَاْتِ، وَقَاْلَ لآصِفْ خَاْن: مَاْ لَكَ وَلِأَصْحَاْبِكَ كَاْفَّة مِنَ الجِرَاْيَةِ وَالْوِلَاْيَةِ عِنْدِيْ، فَهِيَ عَلَىٰ حَاْلِهَا إِلىٰ أَنْ تَرْجِعُوْا إِلَىٰ مَنَاْزِلِكُمْ، وَمَاْ يُعْطِيْكُم الخلجي فَهُوَ مُضَاْفٌ إِلَيْهِ لِلتَّوَسُّعِ فِي الْوَقْتِ، وَأَمَرَ لِلْخلجي بِخِزَاْنَةٍ ثُمَّ وَدَّعَهُ وَنَزَلَ.

وَقِيْلَ: إِنَّ مُظَفَّرْ شَاْه لَمَّاْ فَتَحَ الْقَلْعَةَ وَدَخَلَهَاْ سَأَلَهُ أَرْكَاْنُ دَوْلَتِهِ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِهَاْ، فَالْتَفَتَ إِلَىٰ الخلجي، وَقَاْلَ لَهُ: اِحْفَظْ بَاْبَ الْقَلْعَةِ بِرِجَاْلٍ لَاْ يَدَعُوْا أَحداً يَدْخُلُهَاْ بَعْدُ حَتَّىٰ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيَّ، فَطَلَبَ الخلجي أَنْ يَمْكُثَ أَيَّاْماً فَأَبَىٰ وَنَزَلَ، ثُمَّ بَعْدَ ثَلَاْثٍ أَضَاْفَهُ الخلجي وَدَاْرَ بِهِ فِي الْمَبَاْنِي الَّتِيْ لَاْ يُعْرَفُ لَهَاْ نَظِيْرٌ فِيْ الهِنْدِ، وَانْتَهَىٰ إِلَىٰ بِنَاءٍ بَاْبُهُ مُغْلَقٌ فَاسْتَفْتَحَه، وَدَخَلَ إِلَىٰ حِجْرٍ هُنَاْلِكَ، فَأَمَرَ الطَّوَاْشِيَةَ بِفَتْحِهَاْ وَاسْتِدعَاْءِ مَنْ فِيْهَاْ، فَإِذَاْ بِنِسَاْءٍ



بَرَزْنَ فِي حُلِيٍّ وَحُلَلٍ قَلَّ أَنْ رَأَتِ العَيْنُ مِثْلَهُنَّ، وَبِأَيْدِيْهِنَّ أَصْنَاْفُ الجَوَاْهِرِ، وَمَاْ مِنْهُنَّ إِلَّا مَنْ سَلَّمَتْ وَنَثَرَتْ مَاْ بِأَيْدِيْهَاْ عَلَىٰ قَدَمِ السُّلْطَاْنِ، فَأَشَاْرَ بِأَنْ يَحْتَجِبْنَ؛ لِأَنَّ النَّظَرَ إِلىٰ الأَجْنَبِيَّةِ لَاْ يَحِلُّ، فَقَاْلَ الخلجي: كُلُّهُنَّ مُلْكِيْ، وَأَنَاْ مَاْلُكَ، وَالْعَبْدُ وَمَاْ مَلَكَ لِمَوْلَاْهُ، فَدَعَاْ لَهُ، وَعَاْدَ إِلىٰ قِبَاْبِهِ.

فَلَمَّاْ نَهَضَ لِلْمَسِيْر رَاْجِعاً نَزَلَ الخلجي ومَعَهُ تَاْج خَاْن وَآصِفْ خَاْن وَشَيَّعَهُ إِلَىٰ حَدِّهِ وَسَأَلَهُ الدُّعَاْءَ، وَرَجَعَ.

وَرَخَّصَ السُّلْطَاْنُ لِعَاْدِل خَاْن، فَرَجِعَ إِلىٰ بُرْهَان فُور، وَوَصَلَ السُّلْطَاْنُ بِالْفَتْحِ والدُّعَاْءِ إِلَىٰ «جانبانير»، وَكَاْنَ يَوْمُ دُخُوْلِهِ مَشْهُوْداً، كَثُرَ فِيْهِ الدُّعَاْءُ لَهُ مِنْ سَاْئِرِ عِبَاْدِ اللهِ تَعَاْلَىٰ.

وَكَاْنَ فَتْحُ «مندو» فِي ثَاْنِي عَشَر مِنْ صَفَر سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِيْن وَتِسْعِمِئَة، وَهُوَ مِنْ نَوَاْدِرِ الْوَقَاْئِع لَاْ يُذْكَرُ مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِنْ مُلُوْكِ الهِنْدِ وَسَلَاْطِيْنِهَاْ، بَلْ سَلَاْطِيْن غَيْرِهَاْ مِنَ البِلَاْدِ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ هٰذَا الخلجِيَّ وَأَسْلَاْفَهُ كَاْنُوْا مِنْ أَعْدَاْءِ دَوْلَتِهِمْ، فَإِنَّ جَدَّهُ مَحْمُوْد شَاْه الخلجي الْكَبِيْر ـ سَاْمَحَهُ اللهُ ـ يَصُوْلُ عَلَيْهِم مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ أُخْرَىٰ، وَفِيْ كُلِّ مَرَّةٍ يَخْسَرُ وَيَخِيْبُ فِيْ أَمَلِهِ، وَأَبُوْهُ غِيَاْثُ الدِّيْنِ الخلجِيُّ خَرَجَ إِلىٰ «كجرَاْتَ» لِنُصْرَةِ كُفَّاْرِ الهِنْدِ عَلَىٰ مَحْمُوْد شَاْه الكجرَاْتِيِّ

الْكَبِيْرِ، وَكَذٰلِكَ جَدُّهُ فِي أَيَّاْمِ مُحَمَّد شَاْه الكجرَاْتِي سَاْمَحَهُمَا اللهُ تَعَاْلَى، وَللهِ دَرُّ مَنْ قَاْلَ:

هَيْهَاْتَ لَاْ يَأْتِي الزَّمَاْنُ بِمِثْلِهِ ... إِنَّ الزَّمَاْنَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيْلُ





مظفر حليم الكجراتي (٣)

قَاْلَ الآصِفِيُّ: وَفِيْ سَنَةِ إِحْدَىٰ وَثَلاْثِيْن وَتِسْعِمِئَةٍ خَرَجَ السُّلْطَاْنُ إِلَىٰ مُصَلَّىٰ الْعِيْدِ لِلاسْتِسْقَاءِ، وَتَصَدَّقَ وَتَفَقَّدَ ذَوِي الْحَاْجَةِ عَلَىٰ طَبقَاْتِهِم وَسَأَلَهُمْ الدُّعَاْءَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ لِلصَّلاْةِ، وَكَاْنَ آخِرَ مَاْ دَعَا بِهِ كَمَاْ يُقَاْلُ: اللَّهُمَّ إِنِّيْ عَبْدُكَ، وَلاْ أَمْلِكُ لِنَفْسِيْ شَيْئاً، فَإِنْ تَكُ ذُنُوْبِيْ حَبَسَت القَطْرَ فَهَا نَاْصِيَتِيْ بِيَدِكَ، فَأَغِثْنَاْ يَاْ أَرْحَمَ الرَّاْحِمِيْنَ، قَاْلَ هٰذَاْ وَوَضَعَ جَبْهَتَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَاسْتَمَرَّ سَاْجِداً يُكَرِّرُ قَوْلَهُ يَاْ أَرْحَمَ الرَّاْحِمِيْنَ، فَمَاْ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَّا وَهَاْجَتْ رِيْحٌ، وَنَشَأَتَ سَحَاْبَةٌ بِبَرْقٍ وَرَعْدٍ وَمَطَرٍ، ثُمَّ سَجَدَ للهِ شُكْراً، وَرَجَعَ مِنْ صَلاْتِهِ بِدُعَاْءِ الْخَلْقِ لَهُ، وَهُوَ يَتَصَدَّقُ وَيَنْفُحُ بِيَدِهِ بِاْلمَاْلِ يَمِيْناً وَشِمَاْلاً.

وَبَعْدَ الاسْتِسْقَاْءِ بِقَلِيْلٍ اعْتَرَاْهُ الْكَسَلُ، ثُمَّ ضَعُفَ الْمَعِدَةِ. . . وَفِيْ خِلاْلِ ذٰلِكَ عَقَدَ مَجلِساً حَفْلاً بِسَاْدَةِ الْأُمَّةِ وَمَشَاْيِخِ الدِّيْنِ وَصُوْفِيَّةِ الْيَقِيْنِ، وَاجْتَمَعَ بِهِمْ، وَتَذَاكَرُوْا فِي

مَاْ يَصْلُحُ بَلاَغاً لِلْآخِرَةِ، إِلَىٰ أَنْ تَسَلْسَلَ الْحَدِيْثُ فِيْ رَحْمَةِ اللهِ سُبْحَاْنَهُ، وَمَاْ اقْتَضَاْهُ مِنْهُ، وَإِحْسَاْنِه، فَأَخَذَ يَشْرَحُ مَاْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ حَسَنَةٍ وَنِعْمَةٍ، وَيَعْتَرِفُ بِعَجْزِ شُكْرِهَا إِلَىٰ أَنْ قَاْلَ: وَمَاْ مِنْ حَدِيْثٍ رَوَيْتُهُ عَنْ أُسْتَاْذِيْ المسنَدِ الْعَاْلِي مَجد الدِّيْنِ بروَاْيَتِهِ لَهُ عَنْ مَشَاْيِخِهِ إِلَّا وَأَحْفَظُهُ وَأُسْنِدُهُ وَأَعْرِفُ لِرَاْوِيْهِ نِسْبَتَهُ وَثِقَتَهُ وَأَوَاْئِلَ حَاْلِهِ إِلىٰ وَفَاْتِهِ، وَمَاْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَمَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِحِفْظِهَاْ وَفَهْم تَأْوِيْلِهَاْ وَأَسْبَاْبِ نُزُوْلِهَاْ وَعِلْم قِرَاْءَتِهَاْ، وَأَمَّا الْفِقْهُ فَأَسْتَحْضِرُ مِنْهُ مَاْ أَرْجُوْ بِهِ مَفْهُوْمَ: «مَنْ يُرِد اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ»، وَلِيْ مُدَّةُ أَشْهُرٍ أَصْرِفُ وَقْتِي بِاسْتِعْمَاْلِ مَاْ عَلَيْهِ الصُّوْفِيَّةُ وَأَشْتَغِلُ بِمَاْ سَنَّهُ الْمَشَاْيِخُ لِتَزكِيَةِ الْأَنْفَاْسِ عَمَلاً بِمَاْ قِيْلَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»، وَهَاْ أَنَاْ أَطْمَعُ فِي شُمُوْلِ بَرَكَاْتِهِمْ مُتَعَلِّلاً بِعَسَىٰ وَلَعَلَّ، وَكُنْتُ شَرَعْتُ بِقرَاْءَةِ مَعَاْلِم التَّنْزِيْلِ وَقَدْ قَاْرَبْتُ إِتْمَاْمَهُ، إِلَّا أَنِّي أَرْجُوْ أَنْ أَخْتِمَهُ فِي الْجَنَّةِ إِنْ شَاْءَ اللهُ تَعَاْلَىٰ، فَلاْ تَنْسَوْنِيْ مِنْ صَاْلِحِ دُعَاْئِكُمْ، فَإِنِّيْ أَجِدُ أَعْضَاْئِيْ فَقَدَتْ قُوَاْهَاْ، فَدَعَاْ لَهُ الْحَاْضِرُوْنَ بِالْبَرَكَةِ فِي الْعُمُرِ.

قَاْلَ: وَفِيْ سنة (٩٣٢هـ) عَلَىٰ خُرُوْجِهِ مِنْ «جانفانير» ظَهَرَتْ مِنْهُ مخائل المسْتَوْدَعِ بِفِرَاْقِ الأَبَدِ لَهَاْ وَلِأَهْلِهَاْ، وَأَكْثَرَ مِنْ أَعْمَاْلِ البِرِّ فِيْهَا، وَفِيْ طَرِيْقِهِ إِلَىٰ أَحْمَد آبَاْد، وَلَمَّاْ نَزَلَ بِهَاْ كَاْنَ يُكْثِرُ مِن التَّرَدُّدِ إِلَىٰ قُبُوْرِ الصَّاْلِحِيْن، وَيُكْثِرُ مِن الْخَيْرِ بِهَاْ،

وَكَاْنَ لَهُ حُسْنُ ظَنٍّ بِالعَلَّاْمَةِ خرم خَاْن، فَقَاْلَ لَهُ يَوْماً: نَظَرْتُ فِي مَاْ أُوْثِرُ بِهِ أُوْلِي الاسْتِحْقَاْق مِن الإِنْفَاْقِ، فَإِذَاْ أَنَاْ بَيْنَ إِفْرَاْطٍ فِيْ صَرْفِ بَيْتِ الْمَاْلِ، وَتَفْرِيْطٍ فِيْ مَنْعِ أَهْلِهِ، فَلَمْ أَدْرِ إِذَاْ سُئِلْتُ عَنْ ذٰلِكَ بِمَاْذَاْ أُجِيْبُ؟

وَفِيْ آخِرِ أَيَّاْمِهِ ـ وَكَاْنَ يَوْمُ الجُمُعَةِ ـ قَاْمَ إِلَىٰ الْقَصْرِ وَاضْطَجَعَ إِلَىٰ أَنْ زَاْلَت الشَّمْسُ، فَاسْتَدْعَىٰ بِالْمَاْءِ وَتَوَضَّأَ وَصَلَّىٰ رَكْعَتَي الْوُضُوْءِ، وَقَاْمَ مِنْ مُصَلَّاْهُ إِلَىٰ بَيْتِ الْحَرَم، وَاجْتَمَعَتِ النِّسْوَةُ عَلَيْهِ آيِسَاْتٍ بَاْكِيَاْتٍ يَنْدِبْنَ أَنْفُسَهُنَّ حُزْناً عَلَىٰ فِرَاْقٍ لَا اجْتِمَاْعَ بَعْدَهُ، فَأَمَرَهُنَّ بِالصَّبْرِ الْمُؤْذِنِ بِالأَجْرِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِنَّ مَاْلاً ثُمَّ وَدَّعَهُنَّ وَاسْتَوْدَعَهُنَّ اللهَ سُبْحَاْنَهُ وَخَرَجَ وَجَلَسَ سَاْعَةً، ثُمَّ اسْتَدْنَىٰ مِنْهُ راجه مُحَمَّد حُسَيْن الْمُخَاْطَب بِأَشْجَع المَلِك، وَقَاْلَ لَهُ: قَدْ رَفَعَ اللهُ قَدْرَكَ بِالْعِلْم، أُرِيْدُ أَن تَحْضُرَ وَفَاْتِي تَقْرَأَ عَلَيَّ سُوْرَةَ «يسٓ» وَتَغْسِلَنِيْ بِيَدِكَ وَتُسَاْمِحَنِي فِيْهِ، فَامْتَنَّ بِمَاْ هُوَ أَهْلُهُ وَفَدَاْهُ وَدَعَاْ لَهُ، وَسَمِعَ أَذَاْناً، فَقَاْلَ: أَهُوَ فِي الوَقْتِ؟ فَأَجَاْبَ أَسَدُ المَلِكِ: هٰذَا أَذَاْنُ الاسْتِدْعَاْءِ لِاسْتِعْدَاْدِ صَلَاْةِ الْجُمُعَةِ وَيَكُوْنُ فِي الْعَاْدَةِ قَبْلَ الْوَقْتِ، فَقَاْلَ: أَمَّاْ صَلَاْةُ الظُّهْرِ فَأُصَلِّيْهَاْ عِنْدَكُمْ، وَأَمَّاْ صَلَاْةُ الْعَصْرِ فَعِنْدَ رَبِّيْ فِي الْجَنَّةِ إِنْ شَاْءَ اللهُ تَعَاْلَىٰ، ثُمَّ أُذِّنَ لِلْحَاْضِرِيْنَ فِيْ صَلَاْةِ الْجُمُعَةِ وَطَلَبَ مُصَلَّاْهُ، وَصَلَّىٰ وَدَعَاْ اللهَ سُبْحَاْنَهُ بِوَجْهٍ مُقْبِلٍ عَلَيْهِ، وَقَلْبٍ مُنِيْبٍ

إِلَيْهِ، دُعَاءَ مَنْ هُوَ مُفَارِقٌ لِلْقَصْرِ، مُشْرِفٌ عَلَىٰ الْقَبْرِ، ثُمَّ كَانَ آخِرُ دُعَائِهِ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. وَقَامَ مِنْ مُصَلَّاهُ وَيَقُوْل: أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ، واضْطَجَعَ عَلَىٰ سَرِيْرِهِ وَهُوَ مُجْتَمِعُ الحَوَاسِّ وَوَجْهُهُ إِلَىٰ القِبْلَةِ، وَقَالَ: لَاْ إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ، وَفَاضَتْ نَفْسُهُ وَالْخَطِيْبُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ يَدْعُوْ لَهُ.

وَكَانَ ذٰلِكَ فِي ثَانِيْ جُمَادَىٰ الأُوْلَىٰ سنة (٩٣٢هـ)، وَكَانَ حُمِلَ تَابُوْتُهُ إِلَىٰ «سركهيج» وَدُفِنَ عِنْدَ وَالِدِهِ، طَيَّبَ اللهُ ثَرَاهُ، وَيَحْسُنُ الاسْتِشْهَادُ هُنَا بِمَا رَثَىٰ بِهِ الْعِمَادُ الْكَاتِبُ سُلْطَانَهُ المَلِكَ العَادِلَ نُوْر الدِّيْن الشَّهِيْد رَحِمَهُ اللهُ:

يَا مَلِكاً أَيَّامُهُ لَمْ تَزَلْ   بِفَضْلِهِ فَاضِلَةً فَاخِرَة
مَلَكْتَ دُنْيَاكَ وَخَلَّفْتَهَا   وَسِرْتَ حَتَّىٰ تَمْلِكَ الآخِرَة

(«نزهة الخواطر» للسيد عبد الحي الحسني رَحِمَهُ اللهُ)





رسول المسلمين عند قائد قواد الفرس

أَرْسَلَ سَعْدٌ قَبْلَ الْقَادِسِيَّةِ رَبْعِيَّ بنَ عَامِرٍ رَسُوْلاً إِلَىٰ رُسْتُمَ قَائِدِ الْجُيُوْشِ الفَارِسِيَّةِ وَأَمِيْرِهِمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، وَقَدْ زَيَّنُوْا مَجْلِسَهُ بِالنَّمَارِقِ الْمُذَهَّبَةِ، وَزَرَابِيِّ الْحَرِيْرِ، وَأَظْهَرَ الْيَوَاقِيْتَ وَاللآلِئَ الثَّمِيْنَةَ، وَالزِّيْنَةَ الْعَظِيْمَةَ، وَعَلَيْهِ تَاجُهُ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِنَ الأَمْتِعَةِ، وَقَدْ جَلَسَ عَلَىٰ سَرِيْرٍ مِنْ ذَهَبٍ.

وَدَخَلَ رَبْعِيُّ بِثِيَابٍ صَفِيْقَةٍ، وَسَيْفٍ، وَتُرْسٍ، وَفَرَسٍ قَصِيْرَةٍ، وَلَمْ يَزَلْ رَاكِبَهَا حَتَّىٰ دَاسَ بِهَا عَلَىٰ طَرَفِ الْبِسَاطِ، ثُمَّ نَزَلَ، وَرَبَطَهَا بِبَعْضِ تِلْكَ الْوَسَائِدِ، وَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ سِلاَحُهُ وَدِرْعُهُ، وَبَيْضَتُهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ، فَقَالُوْا لَهُ: ضَعْ سِلاَحَكَ.

فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِكُمْ، وَإِنَّمَا جِئْتُكُمْ حِيْنَ دَعَوْتُمُوْنِي، فَإِنْ تَرَكْتُمُوْنِي هٰكَذَا وَإِلَّا رَجَعْتُ.

فَقَالَ رُسْتُم: اِئْذَنُوْا لَهُ.

فَأَقْبَلَ يَتَوَكَّأُ عَلَىٰ رُمْحِهِ فَوْقَ النَّمَارِقِ، فَخَرَقَ عَامَّتَهَا.

فَقَاْلُوْا لَهُ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ فَقَاْلَ: اللهُ ابْتَعَثَنَاْ لِنُخْرِجَ مَنْ شَاْءَ مِنْ عِبَاْدَةِ الْعِبَاْدِ إِلَىٰ عِبَاْدَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيْقِ الدُّنْيَاْ إِلَىٰ سَعَتِهَاْ، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَاْنِ إِلَىٰ عَدْلِ الإِسْلَاْمِ، فَأَرْسَلَنَاْ بِدِيْنِهِ إِلَىٰ خَلْقِهِ، لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ ذٰلِكَ قَبِلْنَاْ مِنْهُ وَرَجَعْنَاْ عَنْهُ، وَمَنْ أَبَىٰ قَاْتَلْنَاْهُ أَبَداً حَتَّىٰ نُفْضِيْ إِلَىٰ مَوْعُوْدِ اللهِ.

قَاْلُوْا: وَمَاْ مَوْعُوْدُ اللهِ؟

قَاْلَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاْتَ عَلَىٰ قِتَاْلِ مَنْ أَبَىٰ، وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ.

فَقَاْلَ رُسْتُم: قَدْ سَمِعْتُ مَقَاْلَتَكُمْ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُؤَخِّرُوْا هَٰذَا الأَمْرَ حَتَّىٰ نَنْظُرَ فِيْهِ وَتَنْظُرُوْا؟

قَاْلَ: نَعَمْ! كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ يَوْماً أَوْ يَوْمَيْنِ؟

قَاْلَ: لَاْ، بَلْ حَتَّىٰ نُكَاْتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَاْ وَرُؤَسَاْءَ قَوْمِنَاْ!

فَقَاْلَ: مَاْ سَنَّ لَنَاْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنْ نُؤَخِّرَ الأَعْدَاْءَ عِنْدَ اللِّقَاْءِ مِنْ ثَلَاْثٍ، فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِهِمْ، وَاخْتَرْ وَاْحِدَةً مِنْ ثَلَاْثٍ بَعْدَ الْأَجَلِ.

فَقَاْلَ: أَسَيِّدُهُمْ أَنْتَ؟

قَاْلَ: لَاْ، وَلَٰكِنَّ الْمُسْلِمُوْنَ كَالْجَسَدِ الْوَاْحِدِ يُجِيْرُ أَدْنَاْهُمْ عَلَىٰ أَعْلَاْهُمْ.

فَاجْتَمَعَ رُسْتُم بِرُؤَسَاْءِ قَوْمِهِ، فَقَاْلَ: هَلْ رَأَيْتُمْ قَطُّ أَعَزَّ وَأَرْجَحَ مِنْ كَلَاْمِ هَـٰذَا الرَّجُلِ؟

فَقَاْلُوْا: مَعَاْذَ اللهِ أَنْ تَمِيْلَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ هَـٰذَاْ وَتَدَعَ دِيْنَكَ إِلَىٰ هَـٰذَا الْكَلْبِ، أَمَاْ تَرَىٰ إِلَىٰ ثِيَاْبِهِ؟

فَقَاْلَ: وَيْلَكُمْ لَاْ تَنْظُرُوْا إِلَىٰ الثِّيَاْبِ، وَانْظُرُوْا إِلَىٰ الرَّأْيِ، وَالكَلَاْمِ، وَالسِّيْرَةِ، إِنَّ الْعَرَبَ يَسْتَخِفُّوْنَ بِالثِّيَاْبِ وَالمَأْكَلِ، وَيَصُوْنُوْنَ الأَحْسَاْبَ.

(البداية والنهاية: ٧/ ٤٠)

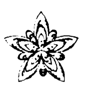




الجامع الأزهر

الْجَامِعُ الأَزْهَرُ هُوَ ذٰلِكَ الْمَسْجِدُ الْكَبِيْرُ الْقَائِمُ فِيْ مَدِيْنَةِ «الْقَاهِرَةِ» لِأَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةِ قُرُوْنٍ وَنِصْفٍ، وَفِيْهِ تِلْكَ الْجَامِعَةُ الدِّيْنِيَّةُ الْكُبْرَىٰ، وَهُوَ أَوَّلُ مَسْجِدٍ أُسِّسَ بِالْقَاهِرَةِ أَنْشَأَهُ الْقَائِدُ جَوْهَرُ الْكَاتِبُ الصِّقِلِّيُّ، مَوْلَىٰ الْعِزِّ لِدِيْنِ اللهِ، الْفَاطِمِيُّ لَمَّا اخْتَطَّ الْقَاهِرَةَ، إِذْ شَرَعَ فِيْ بِنَائِهِ لِستٍّ بَقِيْنَ مِنْ جُمَادَىٰ الأُوْلَىٰ سنة (٣٥٩) هِجْرِيَّة، وَتَمَّ بِنَاؤُهُ لِتِسْعٍ مِنْ رَمَضَانَ سنة (٣٦١) هِجْرِيَّة.

وَكَانَ حَالُ هَـٰذِهِ الْمَدْرَسَةِ كَأَمْثَالِهَا مِنَ الْمَعَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ وَدُوْرِ التَّعْلِيْمِ، بَدَأَتْ صَغِيرَةً لَـٰكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنِ اتَّسَعَ نِطَاقُهَا وَعَظُمَ شَأْنُهَا بِمَا أَفَاضَ عَلَيْهَا الْمُلُوْكُ وَالأُمَرَاءُ حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ مَنْبَعاً لِلتَّعْلِيْمِ الدِّيْنِيِّ، وَطَبَّقَ صِيْتُهَا الْخَافِقَيْن، فَانْحَدَرَ إِلَيْهَا الطَّلَبَةُ مِنْ أَقْصَىٰ الْمَسْكُوْنَةِ، وَتَخَرَّجَ مِنْهَا الْعُلَمَاءُ وَالأَئِمَّةُ فِيْ كُلِّ فَرْعٍ مِنْ فُرُوْعِ الْعِلْمِ الدِّيْنِيِّ وَغَيْرِهِ.



وَقَدْ زَادَ الْمُلُوْكُ وَالْأُمَرَاءُ فِي بِنَائِهِ وَوَسَّعُوْا فِي نَوَاحِيْهِ وَشَادُوْا مَسَاكِنَ لِلطُّلَّابِ «أَرْوِقَة» وَأَسْكَنُوْا فِيْهَا مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ يَأْوِيْ إِلَيْهِ، وَلَا سِيَمَا الْغُرَبَاءُ، وَأَوْدَعُوْا فِيْهَا كُتُبَ التَّدْرِيْسِ وَالْمُرَاجَعَةِ.

كَانَ الأَزْهَرُ يَسِيْرُ عَلَىٰ نِظَامٍ سَهْلٍ يَكَادُ يَكُوْنُ فِطْرِيّاً، أَسَاسُهُ التَّقْوَىٰ، وَقِوَامُهُ احْتِرَامُ الدِّيْنِ وَأَهْلِهِ، فَلَمْ يَكُنْ بِهِ مِنْ مَظَاهِرِ نِظَامَاتِ هَـٰذِهِ الأَيَّامِ وَتَدْبِيْرَاتِهَا شَيْءٌ.

كَانَ الطَّالِبُ يَدْخُلُهُ مُخْتَاراً بِلَا قَيْدٍ وَلَا شَرْطٍ، وَيَخْتَلِفُ إِلَىٰ مَنْ أَرَادَ مِنَ الْعُلَمَاءِ لِتَلَقِّي الْعِلْمَ عَنْهُ، وَيَبْقَىٰ فِيْهِ مَا شَاءَ أَنْ يَبْقَىٰ، فَإِذَا آنَسَ مِنْ نَفْسِهِ عِلْماً كَافِياً وَمَلَكَةً يَتَمَكَّنُ بِهَا مِنْ إِفَادَةِ غَيْرِهِ جَلَسَ لِلتَّدْرِيْسِ حَيْثُ يَجِدُ مَكَاناً خَالِياً، وَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَىٰ الطَّلَبَةِ، فَكَانُوْا إِذَا وَجَدُوْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ الْتَفُّوْا حَوْلَهُ وَقَبَّلُوْا يَدَهُ، وَإِذَا رَأَوْا غَيْرَ ذٰلِكَ انْصَرَفُوا عَنْهُ، وَتِلْكَ هِيَ شَهَادَةُ الْعَالَمِيَّةِ الَّتِيْ كَانَ يُعْطَاهَا الْعُلَمَاءُ.

وَفِيْ سنة (١٢٨٨) هِجْرِيَّة وُضِعَ أَوَّلُ قَانُوْنٍ لِلْأَزْهَرِ، وَصَدَرَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ عِدَّةُ قَوَانِيْنَ.

وَفِيْ (٣) مُحَرَّم سنة (١٣٥٥هـ) صَدَرَ مَرْسُوْمٌ بِإِعَادَةِ تَنْظِيْمِ الْجَامِعِ الأَزْهَرِ وَالْمَعَاهِدِ الدِّيْنِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَنُفِّذَ كَقَانُوْنٍ مِنْ قَوَانِيْنِ الدَّوْلَةِ.

وَقَدْ أُنْشِئَ قِسْمٌ عَامٌّ بِالقَاْهِرَةِ أُلْحِقَ بِالجَاْمِعِ الأَزْهَرِ مِنْ سنة (١٣٥٢هـ) لِسَدِّ حَاْجَةِ مَنْ يُرِيْدُ التَّوَسُّعَ فِي أَحْكَاْمِ الدِّيْنِ وَاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَقَدْ خُصَّ الأَزْهَرُ دُوْنَ سَاْئِرِ الْمَعَاْهِدِ بِالتَّعْلِيْمِ الْعَاْلِي وَالتَّخَصُّصِ.

وَأُنْشِئَ قِسْمٌ مِنَ الأَزْهَرِ لِلتَّخَصُّصِ فِي عُلُوْمِ الدِّيْنِ وَاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّاْرِيْخِ الإِسْلَاْمِيِّ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْوَعْظِ وَالإِرْشَاْد.

وَكُلِيَّاْتُ الْجَاْمِعِ الأَزْهَرِ هِيَ: (١) كُلِّيَّةُ الشَّرِيْعَةِ. (٢) كُلِّيَّةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. (٣) كُلِّيَّةُ أُصُوْلِ الدِّيْنِ.

وَشَيْخُ الْجَاْمِعِ الأَزْهَرِ هُوَ الإِمَاْمُ الأَكْبَرُ لِجَمِيْعِ رِجَاْلِ الدِّيْنِ، وَالْمُشْرِفُ الأَعْلَىٰ عَلَىٰ السِّيْرَةِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُلَاْئِمَةِ لِشَرَفِ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ فِي القُطْرِ المصْرِيِّ كُلِّهِ.

وَلِلْجَاْمِعِ الأَزْهَرِ مَجْلِسٌ يُسَمَّىٰ الْمَجْلِسَ الأَعْلَىٰ لِلأَزْهَرِ، يُشْرِفُ عَلَىٰ شُؤُوْنِهِ وَإِدَاْرَتِهِ، وَيرأَسُ هَٰذَا المَجْلِسَ شَيْخُ الْجَاْمِعِ الأَزْهَرِ.

بَلَغَتْ مِيْزَاْنِيَّةُ الْجَاْمِعِ الأَزْهَرِ وَالْمَعَاْهِدِ الدِّيْنِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الإِسْلَاْمِيَّةِ لِسَنَةِ (١٩٣٦ ـ ١٩٣٧م) الْمَاْلِيَّة (٣٢٣٩٧٦) جُنَيْهاً مِصْرِيّاً.

وَيَبْلُغُ عَدَدُ الْوَظَاْئِفِ الدَّائِمَةِ الخَاْصَّةِ لِلْمُدَرِّسِيْنَ وَالمُوَظَّفِيْنَ (٧٧٦)، وَعَدَدُ الْوَظَاْئِفِ الْمُؤَقَّتَةِ (٢٣١).

وَبَلَغَ عَدَدُ طَلَبَةِ الأَزْهَرِ سنة (١٩٣٦ ـ ١٩٣٧م) الدِّرَاْسِيَّة (١١١٣٠) طَاْلِباً.

وَمُعْظَمُ طَلَبَةِ الْأَزْهَرِ مِنَ الْمَصْرِيِّيْنَ وَالسُّوْرِيِّيْنَ وَالْأَتْرَاْكِ وَالْمَغَاْرِبَةِ وَبَعْضُهُمْ يَأْتِي مِنْ أَفغَاْنِسْتَاْن وَالصِّيْن وَبَغْدَاْدَ وَبُوْرنُو والهِنْد وَجَاْوَه وَالعجمِ وسَنَّار والصُّوْمَال وَجَنُوْبِ إِفرِيْقيَا وَغَيْرِهَاْ.

وَكَاْنَ فِي الأَزْهَرِ مَجْمُوْعَةٌ كَبِيْرَةٌ مِنَ الْكُتُبِ مُتَفَرِّقَةٌ فِي أَرْوِقَتِهِ وَفِي جِهَاْتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْهُ، فَلَمَّا تَوَجَّهَت العِنَاْيَةُ إِلَىٰ إِصْلَاْحِ الأَزْهَرِ وَتَحْسِيْنِ حَاْلِهِ أُنْشِئَتْ فِيْ سنة (١٨٩٧م) دَاْرُ كُتُبٍ عَاْمَّة تُسَمَّىٰ «دَاْرَ الكُتُبِ الأَزْهَرِيَّةِ الكُبْرَىٰ»، تَجْمَعُ مَاْ تفرَّق فِي أَرْوِقَةِ الأَزْهَرِ مِنَ الكُتُبِ، وَرُتِّبَ لَهَا مَاْ يَلْزَمُ مِنَ الْمَاْلِ وَالْعُمَّاْلِ، وَمَاْ زَاْلَتْ هَـٰذِهِ الدَّاْرُ تَتَدَرَّجُ فِي الرُّقيِّ حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ تَحْتَوِيْ عَلَىٰ (٧٢٦٢٧) مُجَلَّداً بَيْنَ مَخْطُوْطٍ، وَمَطْبُوْعٍ، وَفِيْهَا مِنْ أُمَّهَاْتِ الْكُتُبِ وَنَاْدِرِهَا مَاْ لَاْ يُوْجَدُ فِي دَاْرِ كُتُبٍ أُخْرَىٰ.

(تقويم مصر بتلخيص)





أدب القرآن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٞ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ
بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ (٢) إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ
لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (٤) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ
قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ (٦) وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ
يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ
وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (٧) فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ
وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٨) وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ
بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن

فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا
ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن
يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ
ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ
أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ
لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ
ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ
أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

[الحجرات: ١ ـ ١٨].

٩١

شيخ الإسلام ابن تيمية

وُلِدَ أَحْمَدُ بنُ عَبْدِ الْحَلِيْمِ ابنُ تَيْمِيَة بِحَرَّاْنَ، يَوْمَ الاثْنَيْنِ فِي (١٠) وَقِيْل (١١) رَبِيْع الأَوَّل، سنة (٦٦١هـ)، وَقَدِمَ مَعَ وَالِدِهِ وَأَهْلِهِ إِلَىٰ دِمَشْقَ وَهُوَ صَغِيْرٌ، كَاْنُوا قَدْ خَرَجُوْا مِنْ بِلَاْدِ حَرَّاْنَ مُهَاْجِرِيْنَ بِسَبَبِ جَوْرِ التَّتَرِ، فَسَاْرُوْا بِاللَّيْلِ وَمَعَهُمْ الْكُتُبُ عَلَىٰ عَجَلَةٍ لِعَدَمِ الدَّوَاْبِّ، وَكَاْدَ الْعَدُوُّ يَلْحَقُهُمْ، وَوَقَعَتِ الْعَجَلَةُ فَابْتَهَلُوْا إِلَىٰ اللهِ تَعَاْلَىٰ وَاسْتَعَاْنُوْا بِهِ فَنَجَوْا، وَقَدِمُوْا دِمَشْقَ فِي أَثْنَاْءِ سنة (٦٦٧هـ)، وَسَمِعَ هُنَاْكَ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ مِئَتَيْ شَيْخٍ، وَلَاْزَمَ السَّمَاْعَ مُدَّةَ سِنِيْنَ، وَاشْتَغَلَ بِالْعُلُوْمِ، وَحَفِظَ الْقُرْآنَ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الْفِقْهِ، وَبَرَعَ فِي النُّجُوْمِ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ التَّفْسِيْرِ إِقْبَاْلاً كُلِّيّاً حَتَّىٰ حَاْزَ فِيْهِ قَصَبَ السَّبْقِ، كُلُّ ذٰلِكَ وَهُوَ ابْنُ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَة، وَلَمْ يَزَلْ عَلَىٰ ذٰلِكَ خَلَفاً صَاْلِحاً بَرّاً بِوَاْلِدَيْهِ، تَقِيّاً، وَرِعاً نَاْسِكاً صَوَّاْماً، قَوَّاْماً ذَاْكِراً للهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَعَلَىٰ كُلِّ حَاْلٍ، رَجَّاْعاً إِلَىٰ اللهِ تَعَاْلَىٰ فِي سَاْئِرِ الأَحْوَاْلِ وَالْقَضَاْيَاْ، وَقَّاْفاً عِنْدَ

حُدُوْدِ اللهِ تَعَاْلَىٰ وَأَوَاْمِرِهِ وَنَوَاْهِيْهِ، آمِراً بِالْمَعْرُوْفِ، نَاْهِياً عَنِ الْمُنْكَرِ، لَاْ تَكَاْدُ نَفْسُهُ تَشْبَعُ مِن الْعِلْمِ، وَلَاْ تَرْوَىٰ مِن الْمُطَاْلَعَةِ، وَلَاْ تَملُّ مِن الاشْتِغَالِ، وَلَا تَكِلُّ مِن الْبَحْثِ، وَكَاْنَ يَحْضُرُ الْمَجَاْلِسَ وَالْمَحَاْفِلَ فِي صِغَرِهِ، يَتَكَلَّمُ وَيُنَاْظِرُ وَيُفْحِمُ الْكِبَاْرَ، وَيَأْتِي بِمَاْ يَتَحَيَّرُ مِنْهُ أَعْيَاْنُ الْبَلَدِ فِي الْعِلْمِ، وَأَفْتَىٰ وَلَهُ نحو (١٧) سَنَة، وَشَرَعَ فِي الْجَمْعِ وَالتَّأْلِيْفِ مِن ذَٰلِكَ الْوَقْتِ، وَمَاْتَ وَاْلِدُهُ فَكَاْنَ مِنْ كِبَاْرِ الْحَنَاْبِلَةِ وَأَئِمَّتِهِمْ، دَرَّسَ بَعْدَهُ بِوَظَاْئِفَ وَلَهُ (٢١) سَنَة، فَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ، وَبَعُدَ صِيْتُهُ فِي الْعَاْلَمِ، وَأَخَذَ فِي تَفْسِيْرِ الْكِتَاْبِ الْعَزِيْزِ أَيَّاْمَ الْجَمْعِ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ مَنْ حَفَّظَهُ، فَكَاْنَ يُوْرِدُ مَاْ يَقُوْلُهُ مِنْ دُوْنِ تَوَقُّفٍ وَلَاْ تَلَعْثُمٍ، وَحَجَّ سنة (٦٩١هـ)، وَرَجَعَ وَقَدِ انْتَهَتْ إِلَيْهِ الإِمَاْمَةُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَلَمْ يَخْلُ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْ فِتْنَةٍ بَعْدَ فِتْنَةٍ، وَلَمْ يَنْتَقِلْ طُوْلَ عُمُرِه مِنْ مِحْنَةٍ إِلَّا إِلَىٰ مِحْنَةٍ، حُبِسَ مِرَاْراً فِي مَسَاْئِلَ فِقْهِيَّةٍ وَكَلَاْمِيَّةٍ، وَحُبِسَ مَرَّةً بِبُرْجٍ، وَكَاْنَ مَوْضِعُهُ فَسِيْحاً فَصَاْرَ النَّاْسُ يَدْخُلُوْنَ إِلَيْهِ وَيَقْرَؤونَ عَلَيْهِ وَيَبْحَثُوْنَ مَعَهُ، وَنُقِلَ إِلَىٰ الْجُبِّ، وَنُفِيَ مِنْ بِلَاْدٍ، وَنُقِلَ مِنْ بِلَاْدٍ إِلَىٰ بِلَاْدٍ.

وَقَاْمُوْا عَلَيْهِ فِي شَهْرِ رَمَضَاْنَ سنة (٧١٩هـ)، وَأُكِّدَ عَلَيْهِ الْمَنْعُ مِنْ الْفُتْيَا، ثُمَّ عُقِدَ لَهُ مَجْلِسٌ آخَرُ فِي رَجَبَ سنة (٧٢٠هـ)، ثُمَّ حُبِسَ بِالْقَلْعَةِ، ثُمَّ أُخْرِجَ فِي عَاْشُوْراء سنة

(٧٢١هـ)، ثُمَّ قَامُوْا عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ فِي شَعْبَانَ (٧٢٦هـ)، بِسَبَبِ مَسْأَلَةِ الزِّيَارَةِ، وَاعْتُقِلَ بِالْقَلْعَةِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا إِلَىٰ أَنْ مَاتَ فِي لَيْلَةِ الاثْنَيْنِ وَالْعِشْرِيْنَ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ سنة (٧٢٨هـ)، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ بِجَامِعِ دِمَشْقَ، وَصَارَ يُضْرَبُ بِكَثْرَةِ مَنْ حَضَرَ جِنَازَتَهُ الْمَثَلُ، وَأَقَلُّ مَا قِيلَ فِي عَدَدِهِمْ إِنَّهُمْ خَمْسُوْنَ أَلْفاً.

قَالَ الذَّهَبِيُّ: كَانَ يُقْضَى مِنْهُ الْعَجَبُ إِذَا ذَكَرَ مَسْأَلَةً مِنْ مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَاسْتَدَلَّ وَرَجَّحَ، وَكَانَ يَحِقُّ لَهُ الاجْتِهَادُ؛ لِاجْتِمَاعِ شُرُوْطِهِ فِيْهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَسْرَعَ انْتِزَاعاً لِلْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ الْمَسْأَلَةِ الَّتِيْ يُوْرِدُهَا مِنْهُ، وَلَا أَشَدَّ اسْتِحْضَاراً لِلْمُتُوْنِ وَعَزْوِهَا مِنْهُ، كَأَنَّ السُّنَّةَ نَصْبُ عَيْنَيْهِ وَعَلَىٰ طَرَفِ لِسَانِهِ، بِعِبَارَةٍ رَشِيْقَةٍ وَعَيْنٍ مَفْتُوْحَةٍ.

وَكَانَ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي التَّفْسِيْرِ وَالتَّوَسُّعِ فِيْهِ، وَأَمَّا أُصُوْلُ الدِّيَانَةِ وَمَعْرِفَةُ أَقْوَالِ الْمُخَالِفِيْنَ فَكَانَ لَا يُشَقُّ غُبَارُهُ فِيْهِ، هَـٰذَا مَعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِن الْكَرَمِ والشَّجَاعَةِ والْفَرَاغِ عَنْ مَلَاذِّ النَّفْسِ، وَلَعَلَّ فَتَاوَاهُ فِي الْفُنُوْنِ تَبْلُغُ ثَلَاثَمِئَةِ مُجَلَّدٍ بَلْ أَكْثَرَ، وَكَانَ قَوَّالاً بِالْحَقِّ لَا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ.

كَانَ أَبْيَضَ، أَسْوَدَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ، قَلِيْلَ الشَّيْبِ، شَعْرُهُ إِلَىٰ شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ، وَكَأَنَّ عَيْنَيْهِ لِسَانَانِ نَاطِقَانِ، رَبْعَةً مِن الرِّجَالِ، بَعِيْدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ، جَهْوَرِيَّ الصَّوْتِ، فصيحاً،



سَرِيْعَ الْقِرَاْءَةِ، تَعْتَرِيْهِ حِدَّةٌ لَـكِنْ يَقْهَرُهَاْ بِالْحُلْمِ، لَمْ أَرَ مِثْلَهُ فِي ابْتِهَاْلِهِ وَاسْتِغَاْثَتِهِ وَكَثْرَةِ تَوَجُّهِهِ، وَأَنَاْ لَاْ أَعْتَقِدُ فِيْهِ عِصْمَةً، وَكَاْنَ بَشَراً مِن الْبَشَرِ تَعْتَرِيْهِ حِدَّةٌ فِي الْبَحْثِ وَغَضَبٌ، وَكُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ.

وَكَاْنَ مُحَاْفِظاً عَلَىٰ الصَّلَاْةِ وَالصَّوْمِ، مُعَظِّماً لِلشَّرَاْئِعِ ظَاْهِراً وبَاْطِناً، لَاْ يُؤْتَىٰ مِنْ سُوْءِ فَهْمٍ، فَإِنَّ لَهُ الذَّكَاْءَ الْمُفْرِطَ، وَلَاْ مِنْ قِلَّةِ عِلْمٍ، فَإِنَّهُ بَحْرٌ زَخَّاْرٌ، وَلَاْ كَاْنَ مُتَلَاْعِباً بِالدِّيْنِ، وَلَاْ يَنْفَرِدُ بِمَسَاْئِلِهِ بِالتَّشَهِّي، وَلَاْ يُطْلِقُ لِسَاْنَهُ بِمَا اتَّفَقَ، بَلْ يَحْتَجُّ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيْثِ وَالْقِيَاْسِ، وَيُبَرْهِنُ وَيُنَاْظِرُ.

قَاْلَ الأَقشَهْرِيُّ فِي رِحْلَتِهِ: ابنُ تَيْمِيَةَ بَاْرِعٌ فِي الْفِقْهِ وَالْأَصْلين وَالْفَرَاْئِضِ وَالْحِسَاْبِ وَفُنُوْنٍ أُخرَ، وَمَاْ مِنْ فَنٍّ إِلَّا لَهُ فِيْهِ يَدٌ طُوْلَىٰ، وَقَلَمُهُ وَلِسَاْنُهُ مُتَقَاْرِبَاْنِ.

وَقَاْلَ شَمْسُ الدِّيْنِ ابنُ الْحَرِيْرِي قَاْضِي الْحَنَفِيَّةِ بِدِمَشْقَ: إِنَّهُ مُنْذُ ثَلَاْثُمِئةِ سَنَةٍ مَاْ رَأَىٰ النَّاْسُ مِثْلَهُ.

وَكَاْنَ ابنُ تَيْمِيَةَ يتكَلَّمُ عَلَىٰ الْمِنبَرِ عَلَىٰ طَرِيْقَةِ الْمُفَسِّرِيْن مَعَ الْفِقْهِ وَالْحَدِيْثِ، فَيُوْرِدُ فِي سَاْعَةٍ مِن الْكِتَاْبِ وَالسُّنَّةِ وَاللُّغَةِ وَالنَّظَرِ مَاْ لَاْ يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ أَنْ يُوْرِدَهُ فِي عِدَّةِ مَجَاْلِسَ، كَأَنَّ هَـٰذِهِ الْعُلُوْمَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَيأْخُذُ مِنهَاْ مَاْ يَشَاْءُ وَيَذَر.

وَكَاْنَ يَمُرُّ بِالْكِتَاْبِ مُطَاْلَعَةً مَرَّةً فَيَنْتَقِشُ فِي ذِهْنِهِ وَيَنْقُلُهُ فِي

مُصَنَّفَاْتِهِ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، وَكَاْنَ مِنْ أَذْكِيَاْءِ الْعَاْلَمِ، وَلَهُ فِي ذٰلِكَ أُمُوْرٌ عَظِيْمَةٌ، مِنْهَاْ أَنَّ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ السَّكاكِينِي عَمِلَ أَبْيَاْتاً عَلَىٰ لِسَاْنِ ذِمِّيٍّ فِي إِنْكَاْرِ الْقَدَرِ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا ابنُ تَيْمِيَةَ، فَثَنَىٰ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ عَلَىٰ الأُخْرَىٰ، وَأَجَاْبَ فِي مَجْلِسِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُوْمَ بِمِئَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ بَيْتاً.

وَكَاْنَ دَاْئِمَ الابْتِهَاْلِ، كَثِيْرَ الاسْتِغَاْثَةِ، قَوِيَّ التَّوَكُّلِ، رَاْبِطَ الْجَأْشِ، لَهُ أَوْرَاْدٌ وَأَذْكَاْرٌ يُدْمِنُهَاْ قَلْبِيَّةٌ وَجَمْعِيَّةٌ.



٩٢ كيف تَعَلَّمْتُ الإسلام في الأندلس النصرانية

أَطْلَعَنِي اللهُ عَلَىٰ دِيْنِ الإِسْلَامْ بِوَاْسِطَةِ وَاْلِدِيْ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَأَنَاْ ابنُ سِتَّةِ أَعْوَاْمٍ أَوْ أَقَلَّ، مَعَ أَنِّيْ كُنْتُ إِذْ ذَاْكَ أَرُوْحُ إِلَىٰ مَكْتَبِ النَّصَاْرَىٰ لِأَقْرَأَ دِيْنَهُمْ ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَىٰ بَيْتِي فَيُعَلِّمُنِيْ وَاْلِدِيْ دِيْنَ الإِسْلَاْمِ، فَكُنْتُ أَتَعَلَّمُ فِيْهِمَاْ مَعاً، وَسِنِّي حِيْنَ حُمِلْتُ إِلَىٰ مَكْتَبِهِمْ أَرْبَعَةُ أَعْوَاْمٍ، فَأَخَذَ وَاْلِدِيْ لَوْحاً مِنْ عُوْدِ الْجَوْزِ كَأَنِّيْ أَنْظُرُ الآنَ إِلَيْهِ مُمَلَّساً مِنْ غَيْرِ طفلٍ وَلَاْ غيرِهِ، فَكَتَبَ لِيْ فِيْهِ حُرُوْفَ الهِجَاْءِ، وَهُوَ يَسْأَلُنِيْ حَرْفاً حَرْفاً عَنْ حُرُوْفِ النَّصَاْرَىٰ تَدْرِيْباً وَتَقرِيْباً، فَإِذَاْ سَمَّيْتُ لَهُ حَرْفاً أَعْجَمِيّاً كَتَبَ لِيْ حَرْفاً عَرَبِيّاً، فَيَقُوْلُ لِيْ هٰكَذَاْ حُرُوْفُنَاْ، حَتَّىٰ اسْتَوْفَىٰ لِيْ جَمِيْعَ حُرُوْفِ الْهِجَاْءِ فِي كَرَّتَيْنِ، فَلَمَّاْ فَرَغَ عَنْ الكَرَّةِ الْأُوْلَىٰ أَوْصَاْنِي أَنْ أَكْتُمَ ذٰلِكَ حَتَّىٰ عَنْ وَاْلِدَتِيْ وَعَمِّيْ وَأَخِيْ وَجَمِيْعِ قَرَاْبَتِنَاْ، وَأَمَرَنِيْ أَنْ لَاْ أُخْبِرَ أَحَداً مِن الْخَلْقِ ثُمَّ شَدَّدَ عَلَىٰ

الْوَصِيَّةِ، وَصَارَ يُرْسِلُ وَالِدَتِيْ فَتَسْأَلُنِيْ مَا الَّذِيْ يُعَلِّمُكَ، فَأَقُوْلُ لَهَا: لاَ شَيْء، فَتَقُوْلُ: أَخْبِرْنِيْ بِذٰلِكَ وَلاَ تَخَفْ لِأَنِّيْ عِنْدِي الْخَبَرُ بِمَا يُعَلِّمُكَ، فَأَقُوْلُ لَهَا: أَبداً مَا هُوَ يُعَلِّمُنِيْ شَيْئاً، وَكَذٰلِكَ كَانَ يَفْعَلُ عَمِّيْ وَأَنَا أُنْكِرُ أَشَدَّ الإِنْكَار، ثُمَّ أَرُوْحُ إِلىٰ مَكْتَبِ النَّصَارَىٰ، وَإِلَىٰ الدَّارِ فَيُعَلِّمُنِيْ وَالِدِيْ إِلىٰ أَنْ مَضَتْ مُدَّةٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ مِنْ إِخْوَانِهِ فِي اللهِ الأَصْدِقَاءَ، فَلَمْ أُقِر لِأَحَدٍ قَطُّ بِشَيْءٍ مَعَ أَنَّهُ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ـ قَدْ أَلْقَىٰ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ لإِمْكَانِ أَنْ أُخْبِرَ بِذٰلِكَ عَنْهُ فَيُحْرَق لاَ مَحَالَةَ، لَٰكِنْ أَيَّدَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِتَأْيِيْدِهِ، وَأَعَانَنَا عَلَىٰ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ أَعْدَاءِ الدِّيْنِ.

وَقَدْ كَانَ وَالِدِيْ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يُعَلِّمُنِيْ حِيْنَئِذٍ مَا كُنْتُ أَقُوْلُهُ عِنْدَ رُؤْيَتِيْ لِلأَصْنَام، وَذٰلِكَ أَنَّه قَالَ لِيْ: إِذَا أَتَيْتَ إِلىٰ كَنَائِسِهِمْ وَرَأَيْتَ الأَصْنَامَ فَاقْرَأْ فِي نَفْسِكَ سِرّاً قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٢] إِلَىٰ آخِرِهَا، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِن الآيَاتِ الْكَرِيْمَةِ، وَقَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا

ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦ـ ١٥٨].

فَلَمَّاْ تَحقَّقَ وَاْلِدِيْ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ أَنِّيْ أَكتُمُ أُمُوْرَ دِيْنِ الإِسْلَاْمِ عَنِ الأَقَاْرِبِ فَضْلاً عَنِ الأَجَاْنِبِ، أَمَرَنِيْ أَنْ أَتكَلَّمَ بِإِفْشَاْئِهِ لِوَاْلِدَتِي وَعَمِّيْ وَبَعْضِ أَصْحَاْبِهِ الأَصْدِقَاْء فَقَط، وَكَاْنُوْا يَأْتُوْنَ إِلَىٰ بَيْتِنَاْ فَيَتَحَدَّثُوْنَ فِي أَمْرِ الدِّيْنِ وَأَنَاْ أَسْمَعُ، فَلَمَّاْ رَأَىٰ حَزْمِي مَعَ صِغَرِ سِنِّيْ فَرِحَ غَاْيَةَ الْفَرَحِ وَعَرَّفَنِيْ بِأَصْدِقَاْئِهِ وَأَحِبَّاْئِهِ وَإِخْوَاْنِهِ فِي دِيْنِ الإِسْلَاْمِ، فَاجْتَمَعْتُ بِهِمْ وَاْحِداً وَاْحِداً.

وَسَاْفَرْتُ الأَسْفَاْرَ لأَجْتَمِعَ بِالْمُسْلِمِيْنَ الأَخْيَاْرِ مِنْ «جيان» مَدِيْنَةِ ابنِ مَاْلِكٍ إِلَىٰ غرْنَاْطَةَ وَإِلَىٰ قُرْطُبَةَ وَأَشْبِيْلية وَطُلَيْطِلَةَ وَغَيْرِهَا مِنْ مُدُنِ الْجزِيْرَةِ الْخضْرَاْءِ، ـ أَعَاْدَهَا اللهُ تَعَاْلَىٰ لِلْإِسْلَاْمِ ـ فَتَلَخَّصَ لِيْ مِنْ مَعْرِفَتِهِمْ أَنِّيْ مَيَّزْتُ سَبْعَةَ رِجَاْلٍ كَاْنُوْا كُلُّهُمْ يُحَدِّثُوْنَنِي بِأُمُوْرِ غرنَاْطَةَ، وَمَاْ كَاْنَ بِهَاْ فِي الإِسْلَاْمِ حِيْنَئِذٍ، وَبِمَاْ أَقُوْلُهُ بَعْدُ وَقُلْتُهُ قَبْلُ، فَسَنَدِيْ عَاْلٍ لِكَوْنِهِ مَاْ تَمَّ إِلَّا بِوَاْسِطَةٍ وَاْحِدَةٍ بَيْنِيْ وَبَيْنَ الإِسْلَاْمِ بِهَاْ.

فَبِاْجْتِمَاْعِي بِهِمْ حَصَلَ لِيْ خَيرٌ كَثِيْرٌ ـ وَللهِ المِنَّةُ ـ وَقَدْ قَرَؤُوا كُلُّهُمْ ـ رَحِمَهُم اللهُ ـ عَلَىٰ شَيْخٍ مِنْ مَشَاْيِخ غرنَاْطَةَ ـ أَعَاْدَهَا اللهُ لِلْإِسْلَاْمِ ـ يُقَاْلُ لَهُ الْفَقِيْهُ اللوطوريُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ وَنَفَعنَا بِهِ ـ فَإِنَّهُ كَاْنَ رَجُلاً صَاْلِحاً، وَلِيّاً فَاْضِلاً زَاْهِداً وَرِعاً عَاْرِفاً

سَاْلِكاً، ذَاْ مَنَاْقِبَ ظَاْهِرَةٍ مَشْهُوْرَةٍ، وَكَرَاْمَاتٍ ظَاْهِرَةٍ مَأْثُوْرَةٍ، قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ الْكَرِيْمَ فِيْ مَكْتَبِ الإِسْلَاْمِ بِغرنَاْطَةَ قَبْلَ استِيْلَاْءِ العَدُوِّ عَلَيْهَا، وَهُوَ ابنُ ثَمَاْنِيَةِ أَعْوَاْمٍ، وَقَرَأَ الْفِقْهَ وَغَيْرَهُ عَلَىٰ مَشَاْيِخَ أَجِلَّاْءَ حَسْبَ الإِمْكَاْنِ؛ لأَنَّ الْوَقْتَ ضَاْقَ فِي السِّرِّ وَالإِعْلَاْنِ، لِشِدَّةِ الْقِتَاْلِ وَالْحصْرِ الَّذِيْ كَاْنَ عَلَيْهِم مَعَ صِغَرِ سِنِّهِ، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ يَسِيْرَةٍ انْتُزِعَتْ غرنَاْطَةُ مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِيْنَ أَجْدَاْدِنَاْ، وَقَدْ أَذِنَ الْعَدُوُّ فِي رُكُوْبِ الْبَحْرِ وَالْخُرُوْجِ مِنْهَا لِمَنْ أَرَاْدَهُ، وَبَيْعِ مَاْ عِنْدَهُ وَإِتْيَاْنِهِ لِهَـٰذِهِ الدِّيَاْرِ الإِسْلَاْمِيَّةِ ـ أَبْقَاْهَا اللهُ تَعَاْلَىٰ عَاْمِرَةً بِالإِسْلَاْمِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّيْنِ ـ وَذٰلِكَ فِي مُدَّةِ ثَلَاْثَةِ أَعْوَاْمٍ، وَمَنْ أَرَاْدَ أَنْ يُقِيْمَ عَلَىٰ دِيْنِهِ وَمَاْلِهِ فَلْيَفْعَلْ، بعد شُرُوْطٍ اشْتَرَطُوْهَا وَإِلْزَاْمَاْتٍ كَتَبَهَاْ عَدُوُّ الدِّيْنِ عَلَىٰ أَهْلِ الإِسْلَاْمِ، فَلَمَّاْ تَحَرَّكُوْا لِذلِك أَجْدَاْدُنَاْ، وَعَزَمُوْا عَلَىٰ تَرْكِ دِيَاْرِهِمْ وَأَمْوَاْلِهِمْ وَمُفَاْرَقَةِ أَوْطَاْنِهِمْ لِلْخُرُوْجِ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَجَاْزَ إِلَىٰ هَـٰذِهِ الدِّيَاْرِ التُّوْنِسِيَّةِ وَالْخُضْرَةِ الْخَضْرَاْءِ بِعْثَةُ مَنْ جَاْءَ إِلَيْهَاْ حِيْنَئِذٍ، وَدَخَلُوْا فِي زُقَاْقِ الأَنْدَلُسِ الْمَعْرُوْفِ بِهَـٰذَا الاسْمِ، وَذٰلِكَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِمِئَةٍ، وَكَذٰلك لِلْجَزَاْئِرِ وَتطوَاْنَ وَفَاْس وَمرَّاْكِش وَغَيْرِهَاْ، وَرَأَىٰ الْعَدُوُّ الْعَزْمَ فِيْهِمْ؛ لِذٰلِكَ نَقَضَ الْعَهْدَ فَرَدَّهُمْ رغْمَ أُنُوْفِهِمْ مِنْ سَوَاْحِلِ الْبَحْرِ إِلَىٰ دِيَاْرِهِمْ، وَمَنَعَهُمْ قَهْراً عَنِ الْخُرُوْجِ وَاللُّحُوْقِ بِإِخْوَاْنِهِمْ وَقَرَاْبَتِهِمْ لِدِيَاْرِ الإِسْلَاْمِ، وَقَدْ كَاْنَ الْعَدُوُّ يُظْهِرُ شَيْئاً

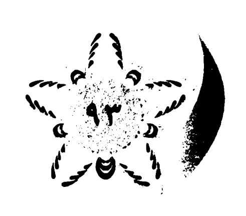
وَيَفْعَلُ بِهِمْ آخَرَ، مَعَ أَنَّ المسْلِمِيْنَ أجْدَاْدَنَاْ اسْتَنْجَدُوا مِرَاْراً مُلُوْكَ الإِسْلَاْمِ، كَمَلِكِ فَاْس وَمِصْرَ حِيْنَئِذٍ، فَلَمْ يَقَعْ مِنْ أَحَدِهِمَاْ إِلَّا بَعْضُ مُرَاْسَلَاْتٍ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَاْنَ مَفْعُوْلاً.

ثُمَّ بَقِيَ الْعَدُوُّ يَحْتَاْلُ بِالْكُفْرِ عَلَيْهِم غضباً، فَابْتَدَأَ يُزِيْلُ لَهُمْ اللِّبَاْسَ الإِسْلَاْمِيَّ وَالْجَمَاْعَاْتِ وَالْحَمَّاْمَاْتِ وَالْمُعَاْمَلَاْتِ الإِسْلَاْمِيَّة شَيْئاً فَشَيْئاً مَعَ شِدَّةِ امْتِنَاْعِهِمْ وَالْقِيَاْمِ عَلَيْه مِرَاْراً، وَقِتَاْلِهِمْ إِيَّاْهُ، إِلَىٰ أَنْ قَضَىٰ اللهُ سُبْحَاْنَهُ مَاْ قَدْ سَبَقَ فِيْ عِلْمِهِ، فَبَقِيْنَاْ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَعَدُوُّ الدِّيْنِ يَحْرِقُ بِالنَّاْرِ مَنْ لَاْحَتْ عَلَيْهِ أَمَاْرَةُ الإِسْلَاْمِ، وَيُعَذِّبُهُ بِأَنْوَاْعِ الْعَذَاْبِ، فَكَمْ أَحْرَقُوْا وَكَمْ عَذَّبُوْا وَكَمْ نَفَوْا مِنْ بِلَاْدِهِمْ وَضَيَّعُوْا مِنْ مُسْلِمٍ، فَإِنَّا لله وَإِنَّاْ إِلَيْهِ رَاْجِعُوْنَ.

(سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي ١٠٥٢هـ)







وصف قلم

أَهْــدَى إِلَــيَّ سَــيِّــدِي(١) قَـلَـمـاً رَشِـيْـقـاً مِـنْ دكـنْ
يَـاْ حَـبَّـذَاْ تِـلْـكَ الْـعُـلَـىٰ مِـنْ مَـاْجِـدٍ حِـبْـرِ الـزَّمَـنْ
هُـوَ خـيـرُ مَـا يُـهْـدَى إِلَـى بَـاغِـي الْـعُـلُـوْمِ وَالْـفَـنَـنْ
يَـسْـقِـي الْـعِـبَـاْدَ بِـرِيْـقِـهِ وَدِمَـاْئِـهِ، يُـحْـيِـي الـسُّـنَـنْ
كَـمْ خَـاْمِـلٍ نَـاْلُـوْا بِـهِ ذِكْـراً رَفِـيْـعـاً فِـي الْـوَطَـنْ
كَـمْ مُـعْـدَمٍ حَـاْزُوْا بِـهِ مَـاْلاً عَـظِـيْـمـاً فِـي الْـمِـحَـنْ
تَـفْـرِي الأُمُـوْرُ بِـجِـدِّهِ وَلِـمَـجْـدِهِ يَـعْـنُـو الـزَّمَـنْ
سَـيْـفٌ صَـقِـيْـلٌ فِـي الْـوَغَـىٰ مَـوْتٌ ذَرِيْـعٌ بِـالـرَّسَـنْ
يَـرْمِـي الْـبُـغَـاْةَ بِـسَـهْـمِـهِ وَبِـطَـرْفِـهِ تَـخْـبُـو الْـفِـتَـنْ
كَـمْ عَـاْجِـزٍ يَـقْـوَىٰ بِـهِ بَـعْـدَ الـتَّـذَلُّـلِ وَالْـوَهَـنْ

---

(١) يعني الشاعر به الأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي وقد أهدىٰ إلىٰ الناظم قلماً مطبوعاً عليه اسمه في رجوعه من حيدر آباد دكن.

كَمْ صَاغِرٍ يَلْقَىٰ بِهِ   عِزّاً عَزِيْزاً وَالْمِنَنْ
يَرْقَىٰ اللَّدِيْغُ بِنَفْثِهِ   فَيَهُبُّ يَمْشِيْ مِنْ وَسَنْ
يَرْوِيْ الظِّمَاْءَ زُلَاْلُهُ   فَكَأَنْ غَمَاْماً قَدْ هَتَنْ
يُشْفَى الْعَلِيْلُ بِطِبِّهِ   وَبِسِحْرِه يَغْبِي الْفِتَنْ
كَمْ مُفْحِمٍ أَلْقَىٰ بِهِ   خُطْبَاتِ سَحْبَاْن اللَّسَنْ
يُسْقَىٰ الْجَدِيْبُ بِنَبْعِهِ   فَإِذَاْ بِهِ رَوْضٌ أَغَنْ
فَلَثَمْتُهُ مُتَبَرِّكاً   وَحَسِبْتُهُ إِحْدَىٰ الْمِنَنْ

(محمد ناظم الندوي)



٩٤

عالمكير بن شاه جهان
سلطان الهند (١)

الإِمَاْمُ الْمُجَاْهِدُ الْمُظَفَّرُ الْمَنْصُوْرُ، السُّلْطَاْنُ بنُ السُّلْطَاْنِ، أَبُو الْمُظَفَّرِ مُحْيِي الدِّيْنِ مُحَمَّد أورَنْغ زيْب عَاْلِمْكِير بن شَاْه جهَاْن الْغَاْزِي، الْمُؤَيَّدُ مِنَ اللهِ، الْقَاْئِم بِنُصْرَةِ الدِّيْنِ، الَّذِيْ أَيَّدَ الإِسْلَاْمَ وَفَتَحَ الْفُتُوْحَاْتِ الْعَظِيْمَةَ، وَسَاْسَ الْأُمُوْرَ، وَأَحْسَنَ إِلَىٰ الرَّعَاْيَاْ، وَصَرَفَ أَوْقَاْتَهُ فِي الْقِيَاْمِ بِمَصَاْلِح النَّاْسِ، وَبِمَا يَرْضَىٰ بِهِ رَبُّ الْعَاْلَمِيْن مِنْ صِيَاْمٍ وَقِيَاْم وَرِيَاْضٍ لَاْ يَتَيَسَّرُ بَعْضُهَا لِآحَادِ النَّاْسِ فَضْلاً عَن الْمُلُوْكِ وَالسَّلَاْطِيْنِ، وَذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاْءُ.

وُلِدَ لَيْلَةَ الْأَحَدِ بِخَمْسَ عَشْرَةَ خَلَوْنَ مِنْ ذِي الْقعْدَةِ، سَنَةَ ثَمَاْنٍ وَعِشْرِيْن وَأَلفٍ، بِقَرْيَةِ «دوحد» عَلَىٰ مِئَةِ مِيْلٍ مِنْ «أجين»، وَسَبْعِيْنَ مِيْلاً مِن «برودة»، مِنْ بَطْنِ أَرجمند بَاْنُو بِنْتِ آصِف خَاْن أَبِي الْحَسَن بن غِيَاْث الدِّيْنِ الطَّهْرَاْنِي فِي أَيَّاْمِ جَدِّهِ

جهَانكِيْر بن أَكْبَر شَاْه، وَنَشَأَ فِي مَهْدِ السُّلْطَةِ وَتَنَبَّلَ فِي أَيَّامِ جَدِّهِ وَأَبِيْهِ، وَقَرَأَ الْعِلْمَ عَلَىٰ مَوْلَاْنَا عَبْدِ اللَّطِيْفِ السُّلْطان بُوْرِي، وَمَوْلَاْنَا مُحَمَّد هَاْشِم الكِيْلَاْنِي، وَالشَّيْخ مُحْيِي الدِّيْنِ بنِ عَبْدِ اللهِ البهَاْرِيِّ، وَعَلَىٰ غَيْرِهِمْ مِنَ الأَسَاْتِذَةِ، وَأَخَذَ خَطَّ النَّسْخِ عَنِ الْحَاْجِّ الْقَاْسِم، وَالنَّسْتَعْلِيْق عَن السَّيِّدِ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّدٍ مُقِيْمِ الْمَاْهِرِيْنَ فِي الْخَطِّ حَتَّىٰ كَتَبَ خَطَّ الْمَنْسُوْبِ، وَصَاْرَ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي جوْدَةِ الْخَطِّ، وَبَرَزَ فِي كَثِيْرٍ مِن الْعُلُوْمِ والْفُنُوْنِ، وَبَاْيَعَ الشَّيْخَ مُحَمَّد مَعْصُوْم بنَ الشَّيْخِ أَحْمَد السرهِنْدِي، وَأَخَذَ الطَّرِيْقَةَ عَن الشَّيْخ سَيْفِ الدِّيْنِ بنِ مُحَمَّد مَعْصُوْم المَذْكُوْر، وَكَاْنَ يُلَاْزِمُهُ بِأَمْرِ وَاْلِدِهِ لِذٰلِكَ حَتَّىٰ حَصَلَتْ لَهُ نَفْحَةٌ مِنْهُ وَبَشَّرَهُ بِأَشْيَاْءَ، وَاشْتَهَرَ ذِكْرُهُ فِي حَيَاْةِ وَاْلِدِهِ، وَعَظُمَ قَدْرُهُ، فَوَلَّاْهُ وَاْلِدُهُ الأَعْمَاْلَ الْعَظِيْمَةَ فِيْ أَرْضِ دكن فَبَاْشَرَهَا أَحْسَنَ مُبَاْشَرَةٍ، ثُمَّ حَصَلَ لِوَاْلِدِهِ مَرَضٌ صَعْبٌ عَطَّلَهُ عَن الْحَرَكَةِ، وَكَاْنَ وَلِيَّ عَهْدِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَكْبَرُ أَوْلَاْدِهِ دَاْرَا شكوه، فَبَسَطَ يَدَهُ عَلَىٰ الْبِلَاْدِ، وَصَاْرَ هُوَ الْمَرْجِعُ وَالسُّلْطَاْنُ معاً، فَلَمْ تَرْضَ نُفُوْسُ إِخْوَتِهِ بِذٰلك فَنَهَضَ شُجَاْع مِنْ «بنْكَاْلَة» وَمُرَاْد بخش مِنْ «كجْرَات» وَعَاْلَمْكِير مِنْ أَرْضِ «دكن»، كُلٌّ مِنْهُمْ يُرِيْدُ أَنْ يَقْبِضَ عَلَىٰ أَخِيْهِ دَاْرَا شكوه وَيَتَوَلَّىٰ الْمَمْلَكَة، فَاتَّفَقَ عَاْلمكير وَمُرَاْد بخش عَلَىٰ ذٰلِكَ فَقَاْتَلَاْهُ وَغَلَبَاْ عَلَيْهِ، ثُمَّ احْتَاْلَ

عَالْمكِيْر عَلَىٰ مُرَاْد بخش وَقَبَض عَلَيْهِ، وَاعْتَقَلَ أَخَوَيْهِ، ثُمَّ قَتَلَهُمَاْ لِأُمُوْرٍ صَدَرَتْ مِنْهُمَاْ، وَأَفْتَىٰ الْعُلَمَاْءُ أَنَّهُمَا اسْتَوْجَبَا الْقَتْلَ، وَحَبَسَ وَاْلِدَهُ فِي قَلْعَةِ «أَكْبَر آبَاد» وَهَيَّأَ لَهُ مَاْ يَشْتَهِيْه مِنْ مَلْبُوْسٍ وَمَأْكُوْلٍ وَأَهْلِ الْخِدْمَةِ مِن الْجَوَاْرِيْ وَالْغِلْمَاْنِ، وَكَاْنَتْ جِهَاْن آرَا بيكم بِنْتُ شَاْه جهَاْن تُقِيْمُ مَعَ وَاْلِدِهَاْ فِي الْقَلْعَةِ، وَالسَّيِّدُ مُحَمَّد الْحُسَيني الْقَنُوْجِي يُلَاْزِمُهُ، يَشْتَغِلُ عَلَيْهِ وَيُذَاكِرُهُ فِي مَاْ يَنْفَعُهُ فِي عُقْبَاْهُ.

وَجَلَسَ عَاْلِمْكِيْر عَلَىٰ سَرِيْرِ الملكِ سَنَةَ ثَمَاْنٍ وَسِتِّيْنَ وَأَلْفٍ، فَافْتَتَحَ أَمْرَهُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَاْنِ، وَرَفْعِ الْمَظَاْلِم وَالْمُكُوْسِ، وَأَسَرَ غَاْلِبَ مُلُوْكِ الهِنْدِ الْمَشْهُوْرِيْن، وَصَاْرَتْ بِلَاْدُهُمْ تَحْتَ طَاْعَتِهِ، وَجُبِيَتْ لَهُ الأَمْوَاْلُ، وَأَطَاْعَتْهُ الْبِلَاْدُ وَالْعِبَاْدُ، وَلَمْ يَزَلْ فِي اجْتِهَاْدٍ مِن الْجِهَاْدِ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَىٰ مَقَرِّ مُلْكِهِ وَسَلْطَنَتِهِ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْهُ، فَكُلَّمَاْ فَتَحَ بِلَاْداً شَرَعَ فِي فَتْحِ أُخْرَىٰ، حَتَّىٰ لَحِقَتْ حُدُوْدُ مُلْكِهِ فِي الْجِهَةِ الشَّمَاْلِيَّةِ إِلَىٰ حُدُوْدِ «خيوه» و«بخارا»، وَفِي الْجِهَةِ الْجَنُوْبِيَّةِ إِلَىٰ الْبَحْرِ المُحِيْطِ، وَفِي الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَىٰ «سومنات» عَلَىٰ شَاْطِئِ بَحْرِ الْهِنْدِ، وَفِي الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلىٰ «بوري» مُنْتَهَىٰ أَرْضِ «أريسه».

وَكَاْنَ عَاْلِمْكِيْر عَاْلِماً دَيِّناً تَقِيّاً مُتَوَرِّعاً مُتَصَلِّباً فِي الْمَذْهَبِ، يَتَدَيَّنُ بِالْمَذْهَبِ الْحَنَفِيِّ لَاْ يَتَجَاْوَزُ عَنْهُ فِيْ قَوْلٍ وَلَاْ فِعْلٍ، وَكَاْنَ

يَعْمَلُ بِالْعَزِيْمَةِ، وَكَاْنَ يُصَلِّي الصَّلَوَاْتِ الْمَفْرُوْضَةَ فِي أَوَاْئِلِ أَوْقَاْتِهَاْ بِالْجَمَاْعَةِ فِي الْمَسْجِدِ مَهْمَا كَاْنَ، وَيُقِيْمُ السُّنَنَ وَالنَّوَاْفِلَ كُلَّهَاْ، وَيُصَلِّي صَلاْةَ الْجُمعَةِ فِي الْجَاْمِعِ الْكَبِيْرِ، وَلَوْ كَاْنَ غَاْئِباً عَن الْبَلْدَةِ لِأَمْرٍ مِن الْأُمُوْرِ يَأْتِيْهَاْ يَوْمَ الْخَمِيْسِ وَيُصَلِّي صَلاْةَ الْجُمعَةِ ثُمَّ يَذْهَبُ حَيْثُ يَشَاْءُ، وَكَاْنَ يَصُوْمُ فِي رَمَضَاْنَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَيُحْيِي اللَّيَاْلِي بِالتَّرَاْوِيْحِ، وَيَعْتَكِفُ فِي الْعَشَرَةِ الأَخِيْرَةِ مِنْ رَمَضَاْنَ فِي الْمَسْجِدِ، وَكَاْنَ يَصُوْمُ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيْسِ وَالْجُمعَةِ فِيْ كُلِّ أُسْبُوْعٍ مِنْ أَسَاْبِيْعِ السَّنَةِ، وَيَصُوْمُ فِي أَيَّاْمٍ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَاْنَ يَصُوْمُ فِيْهَا، وَكَاْنَ يُخْرِجُ الزَّكَاْةَ مِنْ أَمْوَاْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَىٰ سَرِيْرِ الْمُلْكِ وَبَعْدَهُ مِمَّا خَصَّ لِنَفْسِهِ مِنْ عِدَّةِ قُرَىٰ وَبَعْضِ مَعَاْدِنِ الْمِلْحِ لِلْمَصَاْرِفِ الْخَاْصَّةِ مِنْ نَقِيْرٍ وَقِطْمِيْرٍ، وَكَاْنَ يُرِيْدُ أَنْ يَرْحَلَ إِلَىٰ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيْفَيْنِ لِلْحَجِّ وَالزِّيَاْرَةِ فِي أَيَّامِ وَاْلِدِهِ فَلَمْ يَرْضَ بِفِرَاْقِهِ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ لَمْ تُمْهِلْهُ الْمَصَاْلِحُ الْمَلَكِيَّةُ، وَلٰـكِنَّهُ كَاْنَ يُرْسِلُ النَّاْسَ إِلَىٰ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيْفَيْنِ لِلْحَجِّ وَالزِّيَاْرَةِ، وَيَبْذلُ عَلَيْهِم الْعَطَاْيَا الْجَزِيْلَةَ، وَيَبْعَثُ إِلَيْهِمَاْ أَمْوَاْلاً طَاْئِلَةً لِأَهْلِ الْحَوَاْئِجِ فِي أَيَّاْمِ الْحَجِّ بَعْدَ سَنَةٍ أَوْ سَنَتَيْنِ، وَيُوَظِّفُ الذَّاْكِرِيْنَ وَالذَّاْكِرَاْتِ، وَيَجْعَلُ لَهُم الْأَرْزَاْقَ السَّنِيَّةَ، وَيُدَاْوِمُ الطَّهَاْرَةَ بِالْوُضُوْءِ، وَيُحَاْفِظُ عَلَىٰ الأَذْكَاْرِ وَالْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُوْرَةِ عَن النَّبِيِّ ﷺ فِي غَاْلِبِ أَوْقَاْتِهِ،

وَيُحْيِي اللَّيَاْلِي الْمُتَبَرَّكَةِ بِالصَّلَاْةِ وَالصَّدَقَةِ وَصُحْبَةِ الْعُلَمَاْءِ وَالمشَاْيخ فِي الْمَسْجِدِ، وَكَاْنَ يَحْتَرِزُ عَنْ كُلِّ سُوْءٍ وَمَكْرُوْهٍ مُنْذُ نُعُوْمَةِ أَظْفَاْرِهِ، لَمْ يَشْرَب الْخَمْرَ قَطُّ، وَلَمْ يُقَاْرِبِ امْرَأَةً لَاْ تَحِلُّ لَهُ، وَكَاْنَ لَاْ يَسْتَمِعُ لِلْغِنَاْءِ بِالْمَزَاْمِيْرِ مُنْذُ جَلَسَ عَلَىٰ سَرِيْرِ الْمُلْكِ مَعَ أَنَّهُ كَاْنَ مَاْهِراً فِي الإِيْقَاْعِ وَالنَّغَم، وَمَاْ كَاْنَ أَنْ يَلْبِسَ الْمَلْبُوْسَاْتِ غَيْرَ الْمَشْرُوْعَةِ، وَمَاْ كَاْنَ أَنْ يَأْكُلَ فِيْ الظُّرُوْفِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْفِضِّيَّةِ، وَأَمَرَ أَنْ تُصَاْغَ الْجَوَاْهِرُ الثَّمِيْنَةُ فِي الحجرِ اليشبِ مَقَاْمَ الذَّهَبِ، وَنَهَىٰ الأُمَرَاْءَ أَنْ يَلْبَسُوْا غَيْرَ الْمَشْرُوْعِ، وَكَاْنَ يَمْنَعُهُمْ أَنْ يَتَذَاْكَرُوْا بَيْنَ يَدَيْهِ بِكَذِبٍ وَغِيْبَةٍ وَقَوْلِ الزُّوْرِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُعَبِّرُوْا عَنِ الأُمُوْرِ الْمُسْتَكْرَهَةِ إِنْ وَقَعَ لَهُمْ حَاْجَةٌ إِلَىٰ ذٰلِكَ، وَكَاْنَ مُوَزِّعاً لأَوْقَاْتِهِ؛ فَوَقْتٌ لِلْعِبَاْدَةِ وَوَقْتٌ لِلْمُذَاْكَرَةِ، وَوَقْتٌ لِمَصَاْلِحِ الْعَسْكَرِ، وَوَقْتٌ لِلشُّكَاْةِ، وَوَقْتٌ لِقِرَاْءَةِ الْكُتُبِ وَالأَخْبَاْرِ الْوَاْرِدَةِ عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِنْ مَمْلَكَتِهِ، لَاْ يَخْلِطُ شَيْئاً بِشَيْءٍ.

٩٥
عالمكير بن شاه جهان
سلطان الهند (٢)

وَمِنْ مَآثِرِهِ الْجَمِيْلَةِ أَنَّهُ حَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيْمَ بَعْدَ جُلُوْسِهِ عَلَىٰ سَرِيْرِ الْمُلْكِ، فَأَرَّخَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ لِبدْءِ حِفْظِهِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ وَلِتَمَامِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

وَكَانَتْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالْحَدِيْثِ، لَهُ كِتَابُ «الأَرْبَعِيْن» جَمَعَ فِيْهِ أَرْبَعِيْنَ حَدِيْثاً بَعْدَ الْوِلَايَةِ، وَتَرْجَمَهَا بِالْفَارِسِيَّةِ، وَعَلَّقَ عَلَيْهَا فَوَائِدَ نَفِيْسَةً، وَكَانَتْ لَهُ مَهَارَةٌ تَامَّةٌ فِي الْفِقْهِ، يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي اسْتِحْضَارِ الْمَسَائِلِ الْجُزْئِيَّةِ.

وَكَانَ بَارِعاً فِي الْخَطِّ، كَتَبَ مُصْحَفاً بِيَدِهِ قَبْلَ جُلُوْسِهِ عَلَىٰ السَّرِيْرِ، وَبَعَثَهُ إِلَىٰ مَكَّةَ الْمُبَارَكَةِ، وَبَعْدَ جُلُوْسِهِ مُصْحَفاً آخَرَ، وَبَعَثَهُ إِلَىٰ الْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَانْتَسَخَ الأَلْفِيَّةَ لِابْنِ مَالِكٍ فِي صِبَاهُ، وَأَرْسَلَهَا إِلَىٰ مَكَّةَ، لِيَنْتَفِعَ بِهَا النَّاسُ مِنْ أَهْلِ الْبَلْدَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَكَانَ مَاهِراً فِي الإِنْشَاءِ وَالتَّرَسُّلِ، لَمْ يَكُن لَهُ نَظِيْرٌ

فِي زَمَاْنِهِ فِي ذٰلِكَ، وَقَدْ جَمَعَ الْمُؤَلِّفُوْنَ شَيْئاً كَثِيْراً مِن رَسَاْئِلِهِ فِي كُتُبٍ كَثِيْرَةٍ، وَكَاْنَ مُقْتَدِراً عَلَىٰ الشِّعْرِ وَلٰـكِنَّهُ كَاْنَ قَلِيْلَ الْعِنَاْيَةِ بِه، يَمْنَعُ النَّاْسَ مِنْ أَنْ يُضِيْعُوْا أَوْقَاْتَهُمْ فِيْ ذٰلِكَ.

وَكَاْنَ مَاْهِراً فِي الرَّمْيِ وَالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ وَالْفُرُوْسِيَّةِ، وَغَيْرِهَا مِن الْفُنُوْنِ الْحَرْبِيَّةِ، شُجَاْعاً مِقْدَاْماً بَاْسِلاً، وَكَاْنَ وَاْلِدُهُ شَاْه جهان يَوْماً يَتَفَرَّجُ فِي الْبُرْجِ الْمُشْرِفِ عَلَىٰ نَهْرِ «جمن» عَلَىٰ مُصَاْرَعَةِ الْأَفْيَاْلِ، وَكَاْنَ عَاْلِمكِير أَيْضاً فِي الزِّحَاْمِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ فِي الرَّاْبِعَةَ عَشَرَ مِنْ سِنِّهِ، وَكَاْنَ عَلَىٰ فَرَسٍ، وَإِذَاْ بِفِيْلَةٍ قَدْ ثَاْرَتْ، فَفَرَّ النَّاْسُ كُلُّهُمْ وَثَبَتَ عَاْلمكير وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ الْفِيْلَةُ، وَلَفَّتْ فَرَسَهُ بِخُرْطُوْمِهَاْ، وَصرعَ عَاْلمكير مِنْ صَهْوَةِ الْفَرَسِ، ثُمَّ قَاْمَ وَسَلَّ السَّيْفَ عَلَيْهَا، وَجَاْءَ النَّاْسُ وَدَفَعُوْا الْفِيْلَةَ بِالضَّرْبِ وَالطَّعْنِ وَإِيْقَاْدِ النَّاْرِ.

وَكَاْنَ سَخِيّاً جَوَاْداً كَرِيْماً يَبْذُلُ عَلَىٰ الْفُقَرَاْءِ وَأَهْلِ الْحَاْجَةِ الْعَطَاْيَا الْجَمِيْلَةَ، وَيُسَاْمِحُهُمْ فِي الْغَرَاْمَاْتِ، أَبْطَلَ ثَمَاْنِيْنَ نَوْعاً مِن الْمُكُوْسِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِّيْن وَأَلْف، وَنَهَىٰ عَنْ مُطَاْلَبَةِ الْأَبْنَاْءِ بِغَرَاْمَاْتِ الآبَاْءِ وَمُصَاْدَرَةِ أَمْوَاْلِهِمْ فِي الْقَضَاْءِ، وَبَذَلَ أَمْوَاْلاً طَاْئِلَةً عَلَىٰ إِصْلَاْحِ الشَّوَاْرِعِ وَالطُّرُقِ فِي نَوَاْحِي الْهِنْدِ، وَحَفَرَ الآبَاْرَ، وَأَجْرَىٰ الْعُيُوْنَ، وَأَسَّسَ الْجُسُوْرَ وربَاْطَاْتٍ وَحَمَّاْمَاْتٍ وَمَسَاْجِدَ وَاصْطَبْلَاْتٍ لابْنِ السَّبِيْلِ يَسْتَرِيْحُ النَّاْسُ

بِهَا، فَظَلُّوْا آمِنِيْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ، وَبَذَلَ الْأَمْوَاْلَ الطَّائِلَةَ فِي بِنَاْءِ الْمَسَاْجِدِ، وَبَنَىٰ مَسَاْجِدَ كَثِيْرَةً فِي أَرْضِ الْهِنْدِ، وَعَمَّرَ الْقَدِيْمَةَ مِنْهَا، وَجَعَلَ الْأَرْزَاْقَ لِلْأَئِمَّةِ وَالْمُؤَذِّنِيْنَ وَالرَّوَاْتِبَ لِلْمَسَاْجِدِ مِنْ بُسُطٍ وَسُرُجٍ وَغَيْرِ ذٰلِكَ، وَأَسَّسَ دُوْرَ الْعَجَزَةِ فِي أَكْثَرِ الْبِلَاْدِ، زِيَاْدَةً عَلَىٰ مَاْ كَاْنَتْ فِي الْعُصُوْرِ الْمَاْضِيَةِ، وَالْمَاْرِسْتَاْنَاْتِ فِيْ أَكْثَرِ بِلَاْدِهِ، وَكَاْنَ يُرْسِلُ الْعَطَاْيَا الْجَمِيْلَةَ إِلَىٰ أَهْلِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيْفَيْنِ - زَاْدَهُمَا اللهُ شَرَفاً - بَعْدَ سَنَةٍ أَوْ سَنَتَيْنِ، وَوَظَّفَ خَلْقاً كَثِيراً مِنَ الْعُلَمَاْءِ وَالْمَشَاْيِخِ لِيَشْتَغِلُوْا بِالْعِلْمِ وَالإِفَاْدَةِ، مُنْقَطِعِيْنَ فَاْرِغِي الْقُلُوْبِ عَنْ هُمُوْمِ الدُّنْيَاْ، وَكَاْنَ يَتَصَدَّقُ بِتِسْعَةٍ وَأَرْبَعِيْنَ أَلْفاً وَمِئَةِ أَلْفٍ فِي السَّنَةِ، غَيْرَ مَاْ يَتَصَدَّقُ بِهِ فِي الأَعْيَاْدِ وَالْمَوَاْسِمِ.

وَكَاْنَ مُقْتَصِداً فِي الْخَيْرَاْتِ غَيْرَ مُسْرِفٍ فِي الْمَاْلِ، لَاْ يُعْطِي الشُّعَرَاْءَ شَيْئاً وَلَاْ لِأَهْلِ الإِيْقَاْعِ وَالنَّغَمِ، خِلَاْفاً لِأَسْلَاْفِهِ فَإِنَّهُمْ كَاْنُوْا يُبَذِّرُوْنَ فِي الْمَاْلِ تَبْذِيْراً كَثِيْراً، وَإِذَا وَظَّفَ الْعُلَمَاْءَ أَوْ أَقْطَعَهُمْ اشْتَرَطَ بِالدَّرْسِ وَالإِفَاْدَةِ لِكَيْلَاْ يَتَّخِذُوْهَاْ ذَرِيْعَةً لِأَخْذِ الْمَاْلِ فَقَطْ.

وَكَاْنَ مَجْبُوْلاً عَلَىٰ الْعَدْلِ وَالإِحْسَاْنِ، وَفَصلَ الْقَضَاْء عَلَىٰ وَفقِ الشَّرِيْعَةِ الْمُطَهَّرَةِ، أَمَرَ الْعُلَمَاْءَ أَنْ يُدَوِّنُوْا الْمَسَاْئِلَ وَالْأَقْضِيَةَ مِنْ كُلِّ بَاْبٍ مِنْ أَبْوَاْبِ الْفِقْهِ، فَدَوَّنُوْهَا، وَصَنَّفُوْا

الْفَتَاْوَىٰ الْعَالِمْكيرِيَّة فِي سِتَّةِ مُجَلَّدَاْتٍ كِبَاْرٍ اِشْتُهِرَتْ فِي الأَقْطَاْرِ الْحِجَاْزِيَّةِ وَالْمِصْرِيَّةِ وَالشَّامِيَّةِ وَالرُّوْمِيَّةِ، وَعَمَّ بِهَا النَّفْعُ وَصَاْرَتْ مَرْجِعاً لِلْمُفْتِيْنَ، وَأَنْفَقَ عَلَىٰ جَمْعِهَا مِئَتَيْ أَلْفٍ مِنَ النُّقُوْدِ، وَأَمَرَ الْقُضَاْةَ أَنْ يَقْضُوْا بِهَاْ.

وَكَاْنَ يَظْهَرُ كُلَّ يَوْمٍ بِدَاْرِ الْعَدْلِ بَعْدَ الإِشْرَاْقِ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ نَاْظِرُ الْعَدْلِيَّةِ الأَقْضِيَةَ فَيَحْكُمُ بِمَاْ أَلْقَىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي رُوْعِهِ، ثُمَّ يَطْلُبُ النَّاظِرَ بِالدِّيْوَاْنِ الْخَاْصِّ فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ الْمُتَظَلِّمِيْنَ فَيَسْتَنْطِقُ الْمُتَخَاْصِمِيْنَ وَيَتَأَمَّلُ فِي الأَقْضِيَةِ، وَيَحْكُمُ بِمَاْ أَرَاْهُ اللهُ سُبْحَاْنَهُ.

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الْوَكَاْلَةَ الشَّرْعِيَّةَ فِي دُوْرِ الْقَضَاْءِ، فَوَلَّىٰ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الدِّيْنِ وَالأَمَاْنَةِ فِي دُوْرِ الْقَضَاْءِ بِكُلِّ بَلْدَةٍ، وَعَمَاْلَةً لِيَكُوْنُوْا وُكَلاْءَ عَنْهُ فِيْمَاْ يُسْتَغَاْثُ عَلَيْهِ فِي الْحُقُوْقِ الشَّرْعِيَّةِ وَالدُّيُوْنِ الْوَاْجِبَةِ عَلَيْهِ، وَأَجَاْزَ لِلنَّاْسِ أَنْ يَسْتَغِيْثُوْا عَلَيْهِ عِنْدَ الْقَاْضِي، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَصَّبَ الْمُحْتَسِبِيْنَ فِي بِلَاْدِهِ، وَامْتَاْزَ فِي الْمُلُوْكِ التَّيْمُوْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ.

قَاْلَ الْمُحِبِّيُّ فِي «خُلَاْصَةِ الأَثَرِ»: هُوَ مِمَّنْ يُوْصَفُ بِالْمَلِكِ الْعَاْدِلِ الزَّاْهِدِ، فَإِنَّهُ مَعَ سَعَةِ سُلْطَاْنِهِ يَأْكُلُ فِي شَهْرِ رَمَضَاْنَ رَغِيْفاً مِنْ خُبْزِ الشَّعِيْرِ مِنْ كَسْبِ يَمِيْنِهِ، وَيُصَلِّيْ بِالنَّاْسِ التَّرَاْوِيْحَ، وَأَمَرَ مِنْ حِيْنِ وَلِيَ السَّلْطَنَةَ بِرَفْعِ الْمُكُوْسِ وَالْمَظَاْلِمِ

عَنِ الْمُسْلِمِيْنَ، وَنَصَبَ الْجِزْيَةَ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ عَلَىٰ الْكُفَّارِ، وَتَمَّ لَهُ ذٰلِكَ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَتِم لِأَحدٍ مِنْ أَسْلَافِهِ، أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ لِكَثْرَتِهِم وَتَغلُّبِهِمْ عَلَىٰ إِقْلِيْم الْهِنْدِ، وَأَقَاْمَ فِيْهَاْ دَوْلَةَ الْعِلْم، وَبَاْلَغَ فِي تَعْظِيْمِ أَهْلِهِ، وَعَظُمَتْ شَوْكَتُهُ، وَفَتَحَ الْفُتُوْحَاْتِ الْعَظِيْمَةَ، وَهُوَ مَعَ كَثْرَةِ أَعْدَاْئِهِ وَقُوَّتِهِمْ غَيْرُ مُبَاْلٍ بِهِمْ، مُشْتَغِلٌ بِالْعِبَاْدَاْتِ، وَلَيْسَ لَهُ فِي عَصْرِهِ مِن الْمُلُوْكِ نَظِيْرٌ فِي حُسْنِ السِّيْرَةِ، وَالْخَوْفِ مِن اللهِ تَعَاْلَىٰ، وَالْقِيَاْم بِنُصْرَةِ الدِّيْنِ.

تُوُفِّيَ عَاْلمكير فِي «دكن» فِي شَهْرِ ذِي القعْدَةِ الْحَرَاْمِ سنة (١١١٨هـ)، وَأَقَاْمَ فِي الْمُلْكِ خَمْسِيْنَ سَنَةً.

(نزهة الخواطر للشيخ عبد الحي الحسني)





تجارة رابحة

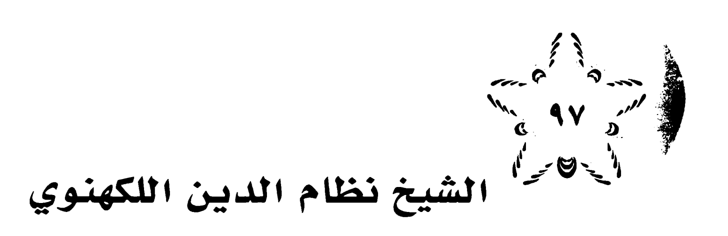
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ
مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى
رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾
وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ
وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾
يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ
﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ
أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ
ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ
ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١ ـ ١٤].







الشيخ نظام الدين اللكهنوي

الشَّيْخُ الإِمَامُ الْعَالِمُ الْكَبِيْرُ، الْعَلَّامَةُ الشَّهِيْرُ، صَاحِبُ الْعُلُومِ وَالْفُنُوْنِ، وَغَيْثُ الإِفَادَةِ الهتوْنِ، الْعَالِمُ بِالرَّبْعِ الْمَسْكُوْنِ، أُسْتَاذُ الْأَسَاتِذَةِ، وَإِمَامُ الْجَهَابِذَةِ، الشَّيْخُ نِظَامُ الدِّيْنِ بْنُ قطبِ الدِّيْنِ بنِ عَبْدِ الْحَكِيْمِ الأَنْصَارِيّ السَّهالوي ثُمَّ اللكهَنوي، الَّذِيْ تَفَرَّدَ بِعُلُوْمِهِ وَأَخذَ لِوَاءَهَا بِيَدِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيْرٌ فِي زَمَانِهِ فِي الأُصُوْلِ وَالْمَنْطِقِ وَالْكَلَامِ.

وُلِدَ بِسهَالِي، وَتُوفِّيَ وَالِدُهُ مَقْتُوْلاً وَهُوَ فِي الرَّابِعةَ عَشَرَ أَو الخَامِسَةَ عَشَرَ مِنْ سِنِّهِ، فَانْتَقَلَ إِلَىٰ «لكهنؤ» مَعَ صِنْوِهِ الْكَبِيرِ مُحَمَّد سَعِيْد، فَأَعْطَىٰ «عالمكير بن شاه جهان» سُلْطَان الهِنْدِ قَصْراً بِذٰلِكَ الْمَقَامِ لِأَبْنَاءِ الشَّيْخِ الشَّهِيْدِ يُعْرَفُ بِفرنْكِي مَحَل؛ لأَنَّه كَانَ مِن أَبنِيَةِ تَاجِرٍ أفرَنْكِي، فَلَمَّا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ خَرجَ مِنْ «لكهنؤ» وَذَهَبَ إِلَىٰ بَلْدَةِ «جائس»، وَقَرأَ أَكْثَرَ الْكُتُبِ الدِّرَاسِيَّةِ عَلَىٰ «مُلَّا عَلِي قلىٰ الجائسي»، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ بَلْدَةِ «بنارس»

وتَتَلْمَذَ عَلَىٰ الْحَافِظِ أَمَانْ الله بْنِ نُوْرِ اللهِ الْبَنَارسي، وَقَرَأَ عَلَيْهِ «شَرْحَ الْمَوَاْقِف»، ثُمَّ رَجعَ إِلىٰ بَلْدَة «لكهنؤ» وتَتَلْمَذَ عَلَىٰ الشَّيْخِ غُلَاْم نَقْشبند بْنِ عَطَاْءِ اللهِ اللَّكهنوي، وَقَرَأَ عَلَيْهِ «الرِّسَاْلَة القوشجيَّة في الهَيْئَة»، وَقَرَأَ «فَاْتِحَةَ الْفَرَاْغ» وَلَهُ خَمْسٌ وَعِشْرُوْنَ سَنَةً، ثُمَّ تَصَدَّىٰ لِلدَّرْسِ وَالإِفَاْدَةِ، فَتَكَاْثَرَ عَلَيْهِ الطَّلَبَةُ، وَخَضَعَ لَهُ الْعُلَمَاْءُ، وَطَاْرَتْ مُصَنَّفَاْتُهُ فِيْ حَيَاْتِهِ إِلَىٰ الأَمْصَاْرِ وَالْبِلَاْدِ، وَتُلُقِّي نِظَاْم دَرْسه فِيْ مَدَاْرِسِ الْعُلَمَاْءِ بِالقبُوْلِ، وَاشْتُهِرَ (بِالدَّرْسِ النِّظَاْمِي) وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ رِئَاْسَة التَّدْرِيْسِ فِي أَكْثَرِ بِلَاْدِ الهِنْدِ.

وَكَاْنَ مَع تبَحُّرِهِ فِي الْعُلُوْم وَسَعَةِ نَظَرِهِ عَلَىٰ أَقَاْوِيْلِ الْقُدَمَاْءِ عَاْرِفاً كَبِيْراً، زَاْهِداً شَدِيْدَ التَّعَبُّدِ، عَمِيْمَ الأَخْلَاْقِ، حَسَنَ التَّوَاْضُعِ، كَثِيْرَ المؤَاْسَاْةِ بِالنَّاْسِ، وَكَاْنَ لَاْ يَتَقَيَّدُ بِتَكْبِيْرِ الْعَمَاْمَةِ وَتَطْوِيْلِ الأَكْمَاْم وَالطَّيْلسَاْنِ، أَخَذَ الطَّرِيْقَةَ الْقَاْدِرِيَّةَ عَن الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّزَّاْقِ بنِ عَبْدِ الرَّحِيْمِ البْاْنسوِيِّ، وَبَاْيَعَهُ وَلَهُ أَرْبَعُوْنَ سَنَةً.

قَاْلَ السَّيِّدُ غُلَاْم عَلِي الْبَلْغرَامِي فِي «سبحة المرجان»: أَنَاْ دَخَلْتُ «لكهنؤ» فِي التَّاْسِعَ عَشَرَ مِنْ ذِي الحِجَّةِ الْحَرام، سَنَةَ ثَمَاْنٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَمِئَةٍ وَأَلْف، واجْتَمَعْتُ بِالمُلَّاْ نِظَاْم الدِّيْنِ فَوَجَدْتُهُ عَلَىٰ طَرِيْقَةِ السَّلَفِ الصَّاْلِحِيْن، يُلْمَحُ عَلَىٰ جَبيْنِهِ نُوْرُ التَّقْدِيْسِ.

وَمِنْ مُصَنَّفَاتِ الشَّيْخِ نِظَاْمِ الدِّيْنِ شَرْحَاْنِ عَلَىٰ مُسْلِمِ؛ الثبوْت لِلْقَاْضِيْ مُحِبِّ اللهِ الأَطْوَلِ وَالطَّوِيْلِ، وَشَرْحٌ عَلَىٰ مَنَاْرِ الأُصُوْلِ، وَشَرْحٌ عَلَىٰ تَحْرِيْرِ الأُصُوْلِ لِابْنِ الهمَاْمِ، وَشَرْحٌ عَلَىٰ المبَاْرزِيَّةِ، وَحَاْشِيَةٌ عَلَىٰ شَرْحِ هِدَاْيَةِ الحِكْمَةِ لِلشِّيْرَاْزِيِّ، وَحَاْشِيَةٌ عَلَىٰ الشَّمْسِ الْبَاْزِغَة لِلْجوْنفُوْرِيْ، وَحَاْشِيَةٌ عَلَىٰ شَرْحِ الْعَضُدِيَّةِ للدَّوَاْنِي، وَحَاْشِيَةٌ عَلَىٰ الْحَاْشِيَةِ الْقَدِيْمَةِ، وَلَهُ الْمَنَاْقِبُ الرزاقيَّة، كِتَاْبٌ بِالفَارِسِيِّ فِي أَخْبَاْرِ شَيْخِهِ عَبْدِ الرَّزَّاْقِ.

وَأَمَّا تَلَاْمِذَتُهُ فَإِنَّهُمْ كَثِيْرُوْنَ، أَجَلُّهُمْ السَّيِّدُ كَمَاْلُ الدِّيْنِ الْعَظِيْمُ آبَاْدِي، وَالسَّيِّدُ ظَرِيْف العَظِيْم آبَاْدِي، وَالعَلَّاْمَةُ كَمَاْل الدِّيْنِ فَتح بُوْري، وَالشَّيْخُ غُلَاْمُ مُحَمَّد البُرْهَاْن فُوْرِي، ومَوْلَاْنَاْ حَقَّاْنِي التَّاْندوِي، وَالشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ الأميتهْوِي، والشَّيْخُ أَحْمَدُ بنُ غُلَاْم نَقْشبنْد اللكهنوي، وَحَمْدُ اللهِ بْنُ شُكْر اللهِ السَّنديلوي، والشَّيْخُ عَبْدُ الرَّشِيْدِ الْجونفوْري الْمَدْفُوْنُ «بلكهنؤ»، وَالشَّيْخُ وَجِيْهُ الدِّيْنِ الدَّهلَوِي، وَمَوْلَاْنَاْ غُلَاْم مُحَمَّد عُمَر الشَّمْس آبَاْدِي، وَمَوْلَاْنَا غُلَاْم فَرِيْد الْمُحَمَّد آبَاْدِي، وَمَوْلَاْنَا المُحَمَّد الْمَاْلِكي التَّلْمَسَاْنِي، وَالسَّيِّدُ شَاْكِرُ اللهِ السندَوْلَوِي، والشَّيْخُ مُحَمَّدُ حَسَن بنُ غُلَاْم مُصْطفَىٰ، وَصِنْوُهُ مُحَمَّد وَلِي، والشَّيْخُ أَحْمَد عَبْد الْحَقِّ بنُ مُحَمَّد سَعِيْد، وَوَلَدُهُ مَلِكُ الْعُلَمَاْءِ عَبْدُ الْعَلِيِّ مُحَمَّد، وَخَلْقٌ كَثِيْرٌ مِن النَّاْسِ.

تُوُفِّيَ يَوْمَ الأَرْبِعَاْءِ لِثَمَاْنٍ خَلَوْنَ مِنْ جُمَاْدَىٰ الأُوْلَىٰ سنة (١١٦١هـ) فِي «حصاة المثانة» وَقَدْ جَاْوَزَ سَبْعِيْنَ سَنَةً.

(«نزهة الخواطر» للشيخ عبد الحي الحسني رَحِمَهُ اللهُ)





٩٨ من الشنق إلى النفي (١)

فِي الْيَوْم الثَّانِي مِنْ شَهْرِ مَايُو سنة (١٨٦٤م) جَلَسَ «أيدوردس» الْقَاضِيْ الإِنْكِليْزِي عَلَىٰ كُرْسِيٍّ فِيْ مَحْكَمَةِ «أنباله»، وَجلَسَ بِجَنْبِهِ أَرْبَعَةٌ مِنْ وُجَهَاءِ الْبَلَدِ لِيَرَوْا رَأْيَهُمْ فِي الْقَضِيَّةِ، وَوَقَفَ أَمَامَ هَـؤُلَاءِ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلاً، تَنْطِقُ وُجُوْهُهُمْ وَمَلَامِحُهُمْ بِشَرَفِهِمْ وَبَرَاءَتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ مِنْ كِبَارِ الْجُنَاةِ وَالْمُجْرِمِيْنَ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّهُمْ دبَّرُوْا مُؤَامَرَةً ضِدَّ الْحُكُوْمَةِ الإِنْكِلْيْزِيَّةِ فِي الهِنْدِ، وَكَانُوْا يُسَاعِدُوْنَ أَنْصَارَ السَّيِّدِ الإِمَامِ أَحْمَد بْنِ عرْفَان الشَّهِيْد، وَالْمُجَاهِد الجَلِيْل الشَّيْخ إِسْمَاعِيْل الشَّهِيْد عَلَىٰ حُدُوْدِ أَفْغَانِسْتَان بِالْمَالِ وَالرِّجَالِ، يُرْسِلُوْنَهَا سِرّاً مِنْ دَاخِلِ البِلَادِ بِحِكْمَةٍ عَجِيْبَةٍ، وَكَانُوْا وَضَعُوْا لِمُرَاسَلَاتِهِم لُغَةً رَمْزِيَّةً، وَكَانُوْا يَجْمَعُوْنَ إِعَانَاتٍ مِنْ رَعَايَا الإِنْكِلِيْزِ أَنْفُسِهِمْ، وَيُرْسِلُوْنَهَا إِلَىٰ مَرْكَزِ الثُّوَّارِ، عَثَرَتْ عَلَىٰ ذٰلِكَ الحُكُوْمَةُ بِوِشَايَةِ جُنْدِيٍّ مُسْلِم فِي جُنُوْدِ الإِنْكِلِيْزِ، وَأَسَرَتْهُمْ فِي «بتنة» و«تهانيسر» و«لاهور» وَحَاكَمَتْهُمْ، وَهَـذَا يَوْمُ يَصْدُرُ فِيْهِ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ.



غَصَّتِ الْمَحْكَمَةُ بِالزَّائِرِيْنَ، فَقَدْ كَانَتِ الْقَضِيَّةُ حَدِيْثَ الْمَجَالِسِ، وَحَانَ صُدُوْرُ الْحُكْمِ، فَشَخَصَتِ الأَبْصَارُ، وَأَصْغَتِ الآذَانُ، وَاضْطَرَبَتِ الْقُلُوْبُ وَخَفَتَتِ الأَصْوَاتُ، وَإِذَا بِالْقَاضِيْ يَتَكَلَّمُ فِي صَوْتِ الْغَضْبَانِ، وَيُخَاطِبُ شَابّاً جَمِيْلاً قَوِيّاً، يَظْهَرُ أَنَّهُ رَبِيْبُ نِعْمَةٍ وَسَلِيْلُ شَرَفٍ:

«إِنَّكَ يَا جَعْفَرُ رَجُلٌ عَاقِلٌ مُتَعَلِّمٌ، وَلَكَ مَعْرِفَةٌ حَسَنَةٌ بِقَانُوْنِ الدَّوْلَةِ، وَأَنْتَ عُمْدَةُ بَلَدِكَ وَمِنْ سَرَاتِهِ، وَلٰكِنَّكَ بَذَلْتَ عَقْلَكَ وَعِلْمَكَ فِي الْمُؤَامَرَةِ وَالثَّوْرَةِ عَلَىٰ الْحُكُوْمَةِ، وَكُنْتَ وَاسِطَةً فِي انْتِقَالِ الْمَالِ وَالرِّجَالِ مِن الهِنْدِ إِلَىٰ مَرْكَزِ الثُّوَّارِ، وَلَمْ تَزِدْ إِلَّا أَنْ جَحَدْتَ وَعَانَدْتَ، وَلَمْ تُثْبِتْ أَنَّكَ كُنْتَ مُخْلِصاً وَنَاصِحاً لِلدَّوْلَةِ، وَهَا أَنَا ذَا أَحْكُمُ عَلَيْكَ بِالإِعْدَامِ، وَمُصَادَرَةِ جَمِيْعِ مَا تَمْلِكُ مِنْ مَالٍ وَعَقَارٍ، وَلَا يُسَلَّمُ جَسَدُكَ بَعْدَ الشَّنْقِ إِلَىٰ وَرَثَتِكَ بَلْ يُدْفَنُ فِي مَقْبَرَةِ الأَشْقِيَاءِ بِكُلِّ مَهَانَةٍ، وَسَأَكُوْنُ سَعِيْداً مَسْرُوْراً حِيْنَ أَرَاكَ مُعَلَّقاً مَشْنُوْقاً».

اِسْتَمَعَ الشَّابُّ فِي سَكِيْنَةٍ وَوَقَارٍ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ وَلَمْ يَضْطَرِبْ، وَلَمَّا انْتَهَىٰ الْقَاضِي مِنْ كَلَامِهِ قَالَ مُحَمَّد جَعْفَر: إِنَّ النُّفُوْسَ وَالأَرْوَاحَ بِيَدِ اللهِ تَعَالَىٰ، يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ، وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْقَاضِيْ لَا تَمْلِكُ حَيَاةً وَلَا مَمَاتاً، وَلَا تَدْرِيْ مَن السَّابِقُ مِنَّا إِلَىٰ مَنْهَلِ الْمَوْتِ.

فَوَ اللهِ مَاْ أَدْرِيْ وَإِنِّيْ لَصَاْدِقٌ   عَلَىٰ أَيِّنَاْ تَغْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

ثَاْرَ الرَّجُلُ غَضَباً وَجُنَّ جُنُوْنُهُ، وَلَٰكِنَّهُ قَدْ أَطْلَقَ آخِرَ سَهْمٍ مِنْ سِهَاْمِهِ لَاْ يَمْلِكُ غَيْرَهُ.

اِسْتَبْشَرَ مُحَمَّد جَعْفَر حِيْنَ صَدَرَ عَلَيْهِ الْحُكْمُ وَتَهَلَّلَ وَجْهُهُ فَرَحاً، وَكَأَنَّمَاْ تَمَثَّلَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَتَمَثَّلَتْ لَهُ الْحُوْرُ وَالْقُصُوْرُ، وَتَمَثَّلَ بَيْتَ الشَّاْعِرِ:

هَٰذَاْ الَّذِيْ كَاْنَتِ الْأَيَّاْمُ تَنْتَظِرُ   سَيُوْفِ للهِ أَقْوَاْمٌ بِمَاْ نَذَرُوْا

قَضَىٰ النَّاْسُ الْعَجَبَ مِمَّا رَأَوْا، وَدَنَاْ إِلَىٰ مُحَمَّد جَعْفَر ضَاْبِطٌ إِنْكِلِيْزِي يُقَاْلُ لَهُ «بارسن»، وَقَاْلَ لَهُ: لَمْ أَرَ كَاليَوْمِ، قَدْ حُكِمَ عَلَيْكَ بِالإِعْدَاْمِ وَأَنْتَ مَسْرُوْرٌ مُسْتَبْشِرٌ، قَاْلَ مُحَمَّد جَعْفَر: وَمَاْ لِي لَاْ أَفْرَحُ وَلَاْ أَسْتَبْشِرُ وَقَدْ رَزَقَنِي اللهُ الشَّهَاْدَةَ فِي سَبِيْلِهِ، وَأَنْتَ يَاْ مِسْكِيْنُ لَاْ تَدْرِيْ حَلَاْوَتَهَاْ.

وَحَكَمَ الْقَاْضِيْ عَلَىٰ رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ بِالإِعْدَاْمِ؛ أَحَدُهُمَاْ شَيْخٌ تَلُوْحُ عَلَيْهِ سِيْمَا الصَّاْلِحِيْنَ وَآيَةُ الْعَاْبِدِيْنَ، قَدْ تَلَقَّىٰ النَّبَأَ فِي سُرُوْرٍ وشُكْرٍ، وَهُوَ مَوْلَاْنَاْ «يَحْيَىٰ علي الصَّاْدقبوري» أَمِيْرُ هَٰذِهِ الْجَمَاْعَةِ، وَالآخَرُ شَاْبٌّ يَظْهَرُ أَنَّهُ مِنَ الأَغْنِيَاْءِ وَالتُّجَّاْرِ الْكِبَاْرِ، وَأَنَّ أَصْلَهُ مِنْ «بنجاب» وَهُوَ الحَاْجُّ مُحَمَّد شَفِيْع، وَحُكِمَ عَلَىٰ الثَّمَاْنِيَةِ الْبَاْقِيَةِ بِالنَّفْي المُؤَبَّدِ.

سَمِعَ النَّاْسُ الْمُجْتَمِعُوْنَ الْحُكْمَ فِي حُزْنٍ وَأَسَفٍ شَدِيْدٍ،

وَفَاْضَتِ الْعُيُوْنُ وَسَاْلَتِ الدُّمُوْعُ، وَاجْتَمَعَ النَّاْسُ مِنْ رِجَاْلٍ وَنِسَاْءٍ عَلَىٰ جَاْنِبَي الشَّاْرِعِ إِلَىٰ السِّجْنِ، يَنْظُرُوْنَ إِلَىٰ هَـٰؤُلَاْءِ البُؤَسَاْءِ، وَيَرْثُوْنَ لَهُمْ.

وَوَصَلُوْا إِلَىٰ السِّجْنِ وَنُزِعَتْ ثِيَاْبُهُمْ وَأُلْبِسُوْا ثِيَاْبَ الْمُجْرِمِيْنَ، وَسُجِنَ كُلُّ وَاْحِدٍ مِنَ الثَّلَاْثَةِ فِي حُجْرَةٍ ضَيِّقَةٍ مُظْلِمَةٍ، لَاْ يَدْخُلُ فِيْهَا الْهَوَاْءُ وَلَاْ يَنْفُذُ فِيْهَا النُّوْرُ، وَبَاْتُوا فِيْهَا فِيْ حَرٍّ شَدِيْدٍ، بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاْتَ قَوْمٌ، وَجَاْءَتْ بُكْرَةً بَرْقِيَّةٌ تَسْمَحُ لَهُمْ بِالْمَبِيْتِ فِي المَيْدَاْنِ.

وَفِي النَّهَاْرِ أُعِيْدُوْا إِلَىٰ حُجُرَاْتِهِم الضَّيِّقَةِ، وَكَاْنَ لَاْ يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَعِيْشَ فِي مِثْلِ هَـٰذِهِ الحُجْرَةِ الضَّيِّقَةِ مُدَّةَ أُسْبُوْعٍ، فَفُتِحَ بَاْبُهَا، وَعُيِّنَ جُنْدِيٌّ لِيَحْرُسَ، هَـٰؤُلَاْءِ الْجُنُوْدُ أَكْثَرُهُمْ مِن الكُفَّاْرِ، فَكَاْنَ «مولوي يحيىٰ علي» يَغْتَنِمُ الْفُرْصَةَ وَيَأْتَسِيْ بِأُسْوَةِ يُوْسُفَ الصِّدِّيْقِ عليه السلام، وَيُخَاْطِبُ الْحَاْرِسَ، وَيَقُوْلُ: ﴿يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، فَيَظَلُّ الرَّجُلُ بَاْكِياً، فَإِذَاْ نُقِلَ مِنْ مَكَاْنِهِ حَزِنَ حُزْناً شَدِيْداً.

وَهَـٰكَذَاْ غَرَسَ الشَّيْخُ فِي قُلُوْبِ كَثِيْرٍ مِنْ أَصْحَاْبِ السِّجْنِ عَقِيْدَةَ التَّوْحِيْدِ، وَبَذَرَ فِيْهَاْ بُذُوْرَ الإِيْمَاْنِ، وَكَمْ مِنْ رِجَاْلٍ أَسْلَمُوْا، وَكَمْ مِنْ نَاْسٍ تَاْبُوْا، وَكَاْنَ الشَّيْخُ لَاْ يُضِيْعُ فُرْصَةً، فَإِذَاْ صَاْدَفَ أَحَداً أَمَرَهُ بِالْمَعْرُوْفِ وَنَهَاْهُ عَن الْمُنْكَرِ.

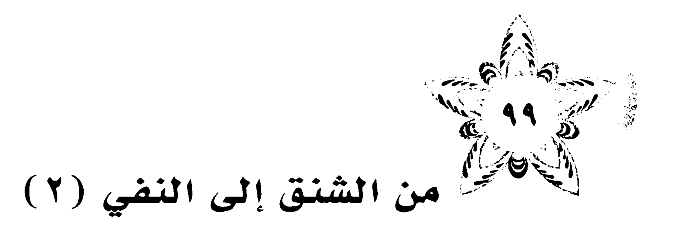
وَبَدَأَ زَبَانِيَةُ السِّجْنِ يَضَعُوْنَ لِهَـٰؤُلَاْءِ حَبْلاً وَعُوْداً لِلشَّنْقِ عَلَىٰ مَرْأَىٰ مِنْهُـمْ وَمَسْـمَعٍ، وَهَــٰؤُلَاْءِ يَرَوْنَ كُلَّ ذٰلِكَ مُطْمَئِنِّيْنَ، لَاْ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاْ هُمْ يَحْزَنُوْنَ.

أَمَّاْ مَوْلَاْنَاْ «يَحيَىٰ عَلِي» فَهُوَ مِنْ أَشَدِّ النَّاْسِ فَرَحاً، كَأَنَّهُ مِنْ شَوْقِ الجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَمِنِ انْتِظَاْرِ النَّعِيْمِ فِي النَّعِيْمِ، يُنْشِدُ الأَبْيَاْتَ فِي حَنِيْنٍ وَوَجْدٍ، وَيَتَمَثَّلُ بِمَا قَاْلَ سَيِّدُنَاْ خُبَيْبٌ رضي الله عنه عِنْدَ شَنْقِهِ:

وَلَسْتُ أُبَاْلِيْ حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِماً عَلَىٰ أَيِّ شِقٍّ كَاْنَ فِي اللهِ مَصْرَعِيْ

وَذٰلك فِيْ ذَاْتِ الإِلَـٰهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَاْرِكْ عَلَىٰ أَوْصَاْلِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وَكَذٰلِكَ رِفْقَتُهُ، وُجُوْهٌ ضَاْحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَنُفُوْسٌ هَاْدِئَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ، وَقُلُوْبٌ رَاْضِيَةٌ مَسْرُوْرَةٌ، خُشُوْعٌ فِي الصَّلَاْةِ، وَعِبَاْدَةٌ فِي نَشَاْطٍ، وَذِكْرٌ وَتَسْبِيْحٌ وَتِلَاْوَةُ آيَاْتٍ، وَحَنِيْنٌ وَوَجْدٌ، وَإِنْشَاْدُ أَبْيَاْتٍ.



من الشنق إلى النفي (٢)

مَاْتَ الْقَاْضِي الإِنْكِلِيْزِي الَّذِيْ حَكَمَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاْءِ الثَّلَاْثَةِ بِالْإِعْدَاْمِ فَجْأَةً عَلَىٰ إِثْرِ الْحُكْمِ، وَجُنَّ الضَّاْبِطُ الإِنْكِلِيْزِيُّ «بارسن»، الَّذِيْ أَلْقَىٰ الْقَبْضَ عَلَىٰ مُحَمَّد جَعْفَر، وَضَرَبَهُ يَوْماً مِنَ السَّاْعَةِ الثَّاْمِنَةِ صَبَاْحاً إِلَىٰ السَّاْعَةِ الثَّاْمِنَةِ مَسَاْءً، وَمَاْتَ فِي جُنُوْنِهِ شَرَّ مِيْتَةٍ، فَكَاْنَ كَمَاْ أَنْذَرَ مُحَمَّد جَعْفَر: «وَرُبَّ أَغْبَرَ أَشْعَثَ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ».

وَكَاْنَ يَدْخُلُ إِلَىٰ السِّجْنِ كَثِيْرٌ مِنَ الإِنْكِلِيْزِ وَالإِفْرَنْجِيَّاْتِ، يَتَفَرَّجُوْنَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاْءِ السُّجَنَاْءِ وَيَشْمَتُوْنَ بِمَصِيْرِ الأَعْدَاْءِ، وَكَاْنُوْا يَقْضُوْنَ الْعَجَبَ مِنْ سُرُوْرِهِمْ وَنَشَاْطِهِمْ، وَيَسْأَلُوْنَهُمْ: لِمَاْذَا لَاْ تَحْزَنُوْنَ يَاْ هَـٰؤُلَاْءِ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ عَتَبَةِ الْمَوْتِ، وَعَلَىٰ مَوْعِدٍ مِنَ الشَّنْقِ؟ فَيُجِيْبُوْنَهُمْ: هَـٰذَاْ لأَجْلِ الشَّهَاْدَةِ الَّتِيْ لَيْسَ فَوْقَهَا نِعْمَةٌ وَسَعَاْدَةٌ.

وَيَرْجِعُوْنَ إِلَىٰ الْحُكَّاْمِ الإِنْكِلِيْزِ، وَيُحَدِّثُوْنَهُمْ بِمَاْ رَأَوْا وَبِمَاْ

سَمِعُوْا، فَيَزْدَادُوْنَ غَيْظاً عَلَىٰ غَيْظٍ، وَلَـٰكِنْ مَاْذَا يَصْنَعُوْنَ؟ إِنَّهُمْ إِذَا أَطْلَقُوْهُمْ فَقَدْ أَطْلَقُوْا أَعْدَاْءً قَدْ ثَاْرُوْا عَلَىٰ الدَّوْلَةِ، وَإِنَّهُمْ سَيَرْجِعُوْنَ إِلَىٰ ذٰلِكَ، وَإِذَاْ شَنَقُوْهُمْ وَقَتَلُوْهُمْ فَقَدْ بَلَّغُوْهُمْ أَمَلَهُمْ وَاجْتَهَدُوْا فِي سُرُوْرِهِمْ.

قَدْ عَزَّ عَلَىٰ الإنْكِلِيْزِ كُلُّ ذٰلِكَ وَلَمْ تَطِبْ أَنْفُسُهُمْ بِهِ، فَكَّرُوْا فِي الْقَضِيَّةِ وَفَكَّرُوْا وَفَكَّرُوْا، وَوَجَدُوْا طَرِيْقاً وَسَطاً بَيْنَ الْقَتْلِ وَالإِطْلَاْقِ، وَالإنْكلِيْزُ أُمَّةٌ قَاْنُوْنِيَّةٌ ذَكِيَّةٌ.

فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّاْمِ جَاْءَ حَاْكِمُ الْمَدِيْنَةِ الإِنْكِلِيْزِيُّ إِلىٰ السِّجْنِ وَتَلاْ عَلَىٰ الثَّلَاْثَةِ الْمَحكُوْمِ عَلَيْهِمْ بِالإِعْدَاْمِ حُكْمَ مَحْكَمَةِ الاسْتِئْنَاْفِ.

«إِنَّكُمْ أَيُّهَا الثُّوَّاْرُ تُحِبُّوْنَ الشَّنْقَ وَتَعُدُّوْنَهُ شَهَاْدَةً فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَلاْ نُرِيْدُ أَنْ نُبَلِّغَكُمْ أَمَلَكُمْ وَنُدْخِلَ عَلَيْكُم السُّرُوْرَ، فَنَنْسَخُ حُكْمَ الإِعْدَاْمِ وَنَحْكُمُ عَلَيْكُم بِالنَّفْيِ الْمُؤَبَّدِ إِلَىٰ جَزَاْئِرِ سِيْلَاْن.

وَهُنَا قُصَّتْ لِحَاْهُمْ وَشَعْرُ رُؤُوْسِهِم، وَكَاْنَ مَوْلَاْنَا يَحْيَىٰ عَلِي يَرْفَعُ الشَّعْرَ وَيُخَاْطِبُ لِحيَتَهُ المَقْصُوْصَةَ، وَيقُوْلُ:

وَفِــيْ سَــبِــيْــلِ اللهِ مَــاْ لَــقَــيْــتِ

وَشُنِقَ إِنْكِليْزِيٌّ بِحَبْلٍ وَعُوْدٍ قَدْ أُعِدَّا لِأُولـٰئِكَ الْمُسْلِمِيْنَ، فَانْعَكَست القَضِيَّةُ.

وَأُمِرَ الْمَسْجُوْنُوْنَ بِالاشْتِغَاْلِ بِأَعْمَاْلٍ شَاْقَّةٍ، وَأُمِرَ مَوْلَاْنَا يَحْيَىٰ عَلِي بِنَزْعِ الدِّلَاْءِ مِنْ بِئْرٍ، وَكَاْنَتْ كَبِيْرَةً وَثَقِيْلَةً لَاْ يَنْزِعُهَا الشُّبَّاْنُ الأَقْوِيَاْءُ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ، وَالأُسْتَاْذُ شَيْخٌ ضَعِيْفٌ، وَكَاْنَ الْيَوْمُ صَاْئِفاً شَدِيْدَ الْحَرِّ فَنَزَفَهُ الدَّمُ فِي بَوْلِهِ، وَلَـٰكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي شُغْلِهِ صَاْبِراً مُحْتَسِباً لَاْ يَشْكُوْ وَلَاْ يَئِنُّ، ثُمَّ نُقِلَ إِلَىٰ عَمَلٍ سَهْلٍ، فَكَاْنَ يَقُوْمُ بِهِ بِأَمَاْنَةٍ وَنَصِيْحَةٍ، وَيُوْصِي الْمَسْجُوْنِيْنَ الآخَرِيْنَ بِذٰلِكَ أَيْضاً، وَيَقُوْلُ لَهُمْ: إِذَاْ كُنْتُمْ تَتَمَتَّعُوْنَ هُنَا بِطَعَاْمٍ وَلِبَاْسٍ فَمَاْ بَاْلُكُمْ لَاْ تُؤَدُّوْنَ وَظِيْفَتَكُمْ بِأَمَاْنَةٍ وَنَصِيْحَةٍ.

وَلَمْ يَزَلِ الشَّيْخُ فِي السِّجْنِ آمِراً بِالمَعْرُوْفِ، نَاْهِياً عَنِ الـمُنْكَرِ، دَاْعِياً إِلَىٰ اللهِ، وَاْعِظاً مُرْشِداً، فَتَاْبَ كَثِيْرٌ مِنَ المُجْرِمِيْنَ، وَأَنَاْبُوْا إِلَىٰ اللهِ.

وَنُقِلَ الشَّيْخُ مِنْ «أنباله» إِلىٰ «لاهور»، وَأَقَاْمَ فِي سِجْنِهِ عَاْماً كَاْمِلاً، وَكَاْنَ هُنَاْلِكَ الْجُنَاْةُ وَاللُّصُوْصُ وَقُطَّاْعُ الطَّرِيْقِ وَالْفُسَّاْقُ، فَكَاْنَ يُقَبِّحُ لَهُم الجِنَاْيَاْتِ والْفُسُوْق، وَالْعِصْيَاْنَ، وَيُزَيِّنُ لَهُمُ الدِّيْنَ وَالتَّقْوَىٰ وَالْعَفَاْفَ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَىٰ الطَّاْعَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالإِنَاْبَةِ وَإِصْلَاْحِ الْحَاْلِ، وَيَدْعُوْهُمْ إِلَىٰ التَّوْحِيْدِ وَالمُحَاْفَظَةِ عَلَىٰ الصَّلَاْةِ وَالصِّيَاْمِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ عَذَاْبِ اللهِ وَنِقْمَتِهِ، فَتَاْبَ كَثِيْرٌ مِنَ اللُّصُوْصِ وَقُطَّاْعِ الطَّرِيْقِ، وَحَسُنَ حَاْلُهُمْ، وَأَخْلَصُوْا للهِ الدِّيْنَ، وَتَاْبُوْا وَأَقَاْمُوْا الصَّلَاْةَ.

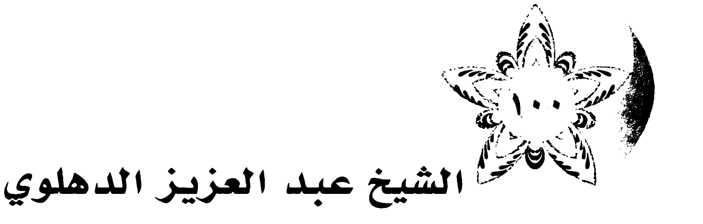
وَكَاْنَ مِنْ هَـؤُلَاْءِ رَجُلٌ مِنْ «بلوجستان»، وَكَاْنَ شَدِيْدَ الْبَطْشِ جَبّاْراً، وَقَدْ سَطَا بِخَدَمِ السِّجْنِ مِرَاْراً، وَضَرَبَهُمْ بِسَلَاْسِلِهِ، وَكَاْنَ لَاْ يَقُوْمُ بِأَعْمَاْلِهِ وَوَظَاْئِفِهِ، وَقَدْ عُوْقِبَ عِقَاْباً شَدِيْداً، فَلَمْ يَتُبْ وَلَمْ يَلِنْ، وَقَدْ يَئِسَ مِنْهُ زَبَاْنِيَةُ السِّجْنِ، وَقَطَعُوْا مِنْهُ الرَّجَاْءَ، وَصَاْدَفَ مَبِيْتُهُ مَرَّةً بِالقُرْبِ مِن الشَّيْخِ، وَأَثَّرَ كَلَاْمُهُ فِي قَلْبِهِ، فَحَسُنَ حَاْلُهُ، وَصَاْرَ يُؤَدِّيْ وَظِيْفَتَهُ وَفُكَّتْ سَلَاْسِلُهُ وَأَغْلَاْلُهُ، فَصَاْرَ يُحَاْفِظُ عَلَىٰ الصَّلَوَاْتِ الْخَمْسِ، وَيَبْكِيْ خَوْفاً مِن اللهِ، وَمَنْ رَآهُ شَهِدَ بِأَنَّهُ وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَاْءِ اللهِ.

وَلَمْ يَزَل الشَّيْخُ وَرِفْقَتُهُ يَنْتَقِلُوْنَ مِنْ سِجْنٍ إِلَىٰ سِجْنٍ، وَمِنْ مَحْبسٍ إِلىٰ مَحْبَسٍ، حَتَّىٰ وَصَلُوْا الثَّاْمِنَ مِنْ دِيْسَمْبَر سنة (١٨٦٥م) إِلَىٰ «بورت بلبر» مِنْ «جَزَاْئِر إندمان» وَمَاْتَ الشَّيْخُ هُنَاْ بَعْدَ عَاْمَيْنِ قَضَاْهُمَاْ فِيْ عِبَاْدَةٍ وَدِيْنٍ وَدَعْوَةِ الْخَلْق إِلَىٰ اللهِ، وَكَاْنَ ذٰلِكَ لِعِشْرِيْنَ مِنْ فِبْرَاْيِر سنة (١٨٦٨م).

أَمَّا الشَّيْخُ مُحَمَّد جَعْفَر فَقَدْ صَدَرَ الْحُكْمُ بِالْعَفْوِ عَنْهُ وَإِطْلَاْقِهِ فِي الثَّاْنِي وَالْعِشْرِيْنَ مِنْ يَنَاْيِر سنة (١٨٨٣م)، بَعْدَ مَاْ لَبِثَ فِي السِّجْنِ ثَمَاْنِيَةَ عَشَرَ عَاْماً.

(من «إذا هبت ريح الإيمان» للمؤلف)





الشيخ عبد العزيز الدهلوي

الشَّيْخُ الإِمَامُ الْعَالِمُ الْكَبِيْرُ الْعَلَّامَةُ الْمُحَدِّثُ عَبْدُ الْعَزِيْزِ بنُ وَلِي اللهِ بنِ عَبدِ الرَّحِيْم الْعُمَرِيِّ الدَّهولي، سَيِّدُ عُلَمَائِنَا فِي زَمَانِهِ وَابنُ سَيِّدِهِم، لَقَّبَهُ بَعْضُهُمْ: سِرَاجَ الهِنْدِ، وَبَعْضُهُم: حُجَّةَ اللهِ.

وُلِدَ لَيْلَةَ الْخَمِيْسِ، لِخَمْسٍ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنْ رَمَضَانَ سنة (١١٥٩هـ)، حَفِظَ الْقُرْآنَ، وَأَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ وَالِدِهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ بَعْضاً، وَسَمِعَ بَعْضاً آخَرَ بِالتَّحْقِيْقِ وَالدِّرَايَةِ وَالْفَحْصِ، حَتَّىٰ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ رَاسِخَةٌ فِي الْعُلُوْمِ، وَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُوْهُ إِلَىٰ جِوَارِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَرِضْوَانِهِ ـ وَلَهُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً ـ أَخَذَ عَن الشَّيْخ نُوْرِ اللهِ البُرْهَانوِي وَالشَّيْخِ مُحَمَّد أَمِيْن الْكَشْمِيْرِي، وَأَجَازَهُ الشَّيْخُ مُحَمَّد عَاشِق بْنُ عُبَيْدِ اللهِ البهلتي، وَكَانُوا مِنْ أَجِلَّةِ أَصْحَابِ وَالِدِهِ فَاسْتَفَادَ مِنْهُمْ مَا فَاتَهُ عَلَىٰ أَبِيْهِ.

كَانَ رحمه الله أَحَدَ أَفْرَادِ الدُّنْيَا بِفَضْلِهِ وَآدَابِهِ وَعِلْمِهِ وَذَكَائِهِ،

وَفَهْمِهِ، وَسُرْعَةِ حِفْظِهِ، اِشْتَغَلَ بِالدَّرْسِ وَالإِفَادَةِ وَلَهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَدَرَسَ وَأَفَادَ حَتَّىٰ صَارَ فِي الهِنْدِ العَلَمَ المفرَد، وَتَخرَّجَ عَلَيْهِ الفُضَلاَءُ، وَقَصَدَتْهُ الطَّلَبَةُ مِنْ أَغْلَبِ الأَرْجَاءِ، وَتَهَافَتُوْا عَلَيْهِ تَهَافُتَ الظَّمْآنِ عَلَىٰ الْمَاءِ، هٰذَا وَقَدِ اعْتَرَتْهُ الأَمْرَاضُ الْمُؤْلِمَةُ وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَعِشْرِيْنَ، فَأَدَّتْ إِلَىٰ المرَاْقِ وَالجذَاْمِ وَالْبَرَصِ وَالْعَمَىٰ وَنَحْوِ ذٰلِكَ، حَتَّىٰ عُدَّ مِنْهَاْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ مَرَضاً مُفْجِعاً، وَمِنْ ذٰلِكَ السَّبَبِ فَوَّضَ تَوْلِيَةَ التَّدْرِيْسِ فِيْ مَدْرَسَتِهِ إِلَىٰ صِنْوَيْهِ: رَفِيْعِ الدِّيْنِ وَعَبْدِ الْقَاْدِرِ، وَمَعَ ذٰلِكَ كَاْنَ يُدَرِّسُ بِنَفْسِهِ النَّفِيْسَة أَيْضاً، وَيُصَنِّفُ وَيُفْتِي وَيَعِظُ، وَمَوَاْعِظُهُ كَاْنَتْ مَقْصُوْرَةً عَلَىٰ حَقَاْئِقِ التَّنْزِيْلِ فِيْ كُلِّ أُسْبُوْعٍ يَوْمَ الثُّلاَثَاْءِ، وَكَاْنَ فِي آخِرِ عُمْرِه لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَقْعُدَ فِيْ مَجْلِسٍ سَاْعَةً، فَيَمْشِي بَيْنَ مَدْرَسَتَيْهِ الْقَدِيْمَةِ وَالْجدِيْدَةِ، وَيَشْتَغِلُ عَلَيْهِ خَلْقٌ كَثِيْرٌ فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ، فَيُدَرِّسُ وَيُفْتِي، وَيُرْشِدُ النَّاْسَ إِلَىٰ طَرِيْقِ الْحَقِّ، وَكَذٰلِكَ يَمْشِي بَيْنَ الْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ، وَيَذْهَبُ إِلَىٰ الشَّاْرِعِ الَّذِيْ بَيْنَ الْمَدْرَسَةِ وَبَيْنَ الْجَاْمِعِ الْكَبِيْرِ فَيَتَهَاْدَىٰ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ يَمِيْناً وَشِمَاْلاً، وَيَتَرَقَّبُ النَّاْسُ قُدُوْمَهُ فِي الطَّرِيْقِ، وَيَسْتَفِيْدُوْنَ مِنْهُ فِي مُشْكِلاَتِهِمْ، وَمِنَ الأَمْرَاْضِ الْمُؤلِمَةِ فَقْدُ الاشْتِهَاْءِ إِلَىٰ حَدٍّ يَقْضِيْ أَيَّاماً وَلَيَاْلِي لاَ يَذُوْقُ طَعْمَ الغِذَاْءِ، حَتَّىٰ صَاْرَ الأَكْلُ غَبّاً بِطَرِيْقِ النَّوْبَةِ كَالْحُمَّىٰ.

وَكَاْنَ مَعَ هَـٰذِهِ الأَمْرَاْضِ الْمُؤْلِمَةِ وَالْأَسْقَاْمِ الْمُفْجِعَةِ لَطِيْفَ الطَّبْعِ، حَسَنَ الْمُحَاْضَرَةِ، جَمِيْلَ الْمُذَاكَرَةِ، فَصِيْحَ الْمَنْطِقِ، مَلِيْحَ الْكَلَاْمِ، ذَاْ تَوَاْضُعٍ وَبَشَاْشَةٍ وَتَوَدُّدٍ، لَاْ يُمْكِنُ الإِحَاْطَةُ بِوَصْفِهِ، وَمُجَاْلَسَتُهُ هِيَ نُزْهَةُ الأَذْهَاْنِ وَالعُقُوْلِ مِمَّاْ لَدَيْهِ مِن الأَخْبَاْرِ الَّتِيْ تُشَنِّفُ الأَسْمَاْعَ، وَالأَشْعَاْرِ الْمُهَذِّبَةِ لِلطِّبَاْعِ، وَالْحِكَاْيَاْتِ عَنِ الأَقْطَاْرِ الْبَعِيْدَةِ وَأَهْلِهَاْ وَعَجَاْئِبِهَا، بِحَيْثُ يَظُنُّ السَّاْمِعُ أَنَّهُ قَدْ عَرَفَهَا بِالشَّهَاْدَةِ، وَلَمْ يَكُنِ الأَمْرُ كَذٰلِكَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ غَيْرَ «كَلْكُتَّة»، وَلَـكِنَّهُ كَاْنَ بَاْهِرَ الذَّكَاْءِ قَوِيَّ التَّصَوُّرِ كَثِيْرَ الْبَحْثِ عَنِ الْحَقَاْئِقِ، فَاسْتَفَاْدَ ذٰلِكَ بِوُفُوْدِ أَهْلِ الأَقْطَاْرِ الْبَعِيْدَةِ إِلَىٰ حَضْرَةِ «دهلي»، وَلِأَنَّهُ قَدْ صَنَّفَ النَّاسَ فِي الأَخْبَاْرِ مُصَنَّفَاْتٍ يَسْتَفِيْدُ بِهَا مِمَّاْ يقربُ مِن الْمُشَاهَدَةِ.

وَكَاْنَ النَّاْسُ يَقْصِدُونَهُ لِيَسْتَفِيْدُوْا مِنْ عِلْمِهِ، وَالْأُدَبَاْءُ لِيَأْخُذُوْا مِنْ أَدَبِهِ وَيَعْرِضُوْا عَلَيْهِ أَشْعَاْرَهُمْ، وَالمَحَاْوِيْجُ يَأْتُوْنَهُ لِيَشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَ أَرْبَاْبِ الدُّنْيَا وَيُوَاْسِيَهُمْ بِمَاْ يُمْكِنُهُ، وَكَرَمُهُ كَلِمَةُ إِجْمَاْعٍ، وَالْمَرْضَىٰ يَلُوْذُوْنَ بِهِ لِمُدَاْوَاْتِهِمْ، وَأَهْلُ الْجَذْبِ وَالسُّلُوْكِ يَأْتُوْنَهُ لِيَقْتَبِسُوْا مِنْ أَشِعَّةِ أَنْوَاْرِهِ، وَغُرَبَاْءُ الدِّيَاْرِ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالصَّلَاْحِ يُنْزِلُهُمْ وَيُحْسِنُ مَثْوَاْهُمْ، وَيُفَضِّلُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَحْتَاْجُوْنَ إِلَيْهِ، وَيَسْعىٰ فِيْ قَضَاْءِ أَغْرَاْضِهِمْ وَنَيْلِ مَطَاْلِبِهِمْ، وَإِذَا جَاْلَسَهُ مُنْحَرِفُ الأَخْلَاْقِ أَوْ مَنْ لَهُ فِي الْمَسَائِلِ الدِّيْنِيَّةِ

بَعْضُ شِقَاْقٍ جَاْءَ مِنْ سِحْرِ بَيَاْنِهِ بِمَاْ يُؤَلِّفُ بَيْنَ الْمَاْءِ وَالنَّاْرِ وَيَجْمَعُ بَيْنَ الضبِّ وَالنُّوْن، فَلاَ يُفَاْرِقُهُ إِلَّا وَهُوَ عَنْهُ رَاْضٍ.

قَاْلَ الشَّيْخُ مُحْسِنُ بْنُ يَحْيَىٰ التُّرْهتي فِي «اليَاْنِع الْجَنِي»: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكَمَاْلِ وَالشُّهْرَةِ بِحَيْثُ تَرَىٰ النَّاْسَ فِيْ مُدُنِ أَقْطَاْرِ الهِنْدِ يَفْتَخِرُوْنَ بِاعْتِزَاْئِهِمْ إِلَيْهِ بَلْ بِانْسِلاَكِهِمْ فِي سَمْطِ مَنْ يَنْتَمِي إِلَىٰ أَصْحَاْبِهِ.

قَاْلَ: وَمِنْ سَجَاْيَاْهُ الْفَاضِلَةِ الْجَمِيْلَةِ الَّتِيْ لَاْ يُدَاْنِيْهِ فِيْهَاْ عَاْمَّةُ أَهْلِ زَمَاْنِهِ قُوَّةُ عَاْرِضَتِهِ، لَمْ يُنَاْضِلْ أَحَداً إِلَّا أَصَاْبَ غَرَضَهُ، وَأَصْمَىٰ رَمْيَتَهُ، وَأحْرَزَ خَصْلَهُ، وَمِنْ ذٰلِكَ بَرَاْعَتُهُ فِي تَحْسِيْنِ الْعِبَاْرَةِ وَتَحْبِيْرِهَا وَالتَّأَنُّقِ فِيْهَا وَتَحْرِيْرِهَاْ، حَتَّىٰ عَدَّهُ أَقْرَاْنُهُ مُقَدَّماً مِنْ بَيْنِ حَلَبَةِ رِهَاْنِهِ، وَسَلَّمُوْا لَهُ قَصَبَاْتِ السَّبْقِ فِي مَيْدَاْنِهِ، وَمِنْهَاْ فِرَاْسَتُهُ الَّتِيْ أَقْدَرَهُ اللهُ بِهَا عَلَىٰ تَأْوِيْلِ الرُّؤْيَاْ، فَكَاْنَ لَاْ يَعْبُرُ شَيْئاً مِنْهَاْ إِلَّا جَاْءَتْ كَمَاْ أَخْبَرَ بِهِ كَأَنَّمَاْ قَدْ رَآهَاْ، وَهٰذَاْ لَاْ يَكُوْنُ إِلَّا لِأَصْحَاْبِ النُّفُوْسِ الزَّاْكِيَاْتِ الْمُطَهَّرَةِ عَنْ أَدْنَاْسِ الشَّهَوَاْتِ الرَّدِيَّةِ وَأَرْجَاْسِهَا، وَكَمْ لَهُ مِنْ خِصَاْلٍ مَحْمُوْدَةٍ وَفَضَاْئِلَ مَشْهُوْدَةٍ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِيْهِ أَنَّ اللهَ تبارك وتعالى قَدْ جَمَعَ فِيْهِ مِنْ صُنُوْفِ الْفَضْلِ وَشَتَاْتِهِ الَّتِيْ فَرَّقَهَاْ بَيْنَ أَبْنَاْءِ عَصْرِهِ فِي أَرْضِهِ مَاْ لَوْ رَآه الشَّاْعِرُ الَّذِيْ يَقُوْلُ:

وَلَمْ أَرَ أَمْثَاْلَ الرِّجَاْلِ تَفَاْوُتاً لَدَىٰ الْمَجْدِ حَتَّىٰ عُدَّ أَلْفاً بِوَاْحِدِ

اِسْتَبَاْنَ لَهُ مِثْلَ ضَوْءِ النَّهَاْرِ أَنَّهُ وَإِنْ كَاْنَ عِنْدَهُ أَنَّهُ قَدْ بَاْلَغَ فِيْهِ فَإِنَّهُ قَدْ قَصَّرَ، فَكَيْفَ الظَّنُّ بِأَمْثَالِي أَنْ يَحْسُنَ عَدُّ مَفَاْخِرِهِ الَّتِي أَكْثَرُ مِنْ حَصَىٰ الْحَصْبَاْءِ، وَمِنْ نُجُوْمِ السَّمَاْءِ، انتهى.

وَكَاْنَ طَوِيْلَ الْقَاْمَةِ، نَحِيْفَ الْبَدَنِ، أَسْمَرَ اللَّوْنِ، أَنْجَلَ الْعَيْنَيْنِ، كَثَّ اللِّحْيَةِ، وَكَاْنَ يَكْتُبُ النُّسَخَ وَالرِّقَاْعَ بِغَاْيَةِ الْجَوْدَةِ، وَكَاْنَتْ لَهُ مَهَاْرَةٌ فِي الرَّمْيِ وَالْفُرُوْسِيَّةِ وَالْمُوْسِيْقَىٰ.

وَلِلشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيْزِ مُؤَلَّفَاْتٌ كُلُّهَاْ مَقْبُوْلَةٌ عِنْدَ الْعُلَمَاْءِ، مَحْبُوْبَةٌ إِلَيْهِمْ، يَتَنَاْفَسُوْنَ فِيْهَا، وَيَحْتَجُّوْنَ بِتَرْجِيْحَاْتِهِ وَهُوَ حَقِيْقٌ بِذٰلِكَ، وَفِي عِبَاْرَتِهِ قُوَّةٌ وَفَصَاْحَةٌ وَسَلَاْسَةٌ تَعْشَقُهَا الأَسْمَاْعُ وَتَلْتَذُّ بِهَا الْقُلُوْبُ، وَلِكَلَاْمِهِ وَقْعٌ فِي الأَذْهَاْنِ، قَلَّ أَنْ يُمْعِنَ فِي مُطَاْلَعَتِهِ مَنْ لَهُ فَهْمٌ، فَيَبْقَىٰ عَلَىٰ التَّقْلِيْدِ بَعْدَ ذٰلِكَ، وَإِذَا رَأَىٰ كَلَاْماً مُتَهَاْفِتاً زَيَّفَهُ وَمَزَّقَهُ بِعِبَاْرَاْتٍ عَذْبَةٍ حُلْوَةٍ.

وَأَمَّا مُصَنَّفَاْتُهُ فَأَشْهَرُهَاْ تَفْسِيْرُ الْقُرْآنِ الْمُسَمَّىٰ بِفَتْحِ الْعَزِيْزِ، صَنَّفَهُ فِي شِدَّةِ الْمَرَضِ ولُحُوْقِ الضَّعْفِ إِمْلَاْءً، وَهُوَ فِيْ مُجَلَّدَاْتٍ كِبَاْرٍ، وَلَكِنَّهَاْ ضَاْعَ مُعْظَمُهَاْ فِي ثَوْرَةِ الْهِنْدِ، وَمَاْ بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا مُجَلَّدَاْنِ مِنْ أَوَّلٍ وَآخِرٍ، وَمِنْهَا: الفَتَاْوَىٰ فِيْ الْمَسَاْئِلِ الْمُشْكِلَةِ، وَمِنْهَا: «تحفَةُ اثْنَا عَشَرِيَّة» فِي الْكَلَاْم عَلَىٰ مَذْهَبِ الشِّيْعَةِ، كِتَاْبٌ لَمْ يَسْبِقْ مِثْلُهُ، وَمِنْهَا كِتَاْبُهُ «بُسْتَاْنُ الْمُحَدِّثِيْنَ» وَهُوَ فِهْرِسُ كُتُبِ الْحَدِيْثِ وَتَرَاْجِمُ أَهْلِهَا بِبَسْطٍ وَتَفْصِيْلٍ وَلَكِنَّهُ

لَمْ يَتِم، وَمِنْهَا: «الْعجَاْلَةُ النَّافِعَةُ» رِسَاْلَةٌ لَهُ بِالفَاْرِسِيَّةِ فِي أُصُوْلِ الْحَدِيْثِ وَلَهُ غَيْرُ ذٰلِكَ مِنَ الرَّسَاْئِلِ.

وَأَمَّا مُصَنَّفَاتُهُ فِي الْمَنْطِقِ وَالْحِكْمَةِ فَمِنْهَا: حَاْشِيَةٌ عَلَىٰ «مير زاهد رسالة»، وَحَاْشِيَةٌ عَلَىٰ «مير زاهد ملا جلال»، وَحَاْشِيَةٌ عَلَىٰ «مير زاهد شرح المواقف»، وَحَاْشِيَةٌ عَلَىٰ «حاشية ملا كوسج» الْمَعْرُوْفَةِ بِالعَزِيْزِيَّة، وَحَاْشِيَةٌ عَلَىٰ «شَرْحِ هِدَاْيَةِ الْحِكْمَةِ» لِلصَّدْرِ الشِّيْرَاْزِيْ.

وَلَهُ شَرْحٌ عَلَىٰ أُرْجُوْزَةِ الأَصْمَعِيِّ، وَلَهُ مُرَاْسَلَاْتٌ إِلَىٰ الْعُلَمَاْءِ وَاْلأُدَبَاْءِ، وَتَخْمِيْسٌ نَفِيْسٌ عَلَىٰ قَصِيْدَتَيْ وَاْلِدِهِ الْبَاْئِيَّةِ وَالهَمْزِيَّةِ.

وَكَاْنَ نَسِيْج وَحْده فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَقُوَّةِ التَّحْرِيْرِ وَغَزَارَةِ الإِمْلَاْءِ وَجَزَاْلَةِ التَّعْبِيْرِ، وَكَلَاْمُه عَفْوُ السَّاْعَةِ، وَفَيْضُ الْقَرِيْحَةِ، وَمُسَاْرَعَةُ الْقَلَمِ، وَمُسَاْبَقَةُ الْيَدِ.

تُوفِّي بَعْدَ صَلَاْةِ الْفَجْرِ يَوْمَ الْأَحَدِ لِسَبْعٍ خَلَوْنَ مِنْ شَوَّاْل، سنة (١٢٣٩هـ)، وَلَهُ ثَمَاْنُوْنَ سَنَةً، وَقَبْرُهُ بِدهلي عِنْدَ قَبْرِ وَاْلِدِهِ خَاْرِجَ الْبَلْدَةِ.

(«نزهة الخواطر» للشيخ عبد الحي الحسني رحمه الله)







دار العلوم ديوبند
ومدرسة مظاهر العلوم (١)

اِنْقَرَضَتْ دَوْلَةُ الْمُسْلِمِيْنَ فِي الْهِنْدِ، وَرَسَخَتْ قَدَمُ الإِنْكِلِيْزِ فِي أَرْضِهَاْ سنة (١٨٥٧م)، فَانْبَثَّ الْقُسُوْسُ وَالأَحْبَاْرُ فِي الْقُرَىٰ وَالْمُدُنِ يَدْعُوْنَ النَّاْسَ إِلَىٰ النَّصْرَاْنِيَّةِ، وَيُنَاْظِرُوْنَ عُلَمَاْءَ الْمُسْلِمِيْنَ بِسُلْطَاْنِ دَوْلَتِهِمْ، وَيَغْرِسُوْنَ فِي قُلُوْبِ الْعَاْمَّةِ الشَّكَّ وَالزَّيْغَ، وَقَاْمَ بَعْضُ الْمُسْلِمِيْنَ الَّذِيْنَ دَخَلَهُمْ الرُّعْبُ يَدْعُوْنَ إِلَىٰ تَعَلُّم اللُّغَةِ الإِنْكِلِيْزِيَّةِ وَآدَاْبِهَاْ عَلَىٰ عِلَّاْتِهَاْ، وَيَرَوْنَ فِي ذٰلِكَ دَوَاْءً لِكُلِّ دَاْءٍ، وَتَدَرَّجُوْا إِلَىٰ دَعْوَةِ تَقْلِيْدِ الْحَضَاْرَةِ الْغَرْبِيَّةِ، وَمُحَاْكَاْةِ سَاْدَةِ الْبِلَاْدِ فِي كَثِيْرٍ مِنْ أَخْلَاْقِهِمْ وَأَسَاْلِيْبِ حَيَاْتِهِمْ، فَكَاْنَ الْمُسْلِمُوْنَ بَيْنَ خَطَرَيْنِ؛ خَطَرِ الارْتِدَاْدِ وَخَطَرِ الإِلْحَاْدِ.

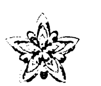
وَكَاْنَت الْمَدَاْرِسُ الدِّيْنِيَّةُ وَحَلَقَاْتُ التَّدْرِيْسِ الَّتِيْ تَخَرَّجَ مِنْهَا أَئِمَّةٌ وَعُلَمَاْءُ كِبَاْرٌ فِيْ احْتِضَاْرٍ، تَلْفِظُ نَفَسَهَاْ الأَخِيْرَ لِعَدَم حِمَاْيَةِ الدَّوْلَةِ، وَقِلَّةِ رَغْبَةِ النَّاْسِ فِي الْعُلُوْمِ الدِّيْنِيَّةِ، وَكَاْنَ كُلَّمَاْ تَعَطَّلَتْ

مَدْرَسَةٌ لَمْ تَخْلِفْهَا مَدْرَسَةٌ، وَكُلَّمَا مَضَىٰ عَالِمٌ أَوْ أُسْتَاذٌ كَبِيْرٌ لَمْ يَخْلِفْهُ آخَرُ، وَالمَدَارِسُ الرَّسْمِيَّةُ تَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ عَدَداً، وَتَتَمَتَّعُ بِحِمَايَةِ الدَّوْلَةِ وَمُسَاعَدَةِ الْجُمْهُوْرِ.

هٰذَا وَقَدْ نَشَطَ دُعَاةُ الْبِدَعِ وَالْخُرَافَاتِ وَالْمُحْتَرِفُوْنَ الَّذِيْنَ انْتَشَرُوْا فِي الْقُرَىٰ وَالْمُدُنِ يَدْعُوْنَ إِلَىٰ رُسُوْمِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْمُحْدَثَاتِ، وَيَأْكُلُوْنَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَيَصُدُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ، وَيُضَلِّلُوْنَ الْعُلَمَاءَ الأَخْيَارَ وَيُكَفِّرُوْنَهُمْ.

خَافَ عُلَمَاءُ الْحَقِّ عَلَىٰ الدِّيْنِ، وَعَلَىٰ عُلُوْمِ الدِّيْنِ وَخَافُوْا عَلَىٰ مُسْتَقْبَلِ الإِسْلَامِ فِي بِلَادِ الهِنْدِ بَعْدَ زَوَالِ دَوْلَتِهِ وَحُلُوْلِ دُوْلَةِ الكُفَّارِ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَا تُنْجِدُهُمْ دَوْلَةٌ وَلَا تَحْمِيْهِمْ قُوَّةٌ، وَلَا يَمْلِكُوْنَ أَمْوَالاً يُنْفِقُوْنَهَا وَلَا مَنَاصِبَ وَوَظَائِفَ يَجْذِبُوْنَ النَّاسَ إِلَيْهَا، وَإِنَّمَا هُمْ مُسْتَضْعَفُوْنَ فِي الأَرْضِ «فُقَرَاءُ»، ثَرْوَتُهُم الْعِلْمُ، وَرَأْسُ مَالِهِمُ الدِّيْنُ، وَزَادُهُمُ التَّوَكُّلُ، وَسِلَاحُهُمُ الإِخْلَاصُ، فَقَامُوْا وَقَالُوْا: نَبْنِي مَعْقِلاً لِلدِّيْن تَأْوِي إِلَيْهِ الشَّرِيْعَةُ الإِسْلَامِيَّةُ وَتَلْجَأُ إِلَيْهِ الْعُلُوْمُ الدِّيْنِيَّةُ.

فِيْ قَرْيَةِ «ديوبند» مِن الْقُرَىٰ التَّابِعَةِ لِمَدِيْنَةِ «سهارن بور» فِي مَسْجِدٍ صَغِيْرٍ اجْتَمَعَتْ عِصَابَةٌ مِنْ أَهْلِ الْغَيْرَةِ وَالْفَرَاسَةِ مِن الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ تَلَامِيْذِ بَيْتِ الإِمَامِ وَلِي الله الدَّهْلَوِي، وَأَصْحَابِ الشَّيْخِ الْكَبِيْرِ إِمْدَادِ اللهِ التهانوي الْمَكِّي،



عَلَىٰ رَأْسِهِمُ الشَّيْخُ الْكَبِيْرُ مَوْلَانَا مُحَمَّد قَاسِم النَّانوتوي (م ١٢٩٨م)، وَأَسَّسُوْا تَحْتَ شَجَرَةِ رُمَّانٍ هُنَالِكَ مَدْرَسَةً دِيْنِيَّةً، كَانَ ذٰلِكَ سنة (١٢٨٣) لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ.

اِفْتُتِحَتِ الْمَدْرَسَةُ بِمُعَلِّمٍ وَاْحِدٍ هُوَ الْمُلَّاْ مَحْمُوْد الديوبندي، وَتِلْمِيْذٍ وَاْحِدٍ وَهُوَ الشَّيْخُ مَحْمُوْد حَسَن الديوبندي، فَكَاْنَ يَوْماً مَشْهُوْداً مَحْمُوْداً فِي تَاْرِيْخِ الهِنْدِ الدِّيْنِيِّ.

بَدَأَتِ الْمَدْرَسَةُ بِإِعَاْنَةِ فُقَرَاْءِ الْمُسْلِمِيْنَ وَعَاْمَّتِهِمْ، وَرُزِقَتْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمِهَا رِجَاْلاً عَاْمِلِيْنَ مُخْلِصِيْنَ، وَأَسَاْتِذَةً خَاْشِعِيْنَ مُتَّقِيْنَ، قَدْ تَوَلَّىٰ الإِشْرَاْفَ عَلَىٰ شُؤُوْنِهَاْ أَمْثَاْلُ الْعَاْلِمِ الرَّبَّاْنِيِّ الشَّيْخِ الْكَبِيْرِ مَوْلَاْنَاْ رَشِيْد أَحْمَد الكنْكوْهِي، وَالشَّيْخِ رَفِيْع الدِّيْن الديوبندي، وَالْمُصْلِحِ الْجَلِيْلِ والْمُؤَلِّفِ الْكَبِيْرِ الشَّيْخ أَشْرَف عَلِي التهانوي، وَتَوَلَّىٰ رِئَاْسَةَ التَّدْرِيْسِ فِيْهَا أَمْثَاْلُ الشَّيْخِ الصَّاْلِح مَوْلَاْنَا مُحَمَّد يَعْقُوْب النَّانوتوي، وَالْعَاْلِم الرَّبَّاْنِي الشَّيْخ مَحْمُود حَسَن الديوبندي، وَالْعَاْلِم الضَّلِيْع الشَّيْخ أَنْوَرِ شَاْه الكَشْمِيْرِي، وَالْمُجَاْهِد الشَّهِيْر مَوْلَاْنَا حُسَيْن أَحْمَد الْمَدَنِي، فَسَرَتْ رُوْحُ التَّقْوَىٰ وَالاحْتِسَاْبِ وَالتَّوَاْضُعِ وَالْخِدْمَةِ فِي هٰذِهِ الدَّاْرِ، فَإِذَاْ زَاْرَهَا أَحَدٌ فِي دَوْرِهَا الأَوَّلِ حَسِبَ أَنَّهُ فِيْ زَاْوِيَةٍ عَاْمِرَةٍ مِنْ زَوَاْيَا الصُّوفِيَّةِ.

وَلَمْ يَزَلْ نِطَاْقُ الْمَدْرَسَةِ يَتَّسِعُ، وَصِيْتُهَاْ يَذِيْعُ، وَشُهْرَةُ

أَسَاْتِذَتِهَاْ فِي الصَّلَاْحِ وَالتَّقْوَىٰ والتَّبَحُّرِ فِي عِلْمِ الْحَدِيْثِ وَالْفِقْهِ تَطِيْرُ فِي الْعَاْلَمِ حَتَّىٰ أَمَّهَاْ الطَّلَبَةُ مِنْ أَنْحَاْءِ الهِنْدِ، وَمِن الأَقْطَاْرِ الإِسْلَاْمِيَّةِ الأُخْرَىٰ، حَتَّىٰ بَلَغَ عَدَدُهُمْ فِي الزَّمَنِ الأَخِيْرِ إِلىٰ خَمْسِمِئَةٍ وَأَلْفٍ وَزِيَاْدَة، وَبَلَغَتْ مِيْزَاْنِيَّتُهَا إِلَىٰ ثَلَاْثِمِئَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِيْنَ أَلْف رُبِّيَّةٍ سَنَوِيّاً.

وَيُقَدَّرُ عَدَدُ الَّذِيْنَ اشْتَغَلُوْا فِي هَٰذِهِ الْمَدْرَسَةِ بِالْعِلْمِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَشَرَةِ آلَاْفٍ، وَالَّذِيْنَ نَاْلُوْا الشَّهَاْدَةَ مِنْهَا بِنَحْوِ خَمْسَةِ آلَاْفٍ، وَالَّذِيْنَ ارْتَوَوْا بِمَنَاْهِلِهَا مِنْ أَهْلِ خَاْرِجِ الهِنْدِ كَبَاكِسْتَاْن وَأَفغَاْنسْتَاْن وخيْوَا وَبُخَاْرَا وَقَاْزَاْن وَرُوْسيَاْ وَآذَرْبَائِيْجَاْن، وَالْمَغْرِبِ الأَقْصَىٰ وَآسْيَا الصُّغْرَىٰ وَتِبت، وَالصِّيْنِ وَجزَاْئِر بَحْرِ الهِنْدِ، وَالحِجَاْزِ وَالعِرَاْقِ وَالبِلَاْدِ الشَّاْمِيَّةِ وَالْيَمَنِ نَحْوَ خَمْسِمِئَةٍ.

وَكَاْنَ لِلْمُتَخَرِّجِيْنَ مِنْ دَاْرِ الْعُلُوْمِ تَأْثِيْرٌ كَبِيْرٌ فِيْ حَيَاْةِ الْمُسْلِمِين الدِّيْنِيَّةِ فِي الْهِنْدِ، وَفَضْلٌ كَبِيْرٌ فِي مَحْوِ الْبِدَعِ، وَإِزَاْلَةِ الْمُحْدَثَاْتِ، وَإِصْلَاْحِ الْعَقِيْدَةِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الدِّيْنِ، واتِّبَاْعِ السُّنَّةِ، وَمُنَاْظَرَةِ أَهْلِ الضَّلَاْلِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَكَاْنَتْ لِبَعْضِهِمْ مَوَاْقِفُ مَحْمُوْدَةٌ فِي السِّيَاْسَةِ وَالدِّفَاْعِ عَنِ الْوَطَنِ، وَكَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَاْنٍ جَاْئِرٍ.

وَلِدَاْرِ الْعُلُوْمِ مَكْتَبَةٌ تَحْتَوِيْ عَلَىٰ مِئَةِ أَلْفِ كِتَاْبٍ، كَثِيْرٌ مِنْهَاْ مُكَرَّرٌ لِلدَّرْسِ، وَفِيْهَا عَدَدٌ مِنْ الْكُتُبِ الْخَطِّيَّةِ.

وَشِعَارُ دَارِ الْعُلُوْمِ: التَّمَسُّكُ بِالدِّيْنِ، وَالتَّصَلُّبُ فِي الْمَذْهَبِ وَعَدَمُ الْعُدُوْلِ عَنْهُ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الْقَدِيْمِ، والدِّفَاعُ عَن السُّنَّةِ، وَالانْتِصَارُ لِرَهْطِ الإِمَامِ وَلِي اللهِ الدَّهْلَوي.

وَقَدْ تَمَسَّكَتْ بِالدَّرْسِ النِّظَامِيِّ عَلَىٰ عِلَّاتِهِ، وَعَضَّتْ عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ، وَقَدْ بَدَأَتْ أَخِيْراً دَعْوَةُ التَّغْيِيْرِ وَالإِصْلَاحِ فِيْ مِنْهَاجِ التَّعْلِيْمِ، وَلَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً.





دار العلوم ديوبند
ومدرسة مظاهر العلوم (٢)

وَفِيْ نَفْسِ سنة (١٢٨٣هـ) بَعْدَ افْتِتَاْحِ دَاْرِ الْعُلُوْمِ «ديوبند» بِبِضْعَةِ أَشْهُرٍ افْتَتَحَ رِجَاْلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ ـ في مُقَدِّمَتِهِم مَوْلَاْنَاْ «سعادت علي السهارنفوري» الْفَقِيْهُ الْمَشْهُوْرُ (م١٢٨٦هـ) مِنْ بَقِيَّةِ رَهْطِ السَّيِّدِ الإِمَاْمِ أَحْمَد بْنِ عرْفَاْن الشَّهِيْد ـ مَدْرَسَةً ثَاْنِيَةً فِي «سهارن فور»، وَكَاْنَ مَوْلَاْنَا «سعادت علي» يُدَرِّسُ الطَّلَبَةَ فِي بَيْتِهِ، وَكَاْنَ يَتَمَنَّىٰ أَنْ تَتَأَسَّسَ مَدْرَسَةٌ نِظَاْمِيَّةٌ فِي الْبَلَدِ، وَكَثِيْراً مَاْ كَاْنَ يِتَحَدَّثُ بِذٰلِكَ، وَفِيْ شَهْرِ رَجَبَ مِن الْعَاْمِ الْمَذْكُوْر حَقَّقَ اللهُ أُمْنِيَتَهُ، فَقَاْمَ رِجَاْلٌ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاْحِ وَالْعِلْمِ مِنْ أَصْدِقَاْئِهِ وَمَعَاْرِفِهِ فِي الْمَدِيْنَةِ وَضَوَاْحِيْهَاْ، وَافْتَتَحُوْا مَدْرَسَةً فِي حَيٍّ مِنْ أَحْيَاْءِ الْبَلَدِ فِي مَسْجِدٍ، وَوَلَّوْا الشَّيْخَ «سخاوت علي الأنبيتهوي» التَّدْرِيْسَ فِيْهَا، وَبَقِيَ مَوْلَاْنَا «سعادت علي» يُدَرِّسُ بَعْضَ الدُّرُوْسِ، وَيُشْرِفُ عَلَىٰ شُؤُوْنِ الْمَدْرَسَةِ، وَآلَ

الإِشْرَاْفُ عَلَىٰ الْمَدْرَسَةِ بَعْدَ وَفَاْتِهِ إِلَىٰ الشَّيْخِ فَضل الرَّحْمَـٰن قَاْضِي الْبَلَدِ.

وَفِي شَوَّاْلَ فِي الْعَاْمِ الْمَذْكُوْرِ تَوَلَّىٰ رِئَاْسَةَ التَّدْرِيْسِ الأُسْتَاْذُ الْكَبِيْرُ مَوْلَاْنَاْ «مُحَمَّد مظهر النانوتوي»، وَبِهِ تَسَمَّتِ الْمَدْرَسَةُ بِمظْهرِ الْعُلُوْمِ، وَزِيْدَتْ فِيْهَاْ أَلِفٌ لِتَتُمَّ عَنْ عَاْمِ بِنَاْءِ بِنَاْيَةِ الْمَدْرَسَةِ الْخَاْصَّةِ بِهَاْ؛ يَعْنِي عام (١٢٩٣هـ)، عَلَىٰ حِسَاْبِ الْجُمَّل، وَانْتَقَلت الْمَدْرَسَةُ فِي الْمَسْجِدِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ الْبِنَاْيَةِ فِي شَوَّاْل، وَفِيْ الْيَوْم الثَّاْمِنِ مِنْ هَـٰذَا الشَّهْرِ عَقَدَ أَصْحَاْبُ الْمَدْرَسَةِ حَفْلَةً بِمُنَاْسَبَةِ افْتِتَاْحِهَاْ فِيْ بِنَاْيَتِهَا الْجَدِيْدَة، خَطَبَ فِيْهَا الشَّيْخُ الْكَبِيْرُ مَوْلَاْنَاْ «مُحَمَّد قَاْسِم النانوتوي» خُطْبَةً رَقِيْقَةً بَلِيْغَةً اسْتَغْرَقَتْ ثَلَاْثَ سَاْعَاْتٍ.

وَفِي سنة (١٢٩٣هـ) أَيْضاً بَدَأَ الْمُحَدِّثُ الْكَبِيْرُ الشَّيْخُ «أَحْمَد عَلِي السهارنفوري» ـ صَاْحِبُ حَاْشِيَةِ الْبُخَاْرِيِّ الشَّهِيْرَةِ ـ يُدَرِّسُ كُتُبَ الْحَدِيْثِ فِي الْمَدْرَسَةِ، وَيُشْرِفُ عَلَىٰ شُؤُوْنِها، وَبَعْدَ وَفَاْةِ الشَّيْخَيْنِ؛ أَحْمَد عَلِي وَسَخَاْوَت عَلِي عام (١٢٩٧هـ و١٣٠٢هـ) تَدَاْوَلَ التَّدْرِيْسَ فِيْهَاْ مَوْلَاْنَاْ «عَبْدُ الْعَلِي الميرتهي» وَمَوْلَاْنَا «حَبِيْب الرَّحْمَـٰن بْنُ الشَّيْخ أَحْمَد عَلِي»، حَتَّىٰ تَبَوَّأَ رِئَاْسَةَ التَّدْرِيْسِ الشَّيْخُ صَاْلِح وَالأُسْتَاْذُ الْكَبِيْرُ مَوْلَاْنَا «خَلِيْل أَحْمَد الأنبيتهوي» صَاْحِبُ بَذْلِ الْمَجْهُوْدِ سنة (١٣١٤هـ)،

فَأَخَذَتِ الْمَدْرَسَةُ زُخْرُفَهَاْ، وَبَلَغَتْ أَوْجَهَاْ فِي كَثْرَةِ الطَّلَبَةِ وَانْتِشَاْرِ الصِّيْتِ وَانْتِظَاْمِ الدُّرُوْسِ.

وَفِيْ سنة (١٣٢٦هـ) جَاْءَ الشَّيْخُ مُحَمَّد يَحْيَىٰ الْكَاْنَدهْلَوِي ـ مِنْ أَنْجَبِ تَلَاْمِيْذِ الشَّيْخِ الْكَبِيْرِ مَوْلَاْنَاْ رَشِيْد أَحْمَد الكَنْكُوْهِي وَالْمَعْرُوْف بِذَكَاْئِهِ وَإِبْدَاْعِهِ ـ فَكَاْنَ مُسَاْعِداً لِلشَّيْخِ خَلِيْل أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ.

وَفِي شَوَّاْل سنة (١٣٤٤هـ) لَمَّاْ رَحَلَ الشَّيْخُ خَلِيْل أَحْمَد إِلَىٰ الْحِجَاْزِ تَوَلَّىٰ رِئَاْسَةَ التَّدْرِيْسِ مَوْلَاْنَاْ عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ الْكَاْمِل فورِي، وَالإِشْرَاْفَ عَلَىٰ الْمَدْرَسَةِ مَوْلَاْنَاْ عَبْدُ اللَّطِيْفِ السهارنفوري، وَتَوَلَّىٰ تَدْرِيْسَ الْحَدِيْثِ فِيْهَاْ تِلْمِيْذُ الشَّيْخِ خَلِيْل أَحْمَد الْبَاْرِع مَوْلَاْنَاْ مُحَمَّد زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَىٰ الكَاْنْدَهْلَوِيْ صَاْحِب «أَوْجَزِ الْمَسَاْلِك».

وَلَمْ تَزَلْ مَدْرَسَةُ مَظَاْهِرِ الْعُلُوْم مُتَمَتِّعَةً مِنْ أَوَّلِ يَوْمِهَاْ بِحِمَايَةِ أَعْلَاْمِ الهِنْدِ فِي الدِّيْنِ وَالصَّلَاْحِ، كَاْلعَاْلِمِ الرَّبَّاْنِيِّ الشَّيْخِ رَشِيْد أَحْمَد الكنكوهي وَالشَّيْخ مُحَمَّد إلياس الْكَاْندهلوي والشَّيْخ عَبْدِ الْقَاْدِر الرَّاْئي فورِي، وَحَاْزَتْ ثِقَةَ الْمُتَدَيِّنِيْنَ، فَكَاْنَتْ تِلْوَ مَعْهَدِ «ديوبند» فِيْ كَثْرَةِ الطَّلَبَةِ وَنُبُوْغِ الأَسَاْتِذَةِ، وَقَدْ خَرَّجَتْ عَدَداً كَبِيْراً مِن الْعُلَمَاْءِ الصَّاْلِحِيْنَ وَالرِّجَاْلِ الْعَاْمِلِيْنَ فِي مَيَاْدِيْنِ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ.

وَلِعُلَمَاءِ مَدْرَسَةِ مَظَاهِرِ الْعُلُوْمِ آثَارٌ جَلِيْلَةٌ فِيْ شَرْحِ كُتُبِ الْحَدِيْثِ وَخِدْمَةِ هٰذَا الْفَنِّ الشَّرِيْفِ، مِنْ أَجَلِّهَا بَذْلُ الْمَجْهُوْدِ فِي شَرْحِ سُنَنِ أَبِيْ دَاوُدَ لِلشَّيْخِ خَلِيْل أَحْمَد، وَأَوْجَزُ الْمَسَالِكِ فِيْ شَرْحِ الْمُوَطَّأ لِلْإِمَامِ مَالِك لِلشَّيْخ مُحَمَّد زَكَرِيَّا الكَانْدَهْلَوِي.

وَتَمْتَازُ مَدْرَسَةُ مَظَاهِرِ الْعُلُوْمِ وَأَسَاتِذَتُهَا وَطَلَبَتُهَا بِبَسَاطَةٍ فِي الْمَعِيْشَةِ، وَالْقَنَاعَةِ بِالْكَفَافِ، وَحُسْنِ السَّمتِ وَالتَّوَاضُعِ، وَالإِقْبَالِ الْكُلِّيِّ عَلَىٰ الْعِلْمِ وَالدَّرْسِ وَالاشْتِغَالِ بِخَاصَّةِ النَّفْسِ.

١٠٣

من النجوم إلى الأرض (١)

دَرَسْتُ فِي الْمَدْرَسَةِ أَمْسَ أَنَّ النُّوْرَ يَقْطَعُ مِئَةَ أَلْفٍ وَسِتَّةً وَثَمَانِيْنَ مِيْلاً فِي ثَانِيَةٍ، وَأَنَّهُ يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَطُوْفَ حَوْلَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ فِيْ أَقَلَّ مِنْ ثَانِيَةٍ.

وَسَمِعْتُ أَنَّ مِنَ النُّجُوْمِ مَا لَا يَصِلُ ضَوْؤُهُ إِلَىٰ الأَرْضِ إِلَّا فِي أَلْفَيْ عَامٍ، وَمِنْهَا مَا لَا يَصِلُ ضَوْؤُهُ إِلَّا فِي أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ، وَأَنَّ ضَوْءَ بَعْضِ النُّجُوْمِ مُنْذُ طَلَعَتْ لَا يَزَالُ فِيْ طَرِيْقِهِ إِلَىٰ الأَرْضِ وَلَمَّا يَصِلْ إِلَيْهَا.

لِيْ غَرَامٌ شَدِيْدٌ بِالتَّارِيْخِ، لَا أَزَالُ أُطَالِعُهُ بِرَغْبَةٍ عَظِيْمَةٍ، وَأَتَمَثَّلُهُ أَمَامَ عَيْنَيَّ، كَأَنَّ الْحَوَادِثَ وَاقِعَةٌ، وَالأَشْخَاصُ أَحْيَاءٌ، وَلَا أَزَالُ أَتَأَسَّفُ عَلَىٰ مَا فَاتَنِيْ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْحَوَادِثِ فِي سَاعَتِهَا، وَمِنْ زِيَارَةِ رِجَالٍ مِنْ عُظَمَاءِ التَّارِيْخِ فِي زَمَانِهِم، وَلَمْ أَزَلْ مِنْ صِبَايَ أَقُوْلُ لِوَالِدِيْ وَأَصْدِقَائِيْ: يَا لَيْتَنِيْ وُلِدْتُ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِيْ، فَشَاهَدْتُ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْوَقَائِعِ، وَزُرْتُ فُلَاناً

وَفُلَاْنـاً مِنَ الـرِّجَاْلِ، لَـقَـدْ غَـاْبَ عَـنِّي طُـوْفَـاْنُ نُـوْحٍ، وَمِـحْـنَـةُ إِبْرَاْهِيْمَ، وَخُرُوْجُ بَنِيْ إِسْرَاْئِيْلَ، وَسَبقَتْنِيْ بِعْثَةُ الرَّسُوْلِ عليه الصلاة والسلام بِأَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ عَاْمٍ، وَفَاْتَنِيْ عَـهْدُ الـخِلَاْفَةِ الرَّاْشِدَةِ، وَفَاْتَتْنِيْ حَضَاْرَةُ بَغْدَاْدَ، وَعَـهْدُ قُرْطُبَةَ وَغِرْنَاْطَةَ، وَفَاْتَنِيْ، وَفَاْتَنِيْ، وَفَاْتَنِيْ.

وَكُنْتُ أَعُدُّ الْحَوَاْدِثَ الكَبِيْرَةَ، والرِّجَاْلَ العُظَمَاْءَ، وأَقُوْلُ فِي حُزْنٍ وَأَسَفٍ: لَقَدْ تَأَخَّرْتُ كَثِيْراً، فَلَيْتَ الزَّمَاْنَ يَعُوْدُ، وَلَيْتَ الْبَشَرَ يَسْتَأْنِفُوْنَ السَّفَرَ، وَلَيْتَ الْعَاْلَمَ يَرْجِعُ الْقَهْقَرَىٰ، وَلَيْتَ التَّاْرِيْخَ يُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَاْبِهِ، فَأُشَاْهِدَ مَاْ مَضَىٰ، وَأُعَاْشِرَ مَنْ سَبَقَ.

وَكُنْتُ أُفَكِّرُ لَوْ كَاْنَ أَحَدٌ فَوْقَ نَجْمٍ لَاْ يَصِلُ ضَوْؤُهُ إِلَىٰ الأَرْضِ إِلَّا فِي آلْافٍ أَوْ مِئَاْتٍ مِنَ السِّنِيْنَ لَرَأَى الْعَاْلَمَ كَمَاْ كَاْنَ قَبْلَ آلْافٍ أَوْ مِئَاْتٍ مِنَ السِّنِيْنَ، وَكَذٰلِكَ يمكن أَنْ يُطَاْلِعَ أَهْلُ النُّجُوْمِ أَدْوَاْرَ التَّاْرِيْخِ المَاْضِيَةِ، وَيُشَاْهِدُوا الْحَوَاْدِثَ، وَالْأَشْخَاْصَ فِيْ زَمَنِهِمْ وَفِيْ مَحَلِّهِمْ.

سُرِرْتُ مِنْ ذٰلِكَ جِدّاً، كَأَنِّي وَجَدْتُ ضَاْلَّتِيْ وَعَرَضْتُ هٰذِهِ الفِكْرَةَ الْبَدِيْعَةَ عَلَىٰ مُعَلِّمِ الطَّبعيَّاْتِ؛ لِأَنِّي لَاْ آمَنُ عَلَىٰ نَفْسِيَ الْخَطَأَ.

قَاْلَ الْمُعَلِّمُ: نَعَمْ، إِذَاْ فَرَضْنَا أَنَّ أَحداً فَوْقَ الشَّمْسِ ـ وَهِيَ تَبْعُدُ مِنَ الأَرْضِ ثَلَاْثَةً وَتِسْعِيْنَ مِلْيُوْنَ مِيْلٍ ـ فَإِنَّهُ يَرَىٰ فِي

الأَرْضِ مَاْ وَقَعَ قَبْلَ ثَمَاْنِيْ ثَوَاْنٍ فَقَطْ، فَإِنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ يَصِلُ إِلَىٰ الأَرْضِ فِيْ ثَمَاْنِي ثَوَاْنٍ.

وَهَـٰكَذَاْ نَتَدَرَّجُ وَنَقُوْلُ: مَنْ كَاْنَ فَوْقَ النُّجُوْمِ الْعَاْلِيَةِ الَّتِيْ يَصِلُ ضَوْؤُهَا إِلَىٰ الأَرْضِ فِي آلَاْفٍ مِنَ السِّنِيْنَ، لَكَاْنُوْا يَرَوْنَ حَوَاْدِثَ قَبْلَ التَّاْرِيْخِ، وَمَاْ وَقَعَ قَبْلَ آلَاْفٍ مِنَ السِّنِيْنَ.

لَمْ أَزَلْ أُفَكِّرُ فِي ارْتِفَاْعِ النُّجُوْمِ وَبُعْدِهَاْ عَنِ الأَرْضِ، وَمُطَاْلَعَةِ أَهْلِهَاْ لِمَاْ وَقَعَ فِي الأَرْضِ، حَتَّىٰ لَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَأَنِّي فِيْ مَكَاْنٍ أُطَاْلِعُ فِيْهِ الأَرْضَ بِمُكَبِّرَةٍ كَبِيْرَةٍ.

فَإِذَاْ بِي أَرَىٰ الأَرْضَ غَيْرَ الأَرْضِ الَّتِيْ كُنْتُ أَعْرِفُهَا، وَالنَّاْسَ غَيْرَ الَّذِيْنَ عَهِدْتُهُمْ، أَرَىٰ الْمَسَاْجِدَ عَاْمِرَةً غَاْصَّةً بِالْمُصَلِّيْنَ، وَأَرَىٰ الْحُدُوْدَ قَاْئِمَة، وَأَحْكَاْمَ الشَّرْعِ نَاْفِذَةً، وَأُجِيْلُ مُكَبِّرَتِيْ، وَأَنْظُرُ مِنْ خِلَاْلِهَاْ، فَلَاْ أَرَىٰ فُجُوْراً، وَلَاْ دَعَاْرَةً، وَلَاْ سُكْراً، وَلَاْ قِمَاْراً.

وَاطَّلَعْتُ عَلَىٰ بُقْعَةٍ فِيْهَاْ نَخْلٌ كَثِيْرٌ، وَمَسْجِدٌ بَسِيْطٌ، قَدْ غَشِيَتْهُ سَحَاْبَةٌ مِنَ النُّوْرِ وَالْبَرَكَةِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهَا مَدِيْنَةُ الرَّسُوْلِ ﷺ، وَرَأَيْتُ بُيُوْتاً مُتَوَاْضِعَةً، قَدْ بُنِيَ أَكْثَرُهَا مِنَ اللَّبْنِ، وَلَـٰكِنِّيْ رَأَيْتُ هُنَاْلِكَ سُفَرَاءَ الدُّوَلِ الكَبِيْرَةِ، وَأَبْنَاْءَ مُلُوْكٍ قَدْ أَسْلَمُوْا، فَعَرَفْتُ أَنَّ هَـٰذِهِ المدِيْنَةَ الصَّغِيْرَةَ مَعَ بَسَاْطَتِهَاْ تَحْكُمُ الْعَاْلَمَ، وَيَجِيْءُ إِلَيْهَا خَرَاْجُ إِيْرَاْنَ وَرُوْمَا.

وَبَحَثْتُ فِي هَٰذِهِ الْمَدِيْنَةِ فَلَمْ أَجِدْ فِيْهَا مَحْكَمَةً، وَلَاْ سِجْناً، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: فَأَيْنَ يَذْهَبُ الْمُتَخَاْصِمُوْنَ؟ وَأَيْنَ يُحْبَسُ الْمُجْرِمُوْنَ؟ فَإِذْا بِيْ أَرَىٰ رَجُلاً جَاْلِساً فِي مَسْجِدِ الرَّسُوْلِ فِي ثِيَاْبٍ مَرْقُوْعَةٍ، أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ مَهَاْبَةٌ وَجَلَاْلٌ، قَدْ حَضَرَ لَدِيْهِ خَصْمَاْنِ، وَرَفَعَا إِلَيْهِ الْقَضِيَّةَ فِي بَسَاْطَةِ الأَعْرَاْبِ، وَقَاْلَاْ: خَصْمَاْنِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَاْ تَشْطُطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاْءِ الصِّرَاْطِ.

سَمِعَ الرَّجُلُ الْقَضِيَّةَ فِي هُدُوْءٍ وَتَأَنٍّ، وَقَاْلَ لِلْمُدَّعِيْ: «الْبَيِّنَةُ عَلَىٰ مَنِ ادَّعَىٰ، وَالْيَمِيْنُ عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَ»، فَهَلْ عِنْدَكَ بَيِّنَةٌ أَوْ أَسْتَحْلِفُ الرَّجُلَ؟ وَقَدَّمَ الرَّجُلُ شُهُوْداً عُدُوْلاً، فَقَضَىٰ لَهُ، وَانْفَصَلَتِ الْقَضِيَّةُ فِي سَاْعَةٍ، وَقَاْمَ الْفَرِيْقَاْنِ وَرَضِيَاْ بِحُكْمِ الشَّرْعِ، فَقُلْتُ: وَلَاْ يَحْتَاْجُ هَٰؤُلَاْءِ إِلَىٰ مَحْكَمَةٍ وَمُحَاْمِيْنَ.

وَرَأَيْتُ أَبْوَاْبَ الْبُيُوْتِ فِي اللَّيْلِ مَفْتُوحَةً، وَرَأَيْتُ بَيْتَ الْمَاْلِ وَقَدْ أَتَىٰ إِلَيْهِ خِرَاْجُ إِيْرَاْنَ فِيْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ، لَيْسَ لَهُ حَاْرِسٌ، وَلَاْ شُرْطَةٌ، وَقَدْ جَاْءَ تَاْجُ كِسْرَىٰ، وَهُوَ يُسَاْوِي مِئَاْتِ آلَاْفٍ مِنَ الدَّنَاْنِيْرِ، وَقَدْ وَقَعَ إِلَىٰ جُنْدِيٍّ حَقِيْرٍ، فَأَدَّاْهُ إِلَىٰ أَمِيْرِ الْجُنْدِ، وَأَرْسَلَهُ أَمِيْرُ الْجُنْد إِلَىٰ الْخَلِيْفَةِ، وَجَاْءَ بَعْضَ السُّرَّاْقِ وَسَرَقُوْا، فَقُطِعَتْ يَدُهُمْ، فَقُلْتُ: لَاْ يَحْتَاْجُ هَٰؤُلَاْءِ إِلَىٰ سِجْنٍ أَوْ مَحْبَسٍ.

وَأَشْرَفْتُ عَلَىٰ بُيُوْتِهِمْ فَوَجَدْتُ مَعِيْشَةً صَافِيَةً، وَحَيَاةً رَاضِيَةً لَاْ يُكَدِّرُهَاْ حَسَدٌ، وَلَاْ بَغْضَاْءُ، وَلَاْ طَمَعٌ، وَلَاْ جَشَعٌ، يُؤْثِرُوْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم وَلَوْ كَاْنَ بِهِمْ خَصَاْصَةٌ، وَيُهْدِيْ جَاْرٌ إِلَىٰ جَاْرٍ فَتَدُوْرُ الْهَدِيَّةُ عَلَىٰ الْحَيِّ، وَتَرْجِعُ إِلَىٰ صَاْحِبِهَا الأَوَّلِ، لَاْ يَأْكُلُ فِيْهِمُ القَوِيُّ الضَّعِيْفَ، وَلَاْ يَظْلِمُ الكَبِيْرُ مِنْهُمُ الصَّغِيْرَ، يَحْنُوْ عَلَيْهِم الخَلِيْفَةُ وَالأُمَرَاْءُ، فَهُمْ لَهُمْ كَالآبَاْءِ، وَيُطِيْعُهُمُ العَاْمَّةُ، وَيُوَقِّرُوْنَهُمْ، وَيَنْصَحُوْنَ لَهُمْ، فَهُمْ لَهُمْ كَالْأَبْنَاْءِ، وَيَتَنَاْصَحُوْنَ بَيْنَهُمْ، فَهُمْ إِخْوَةٌ.

وَاطَّلَعْتُ عَلَى ثُكُنَاْتِهِمْ ـ وَسَمِعْتُ أَنَّ الجُنْدَ أَفْسَدُ النَّاْسِ أَخْلَاْقاً، وَأَبْعَدُهُمْ عَن الدِّيْنِ وَالْفَضِيْلَةِ فِي كُلِّ زَمَاْنٍ ـ فَوَجَدْتُهُمْ بِاللَّيْل رُهْبَاْناً، لَهُمْ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، وَأَمَّا بِالنَّهَاْرِ فَفُرْسَاْنٌ يَثْقِفُوْنَ القَنَاْ، وَيَرِيْشُوْنَ النَّبْلَ، يُوْفُوْنَ بِالْعَهْدِ، وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَاْ يَأْكُلُوْنَ فِيْ ذِمَّتِهِمْ إِلَّا بِثَمَنٍ، وَلَاْ يَدْخُلُوْنَ إِلَّا بِسَلَاْمٍ، وَيَعْفوْنَ عَنِ الْمَحَاْرِمِ، وَيَغُضُّوْنَ البَصَرَ، فَقُلْتُ: إِذَاْ كَاْنَ الجُنْدُ فِيْهِمْ هَـٰكَذَاْ فَكَيْفَ بِالْعُبَّاْدِ الزُّهَّاْدِ؟!

قُلْتُ: لَعَلَّ هَـٰذَا دَوْرُ الخِلَاْفَةِ الرَّاْشِدَةِ، وَصَدَّقْتُ مَاْ قَرَأْتُ فِي التَّاْرِيْخِ، وَقُلْتُ: ذٰلِكَ قَلِيْلٌ مِنْ كَثِيْرٍ.

١٠٤ من النجوم إلى الأرض (٢)

وَنَزَلْتُ أَسْفَلَ مِنْ ذٰلِكَ الْمَكَاْنِ فَرَأَيْتُ الْأُمُوْرَ قَدْ تَغَيَّرَتْ، وَأَنَّ الْعَاْصِمَةَ قَدْ تَحَوَّلَتْ مِنَ الْمَدِيْنَةِ - عَلَىٰ سَاْكِنِهَا أَلْفُ أَلْفِ سَلَاْمٍ - إِلَىٰ «دِمَشْق الشَّاْم»، فَإِذَاْ قُصُوْرٌ عَاْلِيَةٌ قَدْ عُلِّقَتْ عَلَىٰ أَبْوَاْبِهَا سُتُوْرٌ جَمِيْلَةٌ، وَكُسِيَتْ جُدْرَاْنُهَا بِثِيَاْبٍ فَاْخِرَةٍ، وَإِذَاْ مَسَاْجِدُ شَاْمِخَةٌ تُنَاْطِحُ مَنَاْرَاْتُهَا السَّمَاْءَ، وَهِيَ عَاْمِرَةٌ بِالْمُصَلِّيْنَ، وَرَأَيْتُ فِيْهَا حَلَقَاْتِ الدَّرْسِ، وَمَجَاْلِسَ الْعِلْمِ، وَهِيَ غَاْصَّةٌ بِطَلَبَةِ عِلْمِ الدِّيْنِ، وَالشُّيُوْخُ يُحَدِّثُوْنَ عَنِ النَّبِيِّ الكَرِيْمِ وَالنَّاْسُ يَكْتُبُوْنَ وَيَحْفَظُوْنَ.

وَرَأَيْتُ النَّاْسَ أَنْوَاْعاً، مِنْهُمُ الزُّهَّاْدُ، وَالعُبَّاْدُ، وَطَلَبَةُ العِلْمِ، وَمِنْهُمُ الْمُتْرَفُوْنَ، وَرَأَيْتُ آثَاْرَ الحُرِّيَّةِ وَالتَّرَفِ، وَرَأَيْتُ النَّاْسَ طَبَقَاْتٍ فِي الغِنَىٰ وَالثَّرْوَةِ وَالْجَاْهِ وَالشَّرَفِ.

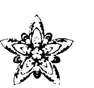
فَهٰذَا ابْنُ الخَلِيْفَةِ فِيْ زَهْوِهِ وَخُيَلَاْئِهِ، وَذٰلِكَ عَاْمِلُ العِرَاْقِ فِيْ خَدَمِهِ وَحَشَمِهِ، وَهٰذَا سُوْقِيٌّ، وَذٰلِكَ شَرِيْفٌ.

وَرَأَيْتُ بَعْضَ الحُدُوْدِ قَائِمَةً، وَبَعْضَ أَحْكَامِ الشَّرْعِ نَافِذَةً، وَرَأَيْتُ العُلَمَاءَ وَأَهْلَ الدِّيْنِ يَحْتَسِبُوْنَ عَلَىٰ النَّاسِ مُتَطَوِّعِيْنَ، فَيَخْضَعُوْنَ لَهُمْ، وَيَسْتَسْلِمُوْنَ، وَرَأَيْتُ النَّاسَ غَيْرَ مُجَاهِرِيْنَ بِالفِسْقِ، غَيْرَ مُصِرِّيْنَ عَلَىٰ المَعْصِيَةِ، يَحْتَشِمُوْنَ أَهْلَ الدِّيْنِ وَالْعِلْمِ.

وَرَأَيْتُ الْخَلِيْفَةَ وَالْأَمِيْرَ مَعَ تَرَفِهِ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، وَيَخْطُبُ فِيْهِمْ وَيَجْلِسُ لَهُمْ، وَرَأَيْتُ الْمَدِيْنَةَ عَرَبِيَّةً، فَالْخُلَفَاءُ يَصِلُوْنَ الشُّعَرَاءَ بِجَوَائِزَ كَبِيْرَةٍ، وَيَنْحَرُوْنَ جَزُوْراً، وَيُطْعِمُوْنَ النَّاسَ، وَرَأَيْتُ دَوْلَةَ الْمُسْلِمِيْنِ قَدِ اتَّسَعَتْ حَتَّىٰ امْتَدَّتْ إِلَىٰ حُدُوْدِ «الهِنْدِ» فِيْ جَانِبٍ، وَإِلَىٰ سَاحِلِ البَحْرِ الأَطْلَانْتِيْكِي فِيْ جَانِبٍ آخَرَ، لَا تُقْطَعُ فِيْ أَقَلَّ مِنْ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ عَلَىٰ أَسْرَعِ جَمَلٍ.

فَقُلْتُ: لَعَلَّ هَـٰذَا عَصْرُ الأُمَوِيِّيْنَ، وَلَعَلِّيْ فِي نِهَايَةِ الْقَرْنِ الأَوَّلِ.

ثُمَّ انْحَدَرْتُ إِلَىٰ أَسْفَلَ، فَرَأَيْتُ مَدِيْنَةً حَدِيْثَةً عَلَىٰ ضِفَّتَيْ دِجْلَةَ، وَرَأَيْتُ مَدِيْنَةً خَلِيْطاً، فِيْهَا صُورٌ عَرَبِيَّةٌ، وَفِيْهَا صُوَرٌ عَجَمِيَّةٌ، وَالنَّاسُ أَخْلَاطٌ؛ فِيْهِم الْعَرَبُ، وَفِيْهِم الفُرْسُ، وَفِيْهِم أَهْلُ الهِنْدِ، وَكَثِيْرٌ مِنْهُم التُّرْك، وَرَأَيْتُ قَصْرَ الخَلِيْفَةِ مِثْلَ قُصُوْرِ مُلُوْكِ العَجَم يَحْرُسُهُ التُّرْكُ، وَكَذٰلِكَ قُصُوْرَ الوُزَرَاءِ وَالأُمَرَاءِ، وَرَأَيْتُهُمْ يَخْرُجُوْنَ فِي مَوَاْكِبَ مُلُوْكِيَّةٍ فِي أُبَّهَةٍ عَظِيْمَةٍ.



وَرَأَيْتُ بَعْضَ النَّاْسِ يُرَبُّوْنَ الحَمَاْمَ، وَيَشْتَرُوْنَهُ بِأَثْمَاْنٍ غَاْلِيَةٍ، وَيَتَهَاْرَشُوْنَ بِالدُّيُوْكِ وَالكِلَاْبِ، وَرَأَيْتُ أَنْوَاْعَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، فَقُلْتُ: جَاْءَ هٰذَا مِنْ كَثْرَةِ الأَمْوَاْلِ، وَاخْتِلَاْطِ الأَعَاْجِمِ.

وَرَأَيْتُ القُضَاْةَ وَقَاْضِي القُضَاْةِ قَدِ ازْدَحَمَ عَلَيْهِ المتَظَلِّمُوْنَ، وَهُوَ يَقْضِيْ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ تَأْخُذُ قَضِيَّةٌ أَيَّاْماً.

وَرَأَيْتُ السُّجُوْنَ قَدْ غَصَّتْ بِالمُجْرِمِيْنَ، وَاللُّصُوْصِ، وَالشُّطَّاْرِ.

وَرَأَيْتُ كَذٰلِكَ مَسَاْجِدَ مُزْدَحِمَةً بِالمُصَلِّيْنَ، وَمَدَاْرِسَ غَاْصَّةً بِطَلَبَةِ عُلُوْمِ الدِّيْنِ، وَمَجَاْلِسَ الْوَعْظِ عَاْمِرَةً بِالمُسْتَمِعِيْنَ، وَرَأَيْتُ النَّاْسَ يَجُزُّوْنَ نَوَاصِيْهِمْ وَيَخُرُّوْنَ مَغْشِيّاً عَلَيْهِم، وَيَتُوْبُوْنَ عَنِ المُنْكَرَاْتِ، وَيُسْلِمُ كَثِيْرٌ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ كُلَّ جُمعَةٍ، فَقُلْتُ: إِنَّ النَّاْسَ لَمْ يَفْقِدُوْا قُلُوْبَهُم، وَإِنَّ الدِّيْنَ لَاْ يَزَاْلُ لَهُ سُلْطَاْنٌ عَلَىٰ القَلْبِ وَالرُّوْحِ.

وَرَأَيْتُ كَذٰلِكَ رِجَاْلاً مُنْقَطِعِيْنَ عَنِ الدُّنْيَا، مُعْرِضِيْنَ عَنِ المُلُوْكِ وَجَوَاْئِزِهِمْ وَصِلَاْتِهِمْ، يَأْتِي إِلَيْهِم النَّاسُ مِنْ «خُرَاسَان» وَ«الهِنْد» وَيَسْتَفِيْدُوْنَ، وَتَأْتِيْهِم الدُّنْيَا رَاْغِمَةً، وَيَأْتِيْهِم المُلُوْكُ وَالأُمَرَاْءُ صَاْغِرِيْنَ، فَرَأَيْتُ دَوْلَةً دِيْنِيَّةً تُزَاْحِمُ الدَّوْلَةَ المَاْدِّيَّةَ، وَتَفُوْقُهَا فِي العِزَّةِ وَالسُّلْطَاْنِ.

وَرَأَيْتُ أَكْبَرَ دَوْلَةٍ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ يَنْظُرُ مَلِكُهَا أَو الخَلِيْفَةُ ـ كَمَاْ تَقُوْلُ النَّاسُ فِي تِلْكَ البِلَاْدِ ـ إِلَىٰ سَحَاْبَةٍ، فَيَقُوْلُ: «أَمْطِرِيْ حَيْثُ شِئْتِ فَسَيَأْتِيْنِيْ خَرَاْجُكَ».

فَقُلْتُ: هَـٰذِهِ بَغْدَاْدُ عَاْصِمَةُ العَبَّاْسِيَّةِ، وَلَعَلِّي فِي القَرْنِ الثَّاْلِثِ.

وَحَاْنَتْ مِنِّي الْتِفَاْتَةٌ إِلَىٰ خَلِيْجِ جَبَلِ الطَّاْرِقِ، فَرَأَيْتُ عَلَىٰ ضِفَّتِهِ مَدِيْنَةً زَاْخِرَةَ العُمْرَاْنِ، شَاْمِخَةَ البُنْيَاْنِ، وَرَأَيْتُ فِيْهَا قُصُوْراً مُتَّسِقَةً، وَحَدَاْئِقَ مُتَنَاْسِبَةً، وَشَوَاْرِعَ مَرْصُوْفَةً، وَعُيُوْناً مُتَدَفِّقَةً، وجُسُوْراً مَنْصُوْبَةً، وَمَسَاْجِدَ مُزَخْرَفَةً، وَمَدَاْرِسَ مُشَيَّدَةً، فَتَذَكَّرْتُ مَا قَرَأْتُ فِي التَّاْرِيْخِ عَن مَدِيْنَةِ قُرْطُبَةَ، وَعَرَفْتُ أَنَّ مَسَاْحَتَهَا سِتَّةَ عَشَرَ مِيْلاً فِي الطُّوْلِ، وَسِتَّةَ أَمْيَاْلٍ فِي العَرْضِ، وَأَنَّ فِيْهَا مِئَةَ أَلْفٍ وَثَلَاْثَةَ عَشَرَ أَلْفاً مِنَ القُصُوْرِ وَالمَنَاْزِلِ، وَثَمَاْنِيْن أَلْفاً وَأَرْبَعَمِئَةٍ مِنَ الدَّكَاْكِيْنِ، وَسَبْعَمِئَةٍ مِنْ المساجد، وَتِسْعَمِئَةِ حَمَّاْمٍ، وَأَرْبَعَةَ آلَاْفٍ وَثَلَاْثَمِئَةِ مَخْزَنٍ، وَإِحْصَاءُ المَدِيْنَةِ يَرْبُو عَلَىٰ مِلْيُوْنٍ.

وَرَأَيْتُ فِي المَدِيْنَةِ مُتَنَزَّهَاْتٍ فَسِيْحَةً، وَحَدَاْئِقَ ذَاْتَ بَهْجَةٍ، وَطُرُقاً وَشَوَاْرِعَ بِالحَجَرِ، وَسُرَاْدِقَاتٍ مَنْصُوْبَةً يَأْوِيْ إِلَيْهَا الغُرَبَاْءُ، وَالْبَاْعَةُ، وَالسَّاْبِلَةُ فِي الحَرِّ وَالشَّمْسِ، وَرَأَيْتُ

الأَسْوَاْقَ مَشْحُوْنَةً بِالمتَاْجِرِ وَالسِّلَعِ الغَاْلِيَةِ الَّتِيْ جُلِبَتْ مِنْ بِلَاْدٍ بَعِيْدَةٍ، وَرَأَيْتُ رِبَاْطَاْتٍ لِلْجَوَّاْبِيْنَ وَالتُّجَّارِ.

وَرَأَيْتُ بِجَنْبِ مَدِيْنَةِ قُرْطُبَةَ مَدِيْنَةً صَغِيْرَةً مَاْ رَأَيْتُ أَجْمَلَ مِنْهَا عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، فَقُلْتُ: لَعَلَّهَاْ مَدِيْنَةُ الزَّهْرَاْءِ المَعْرُوْفَةُ فِي التَّارِيْخِ، وَأَنَا فِي القَرْنِ الرَّاْبِع، وَهَـٰذِهِ أَيَّاْمُ مَلِكِ الأَنْدَلُسِ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ النَّاْصِر، أَوْ ابْنِهِ حَكَم الثَّاْنِي.





١٠٥ من النجوم إلى الأرض (٣)

وَصَرَفْتُ نَظَرِيْ مِن الغَرْبِ إِلَىٰ الشَّرْقِ، فَرَأَيْتُ دَوْلَةً قَوِيَّةً وَاْسِعَةً، قَاْعِدَتُهَا «نِيْسَاْبُوْر» تَحْكُمُ «خُرَاْسَاْنَ» و«العِرَاْقَ» وَ«إِيْرَاْنَ»، وَيَتَحَكَّمُ مُلُوكُهَا فِي «بَغْدَاْدَ» وَيُنَصِّبُوْنَ وَيَعْزِلُوْنَ، وَيَغْزُوْ مَلِكُهَا أَلب أَرْسَلاْن الإِفْرَنْج فِي دِيَاْرِهِمْ، وَيَأْسِرُ مَلِكَهُمْ النَّصْرَاْنِيَّ، وَيَضْرِبُ عَلَيْهِم الجِزْيَةَ، وَقَدْ بَلَغَتْ هَٰذِهِ الدَّوْلَةُ أَوْجَهَا فِي عَهْدِ مَلِك شَاْه، وَوَزِيْرِهِ الفَاْضِلِ نِظَاْمِ الملكِ الطُّوْسِي، فَرَأَيْتُ المَدْرَسَةَ النِّظَامِيَّةَ فِي «بَغْدَاْدَ» عَاْمِرَةً آهِلَةً، يَدْرُسُ فِيْهَا مِثْلُ الإِمَاْمِ أَبِيْ حَاْمِدٍ الغَزَاْلِيِّ، وَتُنْفِقُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ السَّلْجُوْقِيَّةُ، وَرَأَيْتُ شَقِيْقَتَهَا المَدْرَسَةَ النِّظَامِيَّة فِي «نيْسَاْبُوْر» يَدْرُسُ فِيْهَا مِثْلُ إِمَاْمِ الحَرَمَيْن الجُوَيْنِي، فَقَرَّتْ بِذٰلِكَ عَيْنَاْيَ، وَدَعَوْتُ لِلدَّوْلَةِ السَّلْجُوْقِيَّةِ وَمَلِكِهَا وَوَزِيْرِهَا.

وَمَاْ لَبِثْتُ أَنْ رَأَيْتُ الإفْرَنْجَ يَحْمِلُوْنَ الصُّلْبَاْنَ، وَيُغِيْرُوْنَ عَلَىٰ البِلاْدِ الإِسْلاْمِيَّةِ، وَرَأَيْتُهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُوْنَ، وَقَدْ

جُنَّ جُنُوْنُهُمْ، حَتَّىٰ سَافَرَ أُلُوْفٌ مِنَ الأَطْفَاْلِ وَالغِلْمَاْنِ مِن بِلَاْدِ الإِفْرَنْجِ لِيَفْتَحُوا القُدْسَ، وَقَدْ غَرِقَ أَكْثَرُهُمْ فِي الطَّرِيْقِ، وَمَاْتُوا، وَرَأَيْتُ مُلُوْكَ أُوْرُبَّا قَدْ أَخَذُوْا الْقُدْسَ، وَوَضَعُوا فِي المُسْلِمِيْنَ السَّيْفَ، حَتَّىٰ سَاْلَتْ دِمَاؤُهُمْ سِكَكَ مَدِيْنَةِ القُدْسِ، وَزَلَقَتْ فِيْهَا الْخَيْلُ، وَأَخَذُوْا أَكْثَرَ مُدُنِ «سُوْرِيَّة» وَ«فِلَسْطِيْن» وَهَدَّدُوْا مِصْرَ وَالْعِرَاْقَ، وَطَمِعُوْا فِي الحِجَاْزِ، وَبَلَغَتْ بِهِم الْجَرَاْءَةُ وَالوَقَاْحَةُ أَنْ حَلَفَ مِنْهُمْ أَمِيْرٌ عَلَىٰ إِهَاْنَةِ الجَسَدِ الطَّاهِرِ الدَّفِيْنِ فِي المَدِيْنَةِ، عَلَيْهِ أَلْفُ أَلْفِ سَلَاْمٍ.

رَأَيْتُ كُلَّ ذٰلِكَ، وَالْتَفَتُّ إِلَىٰ الدَّوْلَةِ السَّلْجُوْقِيَّةِ فِي «نيْسَاْبُوْر» وَقُلْتُ: أَيْنَ مُلُوْكُهَا الَّذِيْنَ كَاْنُوا يَغْزُوْنَ الإِفْرَنْجَ، وَيَهْزِمُوْنَهُم مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ، فَإِذَا هِيَ قَدِ انْقَرَضَتْ سنة (٥٣٢هـ)، وَالْتَفَتُّ إِلَىٰ المُسْلِمِيْنَ فَرَأَيْتُهُمْ فِي لَهْوٍ وَلَعِبٍ، وَفِي غَزْوٍ وَنَهْبٍ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيْدٌ.

وَرَأَيْتُ النَّاْسَ وَالْمُلُوْكَ وَالْوُزَرَاْءَ وَالْعُلَمَاْءَ فِي شُغْلٍ عَن الإِفْرَنْجِ، فَخِفْتُ عَلَىٰ الإِسْلَاْمِ، وَقُلْتُ: عَلَىٰ الدِّيْنِ السَّلَاْمُ.

وَإِذَاْ بِالسُّلْطَاْنِ نُوْرِ الدِّيْنِ الزَّنْكِي، وَالسُّلْطَاْنِ صَلَاْحِ الدِّيْنِ الأَيُّوْبِي وَقَدْ نَزَلَاْ بِالإِفْرَنْجِ، وَقَاْرَعَاْهُمْ قِرَاْعاً شَدِيْداً، وَلَمْ يَزَلْ صَلَاْحُ الدِّيْنِ يَضْرِبُ الحَدِيْدَ بِالحَدِيْدِ حَتَّىٰ هَزَمَ الإِفْرَنْجَ فِي



«طَبَرِيَّة» شَرَّ هَزِيْمَةٍ، وَدَعَا بِالبرنْسِ الَّذِيْ حَلَفَ عَلَىٰ إِهَانَةِ جَسَدِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَضَرَبَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ قَائِلاً: اليَوْمَ أَنْتَصِرُ لِمُحَمَّدٍ.

وَانْتَزَعَ القُدْسَ وَالْمُدُنَ الشَّامِيَّةَ مِنْ أَيْدِي النَّصَارَىٰ، وَبَيَّضَ وَجْهَ الْمُسْلِمِيْنَ فِي العَالَمِ، وَكَانَ فَتْحاً تَضَاءَلَتْ أَمَامَهُ الفُتُوْحُ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوْحُ، وَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ:

هَٰذَا الَّذِيْ كَانَت الأَيَّامُ تَنْتَظِرُ فَلْيُوْفِ للهِ أَقْوَامٌ بِمَا نَذَرُوْا

ثُمَّ انْحَدَرْتُ إِلَىٰ أَسْفَلَ، فَرَأَيْتُ أَنَّ بَغْدَادَ الَّتِيْ زُرْتُهَا قَبْلَ دَقَائِقَ، قَدْ زَحَفَ إِلَيْهَا جَرَادٌ مِنَ التَّتَرِ، فَخَرَّبَهَا تَخْرِيْباً، وَفَجَّرُوا مِنْ دِمَاءِ أَهْلِهَا أَنْهَاراً، وَرَفَعُوا مِنْ رُؤُوْسِهِم مَنَاراً، وَقَتَلُوا الخَلِيْفَةَ المُسْتَعْصِمَ شَرَّ قِتْلَةٍ، وَرَمُوا بِالكُتُبِ النَّفِيْسَةِ فِيْ مَاءِ دِجْلَةَ، فَاسْوَدَّ تَارَةً بِسَوَادِهَا، وَاحْمَرَّ تَارَةً بِدِمَاءِ أَهْلِهَا، وَلَوْلاَ أَنِّيْ أَعْرِفُ مَكَانَهَا عَلَىٰ شَاطِئِ دِجْلَةَ لأَنكَرْتُ هَيْئَتَهَا، وَلَمْ أَعُدْ أَعْرِفُهَا.

وَرَأَيْتُ التَّتَرَ جَرَاداً مُنْتَشِراً فِي العَالَمِ الإِسْلاَمِيِّ، وَقَدْ خَرَّبُوْا المُدُنَ الإِسْلاَمِيَّةَ الكُبْرَىٰ، وَعَوَاصِمَ الشَّرْقِ، نَقَضُوْا بِنَايَاتِهَا، وَخَرَّبُوْا مَسَاجِدَهَا، وَأَحْرَقُوْا دُوْرَهَا، وَذَبَحُوْا أَهْلَهَا، وَمَزَّقُوْا دَوْلَةَ خَوَارِزْم شَاهِ فِي «خُرَاسَان»، وَقَضَوْا عَلَىٰ الخِلاَفَةِ العَبَّاسِيَّةِ فِي العِرَاقِ، وَاسْتَشْعَرَ المُسْلِمُوْنَ الخَوْفَ وَالجُبْنَ حَتَّىٰ

صَاْرَوْا لَاْ يُصَدِّقُوْنَ بِهَزِيْمَةِ التَّتَرِ، وَاشْتَهَرَ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ، إِذَاْ قِيْلَ لَكَ: إِنَّ التَّتَرَ انْهَزَمُوْا فَلَاْ تُصَدِّقْ.

وَخِفْتُ عَلَىٰ الإِسْلَاْم مَرَّةً ثَاْنِيَةً، وَقُلْتَ: لَعَلَّ هَـٰذِهِ آخِرُ سَاْعَةٍ مِنْ سَاْعَاْتِهِ، وَإِذَاْ بِيْ أَرَىٰ التَّتَرَ يَدْخُلُوْنَ فِي الإِسْلَاْمِ أَفْوَاْجاً، وَإِذَا بِفَاْتِحِ المُسْلِمِيْنَ يَعُوْدُ مَفْتُوْحاً لِلْإِسْلَاْمِ، فَعَرَفْتُ أَنَّ هَٰذَا الدِّيْنَ خَاْلِدٌ، وَأَنَّه يَقْهَرُ كُلَّ قَاْهِرٍ.

وَلَـٰكِنْ ضَعُفَ أَمْرُ المُسْلِمِيْنَ، وَسَاْدَ الجُمُوْدُ والخُمُوْدُ فِي أَنْحَاءِ العَاْلَمِ الإِسْلَاْمِيِّ، وَلَمْ أَرَ شَيْئاً يُقِرُّ العَيْنَ، وَيَشْرَحُ الصَّدْرَ، وَيَبْعَثُ الأَمَلَ فِي النَّفْسِ، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ فِي آسْيَا الصُّغْرَىٰ جَمْرَةً مِنْ حَيَاْةٍ، وَآيَةً مِنْ نَشَاْطٍ، فَقَدْ أَسَّسَ الغَاْزِي عُثْمَاْن خَاْن دَوْلَةً مُسْتَقِلَّةً، وَكَاْنَ لِهَـٰذِهِ الدَّوْلَةِ الفَتَاْةِ مُسْتَقْبَلٌ عَظِيْمٌ، وَقَدْ فَتَحَ شِبْلُهَا الغَاْزِيْ مُحَمَّد الثَّاْنِي القسْطَنْطِيْنِيَّةَ عَاْصِمَةَ الْعَاْلَمِ النَّصْرَاْنِيِّ سَنَةَ (٨٥٨هـ)، اتَّخَذَهَا قَاْعِدَةَ مُلْكِهِ، وَخَلِفَهُ مُلُوْكٌ عِظَاْمٌ تَوَغَّلُوا فِي أُوْرُبَّا، وَقَهَرُوا الأُمَمَ النَّصْرَاْنِيَّةَ.

هُنَاْلِكَ الْتَفَتُّ إِلَىٰ بِلَاْدِ «الأَنْدَلُسِ» مَرَّةً ثَاْنِيَةً، فَرَأَيْتُ قُرْطُبَةَ وَمَاْ جَاْوَرَهَاْ مِن البُلْدَاْنِ الإِسْلَاْمِيَّةِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ أَيْدِي المُسْلِمِيْنَ، وَإِذَا المَسَاْجِدُ قَدْ عَاْدَتْ كَنَاْئِسَ لِلنَّصَاْرَىٰ، يَرُنُّ فِيْهَا النَّاْقُوْسُ، وَإِذَا وُجُوْهٌ عَرَبِيَّةٌ، وَدِيْنٌ نَصْرَاْنِيٌّ، وَحَضَاْرَةٌ شِبْهُ عَرَبِيَّةٍ، وَحَيَاْةٌ جَاْهِلِيَّةٌ، فَاسْتَرْجَعْتُ، وَبَكَيْتُ.

وَسَرَحْتُ طَرْفِي فِي جَزِيْرَةِ الأَنْدَلُس، فَرَأَيْتُ غَرْنَاْطَةَ العَرَبِيَّةَ الإِسْلَاْمِيَّةَ كَأَنَّهَا جَزِيْرَةُ الإِسْلَاْمِ فِيْ بَحْرِ الكُفْرِ وَالظُّلُمَاْتِ، وَمَاْ لَبِثَتْ أَنْ غَمَرَهَا المَاْءُ أَيْضاً، وَاسْتَوْلَىٰ عَلَيْهَا الْمَلِكُ النَّصْرَانِيُّ «فِرْدِنَنْد» وَمَلِكَتِهَا «إِزَاْبِلَّا»، وَرَأَيْتُ أَبَاْ عَبْدِ اللهِ آخِرَ مُلُوْكِ بَنِي الأَحْمَرِ يُسَلِّمُهَاْ مَفَاْتِيْحَ مُلْكِهِ وَيُلْقِي عَلَىٰ غَرْنَاْطَةَ وَقَصْرِ الحَمْرَاءِ نَظْرَةَ الوَدَاْعِ، وَيَبْكِي، وَيَرْحَلُ إِلىٰ مرَّاْكِش.

وَمَاْ لَبِثْتُ أَنْ رَأَيْتُ البِلَاْدَ الأَنْدَلُسِيَّةَ الإِسْلَاْمِيَّةَ تُحَوَّلُ نَصْرَاْنِيَّةً، وَالأُمَّةَ العَرَبِيَّةَ تُجْبَرُ عَلَىٰ الارْتِدَاْدِ، رَأَيْتُ مَسَاْجِدَ تُهْدَمُ، أَوْ تُحَوَّلُ كَنَاْئِسَ، وَمَدَاْرِسَ تُعَطَّلُ، وَمَكَاْتِبَ تُحْرَقُ، وَقُبُوْراً تُنْسَفُ، وَأَجْسَاْداً تُنْبَشُ، وَأَحْيَاءً يُحْرَقُوْنَ، وَيُشْنَقُوْنَ، وَمَاْ لَبِثَت البِلَاْدُ الَّتِيْ حَكَمَ فِيْهَا الإِسْلَاْمُ ثَمَاْنِيَةَ قُرُوْنٍ أَنْ أَصْبَحَتْ نَصْرَاْنِيَّةً لَيْسَ فِيْهَا أَحَدٌ يَلْفِظُ بِكَلِمَةِ الإِسْلَاْمِ، وَيُؤْمِنُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ.

رَاْعَنِيْ هَٰذَاْ الْمَنْظَرُ، وَفَزِعْتُ مِنْهُ، فَإِذَاْ أَنَاْ عَلَىٰ فِرَاْشِي، وَقُلْتُ: لَعَلَّ اللهَ أَرَاْدَ بِي خَيْراً، فَقَدْ أَرَاْنِي أَطْوَاْرَ الْعَاْلَمِ الإِسْلَاْمِيِّ، وَأَلْوَاْنَ المُسْلِمِيْنَ، وَأَرَاْنِي عَهْدَ الخِلَاْفَةِ الرَّاْشِدَةِ، ثُمَّ أَرَاْنِي انْحِطَاْطَ المُسْلِمِيْنَ، وَأَرَاْنِي كَيْفَ يُسْلِمُ الْكَاْفِرُ، وَيَخْضَعُ القَاْهِرُ، وَكَيْفَ يَرْتَدُّ المُسْلِمُ، وَتَتَنَصَّرُ البِلَاْدُ الإِسْلَاْمِيَّةُ بِغَفْلَةِ الْمُسْلِمِيْن، وَسُوْءِ سِيْرَتِهِمْ.

وَقُمْتُ وَقَدْ آلَيْتُ عَلَىٰ نَفْسِي أَنْ أَكُوْنَ جُنْدِيّاً لِلْإِسْلَاْمِ، مُرَاْبِطاً عَلَىٰ ثُغُوْرِهِ، وَأَلَّا تَعُوْدَ حَاْدِثَةُ الأَنْدَلُسِ فِي العَاْلَمِ الإِسْلَاْمِيِّ.





رثاء الأندلس

لِكُلِّ شِيْءٍ إِذَاْ مَاْ تَمَّ نُقْصَاْنُ   فَلَاْ يُغَرَّ بِطِيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَاْنُ
هِيَ الْأُمُوْرُ كَمَاْ شَاْهَدْتَهَاْ دُوَلٌ   مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاْءَتْهُ أَزْمَاْنُ
وَهَٰذِهِ الدَّاْرُ لَاْ تُبْقِيْ عَلَىٰ أَحَدٍ   وَلَاْ يَدُوْمُ عَلَىٰ حَاْلٍ لَهَاْ شَاْنُ
فَجَائِعُ الدَّهْرِ أَنْوَاْعٌ مُنَوَّعَةٌ   وَلِلزَّمَاْنِ مَسَرَّاْتٌ وَأَحْزَاْنُ
وَلِلْحَوَاْدِثِ سِلْوَاْنٌ يُسَهِّلُهَاْ   وَمَاْ لِمَاْ حَلَّ بِالْإِسْلَاْمِ سِلْوَاْنُ
دَهَىٰ الْجَزِيْرَةَ أَمْرٌ لَاْ عَزَاْءَ لَهَا   أَهْوَىٰ لَهُ أُحُدٌ وَانْهَدَّ ثَهْلَاْنُ
أَصَاْبَهَاْ الْعَيْنُ فِي الإِسْلَاْمِ فَارْتَزَأَتْ   حَتَّىٰ خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَاْرٌ وَبُلْدَاْنُ
فَاسْأَلْ بَلَنْسِيَةً مَاْ شَأْنُ مُرْسِيَةٍ؟   وَأَيْنَ شَاْطِبَةٌ؟ أَمْ أَيْنَ جَيَّاْنُ
وَأَيْنَ قُرْطُبَةٌ دَاْرُ الْعُلُوْمِ؟ فَكَمْ   مِنْ عَاْلِمٍ قَدْ نَمَاْ فِيْهَاْ لَهُ شَأْنُ
وَأَيْنَ حِمْصُ وَمَاْ تَحْوِيْهِ مِنْ نُزَهٍ؟   وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَّاْضٌ وَمَلْآنُ
تَبْكِي الْحَنِيْفِيَّةُ الْبَيْضَاْءُ مِنْ أَسَفٍ   كَمَاْ بَكَىٰ لِفرَاْقِ الإِلْفِ هَيْمَاْنُ
عَلَىٰ دِيَاْرٍ مِنَ الإِسْلَاْمِ خَاْلِيَةٍ   قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَاْ بِالْكُفْرِ عُمْرَاْنُ



حَيْثُ الْمَسَاْجِدُ قَدْ صَاْرَتْ كَنَائِسَ مَاْ فِيْهِنّ إِلَّا نَوَاْقِيْسٌ وَصُلْبَاْنُ
حَتَّىٰ الْمَحَاْرِيْبُ تَبْكِيْ وَهِيَ جَاْمِدَةٌ حَتَّىٰ الْمَنَاْبِرُ تَرْثِيْ وَهِيَ عِيْدَاْنُ
مَاْشِياً مَرِحاً يُلْهِيْهِ مَوْطِنُهُ أَبَعْدَ حِمْصَ تَغُرُّ الْمَرْءَ أَوْطَاْنُ!؟
تِلْكَ الْمُصِيْبَةُ أَنْسَتْ مَاْ تَقَدَّمَهَاْ وَمَاْ لَهَاْ مَعَ طُوْلِ الدَّهْرِ نِسْيَاْنُ
أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ أَنْدَلُسٍ فَقَدْ سَرَىٰ بِحَدِيْثِ الْقَوْمِ رُكْبَاْنُ
كَمْ يَسْتَغِيْثُ بِنَا الْمُسْتَضْعَفُوْنَ وَهُمْ قَتْلَىٰ وَأَسْرَىٰ فَمَاْ يَهْتَزُّ إِنْسَاْنُ
مَاْذَاْ التَّقَاْطُعُ فِي الإِسْلَاْمِ بَيْنَكُمُ وَأَنْتُمُ يَاْ عِبَاْدَ اللهِ إِخْوَاْنُ
أَلَاْ نُفُوْسٌ أَبِيَّاْتٌ لَهَا هِمَمٌ أَمَاْ عَلَىٰ الْخَيْرِ أَنْصَاْرٌ وَأَعْوَاْنُ
يَاْ مَنْ لِذِلَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمُ أَحَاْلَ حَوْلَهُمُ جَوْرٌ وَطُغْيَاْنُ
بِالْأَمْسِ كَاْنُوْا مُلُوْكاً فِي مَنَاْزِلِهِمْ وَالْيَوْمَ هُمْ فِيْ بِلَاْدِ الْكُفْرِ عُبْدَاْنُ
فَلَوْ تَرَاْهُمْ حَيَاْرَىٰ لَاْ دَلِيْلَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ فِيْ ثِيَاْبِ الذُّلِّ أَلْوَاْنُ
وَلَوْ رَأَيْتَ بُكَاْهُمْ عِنْدَ بَيْعَتِهِمْ لَهَاْلَكَ الأَمْرُ وَاسْتَهْوَتْكَ أَحْزَاْنُ
يَاْ رَبِّ أُمٍّ وَطِفْلٌ حِيْلَ بَيْنَهُمَاْ كَمَا تَفَرَّقَ أَرْوَاْحٌ وَأَبْدَاْنُ
وَطِفْلَةٌ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ كَأَنَّمَا هِيَ يَاْقُوْتٌ وَمَرْجَاْنُ
يَقُوْدُهَا الْعِلْجُ لِلْمَكْرُوْهِ مُكْرَهَةً وَالْعَيْنُ بَاْكِيَةٌ وَالْقَلْبُ حَيْرَاْنُ
لِمِثْلِ هَٰذَاْ يَذُوْبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إِنْ كَاْنَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَاْمٌ وَإِيْمَاْنُ

(صالح بن شريف الرندي)

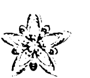


ندوة العلماء

صَارَتْ قِيَادَةُ الْمُسْلِمِيْنَ فِي القُرُوْنِ الْمُتَأَخِّرَةِ إِلَىٰ أُنَاسٍ لَمْ يَكُوْنُوْا جَامِعِيْنَ بَيْنَ الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا، فَحَدَثَ فِي الإِسْلَاْمِ بِدْعَةُ فَصْلِ الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا، فَاسْتَبَدَّ الْمُلُوْكُ بِدُنْيَاهُمْ وَانْقَطَعَ العُلَمَاْءُ بِدِيْنِهِمْ، وَبَقِيَ الْعَاْمَّةُ لَاْ قَاْئِدَ لَهُمْ وَلَاْ رَاْئِدَ، وَصَاْرَ الإِسْلَاْمُ كَالنَّصْرَاْنِيَّةِ، عَرْشٌ وَكَنِيْسَةٌ، وَلِكُلٍّ رِجَاْلٌ، وَقَيْصَرٌ وَالإِلَـٰهُ، وَلِكُلٍّ نَصِيْبٌ، وَلَـٰكِن عَرْشٌ بِدُوْنِ قَوَاْئِم، وَكَنِيْسَةٌ بِغَيْرِ حُرَّاْسٍ.

وَلَمَّا طَاْلَ بُعْدُ العُلَمَاْءِ عَنْ الحَيَاةِ صَاْرُوْا أَجَاْنِبَ عَنِ الْحَيَاْةِ وعَنَ الدِّيْنِ وَعَن السِّيَاْسَةِ، حَتَّىٰ إِذَا تَدَخَّلُوْا فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤُوْنِهَا كَاْنَ ذٰلِكَ حُجَّةً لِأَهْلِ الدُّنْيَا عَلَىٰ أَهْلِ الدِّيْنِ؛ لِعَدَمِ خِبْرَةِ العُلَمَاْءِ، وَقِلَّةِ مَهَاْرَتِهِمْ فِي شُؤُوْنِ الحَيَاْةِ وَعُلُوْمِ العَصْرِ.

وَتَشَاْغَلَ العُلَمَاْءُ بِعُلُوْمٍ لَيْسَ لَهَاْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَاْ فِي الآخِرَةِ، وبِمَسَاْئِلَ لَاْ تُجْدِيْ نَفْعاً، تَشَاْغَلُوا فِي الزَّمَنِ الأَخِيْرِ بِالجَدَلِ وَالشِّقَاْقِ وَالتَّكْفِيْرِ وَالتَّضْلِيْلِ، وَصَاْرُوا يُجَاْهِدُوْنَ فِي



غَيْرِ جِهَادٍ، وَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُوْنَ صُنْعاً، فَكَمْ سَالَتْ دِمَاءٌ، وَكَمْ جَرَتْ مُحَاكَمَاتٌ لِأَجْلِ مَسَائِلَ فِقْهِيَّةٍ فِي مَحَاكِمِ الكُفَّارِ، وَكَمْ وَقَعَ مِنْ إِهَانَاتٍ ذَلَّتْ لَهَا رَقَبَةُ المُسْلِمِيْنَ فِي الهِنْدِ.

اِسْتَوْلَتْ أُوْرُوبَّا عَلَىٰ الأَرْضِ، وَكَانَتْ كَمَا وَصَفَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، فَهَجَمَتْ عَلَىٰ الإِسْلَامِ مِنْ طَرِيْقِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ وَالْفَلْسَفَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّارِيْخِ وَالأَدَبِ، وَمِنْ طَرِيْقِ السِّيَاسَةِ، وَبِاسْمِ الحَضَارَةِ وَالثَّقَافَةِ، وَعَجزَتِ الآلَاتُ الَّتِي حَارَبَ بِهَا أَسْلَافُنَا عُلُوْمَ اليُوْنَانَ عَن مُقَاوَمَةِ العُلُوْمِ الغَرْبِيَّةِ، فَاقْتَضَىٰ الحَالُ أَنْ يُجَدِّدَ عُلَمَاءُ الإِسْلَامِ آلَاتِ الدِّفَاعِ عَن الإِسْلَامِ، وَيُحْدِثُوْنَ آلَاتٍ أُخْرَىٰ لِلْهُجُوْمِ عَلَىٰ الْعَدُوِّ.

هَـٰذَا وَالمُسْلِمُوْنَ فِي الهِنْدِ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ؛ طَائِفَةٌ قَدْ آمَنَتْ بِالعُلُوْمِ الْغَرْبِيَّةِ بِالْغَيْبِ وَآمَنَتْ بِعِصْمَةِ الغَرْبِيِّيْنَ فِي عُلُوْمِهِم وَبِسِيَادَتِهِم وَإِمَامَتِهِمْ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ، وَدَعَتْ إِلَىٰ قَبُوْلِ نِظَامِهِمْ فِي التَّعْلِيْمِ عَلَىٰ عِلَّاتِهِ، وَطَائِفَةٌ قَدْ آمَنَتْ بِعِصْمَةِ العُلَمَاءِ المُتَأَخِّرِيْنَ فِي مِنْهَاجِ دُرُوْسِهِمْ وَتَرْتِيْبِهِم لِلْكُتُبِ، لَا يَرَوْنَ عَنْهُ بَدَلاً، وَلَا يَجِدُوْنَ عَنْهُ مَحِيْصاً، وَيَرَوْنَ الْعَدْلَ عَنْهُ فِي شَيْءٍ ضَرْباً مِنَ التَّحْرِيْفِ وَنَوْعاً مِنَ البِدَعِ، فَكَادَ الدِّيْنُ وَكَادَ العِلْمُ يَضِيْعُ بَيْنَ جَاحِدٍ وَجَامِدٍ.

أَدْرَكَ هَـٰذَا الْخَطَرَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدِّيْنِ الْمَتِيْنِ وَالْعِلْمِ

الرَّاْسِخِ وَالنَّظَرِ الثَّاقِبِ، فِيْ مُقَدِّمَتِهِم الْعَاْلِمُ الْكَبِيْرُ وَالشَّيْخُ الصَّاْلِحُ مَوْلَاْنَا السَّيِّدُ مُحَمَّد عَلِي الْمُوْنكِيْرِي رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَكَثِيْرٌ مِنْ أَصْحَاْبِ الشَّيْخِ الكَبِيْرِ مَوْلَاْنَا فَضل الرَّحْمَـٰنِ الكَنْج مُرَاْدآبَاْدِي قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ، وَتَلَاْمِيْذُ الأُسْتَاْذِ الْكَبِيْرِ مَوْلَاْنَا لطْفِ اللهِ الْعَلِيْغرهِي، يَنْتَهِي نَسَبُهُمْ الْعَلِيُّ إِلَىٰ بَيْتِ الشَّيْخِ وَلِيِّ اللهِ الدَّهْلَوِي، وَاجْتَمَعُوا وَشَاْوَرُوْا فِي الأَمْرِ، وَكَاْنُوا قَدِ اجْتَمَعُوْا فِي حَفْلَةِ مَدْرَسَةِ «فيْض عَاْم» فِي كَاْنفُوْر الَّتِيْ أَسَّسَهَا الْمُفْتِي عِنَاْيَتْ أَحْمَد (م١٢٧٩هـ) أُسْتَاْذُ الشَّيْخِ لطْف اللهِ.

اجْتَمَعُوا فِي هَـٰذِهِ الْحَفْلَةِ سنة (١٣١٠هـ) وَبَحَثُوْا فِي مَسَاْئِلِ التَّعْلِيْم الدِّيْنِيِّ وَمُسْتَقْبَلِ المَدَاْرِسِ الْعَرَبِيّةِ وَشُؤُوْنِ الْمُسْلِمِيْنَ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالخُلُقِيَّةِ، وَصَحَتْ عَزِيْمَتُهُمْ عَلَىٰ تَأْسِيْسِ جَمْعِيَّةٍ دِيْنِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ تُعْنَىٰ بِمَسْأَلَةِ التَّعْلِيْم الدِّيْنِيِّ، وَإِصْلَاْحِ الْمُسْلِمِيْنَ الاجْتِمَاْعِي الخُلُقِي، وَالْجَمْعِ بيْنَ طَبقَاْتِ الْمُسْلِمِيْنَ عَاْمَّةً وَطَبقَاْتِ العُلَمَاْءِ وَأَحْزَاْبِهِمْ خَاْصَّة.

أَسَّسَ هَـٰؤُلَاْءِ العُلَمَاْءُ ـ وَهُمْ نُخْبَةُ عُلَمَاْءِ الهِنْدِ ـ جَمْعِيَّةً بِاسْمِ «نَدْوَةِ العُلَمَاْءِ» وَعَقَدُوْا حَفْلَتَهَا الأُوْلَىٰ فِيْ كَاْنفُوْر سنة (١٣١١هـ) تَحْتَ رِئَاْسَةِ الأُسْتَاْذِ الأَكْبَرِ الشَّيْخ لطْفِ اللهِ العَلِيْغرهي، وَأَرْسَلُوْا دَعْوَتَهُمْ إِلَىٰ جَمْع كَلِمَةِ العُلَمَاْءِ وَرَفْع الشِّقَاْقِ وَالنِّزَاْعِ مِنْ بيْنِهِمْ، وَإِصْلَاْحِ الْمَدَاْرِسِ القَدِيْمَةِ، وَالتَّغْيِيْرِ اللَّاْئِقِ فِيْ مِنْهَاْجِ المَدَاْرِسِ.

اجْتَهَدَ أَعْضَاءُ النَّدْوَةِ فِي ذٰلِكَ وَاجْتَمَعُوْا وَتَشَاوَرُوْا وَكَاتَبُوْا وَأَرْسَلُوْا وَخَطَبُوْا وَكَتَبُوْا فِي هٰذَا الْمَوْضُوْعِ، وَلٰكِنْ عَلِمُوْا بَعْدَ الاخْتِبَارِ أَنَّ ذٰلِكَ لاَ يَتِمُّ إِلَّا إِذَا أَسَّسُوْا مَدْرَسَةً خَاصَّةً تَكُوْنُ مَثَلاً عَمَلِيّاً لِلْمَدَارِسِ الأُخْرَىٰ.

فَأَسَّسُوْا فِي «لكهنؤ» عَاصِمَةِ الوِلَاْيَةِ الشَّمَالِيَّةِ فِي الهِنْدِ ـ عَلَىٰ دَعْوَةِ السري المُخْلِصِ الشَّيْخ أَطْهَر عَلي الكَاكُوْروي (م١٣٢٦هـ) دَفِيْنُ الْبَقِيْعِ ـ مَدْرَسةً دَيْنِيَّةً عَرَبِيَّةً، هِيَ دَارُ الْعُلُوْم التَّابِعَةُ لِنَدْوَةِ العُلَمَاءِ، وَكَانَ ذٰلِكَ سنة (١٣١٢هـ)، تَوَلَّىٰ إِدَارَتَهَا وَالإِشْرَافَ عَلَىٰ شُؤُوْنِ مَدْرَسَتِهَا رِجَالٌ يَمْتَازُوْنَ بِمَتَانَةٍ فِي الدِّيْنِ مَعَ تَسَامُحٍ فِي الخِلَافِيَّاتِ وَالفُرُوْعِ، وَرُسُوْخٍ فِي عُلُوْم الدِّيْنِ مَعَ اطِّلَاعٍ وَاسِعٍ عَلَىٰ شُؤُوْنِ الْعَصْرِ، وَمُحَافَظَةٍ عَلَىٰ الشَّرْعِ وَالتَّقْوَىٰ مَعَ حُبِّ الْجَمْعِ بَيْنَ طَبقَاتِ الأُمَّةِ، وَهُمْ مِنْ بُيُوْتَاتِ عِلْمٍ وَدِيْنٍ، فَكَانَ مَوْلَانَا السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ عَلِيُّ الْمونْغِيْري (م١٣٤٦هـ) ـ خَلِيْفَةُ الشَّيْخِ الْكَبِيْرِ مَوْلَانَا فَضْلُ الرَّحْمٰنِ الكَنْج مُرَادآبَادِي ـ أَوَّلَ مُدِيْرٍ لِنَدْوَة العُلَمَاءِ، وَخَلَفَهُ مَوْلَانَا مَسِيْحُ الزَّمَانِ الشاه جهانفوري (م١٣٣١هـ)، أُسْتَاذُ سُمُوِّ نِظَام حَيْدَر آباد السَّابِق، وَخَلَفَهُ مَوْلَانَا خَلِيْلُ الرَّحْمٰنِ السهارنفوري (م١٣٥٥هـ)، ابنُ المُحَدِّثِ الكَبِيْرِ مَوْلَانَا أَحْمَدَ عَلِي السهارنفوري صَاحِبُ حَاشِيَةِ البُخَارِيِّ، وَخَلَفَهُ مَوْلَانَا السَّيِّدُ



عَبْدُ الْحَيِّ الْحَسنِي (م١٣٤٢هـ) صَاحِبُ «نُزْهَةِ الخَوَاطِر» وَالمُؤَلَّفَاتِ العَرَبِيَّةِ الْجَلِيْلَةِ مِنْ بَيْتِ السَّيِّدِ الإِمَام أَحْمَدَ بْنِ عَرْفَان الشَّهِيْد، وَخَلَفَهُ مَوْلاْنَا السَّيِّدُ عَلِي حَسَن خَاْن (م١٣٥٥هـ) نَجْلُ الأَمِيْرِ المُؤَلِّفِ الكَبِيْرِ السَّيِّد صدِّيْق حَسَن خَاْن مَلِكِ بهوفال، وَخَلَفَهُ الأُسْتَاْذُ الدُّكْتُوْر السَّيِّد عَبْد العَلِي الحسَني نَجْل مَوْلاْنَا السَّيِّد عَبْد الحَي مُدِيْر نَدْوَةِ العُلَمَاْءِ الأَسْبَقِ.

وَكَاْنَ الإِشْرَاْفُ عَلَىٰ شُؤُوْنِهَا التَّعْلِيْمِيَّةِ إِلَىٰ الأُسْتَاْذِ الْكَبِيْرِ وَالْمُؤَرِّخ الشَّهِيْرِ الشَّيْخ شبْلِي النُّعْمَاْنِي (م١٣٣٢هـ)، ثُمَّ إِلَىٰ تِلْمِيْذِهِ النَّاْبغ الأُسْتَاْذ السَّيِّد سُلَيْمَاْن النَّدَوِي.

تَمَتَّعَتِ النَّدْوَةُ بِحِمَايَةِ كِبَاْرِ الصَّاْلِحِيْنَ، وَرِجَاْلِ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمِهَا، كَمَوْلاْنَا ظهُوْرِ الإِسْلاْمِ الفَتح فورِي، وَمَوْلاْنَاْ نُوْر مُحَمَّدِ الفُنْجَاْبِي، وَمَوْلاْنَا تجمل حُسَيْن البهَاْرِي مِنْ كِبْارِ أَصْحَاْبِ الشَّيْخِ سُلَيْمَاْن الفلواروي، وَالسريِّ الفَاْضِلِ مَوْلاْنَا حَبِيْبِ الرَّحْمَـٰنِ الشرْوَاْنِي رَئِيْس الشُّؤُوْنِ الدِّيْنِيّةِ فِي إِمَاْرَةِ حَيْدَر آبَاْد سَاْبِقاً، مِنْ أَقْدَمِ أَعْضَاْءِ النَّدْوَةِ، وَمِنْ كِبَاْر حَمَلَتِهَاْ، وَالشَّيْخِ رَحِيْم بخش وَصِيِّ إِمَاْرَةِ «بهاول فور» سَاْبِقاً، وَالعَلَّامَةِ عَبْدِ الحَقِّ الحقاني صَاْحِب التَّفْسِيْرِ المَشْهُوْرِ، والشَّيْخ سُلَيْمَان المَنْصُوْر فوري، وَالمنشئ احتشام عَلِي الكاكوروي وَغَيْرِهِمْ.

وَتَوَلَّىٰ التَّدْرِيْسَ فِي دَاْرِ العُلُوْمِ عُلَمَاْءُ كِبَاْرٌ مِنْ مَشَاْهِيْرِ

عُلَمَاْءِ الهِنْدِ وَخَاْرِجِهَا، كَالشَّيْخِ مُحَمَّد فَاْرُوْق الجرياكوتي، وَالشَّيْخ عَبْدِ اللهِ التونكي، والشَّيْخِ مُحَمَّد طَيِّب المكّي، وَالشَّيْخ شير عَلِي الحَيْدَرْآبَاْدِي، والشَّيْخ مُحَمَّد بن الحُسَيْن اليَمَاْنِي، وَالشَّيْخِ أَمِير عَلِي اللكهنوي، والشَّيْخِ حَفِيْظ الله البندُوْلي، وَالشَّيْخ شبلي الأَعْظمي، والشَّيْخِ حَيْدَر حُسَيْن خَاْن التونكي، وَالشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّيْنِ الهِلَاْلِيْ المَرَّاْكِشِي.

تَأَسَّسَتْ نَدْوَة العُلَمَاْءِ عَلَىٰ مَبْدَأ التَّغْيِيْرِ وَالإِصْلَاْحِ فِي نِظَاْمِ التَّعْلِيْم الدِّيْنِيِّ، وَفِي مِنْهَاْجِ الدَّرْسِ العَرَبِي، فَحَذَفَتْ وَزَاْدَتْ وَغَيَّرَتْ وَأَصْلَحَتْ فِي مِنْهَاْجِ التَّعْلِيْم.

حَذَفَتِ المِقْدَاْرَ الزَّاْئِدَ مِنْ كُتُبِ المَنْطِقِ وَالْفَلْسَفَةِ اليُوْنَاْنِيَّةِ الَّتِي ضَعُفَتِ الحَاْجَةُ إِلَيْهَا فِي هَٰذَا العَصْرِ، وَأَعْطَت القُرْآنَ حَقَّهُ مِنَ الْعِنَاْيَةِ فَقَرَّرَتْ دَرْسَ مَتْنِهِ الشَّرِيْفِ حَرْفاً حَرْفاً، لُغَةً وَنَحْواً وَأَدَباً وَاجْتِمَاْعاً وَفِقْهاً وَكَلَاْماً، هَـٰذَا مَاْ عَدَا التَّفَاْسِيْر المُقَرَّرَةِ فِي الصُّفُوْفِ العَاْلِيَةِ، وَأَلْزَمَتْ تَدْرِيْسَ القُرْآنِ وَالْحَدِيْثِ بِالتَّدْرِيْجِ فِي سِنِيِّهَا التَّعْلِيْمِيَّةِ.

زَاْدَتْ مِقْدَاْرَ دِرَاْسَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَآدَاْبِهَا؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّة وَالأَدَبَ الْعَرَبِيَّ مِفْتَاحُ كُنُوْزِ الكِتَاْبِ وَالسُّنَّةِ، وَالرَّاْبِطَةُ الأَدَبِيَّةُ فِي الشُّعُوْبِ الإِسْلَاْمِيَّةِ، وَوَجَّهتْ عِنَاْيَتَهَا إِلَىٰ تَعْلِيْم اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ كَلُغَةٍ مِنْ لُغَاْتِ الْبَشَرِ وَكَلُغَةٍ حَيَّةٍ يُكْتَبُ بِهَا وَيُخْطَبُ، لَاْ كَلُغَةٍ

أَثَرِيَّةٍ عَتِيْقَةٍ مَيِّتَةٍ، وَأَلَّفَتْ لِذٰلِكَ كتُباً تَسَاْعِدُ عَلىٰ ذٰلِكَ، وَقَدْ أَقَرَّ النَّاْسُ بِفَضْلِ النَّدْوَةِ فِي هٰذِهِ النَّاْحِيَةِ.

قَرَّرَتْ تَدْرِيْسَ اللُّغَةِ وَبَعْضِ الْعُلُوْمِ الْعَصْرِيَّةِ كَاْلجُغْرَاْفِيَةِ وَالتَّاْرِيْخِ وَالعُلُوْمِ الرِّيَاْضِيَّةِ وَالسِّيَاْسَةِ وَعِلْمِ الاقْتِصَاْدِ؛ لِيَطَّلِعَ العُلَمَاْءُ عَلَىٰ مُقْتَضَيَاْتِ العَصْرِ، وَيَتَسَلَّحُوْا بِالْأَسْلِحَةِ الجَدِيْدَةِ لِلدِّفَاْعِ عَنْ الدِّيْنِ.

أَنْسَتْ مَاْ كَاْنَ بَيْنَ أَهْلِ المَذَاْهِبِ وَالطَّوَاْئِفِ الْفِقْهِيَّةِ كَاْلحَنَفِيَّةِ وَالشَّاْفِعِيَّةِ وَأَهْلِ الْحَدِيْثِ مِنَ المُشَاْجَرَاْتِ وَدَوَاْعِي العَصَبِيَّةِ، وَنَجَحَتْ فِي ذٰلِكَ نَجَاْحاً تَاْمّاً، فَلَاْ تَشُمُّ فِيْ دَاْرِهَاْ رَاْئِحَةَ الْخِلَاْفِ وَالْحِقْدِ المَذْهَبِيِّ، وَتَرَىٰ الطَّلَبَةَ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ إِخْوَاْناً مُتَقَاْبِلِيْنَ فِي قَاْعَةِ دَرْسِهِمْ وَدَاْرِ إِقَاْمَتِهِمْ جَنْباً بِجَنْبٍ.

مَبْدَأَ النَّدْوَةِ وَشِعَاْرُهَاْ أَنْ تُخَرِّجَ مِنْ مَدْرَسَتِهَاْ رِجَاْلاً مُبَشِّرِيْنَ بِالدِّيْنِ القَدِيْمِ لِأَهْلِ الْعَصْرِ الْجَدِيْدِ، شَاْرِحِيْنَ الشَّرِيْعَةَ الإِسْلَاْمِيَّةَ بِلُغَةٍ يَفْهَمُهَا أَهْلُ الْعَصْرِ وَبِأُسْلُوْبٍ يَسْتَهْوِي القُلُوْبَ أُمَّةً وَسَطاً بَيْنَ الْجَاْمِدِيْنَ وَالْجَاْحِدِيْنَ.

وَقَدْ أَنْجَبَتْ فِيْ مُدَّةٍ قَلِيْلَةٍ رِجَاْلاً هُمْ خَيْرُ مَثَلٍ لِلْعَاْلَمِ الْمُسْلِمِ الْعَصْرِيِّ، الَّذِيْنَ قَدْ قَاْمَتْ بِهِم حُجَّةُ العُلُوْمِ الإِسْلَاْمِيَّةِ عَلَىٰ أَهْلِ الْعَصْرِ الْجَدِيْدِ، وَرَفَعُوْا رَأْسَ عُلَمَاْءِ الدِّيْنِ عَاْلِياً بَيْنَ طَبَقَاْتِ الْمُتَعَلِّمِيْنَ، وَلَهُمْ آثَاْرٌ جَمِيْلَةٌ خَاْلِدَةٌ فِي الأَدَبِ

الإِسْلاْمِي وَعِلْمِ التَّوْحِيْدِ لِأَهْلِ الْعَصْرِ الْجَدِيْدِ، وَالسِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالتَّاْرِيْخِ كَكِتَاْبِ «سِيْرَةِ النَّبِيِّ» فِي سِتَّةِ مُجَلَّدَاْتٍ كِبَاْرٍ، وَهِيَ مَوْسُوعَةٌ إِسْلاْمِيَّةٌ، وَأَكْبَرُ كِتَاْبٍ أُلِّفَ فِي السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَمُهِمَّاْتِ الدِّيْنِ فِي هَـٰذَا الْعَصْرِ لِلشَّيْخِ سُلَيْمَاْن النَّدْوِي، وَكُتُبٌ فِي تَرَاْجِمِ الصَّحَاْبَةِ وَسِيَرِهِمْ لِلْمُتَخَرِّجِيْنَ مِنْ دَاْرِ الْعُلُوْمِ، وَرِسَاْلَةٌ قَيِّمَةٌ فِيْ الدِّيْنِ والْعُلُوْمِ الْعَقْلِيَّةِ لِلْأُسْتَاْذِ عَبْدِ الْبَاْرِي النَّدْوِيْ، إِلَىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ الْكُتُبِ وَالرَّسَاْئِلِ.

وَقَدْ أَنْشَأَ الْمُتَخَرِّجُوْنَ مِنْ النَّدْوَةِ جَمْعِيَّةَ دَاْرِ الْمُنْصِفِيْنَ فِي «أَعْظَم جرأَة»، وهِيَ مِنَ الْمُؤَسَّسَاْتِ الْعِلْمِيَّةِ الكَبِيْرَةِ فِي الهِنْدِ، تُصْدِرُ مَجَلَّةً عِلْمِيَّةً رَاْقِيَةً شَهْرِيَّةً بِاسْم «مَعَاْرِفْ».

وَلِدَاْرِ الْعُلُوْمِ بِنَاْيَةٌ عَظِيْمَةٌ عَلَىٰ شَاْطِئِ نَهْر «كومتي» فِي مَدِيْنَةِ «كلهنؤ»، وَمَكْتَبَةٌ كَبِيْرَةٌ تَحْتَوِيْ عَلَىٰ (٥٠) أَلْف كِتَاْبٍ، أَكثَرُهَا غَيْرُ مكَرَّر، وَ(١٨٠٠) مِن الكُتُبِ الْخَطِّيَّةِ النَّاْدِرَةِ، وَدَاْرٌ لإِقَاْمَةِ الطَّلَبَةِ، وَمَسْجِدٌ جَمِيْلٌ.





على لسان الندوة

عَفَىٰ دِيَاْرَ عُلُوْمِ الدِّيْنِ قَاْطِبَةً نَسْجُ الدّبُوْرِ وَأَرْيَاْحٌ جَرَتْ نِقَمَاْ
يَاْلِلْمَدَاْرِسِ أَضْحَتْ وَهِيَ دَاْرِسَةٌ يَاْ لِلْمَكَاْتِبِ تَبْكِي العِلْمَ وَالْعُلَمَاْ
أَمَاْ سَمِعْتُمْ بُكَاْهَاْ وَهِيَ صَاْرِخَةٌ صُرَاْخَ ثَكْلَىٰ عَلَىٰ مُوْلُوْدِهَاْ اخْتَرَمَاْ
وَاْرَحْمَتَاْهُ لِأَرْضِ الدِّيْنِ يَنْقُصُهَاْ رَيْبُ الْمَنُوْنِ مُمِدّاً سَيْلَهَا الْعَرِمَاْ
وَاْرَحْمَتَاْهُ لِدِيْنِ قَلَّ عُصْبَتُهُ مِنْ كُلِّ حَاْمٍ حَمَاْهُ رَاْسِخٌ قَدَمَاْ
وَاْرَحْمَتَاْهُ لِدِيْنِ قَلَّ نَاْدِبُهُ وَلِلرِّجَاْلِ وَوَاْسَيْفَاْهُ وَاْ قَلَمَاْ
يَاْ لِلْبَقِيَّةِ صُوْنُوا الدِّيْنَ تَنْتَصِرُوْا يَصُوْنُكُمْ وَيَرُدُّ الْمَجْدَ وَالْحَشَمَاْ
إِنِّيْ مُحَذِّرُكُمْ مِنْ وَقْعِ وَاْقِعَةٍ يُمْسِي الْوَلِيْدُ لَدَيْهَاْ هَيْبَةً هَرِمَاْ
أَلَاْ خُذُوْا حِذْرَكُمْ فِيْ كُلِّ آوِنَةٍ فَمَا اتَّقَىٰ النَّاْرَ إِلَّا كَيِّسٌ حَزِمَاْ
وَوَثِّقُوْا عُرْوَةَ الإِسْلَاْمِ أَوْهَنَهَاْ تَفَرُّقٌ فِيْكُمُ قَدْ حَلَّ مُخْتَرِمَاْ
هٰذِي اخْتِلَاْفَاْتُكُمْ كَمْ شَخَّصَتْ بِكُمُ وَسَفَّهَتْ عَرَبَ الإِسْلَاْمِ وَالْعَجَمَاْ
أَلَيْسَ أَكْمَلَ هٰذَاْ الدِّيْنَ رَبُّكُمُ أَمَاْ أَتَمَّ عَلَيْكُمْ فَضْلَهُ النِّعَمَاْ

يَاْ لَيْتَ شِعْرِيْ فَفِيْمَا ذَاْ اخْتِصَاْمُكُمُ وَمَاْ الَّذِيْ بَعْدَهُ تَرْضَوْنَهُ حَكَمَاْ
كَمْ ذِي الفَتَاْوَىٰ وَكَمْ تكْفِيْرِ إِخْوَتِكُمْ كَمْ ذَا التَّشَاْتُمُ وَاْذُلَّاْهُ وَاْنَدمَاْ
هٰذَا الَّذِيْ فَتَّرَ الإِسْلَاْمَ نَهْضَتَهُ هٰذَاْ الَّذِيْ قَصَّرَ الأَعْزَاْمَ وَالْهِمَمَاْ
اللهَ اللهَ كُوْنُوْا أَصْدِقَاْءَ كَمَاْ كَاْنَتْ مُعَاْشَرَةُ الأَسْلَاْفِ وَالْقُدَمَاْ
اللهَ اللهَ إِنْ كُنْتُمْ لَهُمْ خَلَفاً فَتَاْبِعُوْهُمْ مَعَ الإِحْسَاْنِ لَاْ جَرَمَاْ
وَثَقِّفُوْا أَوَدَ الأَحْدَاْثِ تَرْبِيَةً وَعَلِّمُوْهُمْ عُلُوْمَ الدِّيْنِ وَالْحِكَمَاْ
ضَيَّعْتُمُوْهُمْ إِذَا الأَقْوَاْمُ غَيْرُكُمُ حَاْزُوْا الفُنُوْنَ وَفَاْقُوْا فِي النُّهى أُمَمَا
غَداً سَيُسْأَلُ كُلٌّ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَمَاْ جَوَاْبُكُمُ يَاْ مَعْشَرَ الْعُلَمَا؟!

(أحمد بن عبد القادر الكوكني م ١٣٢٠هـ).





نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٣٥ ـ ٥٢)

الأسئلة:

١ ـ كم ساعة أمكثُ في المدرسة؟

٢ ـ كيف أقضي يوم العطلة؟

٣ ـ متىٰ يأمر الأب ابنه بالصلاة ومتىٰ يضربه إن تركها؟

٤ ـ في أي فصل تجمع النملة طعامها؟

٥ ـ لماذا توجد المطاعم في البلد ولا توجد في القرية؟

٦ ـ ما الأغراض التي نحتاجها عندما نخرج في نزهة ونطبخ؟

٧ ـ ما معنىٰ (الغزوة)؟

٨ ـ ماذا حدث للمشرك الذي أخذ سيف رسول الله ﷺ وهو نائم ورفعه عليه؟

اشرح معاني الكلمات الآتية:

عيادة مريض، أثنىٰ، غمد السيف، الفاكهاني.

اذكر أضداد الكلمات الآتية:

الصِّغَر، أشتري، استيقظ، تفرّق.

ضع الكلمات الآتية في الفراغ المناسب:

(جماعة، حوائج، سبيله، الصلاة)

- لا تسقط عن أحد.........
- خلىٰ رسول الله ﷺ.........
- أذن المؤذن وصلينا.........
- في دكان الورّاق تجد جميع......... المدرسة.

ضع حرف الجر المناسب في الفراغ:

- أذهب......... السوق لشراء حوائج البيت.
- قفصٌ......... ذهب.
- نرجع في المساء......... البيت.
- وافق......... الخروج في نزهة.

ضع الصفة المناسبة في الفراغ:

- النملة تبني البيت.........
- هـٰذه سوق.........
- أشرب من ماء نبع.........

ارسم في هذا المستطيل مسجداً، ثم لوِّنه:





نشاطات تعليمية

(انظر: ص ٥٣ ـ ٧٠)

الأسئلة:

١ ـ كم ركعة صلاة الظهر في السفر؟

٢ ـ ما الخطر الذي يخشاه سائق القطار، وربان السفينة؟

٣ ـ اذكر صحابيين عُرِفا بالغنىٰ؟

٤ ـ ماهي فوائد الساعة في زماننا؟

٥ ـ ما هو دعاء فطور الصائم؟

٦ ـ ماذا فعل الرجل بأجرة الأجير؟

٧ ـ ما المصيبة التي حلت بالرجل الأمين؟ وكيف خرج منها؟

اشرح معاني الكلمات الآتية:

ردّها، يعظ الناس، برز، غلبتني عيني، فرغوا.

اذكر أضداد الكلمات الآتية:

خطر، المعروف، تعب، طالت المدة.

أدخل فعلاً ماضياً علىٰ الجمل الآتية:

ـ . . . . القطار.

ـ الفلاح . . . . الحبوب.

ـ . . . . عن ميعاد المدرسة.

ـ . . . . لصلاة الصبح.

ضع الكلمات الآتية في الفراغ المناسب:

(يتسابق، بتمرة، يزرع، معدودة)

ـ . . . . الفلاح الحبوب والخضر فيأكل الناس والدواب.

ـ يطمع الأجير في أجرته القليلة، دراهم . . . .

ـ كان النبي ﷺ . . . . مع أصحابه.

ـ لما أذّن أفطرت . . . .

ارسم في هٰذا المستطيل ساعةً، ثم لوِّنها:



٣ نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٧١ ـ ٨٥)

الأسئلة:

١ ـ ماذا يفعل الصياد عندما يُصيب صيده؟

٢ ـ ماذا فعلت أمي عندما رجع أخي من الحج؟

٣ ـ ماذا قال الضيوف عندما استأذنوا للخروج؟

٤ ـ ماذا فعل الرجل البارُّ بوالديه عندما عاد متأخراً من رعي الماشية؟

٥ ـ كيف نفعه الله ببره لوالديه؟

٦ ـ ماذا طلب رسول الله ﷺ من الأنصاري الذي جاء يسأله؟

٧ ـ ما هي صفات رفاقي حسن ومحمد؟

اشرح معاني الكلمات الآتية:

أترابي، أقداح، أبيت، صان.

ضع الكلمات الآتية في الفراغ المناسب:

(طعاماً، غلبنا، أجارك الله، يتخاصمون)

- .... من كل شر.
- كل يوم بعض الأولاد..........
- .... الجوع والظمأ.
- اشترِ بأحدهما..........

ضع كل كلمة من الكلمات الآتية في جملة مفيدة:

بندقية، سفرة، الماشية، احتطب، واظب.

ضع الفاعل المناسب في كل جملة من الجمل الآتية:

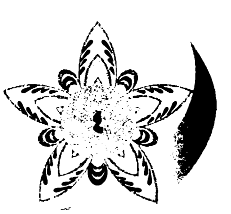
- حضر.......... في المساء فاستقبلهم أخي.
- حلب.......... الماشية.
- رسب.......... في الامتحان مرة واحدة.

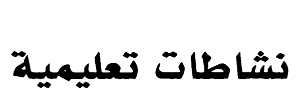
ضع الفعل المناسب في كل جملة من الجمل الآتية:

- .... الضيوف حول السفرة.
- .... صخرة من الجبل.
- أم عمر عجوز تكتسب بالخياطة و.......... علىٰ ولدها.

ارسم في هذا المستطيل مأدبة طعام، ثم لوِّنها:







(انظر: ص: ٨٦ ـ ١١٧)

الأسئلة:

١ ـ كيف يبدو النهر في قريتي؟

٢ ـ من الغلامان من الأنصار اللذان قتلا أبا جهل؟

٣ ـ ما الدعاء الذي أدعو به لوالِدَي؟

٤ ـ ما جزاء الوالدين إن حفظ ابنهما القرآن الكريم؟

٥ ـ علمنا رسول الله ﷺ آداب الطعام والشراب، فماذا نفعل في الحالات الآتية:

ـ إذا وضع طعام نكرهه؟

ـ إذا سقطت لقمة طعام منا؟

ـ عند شرب الماء؟

٦ ـ كيف أُرسل كتاباً في البريد؟

٧ ـ صف ساعي البريد.

٨ ـ كيف يستطيع مكتب البريد توزيع الكتب في جميع أنحاء المدينة؟

٩ ـ لماذا اختصمت القبائل في وضع الحجر الأسود في محله؟

١٠ ـ كيف حل رسول الله ﷺ خلاف القبائل حول وضع الحجر الأسود في محله؟

١١ ـ ماذا يقول الناس في مصلىٰ العيد؟

اشرح معاني الكلمات والتراكيب الآتية:

يمكث، احتجب، برز، طار نومه، فرغ.

اذكر أضداد الكلمات الآتية:

نام، سرّاً، جديد، زائل.

هات مرادف الكلمات والتراكيب الآتية:

يطالع، هجرت راحتها، الجود، انقطع المطر

أدخل حرف العطف المناسب في الجمل الآتية:

ـ سهر أبي الليل هماً . . . . حزناً.

ـ نم آمناً من كلِّ ضيمٍ . . . . كدر.

ـ أصابني ضرر . . . . ألم.

ضع الفعل المناسب في كل جملة من الجمل الآتية:

ـ نزلت أمطار كثيرةٌ و. . . . . النهر.

ـ . . . . سيدنا إبراهيم في النار.

ـ . . . . ربي فأحسن تأديبي.

ضع التراكيب الآتية في جمل مفيدة:

فيضان النهر، باري البشر، رؤوس الأشهاد، يُميط الأذىٰ.

احذف الكلمة التي لا تنتمي إلىٰ مجموعة الكلمات الآتية:

الكعبة، الحجر، الطواف، الطابع.

املأ الفراغات الآتية بالكلمات المناسبة:

ـ الكعبة أول. . . . . وضع للناس لعبادة الله.

ـ لتأخذ كل. . . . . بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً.

ـ بنىٰ الكعبة. . . . . خليل الله في مكة.

ضع الصفة المناسبة في كل فراغ مما يأتي:

ـ العُجْب داءٌ. . . . .

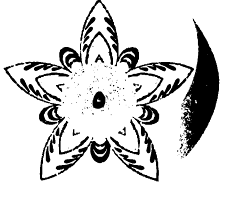
ـ يُقبِّل الناس الحجر. . . . . في الحج.

ـ لبس الأطفال يوم العيد الملابس. . . . .



ارسم في هذا المستطيل صندوق بريد، ثم لوِّنه:






نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ١٢١ ـ ١٣٣)

الأسئلة:

١ ـ كم عدد الأصنام التي كانت في الكعبة قبل الإسلام؟

٢ ـ في بيت من نزل رسول الله ﷺ بعد هجرته من مكة إلىٰ المدينة؟

٣ ـ ما هو الطاحون أو الرَّحىٰ؟

٤ ـ ماذا يقول المسلم عندما ينهي طعامه؟

٥ ـ بم أوصىٰ الطبيب أبا حسين؟

٦ ـ ماذا رأىٰ الأطفال في المصنع عندما زاروه مع أبيهم؟

٧ ـ ماذا قال رسول الله ﷺ لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن هداية الرجل؟

اشرح معاني الكلمات والتراكيب الآتية:

طابت نفسه، مكثتُ، يعوْده، أبدىٰ ارتياحه.

اجعل كل نكرة من النكرات الآتية معرفة:

مسجد، يتيم، سنبلة، مريض.

ضع الكلمات الآتية في الفراغ المناسب:

(دقيقاً، الجنين، قاس، الآخرة، الفلاح)

- اللهم لا عيش إلا عيش . . . .
- توضع الحنطة في الرحىٰ وتدور حتىٰ تصبح . . . .
- يحرث . . . . الحقل.
- زار الطبيب حسيناً و . . . . حرارته.
- الكيمياء عرق . . . . ، وكدُّ اليمين.

استخدم أداة النفي المناسبة في الجملتين الآتيتين:

- . . . . نتأخر عند المريض إذا عدناه.
- . . . . حضر حسين إلىٰ المدرسة.

ارسم في هٰذا المستطيل سنبلة حنطة، ثم لوِّنها:



نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ١٣٤ ـ ١٤٩)

الأسئلة:

١ ـ أين يسافر الأغنياء في الحرّ؟

٢ ـ كيف تبدو غرفة طاهر وكتبه؟

٣ ـ كم مرة يغتسل طاهر في فصل الصيف؟ وكم مرة يغتسل في فصل الشتاء؟

٤ ـ لم خاف عمير بن أبي وقاص ألا يقبله رسول الله ﷺ ليقاتل المشركين؟

٥ ـ لماذا كان رسول الله ﷺ يرد الغلمان في معركة أحد؟

٦ ـ من الغلامين الذين تصارعا أمام رسول الله ﷺ وأذن لهما بالخروج للجهاد؟

٧ ـ كيف قبل رسول الله ﷺ عميراً؟

٨ ـ كم تبعد الشمس عن الأرض؟

٩ ـ من هم السبعة الذين ينعمون بالظل يوم القيامة؟

١٠ ـ لماذا بكت العجائز والأرامل الجد عندما توفي؟

اشرح معاني الكلمات الآتية:

أجازه، دنت، نشأ، ينال.

ضع الكلمات الآتية في الفراغ المناسب:

(معلق، المحسنين، مرقوع، الأكواخ)

ـ أهل.......... أنعم في الصيف من أهل القصور.

ـ لا يخجل طاهر إذا خرج في ثوب.........، لكنه يخجل إذا خرج في ثوب وسخ.

ـ رجل قلبه.......... في المساجد.

ـ إن الله لا يضيع أجر.........

اذكر أضداد الكلمات الآتية:

ركدت، متواضع، نظيفة، ردّه، اجتمع.

أدخل حرف الجر المناسب إلىٰ الجمل الآتية:

ـ في الحر يبقىٰ الناس.......... بيوتهم.

ـ يرسل أبو طاهر.......... ابنه قليلاً من النقود كل شهر.

ـ يحافظ المسلم.......... الصلاة.

ارسم في هٰذا المستطيل رجلا فوقه غيمة، ثم لوِّنها:





نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ١٥٠ ـ ١٧١)

الأسئلة:

١ ـ ما فائدة الأهداب التي أحاط الله تعالىٰ بها العين؟

٢ ـ كيف يتجنب الإنسان أمراض العين من رمد وقصر نظر؟

٣ ـ ماذا قال رسول الله ﷺ عن الذي ابتُلي في عينه؟

٤ ـ اذكر اثنين من أهل العلم كانوا عمياناً.

٥ ـ اذكر أدبين من آداب المعاشرة.

٦ ـ ما الدعاء الذي كان يقوله رسول الله ﷺ إذا رأىٰ الهلال؟

٧ ـ كيف يزرع القطن؟

٨ ـ ماذا نقول عند لبس الملابس الجديدة؟

٩ ـ كيف يكون الأسد عندما يغضب؟

١٠ ـ اذكر صفتين للدنيا.

١١ ـ ما الرسالة التي أرسلها أبو عبيدة إلىٰ رسول الله ﷺ مع الرجل الذي جاء يطلب الشهادة؟

اشرح معاني الكلمات والتراكيب الآتية:

يَذب الأذىٰ، كان كَلّاً علىٰ غيره، اجتنب المزاح، تَطَيَّبَ، دُبُرَ كل صلاة، انبثَّ الأولاد في الحقل.

اذكر مرادف الكلمات الآتية:

مفيد، تدمع، أجر، عناء، يحجب.

اذكر أضداد الكلمات الآتية:

الفسيحة، غالية، اشترىٰ، يتعب، قيَّده.

أدخل (لن) الناصبة علىٰ الجمل الآتية واضبط آخر الأفعال:

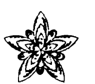
ـ بدون العين.......... يتمتع الإنسان بجمال الطبيعة.

ـ .... نتأخر عن صلاة العيد.

ـ وعد الله.......... يتأخر.

اجمع الكلمات الآتية:

مفسِّر، يذهب، مُصلِّي، مسكين، عامل.



اذكر مفرد كل من الكلمات الآتية:

المصابيح، العميان، فرائض، الحجاج.

ضع الكلمات الآتية في جمل مفيدة:

دمع، الأمانة، المعاشرة، أضحية.

ارسم في هذا المستطيل عيناً، ثم لوِّنها:






نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ١٧٢ ـ ١٨٥)

الأسئلة:

١ ـ ماذا يفعل الغريق عادة بمن يساعده؟

٢ ـ ما هي طموحات الشاب المسلم عندما كانت دولة الإسلام قويَّة؟

٣ ـ ماذا فعل محمد بن قاسم الثقفي؟ وكم كان عمره حينها؟

٤ ـ اذكر أحاديث لرسول الله ﷺ تشجع وتحث علىٰ الرمي.

٥ ـ لماذا رقبة الجمل طويلة ورأسه خفيف؟

٦ ـ لمَ يستغني الجمل عن الماء زمناً طويلاً؟

٧ ـ ماذا يُسمىٰ الجمل أيضاً؟ ولماذا؟

اشرح معاني الكلمات والتراكيب الآتية:

أعيته السباحة، أيقن، مُنجِد، يتقاضىٰ، توغل، يبرك.



ضع الكلمات الآتية في الفراغ المناسب:

(أكبر، المصيب، فرسان، العلم).

- سبح الشيخ وحوله عدد من.......... السباحة.
- ذٰلك مبلغهم من..........
- ظهر الجندي رافعاً قبعته يسلِّم علىٰ..........
- الجمل.......... الحيوان الداجن جسماً.

ثَنِّ المفردات الآتية:

نهر، يغرق، فتىٰ.

ارسم في هٰذا المستطيل جملاً، ثم لوِّنه:





٩ نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ١٨٦ ـ ٢٠٨)

الأسئلة:

١ ـ كيف تتشكل الأمطار؟

٢ ـ اذكر أسماء ثلاثة أنهار.

٣ ـ من الذي سيّر سفناً علىٰ البر؟ وكم كان عددها؟

٤ ـ مم يتألف الجيش الذي فُتحت به القسطنطينية؟

٥ ـ ماذا فعل عمر بن عبد العزيز عندما تولىٰ الخلافة؟

٦ ـ ماذا فعل عمر بن عبد العزيز بسلَّتي الرُّطب التي جاءته من الأردن؟

٧ ـ في بيت من نزل رسول الله ﷺ عندما هاجر إلىٰ المدينة؟

٨ ـ ماذا كان يفعل الإمام مالك بن أنس إذا أراد أن يُحدِّثَ عن رسول الله ﷺ؟

٩ ـ لِمَ ضُرِبَ الإمام مالك سبعين سوطاً؟

١٠ ـ ما أشهر كتاب للإمام مالك في الحديث؟

١١ ـ ما هي الأجزاء التي تجرها قاطرة القطار؟

١٢ ـ ما هي المادة التي تُوضع في موقد القاطرة؟

١٣ ـ ما فائدة الخط الحديدي الذي يسير عليه القطار؟

١٤ ـ ما هو الدعاء الذي نقوله عند ركوب القطار وغيره من وسائل النقل؟

اشرح معاني الكلمات الآتية:

تكوّن، أعدّ، أبطأ، هزّ.

صل بين الكلمة ومرادفها فيما يأتي:

تصاعد، هائلة، فزع، يؤخر، موضع.

ارتعب وخاف، ضخمة وعظيمة، ارتفع، يُؤجِّل، مكان.

أدخل حرف الجزم المناسب إلىٰ الجمل الآتية:

ـ . . . . يعجز محمد الفاتح ولم ييأس.

ـ . . . . يوجد أحدٌ يأخذ الصدقات في عهد عمر بن عبد العزيز.

ضع حرف الجر المناسب في الفراغات الآتية:

ـ يشتد البرد. . . . . الشتاء.

ـ وأعدوا لهم ما استطعتم . . . . قوة.

- كان عمر بن عبد العزيز .... شبابه متنعماً.

ضع الصفة المناسبة في الفراغات الآتية:

(المسخّر، شاب، اللامع، مرقوع).

- سارت الرياح بالسَّحاب .... بين السماء والأرض.
- يسقط الثلج مثل الصوف الأبيض ....
- فُتحت القسطنطينية علىٰ يد قائدٍ مسلمٍ ....
- خطب عمر بن عبد العزيز الناس وعليه قميصٌ ......

ضع الكلمات والتراكيب الآتية في جمل مفيدة:

القاطرة، مجلس علم، البخار، حوائج العامة، طوع إشارته.

ارسم في هٰذا المستطيل شلالاً يخرج من الجبل، ثمَّ لوِّنه:



نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٢٠٩ ـ ٢٢٣)

الأسئلة:

١ ـ لماذا يُنحِّي البستاني الحجر، ويزيل الحشائش والأعشاب من الأرض؟

٢ ـ لماذا يَحذَر البستاني ولا يعجل عند زرعه للفسيل؟

٣ ـ ما هي أعضاء النبات اللازمة لحياته ونمائه؟

٤ ـ ما هو ساق النبات وما فائدته؟

٥ ـ ما هو طعم الببغاء؟

٦ ـ بمَ أمر الحجاج صاحب حرسه؟

٧ ـ من هم الفتية الذين صادفهم صاحب الحرس؟ وما الذي نجاهم من القتل؟

٨ ـ ما هو أصل الورق؟

٩ ـ ما فائدة كل من: الطين، السماد؟

١٠ ـ لم علينا ألا نمشِ في الأرض مرحاً؟

١١ ـ اذكر بعض مكارم السلطان محمود بن محمد الغُجراتي.

١٢ ـ ماذا فعل السلطان محمود قبل وفاته بأيام في قبره الذي أعدَّه؟

اشرح معاني الكلمات والتراكيب الآتية:

دوىٰ، أتقن، استوطنت، ضرب عنقه، استقامت، يحرِّض.

اذكر أضداد الكلمات الآتية:

رخوة، قعود، تكشف، رقيق، الذل، يُذم، تكثير.

هات مرادف الكلمات والتراكيب الآتية:

يطالع الكتاب، يقلع، فَسِيْل، ناطقة، أفواج، نعال.

أدخل فعلاً ناقصاً علىٰ الجمل الآتية:

ـ الفلاح يحرث الحقل.

ـ الببغاء بصحة جيدة.

ارسم في هٰذا المستطيل نباتاً توضح فيه جذره وساقه وأوراقه، ثم لوِّنه:



نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٢٢٤ ـ ٢٣٧)

الأسئلة:

١ ـ لِمَ لجأ الناس للسفر في البحار بعد أن كانوا يخافونه؟

٢ ـ عدد بعض البلدان التي كان يأتي منها الناس للحج وقد استغرق سفرهم عاماً كاملاً أو أكثر؟

٣ ـ اذكر اثنين من الرحالة العرب الذين سافروا بالسفن كثيراً.

٤ ـ ما الفرق بين مناقير الحمام ومناقير النسور؟ ولم خلقها الله تعالىٰ علىٰ هـٰذه الأشكال؟

٥ ـ ما الفرق بين أرجل الطيور التي تعيش علىٰ البر وتلك التي تسبح في الماء، وما الحكمة لك منهما؟

٦ ـ كيف وزع السلطان شيرشاه أوقاته في اليوم والليلة؟

٧ ـ ما هي عادة السطان شيرشاه بعد الإشراق؟

٨ ـ كيف يبدو الشارع الكبير الذي أسسه السلطان شيرشاه؟

٩ ـ ما الذي كان يتمناه السلطان شيرشاه قبل أن يموت؟

اشرح معاني الكلمات والتراكيب الآتية:

هلك الركاب، دارت العجلة، يبرك، جوفه، يبقر، ينتبه من النوم.

اذكر مفرد كل من الجموع الآتية:

الأثقال، بضائع، الآلات، حوائج، مخالب، المظلومون.

اذكر مصادر الأفعال الآتية:

يخاطر، تسير، يتقدم، يجتهد، يتأسَّف.

علل كتابة الهمزة علىٰ شكلها فيما يأتي:

تُؤخِّر، الأسئلة، يقرأ، يسأل.

ضع الكلمات الآتية في جمل مفيدة:

البحيرات، الجَوَّاب، الرُّبان، المهمة، رأفة، يستصغر.

ضع الكلمات الآتية في الفراغ المناسب:

(عود، سفينة بخارية، السفن، الإبل والبغال، متاع).

ـ كان الناس في القديم يسافرون علىٰ ....

ـ تجري الرياح بما لا تشتهي ....

ـ كان دوداً علىٰ . . . . ، لا يدري أيموت في الطريق أم يصل سالماً ويعود.

ـ أول . . . . صنعها الأمريكي (هلتن كلر ما وُنت).

ـ في زمن السلطان شيرشاه لا يستطيع أحد أن يسرق . . . . . . عجوز وهي في الصحراء.

ارسم في هٰذا المستطيل باخرة، ثمَّ لوِّنها:



١٢ نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٢٤١ ـ ٢٦٧)

الأسئلة:

١ ـ ماذا كان يفعل الناس في مدينة رسول الله ﷺ إذا نادىٰ مُنادي الجهاد؟

٢ ـ ما هي أبرز أعمال شير شاه السوري؟

٣ ـ ماذا أخبرت المنارة عن السلطان أورنك زيب عالمكير؟

٤ ـ ما هي أهم أعمال الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم وأولاده؟

٥ ـ متىٰ دخل الإنكليز الهند؟ وبأيّ صفة؟

٦ ـ متىٰ تحررت الهند من الإنكليز؟ وأين تجمع المسلمون بعد التحرر؟

٧ ـ من الصحابي الذي رافق سيدنا عمر في قصة أم البنين ورواها لنا؟

٨ ـ لماذا وضعت المرأة في القدر الماء والحصرم؟

٩ ـ بِمَ ردَّ سيدنا عمر علىٰ العباس عندما أراد حمل الطعام عنه؟

اشرح معاني الكلمات والتراكيب الآتية:

خفاف الأيدي في العمل، المرجل، تبتدر، راسخ، دنوتُ.

ضع الكلمات والتراكيب الآتية في الفراغ المناسب:

(يورثها، طالب العلم، جنّ الليل، سامع، التاج محل).

١ ـ إذا . . . . قام الصالحون يتهجدون.

٢ ـ ربَّ مُبَلَّغٍ أوعىٰ من . . . .

٣ ـ بنىٰ شاه جهان علىٰ قبر زوجته . . . .

٤ ـ إن الملائكة لتضع أجنحتها لـ . . . . رضاً بما صنع.

٥ ـ الأرض لله . . . . من يشاء.

اذكر أضداد الكلمات والتراكيب الآتية:

أسفر النهار، أسرع، أغفل، منح، أَفَلَ نجمه.

أدخل حرف الجر المناسب إلىٰ الجمل الآتية:

١ ـ ضرب المسلمون الجزية . . . . المشركين.

٢ ـ تنفخ . . . . الوقود ويصرخونا .

٣ ـ اجتمعوا عليهم كما تجتمع الأكلة . . . . قصعتها .

ارسم في هذا المستطيل منارة، ثم لونها:





١٣ نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٢٦٨ ـ ٢٨٥)

الأسئلة:

١ ـ ما هي العلوم التي برع بها الإمام الغزالي بعد قدومه إلىٰ نيسابور؟

٢ ـ اذكر كتاباً مشهوراً ألّفه الإمام الغزالي.

٣ ـ كيف وزع الإمام الغزالي وقته بعد أن عاد إلىٰ طوس؟

٤ ـ أين ذهب المال الذي أودعه فروخ عند زوجته؟

٥ ـ الفاكهة تغني الإنسان عن حاجاتٍ عدة، اذكر بعضها؟

٦ ـ ما الفوائد النفسية التي تصيب الإنسان عند رؤيته لفاكهة الهند؟

٧ ـ كم يبعد القمر عن الأرض؟ وكم تبعد الشمس عن الأرض؟

٨ ـ ما هو خسوف القمر؟ وماذا نفعل عند خسوفه؟

٩ ـ متىٰ تنكسف الشمس؟

١٠ ـ هل كسوف الشمس والقمر يكون لحادثٍ مهم في الأرض؟

اشرح معاني الكلمات والتراكيب الآتية:

القوتُ، يرشد، ناظَرَ، تبرَّمت نفسه، يجول.

اذكر مرادف الكلمات الآتية:

فَنِي، يلجا، خشي، أشهىٰ.

اذكر أضداد الكلمات الآتية:

إقبال، مختلف، صعد، ارتفاع، حجب.

أدخل حرف الجزم المناسب علىٰ الجمل الآتية واضبط آخر الأفعال:

. . . . يخلو الدرس من الفوائد.

. . . . تنكسف الشمس لموتِ الرجل الجليل.

. . . . أنظر إلىٰ القمر مساءً.

اجمع الكلمات الآتية:

زاوية، ثمرة، دوحة، لائم.

اذكر مفرد الجموع الآتية:

العيَّارون، المُتَفَقِّهة، العلماء، الروضات.

ارسم في هٰذا المستطيل قمراً، ثم لونه:





١٤ نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٢٨٦ ـ ٣٠٨)

الأسئلة:

١ ـ ما هي الفنون الحربية التي كان يُجيدها السلطان مظفر الكجراتي؟

٢ ـ اذكر صوراً من بر السلطان مظفر الكجراتي لأهل الحرمين الشريفين.

٣ ـ ماذا فعل السلطان مظفر الكجراتي عندما بلغه وصول (راما سانجا) إلىٰ (أجين)؟

٤ ـ كيف دعَّم مظفر الكجراتي مُلك الخلجي عندما أخبره أن المُلك خلا من الرجال وأنه يخشىٰ ضياعه؟

٥ ـ ما آخر دعاء دعاه السلطان مظفر الكجراتي في صلاة الاستسقاء؟

٦ ـ ماذا طلب السلطان مظفر الكجراتي من راجه محمد حسين قُبيل وفاته؟

٧ ـ كيف دخل ربعيّ بن عامر علىٰ رستم قائد جيوش الفرس؟

٨ ـ ما جواب ربعيّ بن عامر لسؤال الفرس له: ما جاء بكم؟

٩ ـ كيف كان يُعطىٰ العلماء شهادة العالمية في الجامع الأزهر؟

١٠ ـ كم عدد الوظائف والطلاب في الجامع الأزهر؟

١١ ـ ماذا يجب علينا إن جاءنا فاسقٌ بنبأ؟ وما الدليل؟

١٢ ـ أكمل من قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

اشرح معاني الكلمات والتراكيب الآتية:

يقتفي، نكث، فاضت نفسه، ثياب صفيقة.

ضع الكلمات الآتية ضع الكلمات الآتية في جمل مفيدة:

مداهنة، عنوة، ناصيتي، إفراط، يجير.

ضع الكلمات الآتية في الفراغ المناسب:

(يفقهه، تشبَّه، قلَّده، فأصلحوا)

١ ـ من .... بقوم فهو منهم.

٢ ـ .... إمارة العسكر.

٣ ـ من يُرد الله به خيراً .... في الدين.

٤ ـ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . . . بينهما .

ثنِّ المفردات الآتية:

برز، اضطجع، ركعة، الخافق.

ارسم في هذا المستطيل قلعة، ثم لونها:





١٥ نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٣٠٩ ـ ٣٣٢)

الأسئلة:

١ ـ ما العلوم التي برع بها شيخ الإسلام ابن تيمية؟

٢ ـ ماذا قال عنه الأقشهري في رحلته؟

٣ ـ اذكر آية يقولها المسلم عند رؤيته للأصنام.

٤ ـ ما هي عقوبة من لاحت عليه أمارة الإسلام في الأندلس بعد أن سيطر عليها أعداء الدين؟

٥ ـ ما أثر القلم علىٰ كلٍّ من العاجز والصاغر؟

٦ ـ ما الخطوط التي كان يُتقنها عالمكير بن شاه؟

٧ ـ ما هي حدود ملك عالمكير بن شاه بعد توطيد سلطته؟

٨ ـ تحدث عن الوكالة الشرعية التي وضعها عالمكير بن شاه.

٩ ـ ماذا قال عنه المحبِّي في (خلاصة الأثر)؟

١٠ ـ لِمَ أرسل الله رسوله بالهدىٰ ودين الحق؟

اشرح معاني الكلمات الآتية:

يدمنها، كرَّتين، إفشاء، تخبو.

صِل بين الكلمة ومرادفها فيما يأتي:

أعيان، تعتريه، مناقب، لاحت، العطايا.

تنتابه، محاسن، وجهاء، الهدايا، ظهرت.

أدخل حرف الجر المناسب في الفراغات الآتية:

١ ـ كتم الخبر .... الناس.

٢ ـ ما لهم .... علم.

٣ ـ ومَن أظلم ممن افترىٰ .... الله كذباً.

ضع الصفة المناسبة في الفراغات الآتية:

١ ـ فتح الله علىٰ يده الفتوحات......

٢ ـ كان عالمكير عالِماً ......، ....، ......

٣ ـ بذلَ أموالاً .... علىٰ إصلاح الشوارع.

اذكر فعل كل من الكلمات الآتية:

الاشتغال، مطالعة، مفحم، مملكة.

ارسم في هذا المستطيل دفتراً وقلماً، ثم لوِّنهما:





١٦ نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٣٣٣ ـ ٣٥١)

الأسئلة:

١ ـ ما هي أهم المجالات التي ألّف فيها الشيخ نظام الدين؟

٢ ـ اذكر خمسة من التلاميذ البارزين للشيخ نظام الدين.

٣ ـ ما التهم الموجهة للشاب الذي حُكم عليه بالإعدام؟

٤ ـ ما الأبيات التي قالها سيدنا خبيب رضي الله عنه عند شنقه؟

٥ ـ ما أثر الشيخ يحيىٰ علي علىٰ المساجين في السجن؟

٦ ـ كم لبث الشيخ محمد جعفر بالسجن؟ وكيف أطلق سراحه؟

٧ ـ لِمَ فوِّض التدريس في مدرسة الشيخ عبد العزيز الدهلوي إلىٰ صِنويه: رفيع الدين وعبد القادر؟

٨ ـ ماذا قال الشيخ محسن الترهتي في (اليانع الجني) عن الشيخ عبد العزيز الدهلوي وشهرته؟

٩ ـ عدد ثلاثة من مؤلفات الشيخ عبد العزيز الدهلوي.

اشرح معاني الكلمات الآتية:

أَجَلُّهم، نذروا، الوَجْد، سطا.

ضع الكلمات والتراكيب الآتية في جمل مفيدة:

أقاويل، إعانات، خفت الصوت، بُكْرة، تهافتوا.

اذكر أضداد الكلمات الآتية:

لين، تواضع، مقبولة، مصرعي.

هات مرادف الكلمات الآتية:

نظير، لبث، راسخة، يلوذ.

أدخل فعلاً ناقصاً علىٰ الجمل الآتية، وأجرِ التغيير اللازم:

١ ـ الشيخ نظام الدين عارفٌ كبيرٌ.

٢ ـ تمتع الشيخ عبد العزيز بمَلَكَةٍ راسخَةٍ.

حول الجمل الآتية إلىٰ الزمن الماضي:

١ ـ يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر.

٢ ـ يتهافت الطلاب لطلب العلم.

ارسم في هٰذا المستطيل سجناً، ثم لوِّنه:







١٧ نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٣٥٢ ـ ٣٧٦)

الأسئلة:

١ ـ ماذا فعل القسوس والأحبار بعد انقراض دولة المسلمين في الهند ورسوخ قدم الإنكليز؟

٢ ـ اذكر ثلاثة مشايخ تعاقبوا علىٰ الإشراف علىٰ دار العلوم.

٣ ـ ما هو شعار دار العلوم، وكم عدد كتب مكتبتها؟

٤ ـ نسبةً إلىٰ من سُمِّيت مدرسة مظاهر العلوم بهٰذا الاسم؟

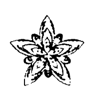
٥ ـ بِمَ تمتاز مدرسة مظاهر العلوم وأساتذتها وطلبتها؟

٦ ـ ما هي سرعة النور في الثانية؟

٧ ـ كيف رأىٰ الكاتب مدينة رسول الله ﷺ وهو علىٰ النجوم؟

٨ ـ كيف كان الجند عندما اطَّلَع الكاتب علىٰ ثكناتهم؟ وأي دور للخلافة كان؟

٩ ـ صِفْ دمشق الشام كما رآها الكاتب وهو في السماء.



١٠ ـ تحدَّث عن المدرسة النظامية كما رآها الكاتب في رحلته بين النجوم.

١١ ـ ماذا فعل التتر في المدن الإسلامية؟

١٢ ـ عدد أطوار العالم الإسلامي التي اطَّلَع عليها الكاتب في رحلته بين النجوم.

اشرح معاني الكلمات الآتية:

رسخت، الزيغ، احتضار، ينجد، سَرَتْ.

اذكر مفرد كل من الجموع الآتية:

البدع، الخرافات، فقراء، زوايا، مواقف.

اذكر مصادر الأفعال الآتية:

انقرض، تمسك، حافظ، انتصر.

أدخل حرفاً مشبهاً بالفعل علىٰ الجمل الآتية، وأجرِ التغيير اللازم:

ـ المسلمون بين خطر الارتداد والإلحاد.

ـ المساجد مزدحمة بالمصلين.

علل كتابة الهمزة علىٰ شكلها في ما يأتي:

شؤون، رئاسة، شيئاً، رؤوس.

ضع الكلمات الآتية في الفراغ المناسب:

(دار العلوم، حفلة، انبثَّ، أعلام الهند)

- .... القسوس والأحبار في القرىٰ والمدن يدعون الناس إلىٰ النصرانية.

- كان للمتخرجين من .... تأثير كبير في حياة المسلمين.

- عقد أصحاب المدرسة .... بمناسبة افتتاحها.

- تمتعت مدرسة مظاهر العلوم بحماية .... في الدين.

ارسم في هٰذا المستطيل نجوماً متفاوتة الأحجام، ثم لوِّنها:





١٨ نشاطات تعليمية

(انظر: ص: ٣٧٧ ـ ٣٨٨)

الأسئلة:

١ ـ عدد أسماء خمس مدن أندلسية.

٢ ـ ذكر الشاعر في رثاء الأندلس بكاء عدد من الأشياء، اذكر اثنين منها؟

٣ ـ من أسس (ندوة العلماء)؟

٤ ـ اذكر اثنين تعاقبوا علىٰ إدارة (دار العلوم) التابعة لندوة العلماء.

٥ ـ ما هو مبدأ وشعار (ندوة العلماء)؟

٦ ـ كم عدد الكتب التي تحويها مكتبة (ندوة العلماء)؟

٧ ـ ما هي الأسباب التي أدت إلىٰ فتور الإسلام كما أوردها الشاعر في القصيدة؟

اشرح معاني الكلمات الآتية:

يُغَرُّ، الشأن، فجائع، دَهَاهُ، الإلْفة، مقتضيات.

اجعل كل نكرة من النكرات الآتية معرفة:

عمران، أوطان، قرن، حاجة.

ضع الكلمات الآتية في جمل مفيدة:

حنيفية، الشِّقاق، المقدار، المنصف.

ضع الكلمات الآتية في الفراغ المناسب:

(ساءته، التغيير والإصلاح، كمد، حدب)

- من سرَّه زمنٌ .... أزمان.
- من كل .... ينسلون.
- يذوب القلب من ......
- تأسست ندوة العلوم علىٰ مبدأ ......

حوّل الجمل الآتية إلىٰ الزمن المضارع، وأجر التغيير اللازم:

- رأيتهم حيارىٰ لا دليل لهم.
- كاد الدين يضيع بين جاحدٍ وجامد.
- أَنْسَت الندوة ما كان بين أهل المذاهب من مشاجرات.

استخدم أداة النفي المناسبة في الجمل الآتية:

- تشم في ندوة العلماء رائحة الخلاف.

- يرون في المنهاج حلاً.

ارسم في هٰذا المستطيل مدرسةً، ثم لوِّنها:





ٱلجُزْءُ ٱلأَوَّلُ

الجُزْءُ الثَّانِي

الجُزْءُ الثَّالِثُ

